رواية

عيد مُبارَك

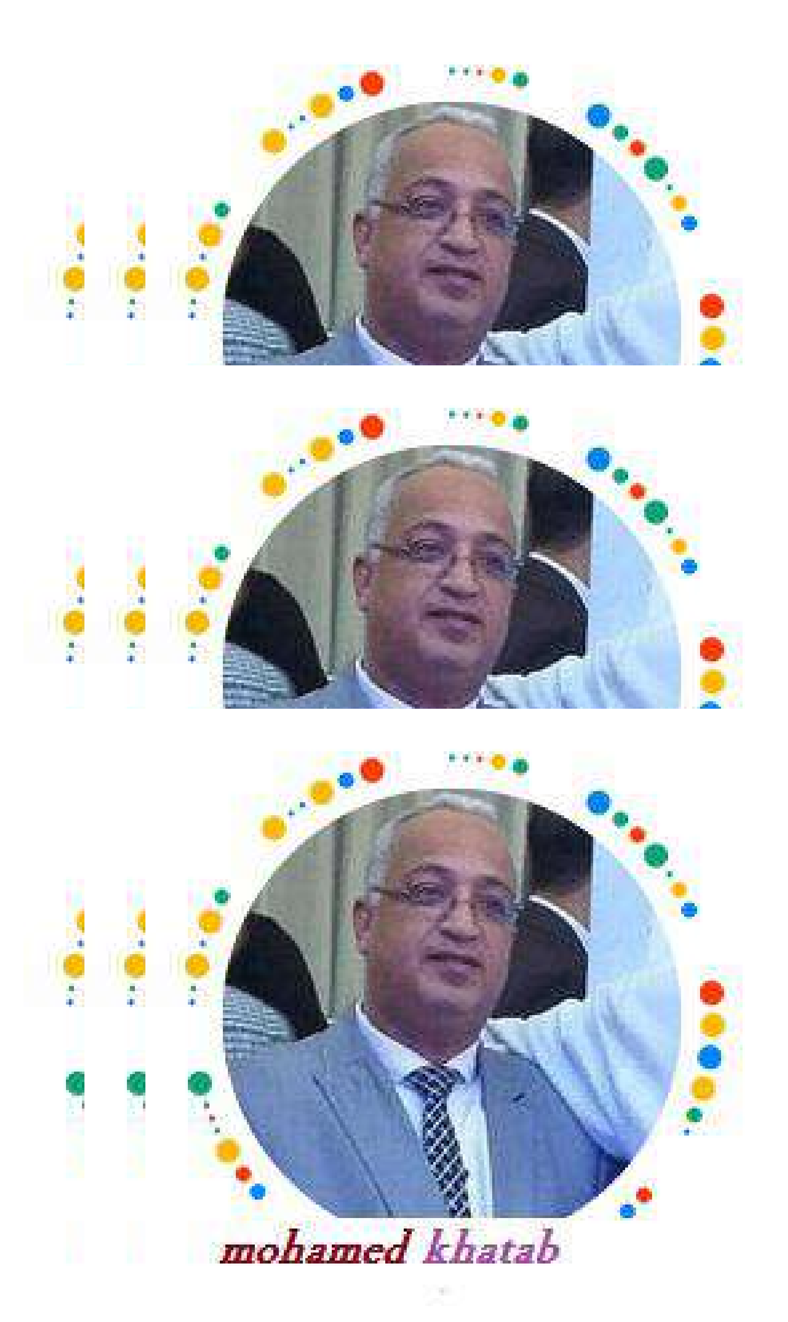
سوزان أورلين

كتاب من المكتبة العامّة



مكتبة

ترجمة: أسامة منزلجي


mohamed khatab



Author: **Susan Orlean**	اسم المؤلف: سوزان أورلين
Title: **The Library Book**	عنوان الكتاب: كتاب من المكتبة العامّة
Translated by: **Osama Menzlchi**	ترجمة: أسامة منزلجي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2022**	الطبعة الأولى: 2022



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+964 (0) 770 2799 999 — +964 (0) 780 808 0800 — +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+961 175 2617 — +961 706 15017 — +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+963 11 232 2276 — +963 11 232 2275 — +963 11 232 2289

ص.ب: 8272

سوزان أورلين

كتاب من المكتبة العامّة

ترجمة: أسامة منزلجي



الإهداء

إلى اديث أورلين، ماضيَّ

إلى أوستن غيلبسبي، مُستقبلي

الذاكرة تؤمن قبل أنْ تتذكَّر المعرفة.

• وليم فوكنر. من رواية «*ضوء في آب*»

وعندما يسألوننا ماذا نفعل، يمكنكَ أنْ تقول، نحن نتذكَّر.

• راي برادبيري، من رواية «*451 فهرنهايت*»

إنني دائماً أتخيَّل الجنّة على هيئة مكتبة عامة.

• خورخه لويس بورخيس، من كتاب «*نمور الحلم*»

الكاتبة سوزان أورلين

تعمل ضمن فريق عمل صحيفة ذا نيويوركر منذ عام 1992. ألَّفتْ أحد عشر كتاباً، من بينها «*Rin Tin Tin,* *Saturday Night*» و«*The Orchid Thief*»، الذي تحوّل إلى فيلم سينمائيّ نال جائزة أوسكار لأفضل فيلم مأخوذ عن نصّ أدبيّ. وهي تعيش مع عائلتها وحيواناتها في شمالي نيويورك ولوس أنجلوس، ويمكن الاتصال بها عبر موقعها الإلكتروني: **SusanOrlean.com**

وعبر: **Twitter.com/ Susan Orlean.**

-1-



«كتبٌ نبدأ بها» (1940)
تأليف بيكاميستر، رودا و.
X 808 B127

«ابدأ الآن –لكي تستمتع غداً» (1951)
تأليف غيلز، راي
362.6 G472

مكان جيد للبدء منه (1987)
تأليف باول، لورنس كلارك
027. 47949 P884

فلنبدأ من البداية (1994)
تأليف كوبنهيفر، مارتن ب.
230 C782

حتى في لوس أنجلوس، حيث لا يوجد نقصٌ في تسريحات الشعر اللافتة للنظر، كان هاري بيك يلفت الانتباه. قال مُحاميه لي، «كان شديد الشُقرة، بل فائق الشقرة»، ومن ثم مرَّر يده عبر جبينه بحركة متماوجة، مؤدياً حركة إيمائيّة تدل على غرَّة سميكة فوق الجبين. وقالتْ محاميةٌ أخرى، كانت قد استجوبتْ بيك أمام القضاء، تذكّرتْ شعره جيداً، «كان شعره

غزيراً. وكان أشقر بكل معنى الكلمة». ووصف مُحقِّقٌ في قضايا إحراق المباني قابله ذات مرَّة بيك وهو يدخل قاعة المحكمة «بكل ذلك الشَعر»، وكأنَّ لشَعره شخصيّة مُستقلة.

كان الحضور المُميَّز مسألة هامّة بالنسبة إلى هاري أومير بيك. وُلِدَ عام 1959، ونشأ في سانتا فيه سبرينغز، وهي بلدة تقع في وادٍ ممتد تبعُد عن لوس أنجلوس مسافة ساعة من الزمن، تحفّ بها تلال سانتا روسا القاتمة وتُثير حسّاً غامضاً بالرتابة. هي مكان يوفّر استقرارَ التكيُّف المُريح، لكنَّ هاري كان يتوق إلى البروز. وهو طفل، كان يرتكب آثاماً صغيرة ومُزاحاً يُبهج جمعاً من الناس. والفتيات أحبَبْنه. كان فاتناً، ومُسلياً، وله غمّازات وجريئاً، وفي وسعه أنْ يفتح حديثاً حول أيِّ شيء مع أي شخص. كان موهوباً في الاستعراض وفي الابتكار، وقاصّاً بارعاً، ومُلفِّقاً وكاذباً ذكيّاً: كان ممتازاً في تحويل الوقائع إلى أخيلة لكي يجعل حياته تبدو أقلّ رتابة وبؤساً. وحسب أقوال أخته، كان أكبر ثرثار في العالم، سريع الكذب والتلفيق إلى درجة أنَّ عائلته نفسها لم تكن تُصدِّق كلمة مما يقول.

كان حضور هوليوود القريب المستمر، بالإضافة إلى موهبته في الأداء، يعني، حتى درجة التنبُّؤ، أنَّ هاري بيك قرَّر أنْ يُصبح مُمثّلاً. وبعد أنْ أنهى مرحلة الدراسة الثانويّة وخدم مدَّة وجيزة في الجيش، انتقلَ هاري إلى لوس أنجلوس وبدأ يحلم. بدأ يُدخِلُ عبارة «عندما أُصبِحُ نجماً سينمائياً» إلى أحاديثه. كان دائماً يقول «عندما» وليس «إذا». وكان ذلك، بالنسبة إليه، تقريراً واقعيّاً وليس تأمّلاً.

وعلى الرغم من أنَّ عائلته لم تُشاهده في الواقع في أي عرضٍ تلفزيونيّ أو سينمائيّ، فإنها كانت متأثّرة بانطباع أنه في أثناء الفترة الزمنيّة التي قضاها هاري في هوليوود، قام ببعض الأدوار الواعدة. وقد قال والده لي إنَّ هاري ظهر في عرضٍ طبّيّ -ربما مُسلسل *«المستشفى العموميّ»*- وأنّه أدّى بضعة أدوار في عدد من الأفلام السينمائيّة، من بينها *«محاكمة بيلي جاك»* في IMDb -أكبر قاعدة بيانات على شبكة الإنترنت في العالم للأفلام السينمائيّة والعروض التلفزيونيّة- تحت أسماء مثل باري بيك، وبيري بيك، وهاري بيكوك، وباري بيرل وحتى هاري بيك في بليموث، إنكلترا، ولكن لم يندرج

تحت اسم هاري بيك من لوس أنجلوس. وحسب معرفتي، المرّة الوحيدة التي ظهر فيها هاري بيك على الشاشة كانت في نشرة الأخبار المحليّة عام 1987، بعد إلقاء القبض عليه عندما أضرم النار في المكتبة العموميّة في لوس أنجلوس، ودمَّرَ ما يُقارب نصف مليون كتاب وخرَّبَ سبعمائة ألف أخرى. كان واحداً من أضخم الحرائق في تاريخ لوس أنجلوس، وكان حريق المكتبة الوحيد في تاريخ الولايات المتحدة.

***

افتُتِحَتْ المكتبة المركزيّة التي صمّمها المهندس المعماريّ بيرترام غوذهيو في عام 1926 – في قلب مدينة لوس أنجلوس، عند ناصية الشارعَين الخامس وفلور، على منحدر تل كان يُعرَف ذات يوم باسم التلّ العادي. كان التلّ أكثر ارتفاعاً، ولكن عندما اختير ليكون موقعاً لبناء للمكتبة العامة، أُزيلَتْ قمّته لتُصبح صالحة للبناء عليها. وفي وقت افتتاح المكتبة، كان هذا الجزء من قلب مدينة لوس أنجلوس حيّاً مزدحماً يتألّف من أبنية ضخمة، يتكوّن نصفها من الخشب، على الطراز الفيكتوريّ تحفّ بها جنبات التلّ. حاليّاً، لم تعد تلك المنازل موجودة، وأصبح الحيّ يتألّف من أبراج كالحة، مُظلِمة مُخصّصة للمكاتب تنهض متجاورة، وترمي ظلالاً طويلة على ما تبقّى من التلّ. إنَّ المكتبة المركزيّة تمثّل مدينة كاملة بمبنى واحد، لكنَّ ارتفاعها لا يتجاوز الطوابق الثمانية، مما جعلها تبدو قليلة الارتفاع مُقارنة بأبراج المكاتب الطويلة تلك. إنها تمتد أفقيّاً كما لم تكن كذلك في عام 1926 عندما أُعلِنَتْ أعلى نقطة في ما كان حينئذٍ مركز المدينة التجاري المتواضع الذي لا يعلو أكثر من أربعة طوابق.

كانت المكتبة تفتح أبوابها عند الساعة العاشرة صباحاً، ولكن مع انبلاج الفجر كنتَ ترى أناساً يحومون حولها. يتكئون على جوانب المبنى كلّه، أو يجثمون على الجدران الحجريّة المنخفضة حول الحدود الخارجيّة، نصفهم في الداخل ونصفهم في الخارج، أو ينتظمون في أوضاع التوقّع في الحديقة الكائنة في الجهة الشماليّة الغربيّة من المدخل الرئيسيّ، حيث يمكنهم أنْ يضمَنوا مشهداً للباب الرئيسيّ. كانوا يُراقبون الباب بيقظة يُحسَدون عليها، بما أنّه لا أملَ في أنْ تُفتَح الأبواب قبل الموعِد المُحدَّد. وفي صباح يومٍ

قريب ودافئ، كان الناس متجمّعين في الحديقة تحت ظلال الأشجار، وبجوار مجرى الماء الطويل الرقراق الذي بدا كأنّه يُرسِلُ دفقاً خفيفاً من الهواء البارد. وحقائب شخصيّة تتدحرج على دواليب وأحمال وأكياس للكتب مبعثرة في أرجاء المكان. وطيور حمام بلون الإسمنت تمشي بخُطى متقطّعة مترفّعة حول الحقائب. وثمة شاب نحيل يرتدي قميصاً رسميّاً أبيض اللون، وحلقات من العرق تُحيط بإبطيه يتمايل على قدمٍ واحدة، يتأبّط ملفّاً ويُحاول أنْ يُخرِج هاتفاً خليويّاً من جيبه الخلفيّ. وخلفه، امرأة مع حقيبة ظهر صفراء رخوة جالسة على حافة مقعد، تميل إلى الأمام، مُغمضة العينين، ويداها متشابكتان؛ لم أتبيَّن إنْ كانت تأخذ غفوة أم تُصلّي. وإلى جوارها وقف رجلٌ يعتمر قبعة مُستديرة ويرتدي قميصاً رياضيّاً شديد الضيق ويكشف عن جزء من بطنه الورديّة اللامعة. وامرأتان تحملان لوحاً للكتابة تسوقان مجموعة صغيرة متحركة من الأطفال نحو الباب الأمامي للمكتبة. وتمشّيتُ مقتربة من ركن الحديقة، حيث جلسَ رجلان بجوار نصب «ناقوس السلام العالمي» يتجادلان حول وجبةٍ يبدو أنهما يتقاسمانها.

كان أحدهما يقول «يجب أنْ تعترف بأنَّ صلصة الثوم كانت طيبة»

«أنا لا آكل السلطة»

«أوه، لا تقُل هذا، يا رجل، كل الناس يُحبّون السلطة!»

«إلّا أنا». فترة صمت. «أنا أحبّ خلطة الدكتور بيبر»

بين كل دفعة من حديثهما، كان الرجلان يُلقيان نظرة نحو المدخل الرئيسيّ للمكتبة، حيث جلس رجل الأمن. كان أحد الأبواب مفتوحاً، ورجل الأمن يجلس في الداخل مباشرة، مرئياً لكل عابر. كان الباب المفتوح مادة لا تُقاوَم لبدء حديث. وبدأ الناس تِباعاً يقتربون من الحارس، وكان يتفادى النظر إليهم حتى من دون أنْ يرفّ له جفن:

«ألم تفتح المكتبة أبوابها بعد؟»

«كلا، لم تفتح»

التالي: «عند الساعة العاشرة قبل الظهر»

التالي: «سوف تعرف عندما يحين الوقت»

التالي: «كلا، لم تفتح بعد»

التالي: «عند الساعة العاشرة قبل الظهر» -ويهزّ رأسه نفياً ويُدير عينيه داخل مِحجريهما- «العاشرة قبل الظهر، كما يقول الإعلان»

كان أحد الأشخاص يقترب كل بضع دقائق من الحارس ويُبرِز له بطاقة هوية فيُشير له أنْ يدخل، لأنَّ المكتبة كانت في الحقيقة قد بدأتْ تعمل، وتضجّ بأعضاء الهيئة الإداريّة الذين يُعدّونها لاستقبال يوم العمل الجديد. وكانت هيئة الشحن تعمل منذ الفجر، تحزم عشرات الآلاف من الكتب داخل حاويات من البلاستيك. هناك كتبٌ مطلوبة من إحدى مكتبات المدينة الثلاث والسبعين، وكتبٌ ليست لهم أُعيدتْ إلى مكتبة أخرى، أو أنّها كتبٌ جديدة تماماً أُضيفَتْ تواً إلى لائحة المكتبة المركزيّة وهي في طريقها الآن إلى أحد فروع المكتبة. وحرّاس الأمن يتواجدون في المكتبة على مدار الساعة؛ والحرّاس العاملون يبدؤون نوبة عملهم في الساعة السادسة صباحاً. كان ماثيو ماتسون، الذي يُدير موقع المكتبة على شبكة الإنترنت، جالساً على طاولة مكتبه في الطابق تحت الأرضيّ منذ ساعة، يُراقب عدد زوّار الموقع الذي يزداد مع تقدُّم ساعات الصباح.

في كل قسم من أقسام المواضيع الثمانية الموزّعة في أرجاء المبنى، كان أمناء الأقسام والكتَبَة يُرتبون الرفوف، ويتفقّدون الكتب الجديدة، ويباشرون العمل اليوميّ. كانت طاولات القراءة والمقصورات بين الكتب خالية، وكل كرسيّ مدسوس تحت كل طاولة، وكلها مطوية بهدوء أعمق حتى من الهدوء المخمليّ المعتاد للمكتبة. في قسم التاريخ، كانت عاملة شابة اسمها لاير هيلر تنسّق مجموعة من الكتب، وتتخلّص من الكتب البالية أو غير المحبوبة. وبعد أنْ تنتهي، تضع لائحة بالكتب التي يريد القسم أنْ يطلبها، وتتفقّد لتتيقّن من أنها موجودة في المجموعة. فإذا اجتازت الكتب ذلك الامتحان، تنظر الموظّفة في المراجعات وبطاقات المعلومات لتتيقّن من إرسال إشعارات بشرائها.

في قسم كتب الأطفال، يجتمع العاملون في قسم الأطفال في مسرح العرائس اجتماعهم المعتاد. وموضوع النقاش هو كيف نُدير بشكلٍ فعّال

وقت رواية القصص. أصغى الأشخاص الثلاثون الذين وصلوا إلى سن البلوغ الكامل المحشورون في مقاعدهم الصغيرة في المسرح إلى التقديم بانتباه مُستغرِق. كانتْ موظفة المكتبة التي تُدير الجلسة تقول وهي تدخل إلى المكان، «استخدموا دمية دبّ بحجم مناسِب. كنتُ أستخدم واحدة ظننتُ أنّها بحجم طفل رضيع، لكنني كنتُ مُخطئة – كانت بحجم طفل غير ناضج»، وأشارتْ إلى لائحة الأخبار المُغلَّفة باللباد. قالتْ، «لا تنسوا، إنّ لوائح الفانيلا رائعة. قد ترغبون في استخدامها لأشياءَ مثل عرض حيوانات البطريق وهي ترتدي ملابس. وتستطيعون أيضاً أنْ تُخبئوا أشياء داخلها، كأرانب وأنوف»

في الطابق العلويّ كان روبرت كوراليس، مدير ديوانيّة المكتبة، ومادلين راكلي، مديرة أعمال، يتحدثان عن المال مع جون زابو، الذي يشغل منصب مدير مكتبة مدينة لوس أنجلوس، والمسؤول عن كل المكتبات في لوس أنجلوس. وتحتهم مباشرة، كانت ساعة الجدار تقترب من العاشرة، وكانت سيلينا تيرّازاس، إحدى موظفات المكتبة المركزيّة الأساسيات الثلاث، متمركزة في قلب البهو لكي تراقب الزحام الصباحيّ عندما تُفتَح الأبواب رسمياً.

كان يسود حسّ بالعمل المسرحيّ –مع ذلك الدفق من النشاط حيث لا تسمع أو ترى بل تشعر في قاعة المسرح في اللحظة السابقة لبدء فورة النشاط. لقد فُتِحَتْ بوابات المكتبة آلاف المرّات منذ عام 1859، العام الذي ظهرتْ فيه أول مكتبة عامّة في لوس أنجلوس. ومع ذلك كلما صاح حارس الأمن مُعلناً فتح الأبواب، يشيع جوٌّ من السرعة وشعور بأنَّ شيئاً ذا مغزى يوشك أنْ يتكشَّف– المسرحيّة توشك أنْ تبدأ. وفي صباح هذا اليوم بالذات، نظرتْ سيلينا تيرازاس في ساعة يدها، ونظر رئيس الأمن، ديفيد أغوير، أيضاً في ساعة يده، ومن ثم اتّصل أغوير لا سلكيّاً بحارس البوابة لإعطاء إشارة البدء. وبعد ذلك بقليل، ترجل الحارس عن مقعده وفتح الباب، سامحاً للضوء الناعم لصباح كاليفورنيا بالانتشار من المدخل.

هبّتْ نفحة من هواء الخارج إلى الداخل ومن ثم إلى الردهة. ثم، بعد لحظة، تدفّقَ الناس –المحتشدون، الذين تركوا مواقعهم في الحديقة،

والجالسون على الجدار، والمتسكعون في الصباح، ومجموعات تلاميذ المدرسة، ورجال الأعمال، والآباء والمتوجهون لحضور ساعة رواية القصص، والطلاب، والمُشردون، الذين اندفعوا مباشرة إلى الحمّامات ومن ثم مشوا في رتل واحد إلى مركز الكومبيوتر، والمتخصصون في العلوم، ومُبددو الوقت، والقرّاء، والفضوليون، والضجرون- كلهم يطلبون *قاموس الفنانين الأيرلنديين* أو *البطل ذو الألف وجه* أو سيرة حياة لينكولن أو مجلة *البيتزا هذه الأيام* أو *الكامل في النسج المتقدّم* أو الصور الفوتوغرافيّة لزراعة البطيخ في سان فرناندو فالي في ستينيات القرن الفائت أو *هاري بوتر* -دائماً *هاري بوتر*- أو أي كتاب من ملايين الكتب، والكرّاسات، والخرائط، والقطع الموسيقيّة، والصحف، والصور التي تخزّنها المكتبة. كانوا دفقاً متواصلاً من الإنسانيّة، انبجاساً، وكانوا يبحثون عن مصادر لأسماء الأطفال، وسير شخصيات من تأليف تشارلز بارنل، وخرائط لإنديانا، وعن مقترحات من موظف في المكتبة لرواية رومانسيّة ولكن ليس إلى درجة الابتذال؛ كانوا يجمعون معلومات عن الضريبة ويتلقّون دروساً خصوصيّة في اللغة الإنكليزيّة ويتفقّدون ما يُعرَض من أفلام سينمائيّة ويقتفون آثار تاريخ عائلاتهم. كانوا يجلسون في المكتبة، لمجرّد أنّها مكان مريح يصلح الجلوس فيه، وأحياناً كانوا يقومون بأعمالٍ لا صِلة لها بالمكتبة. وفي صباح هذا اليوم بالذات، في قسم العلوم الاجتماعيّة، كانت امرأةٌ جالسة على طاولة للقراءة تُثبّتُ خرزاً على كُمّي بلوزة من القطن. وفي مقصورة في قسم التاريخ، كان رجلٌ يرتدي بذلة مخطَّطة بخطوط متقاربة يضعُ كتباً على طاولته لكنّه لا يقرأ بل يحمل كيساً من رقائق البطاطا المقليّة تحت طرف الطاولة. وكلما أكل قطعة كان يتظاهر بأنّه يسعل.

***

لقد نشأتُ في المكتبات، أو على الأقلّ هكذا أشعر. ترعرعتُ في ضواحي كليفلند، على مسافة قريبة من فرع برترام وودز ذي الواجهة القرميديّة لمنظومة المكتبات العامة في شيكر هايتس. وعلى امتداد فترة طفولتي، وفي وقت مُبكّر جداً، كنتُ أتردّد إلى هناك مراتٍ عِدّة في الأسبوع مع أمي. وفي تلك الزيارات، كنّا ندخل معاً ولكن حالما نجتاز الباب، كنا

نفصل ويذهب كلٌ منّا إلى قِسمه المُفضَّل. ربما كانت المكتبة هي أول مكان أُمنَح فيه الاستقلاليّة. حتى وأنا في سن الرابعة أو الخامسة تقريباً، كان يُسمَح لي بالخروج وحدي. ثم، بعد مرور بعض الوقت، صرنا نجتمع أنا وأمي على طاولة المُحاسبة مع حصيلتنا النفيسة. كنا ننتظر معاً على طاولة المُحاسبة ريثما يتفقّد موظف المكتبة بطاقة التاريخ ويختمها بآلة الختم - تلك القبضة العملاقة التي تختم البطاقة مع ضجيج مرتفع *تشنك-تشنك*، طابعة تاريخ الاسترداد بأحرفٍ منحرفة تحت عدد من التواريخ السابقة المُستحقّة تخصّ أُناساً آخرين، وأوقاتاً أخرى.

بالنسبة إليّ لم تكن زياراتنا إلى المكتبة طويلة جداً. كان المكان فائق الجمال. كنتُ أحبّ التجوُّل حول رفوف الكتب، أستعرِضُ عناوينها إلى أنْ يتصادف أنْ يأسر عيني شيءٌ ما. تلك الزيارات كانت فواصل حالمة، متواصلة تعِدني بأنني سوف أغادر وأنا أكثر ثراءً مما كنت لدى وصولي. لم يكن الأمر يشبه الذهاب إلى متجر مع أمي، حيث تجري عمليّة شدّ حبل حول ما أريد وما تريد أمي شراءه؛ في المكتبة في وسعي أنْ أحصل على أي شيء أريد. وبعد أنْ نخرج، كنتُ أحبّ أنْ أجلس في السيارة وفي حوزتي كل الكتب التي حصلنا عليها مكوّمة على حِجري تضغط عليّ بثقلها الصلب، الدافئ، وأغلفتها تنغرز قليلاً في فخذيّ. كان شيئاً ممتعاً أنْ نغادر مكاناً حاملين أغراضاً لم ندفع ثمناً لها؛ مع إثارةِ توقّعِ ما تحتوي الكتب الجديدة التي سنقرأها. وفي طريق عودتنا إلى المنزل، نتحدث أنا وأمي عن النظام الذي سنقوم على أساسه بقراءة كتبنا وكم من الوقت سوف يستغرق منا حتى نعيدها، كان حديثاً رصيناً نُقرِّر فيه السرعة التي نحدّدها لأنفسنا في فترة النعيم الفاتنة، سريعة الزوال، حتى موعد إعادة الكتب. كنا معاً نعتقد أنَّ موظفي مكتبة برترام وودز الفرعيّة ذوو جمال ساحر. ونناقش قليلاً أمر سِحرهم ذلك. حينئذٍ كانت أمي دائماً تقول إنّه لو كان في وسعها أنْ تختار أيّة مهنة، لاختارتْ أنْ تكون أمينة مكتبة، ويرين الصمت على السيارة برهة بينما نحن الاثنتين نفكّر كم أنَّ هذا شيء رائع.

عندما أصبحتُ أكبر سنّاً، صرتُ أرتاد المكتبة وحدي، وأجلب معي كل ما في استطاعتي أنْ أحمله من الكتب. وبين وقتٍ وآخر، كنتُ أذهب مع

أمي، وتكون الرحلة فاتنة كما كانت وأنا أصغر سناً. وحتى وأنا في عامي الدراسي الأخير من المرحلة الثانويّة وكان في استطاعتي أنْ أقود السيارة إلى المكتبة، كنا نذهب أنا وأمي معاً بين حينٍ وآخر، وتسير الرحلة بالضبط كما كان يحدث وأنا طفلة، بكل فترات التوقف والحركة والتعليقات وأحلام اليقظة، بالإيقاع التأمّلي المثالي نفسه الذي اختبرناه مرات لا حصر لها من قبل. وفي هذه الأيام عندما أشتاق إلى أمي، الآن بعد أنْ رحلتْ، أحبّ أنْ أتخيّلها معي في السيارة، نقوم برحلة ساحرة أخرى إلى بيرترام وودز.

***

كانت عائلتي معروفة في المكتبة. كنا قارئين نهمين، لكننا نستعير الكتب من المكتبة أكثر من أنْ نشتري الكتب ونكدّسها على الرفوف. كان والداي يُقدّران الكتب، لكنّهما عاصرا فترة الكساد الاقتصادي، وعرِفا الطبيعة الزئبقيّة للمال، وتعلّما الطريقة الشاقّة التي أساسها أنّه لا ينبغي أنْ تشتري ما تستطيع أنْ تستعير. وبسببِ ذلك الاقتصاد في الإنفاق، أو ربما بسبب طبيعته المُستقلّة، آمنا أيضاً بأنَّ المرء يقرأ كتاباً للاستمتاع بتجربة قراءته. ولا يقرأه لكي يقتني شيئاً يجب الاحتفاظ به والاعتناء به إلى الأبد، لكي يكون تذكاراً للهدف من اقتنائه. كانت قراءة الكتاب بمنزلة رحلة، ولا داعي إلى التذكارات.

عند ولادتي، كانت ظروف والديّ الماليّة مُريحة، وقد تعلّما كيف يُبذّران قليلاً في الإنفاق، لكنَّ عقليتهما التي تنتمي إلى حقبة الكساد الاقتصادي التي كانت تتقيَّد بعناد بتدابير اقتصاديّة معيَّنة، تضمَّنتْ عدم شراء كتب يمكن الحصول عليها بسهولة شديدة من المكتبة العامة. وكانت رفوف كتبنا غير المُزدحمة تتضمّن عدّة مجموعات من الموسوعات (هي مِثال على الشيء الذي ليس مناسِباً استعارته من المكتبة العامة، لأنك تحتاج إليه بانتظام وبإلحاح) وتشكيلة عشوائيّة من الكتب الأخرى انتهى الأمر بوالديّ إلى شرائها، لسببٍ ما. وتضمّنتْ بعض الكتيّبات الوجيزة عن الشؤون الجنسيّة المعتدلة (كتاب *الزواج المثاليّ: وظيفته وتقنيّته* هو الذي أتذكّره جيداً، لأنني طبعاً كنتُ أقرأه كلما خرج والداي من المنزل). وأعتقد أنَّ والديّ كانا يشتريان كتب الجنس لأنهما كانا يشعران بالحرج من عرضها على طاولة

المُحاسبة في المكتبة. وكانت هناك بعض كتيّبات إرشاد للسفر، وبعض كتب التسلية، وقليل من كتب والدي في القانون، وعدد من الروايات كانت إمّا هِبات أو نجحتْ لسببٍ ما في تقديم مُبرِّر لشرائها.

عندما التحقتُ بالجامعة، كانت إحدى الوسائل العديدة للاختلاف عن والديّ هي جموحي في اقتناء الكتب. وأعتقد أنَّ شراء الكتب المدرسيّة هي ما دفعني إلى ذلك. كل ما أعرف هو أنني فقدتُ اهتمامي بالخطوة البطيئة في دخول مكتبة عامة وباقتناء الكتب في الوقت الإضافيّ. قد أردتُ أنْ تكتنفني الكتب من كل جانب، لكي تُشكِّل عمود طوطم يمثل القصص التي زرتها. وحالما أصبح لديّ شقّتي الخاصّة، بطّنتُها بصناديق من الكتب ملأتُها بنسخ من الكتب ذات الغلاف المُقوى. واستخدمتُ مكتبة الكليّة العامّة من أجل البحث، ولكنْ فيما عدا ذلك، تحولّتُ إلى مُشترية نهِمة للكتب. لم أكنْ أدخل محلاً لبيع الكتب من دون أنْ أغادره حاملةً شيئاً، أو عدَّة أشياء. كنتُ أحبّ اللسعة القلويّة المنعشة لرائحة الحبر الجديد والورق، رائحة لا تنبعث من كتاب مُقتَحَم من المكتبة العامة. كنتُ أحبّ الكسر الذي في محور كتاب مثنيّ حديثاً، وملمس الورق الجديد شبه الرطب، وكأنه مُبلّل برطوبة الخلق. أحياناً كنتُ أتساءل إنْ كنتُ أعوِّض عن الوقت الذي أضعته في أثناء فترة طفولتي وسط صناديق الكتب غير المُرتّبة. لكنَّ السبّب لم يكن يهمّني. في الحقيقة أصبحتُ إنجيليّةً قليلاً فيما يخصّ امتلاك الكتب. وأحياناً كنتُ أتخيّل نفسي صاحبة محل بيع الكتب. وإذا ذكرتْ أمي أمامي ذات مرّة أنها كانت على لائحة المُنتظرين للحصول على كتاب في المكتبة العامة، أنزعجُ وأسألُ لماذا لا تقوم ببساطة بشرائه.

حالما انتهيتُ من الدراسة الجامعيّة، وانتهيتُ من إعداد الرسالة الفصليّة وسط أكداس كتب مكتبة هارولد. ت وفيفيان. ب شابيرو للخريجين، انسلختُ عَن ذِكرى تلك الزيارات الرائعة في عهد الطفولة إلى فرع مكتبة بيرترام وودز، وبدأت، للمرة الأولى في حياتي، أتساءل عن الهدف من المكتبات.

***

كان يمكن أنْ يبقى الوضع على ما هو عليه، كان يمكن أنْ أقضي ما تبقّى من حياتي أفكّر في المكتبات فقط بحزن، كما أفكّر بحزن، على سبيل المثال، في متنزّه الملاهي الذي كنتُ أتردّدُ عليه وأنا طفلة. لعلَّ المكتبات أصبحت مجرّد علامة بين صفحات الذاكرة أكثر من كونها مكاناً واقعيّاً، ووسيلةً لاستحضار انفعالٍ لحظةٍ وقعَ قبل زمن بعيد، شيئاً مرتبطاً بـ «أمي» و«الماضي» في ذهني. ولكن بعد ذلك عادت المكتبات هادرة إلى حياتي فجأة. وفي عام 2011، قَبِلَ زوجي عملاً في لوس أنجلوس، فغادرنا نيويورك واتّجهنا غرباً. لم أكنْ أعرف لوس أنجلوس جيداً، لكنني أمضيتُ بعض الوقت على مرّ السنين، قمتُ خلاله بزيارة أقرباء لي يُقيمون داخل المدينة وفي ضواحيها. وبعد أنْ أصبحتُ كاتبةً، تردّدتُ على لوس أنجلوس مراتٍ عديدة أكتب مقالات في مجلات وأؤلف كتباً. وخلال تلك الزيارات كنتُ أتردَّد على الشاطئ، وعلى أحواض الأنهار الجافّة، والوديان، والجبال، لكنني لم أفكّر قط في الدخول إلى قلب لوس أنجلوس، مُفترِضةً أنّها مجرد مشهد من مباني المكاتب تخلو من المُقيمين فيها بحلول الساعة الخامسة من مساء كل يوم. تصوّرتُ لوس أنجلوس كعكة مُحلّاة مُشعّة، يُحيط بها بحرٌ لا متناه من بياض الحليب وجبال منتصبة، مع ثقب كبير في المنتصف. ولم أرتد المكتبة العامة قط، ولم أفكّر في المكتبة، على الرغم من يقيني من أنني افترضتُ وجود مكتبة عامة، ربما الفرع الرئيسيّ، وربما في قلب المدينة.

كان ابني في الصفّ الأول عندما انتقلتُ إلى كاليفورنيا. وإحدى أولى وظائفه المدرسيّة كانت أنْ يُجري مقابلة مع شخصٍ يعمل لمصلحة المدينة. فاقترحتُ عليه أنْ يُحاور جامع القِمامة أو ضابطاً في الشرطة، لكنّه قال إنه يريد أنْ يُحاور أمين مكتبة. وكنا جديدَين على البلدة بحيث اضطرَّ إلى البحث عن عنوان أقرب مكتبة عامة، وكان فرع ستوديو سيتي من مكتبة لوس أنجلوس العامة. كان الفرع يقع على مسافة حوالي ميل من منزلنا، وتصادف أنّها كانت المسافة نفسها التي يبعد عنها فرع بيرترام وودز عن منزل طفولتي.

عندما ركبنا أنا وابني السيارة لكي نقابل أمين المكتبة، فاض داخلي إحساس بألفةٍ مُطلقة، بذكرى مؤكَّدة بهذه الرحلة، لأمٍ وابنها في طريقهما إلى المكتبة العامة. كنتُ قد قمتُ بتلك الرحلة مراتٍ عديدة من قبل، أما الآن

فانعكست الآية، وكنتُ أنا الأم التي تجلب ابنها في هذه الرحلة الخاصّة. أوقفنا السيارة، ومشينا أنا وابني إلى داخل المكتبة، للمرة الأولى. كان المبنى أبيض اللون وحديث الطراز وذا سقف على شكل نبات فِطر أخضر اللون. ومن الخارج، لم يكن يُشبه بأي حال مبنى فرع مكتبة بيرترام وودز الضخم من حجر القرميد، ولكن حالما ولجناه، ضربتني بقوة صاعقةُ التعرُّف عليه إلى درجةِ أنني شَهَقتُ. كانت قد مرّتْ عقودٌ من الزمن وكنتُ على مسافة ثلاثة آلاف ميل، لكنني شعرتُ كأنَّ شيئاً رفعني وأعادني بسرعة إلى ذلك الزمان والمكان، إلى تفاصيل الدخول إلى المكتبة مع أمي. لم يتغيَّر أي شيء - هناك صوت خربشة قلم الرصاص على الورق تِسكْ تِسكْ تِسكْ، والغمغمة المكبوتة الصادرة عن بعض العاملين في المكتبة على طاولات في مركز المكان، والصرير والأنين عن عربات نقل الكتب، وصوت ارتطام الأوراق بين حين وآخر لدى سقوط كتاب عن طاولة مكتب. وطاولات المُحاسبة الخشبيّة المغطاة بالندوب، وطاولات مكاتب أمناء المكتبة، الكبيرة بحجم قوارب، ولوائح البيانات بأوراق الملاحظات المُشوّشة، والمُرفرفة، هي نفسها. وحس الانهماك الرقيق، الثابت، في العمل، كالماء في ذروة الغليان، هو نفسه. والكتب المرصوفة على الرفوف مع بعض الأشياء المُجرَّدة والإضافات، هي نفسها حتماً.

هذا لا يعني أنَّ الزمن توقّفَ في المكتبة. بل كأنّه أُسِرَ هنا، أو جُمِعَ هنا، وفي كل المكتبات -وليس في زمني، وفي حياتي فقط، بل أيضاً في الزمن الإنسانيّ كله. في المكتبة، يتوقف الزمن- لا يتوقف فقط بل يُحفَظ أيضاً. المكتبة هي بركة تتجمّع فيها القصص والناس الذين جاؤوا للبحث عنها. إنها المكان الذي نستطيع فيه أنْ نلمَح الأبديّة؛ في المكتبة العامة، نعيش إلى الأبد.

***

وهكذا تجدَّد السِحر الذي كانت المكتبات العامة قد رمته عليّ. لعلّه لم يزُل قط، على الرغم من أنني غبتُ عنها مدة طويلة حتى صار الأمر أشبه بزيارة بلدٍ أحببتُه لكنّني نسيتُه مع تسارع وتيرة مرور حياتي. كنتُ أعلم معنى أنْ أرغب في اقتناء كتاب، لكنني نسيت شعوري وأنا أتنقل بتمهّل بين

رفوف المكتبة، وأعثر على الكتاب الذي أبحث عنه ولكنّني أتعرّف أيضاً إلى جيرانه، مُلاحظةً انسجامها الخاص، وأتبعُ فكرةً انتقلتْ من أحد الكتب إلى الآخر، كلعبة الهاتف[1]. قد أبدأ من رقم ديوي العِشريّ 301.4129781 (*«نساء رائدات»* تأليف جوانا ل. ستراتون) وبعد ذلك ببضع بوصات أجد نفسي عند الرقم 306.7662 (*«غيدار»* تأليف دونالد ف. رويتر) ومن ثم إلى 301.45096 (*«أحلام من والدي»* تأليف باراك أوباما) وختاماً إلى 301.55 (*«الرجل الذي حدّقَ إلى الماعز»* تأليف جون رونسون). وعلى أحد رفوف الكتب في المكتبة، يتقدّم الفِكر بطريقة منطقيّة ولكن أيضاً مُذهلة، وغامضة، ولا تُقاوَم.

بعد أنْ قام ابني بإجراء حوار مع أمين المكتبة بوقت قصير، تصادفَ أنْ قابلتُ رجلاً اسمه كين بريتشر يُدير مكتبة فاونديشن أوف لوس أنجلوس، المنظّمة غير الربحيّة التي تؤيّد مكتبات المدينة وتجمع مالاً من أجل المزيد من البرامج والخدمات. وعرَضَ بريتشر عليّ أنْ يأخذني في جولة في المكتبة المركزيّة، وبعد ذلك ببضعة أيام نزلتُ بالسيارة إلى قلب المدينة لكي أقابله. وعلى الطريق العامّة، كان في استطاعتي أنْ أرى ارتعاش ناطحات السحاب القاتمة في مركز المدينة التي تكتنف المكتبة. كان فصلا الصيف والخريف خاليين من المطر. وكان المشهد المُحيط بي مُشرقاً، غيّرت الشمس لونه، وكان ذابلاً، مع شحوبٍ جدير بالموتى. حتى أشجار النخيل بدت ممتقعة اللون، والأسقف المائلة إلى الحمرة ابيضّتْ، كأنّها رُشّت بمسحوق السُكّر.

هنا شعرتُ بأنني جديدة، وكان امتداد لوس أنجلوس وحده لا يزال يُدهشني. وكأنَّ في استطاعتي أنْ أستمر في قيادة السيارة وأقود والمدينة تمتد أكثر فأكثر، وكأنَّ خريطة لوس أنجلوس تنتشر وأنا أقود السيارة عليها، كأنّها ليست مدينة حقيقيّة بدأتْ وانتهت عند نقطة معيَّنة. في لوس أنجلوس، لا تكفّ عيناك عن البحث عن نقطة نهاية ولا تجدها، لأنه لا وجود لها. إنَّ الانفتاح الشاسع للوس أنجلوس مُسكِرٌ قليلاً، لكنّه يمكن أنْ يُفقِد الأعصاب

1- لعبة الهاتف: لعبة يمارسها الأطفال حيث يقوم أحدهم بنقل رسالة همساً في أُذن جاره ثم يقوم هذا بهمس الرسالة نفسها إلى جاره وهكذا. - المترجم

أيضاً -إنه مكان من النوع الذي لا يضمّك إليه، يمكنك فيه أنْ تتخيّل أنكَ تنطلق على متن عربة داخل الفراغ، داخل حيِّز من انعدام الجاذبية. وكنتُ قد أمضيتُ السنوات الخمس الأخيرة أعيش في هدسن فالي في نيويورك، لذلك تعودتُ أكثر على أنْ أُصادف تلاً أو نهراً عند كل منعطف وعلى أنْ تستقرّ عيني على مشهد قريب- شجرة، منزل، بقرة. وعلى مدى عشرين عاماً قبل ذلك، عشتُ في مانهاتن، حيث الوعي بوقت دخولك المدينة وخروجك منها واضح وضوح النهار.

***

توقّعتُ أنْ تبدو المكتبة المركزيّة شبيهة بالمكتبة الرئيسيّة التي أعرفها معرفة أفضل. إنَّ مَقرَّي مكتبة نيويورك العامة ومكتبة كليفلند العامة هما مبنيان مهيبان، بمدخلين فخمين وتلفّهما هالة صارمة، شبه دينيّة. وبالمقابل، تبدو مكتبة لوس أنجلوس المركزيّة أشبه بشيء ركّبه طفلٌ بمكعبات. المبنى -ذو اللون الأصفر البرتقاليّ، والنوافذ المُثبّتة وعدد من المداخل الصغيرة- شيء مُبهِر من زوايا دقيقة وأخرى منعزلة ومستويات ومصاطب وشرفات منتظمة على شكل هرم واحد مركزيّ سطحه من القرميد المُلوَّن ويعلوه تمثال من البرونز يمثّل لهباً منطلقاً تحمله يدٌ بشريّة. كانت تبدو قديمة وحديثة في وقتٍ واحد. ومع اقترابي، تحول الشكل الكتيم البسيط للمبنى إلى حشد من الأشكال الحجريّة على كل جدار. كان هناك تمثال لفرجيل وليوناردو وأفلاطون؛ ولقطيعٍ من الجواميس والجياد التي تخبّ؛ وكائنات بحريّة؛ ورماة سِهام ورُعاة وعمّال طباعة وعلماء؛ ولفائف من الرقّ وأكاليل وأمواج. وهناك أقوالٌ فلسفيّة بالإنكليزيّة وباللاتينيّة محفورة عبر واجهة البناء كشريط تلغراف كاتب قديم. وبدت المكتبة بالمقارنة مع الأبراج الخرساء التي تكتنفها أقربَ إلى الإعلان منها إلى المبنى.

أدور، وأقرأ وأنا أمشي. سقراط، صاحب العينين الوديعتين والوجه الذي قُدَّ من الحجر، يُحدِّقُ إليّ وهو يجتازني. أتبع صخب الزوار إلى مركز الطابق الرئيسيّ، ومن ثم أتابع طريقي مارّةً بقعقعة وطنين طاولة تفتيش الأمتعة وأرتقي مجموعة عريضة من الدَرَج أوصلتني إلى غرفة مستديرة فسيحة ذات قُبّة. كانت الغرفة خالية. أقفُ برهة، أعمل على استيعاب المكان. هذه

الغرفة المستديرة كانت واحداً من تلك الأماكن النادرة التي يشملها ما يُشبه الجو المُقدَّس، مُفعم بهدوء شديد الكثافة والعمق حتى لكأنكَ تحت الماء. وتفاصيل تلك الغرفة المستديرة كلها أكبر من أحجامها الطبيعيّة، مُهيمنة، ومُذهلة. والجدران مكسوّة بجداريّات تصوّر سكان أميركا الأصليين وكهنةً وجنوداً ومستوطنين، رُسِموا بألوان الخبّازي والأزرق والذهبيّ المُغبرَّة. وكانت الأرضيّة من الحجر الجيريّ الصقيل، رُصِفَ على نمط رقعة لعبة الضامة. وكان السقف والأقواس مكسوّة بمربعات حمراء وزرقاء وصفراء من الآجرّ. وفي مركزها تدلَّتْ ثُريّا ضخمة – عبارة عن سلسلة ثقيلة من النحاس تتدلّى منها كرة أرضيّة من الزجاج الأزرق المُضاء يُحيطُ بها اثنا عشر شكلاً تمثل دائرة الأبراج الفلكيّة.

اجتزتُ الغرفة المُستديرة ذات القبّة ومشيتُ باتّجاه تمثالٍ كبير يُعرَف باسم تمثال الحضارة – يمثّل امرأة من الرخام بقسمات جميلة ووِقفة مثاليّة تحمل بيدها اليُسرى رمحاً ثلاثيّ الشُعَب. كنتُ من شدّة الانبهار بجمال المكتبة إلى دَرَجَة أنّه عندما وصل بريتشر لكي يصحبني في الجولة، كنتُ مُبلبلة الذهن كأنني في أول موعد غراميّ ناجح. وبريتشر رجل نحيل كقلم رصاص وله عينان برّاقتان، وشعر أبيض ناصع، وضحكة رشيقة تشبه النباح. وباشر بتعليق متواصل على كل تفصيل، وكل نقش، وكل رقعة على الجدار. وأخبرني أيضاً عن رحلة مشواره إلى المكتبة، التي تضمَّنَت حياة صعبة مع قبيلة بدائيّة من أناس فطريّين في قلب غابة الأمازون وعن عمله لمصلحة مؤسسة رقصة الشمس[1]. بدا متحمّساً لكل ما أخبرني به عن المكتبة، وبين حماسته وانبهاري، لابد أننا شكّلنا ثُنائياً حيوياً. وتقدّمنا ببطء، متوقفَين بعد كل بضع أقدام لكي نتفحّص سِمة أخرى من سِمات المبنى، أو لكي نُدقق النظر في أحد رفوف الكتب، أو لكي نسمع عن هذا الشخص أو ذاك الذي كان ذا أهميّة بالنسبة إلى المكان. كان لكل ما يتعلّق بالمكتبة حكاية – المهندس المعماريّ، ورسّام الجداريّات، والشخص الذي طوّر

1- مؤسسة رقصة الشمس: مؤسّسة غير ربحيّة، أسّسها الممثل روبرت ريدفورد من أجل دعم الفنانين المستقلين، في مجال السينما والمسرح والتأليف الموسيقيّ. تأسّستْ عام 1981. – المترجم

كل مجموعة، ورئيس كل قسم، ومجموعة العاملين في المكتبة أو تعاملوا معها على مدى العقود، وكثيرون منهم كانوا قد رحلوا لكنهم ظلوا بصورة ما حاضرين هناك، يتجولون في الأجنحة، كجزءٍ دائم من تاريخها.

ختاماً توجهنا إلى قسم الرواية وتوقفنا بالقرب من الصف الأول من الرفوف. استراح بريتشر قليلاً من الإدلاء بتعليقاته ومدَّ يده إلى أحد الكتب، وفتحه، وقرَّبه من وجهه، وأخذ يستنشق رائحته بعمق. لم أكنْ قد رأيت قبل ذلك شخصاً يشمّ كتاباً هكذا. شمَّ بريتشر الكتاب مرات عِدَّة، ثم أطبقه بقوة وأعاده إلى مكانه على الرف.

قال، كأنّه يُكلِّم نفسه، «ما زال في الإمكان شمّ رائحة الدخان في بعضها». لم أكنْ واثقة تماماً من معنى ما قال، لذلك جرّبتُ قول ما يلي: «ربما رائحتها كرائحة الدخان لأنَّ المكتبة كانت تسمح للرواد بالتدخين؟»

قال بيرترام «كلا! أقصد الدخان المنبعث من الحريق!»

«الحريق؟»

«الحريق!»

«الحريق؟ أيّ حريق؟»

قال «الحريق. الحريق الهائل. الذي تسبَّبَ في إغلاق المكتبة»

***

في التاسع والعشرين من شهر نيسان، عام 1986، يوم حريق المكتبة، كنتُ أقيم في نيويورك. وعلى الرغم من أنَّ علاقتي العاطفيّة مع المكتبات لم تكن قد تجدَّدت بعد، فإنَّ اهتمامي بالكتب كان كبيراً، وأنا واثقة من أنني كنتُ سألاحظ وقوع حادث حريق هائل في مكتبة، أينما كانت تلك المكتبة. لم يكن حريق المكتبة المركزيّة حَدَثاً ثانويّاً، ليس مجرد سيجارة تخمد بهدوء في حاوية القمامة من دون أنْ يُلاحظها أحد. كان حريقاً ضخماً، مُستعراً ظلَّ متواصلاً على مدى سبع ساعات وبلغتْ درجة حرارته 2000 درجة مئويّة؛ كان حريقاً شرساً إلى درجة أنّه تمَّ استدعاء كل رجال إطفاء لوس أنجلوس لمُكافحته. واحترقَ بسببه أكثر من مليون كتاب أو تضرَّر. لم أستطع أنْ أتخيَّل كيف لم أعرف بأمر حَدثٍ بذلك الحجم، خاصّة أنّه يتعلَّق بالكتب، على الرغم من أنني كنتُ أُقيم على الطرف المقابل من البلد عندما وقع.

عندما وصلتُ إلى المنزل بعد جولة المكتبة مع بريتشر، فتحت صحيفة **نيويورك *تايمز*** عدد 29 نيسان، 1986. كان الحريق قد نشبَ في الفترة الصباحيّة، بتوقيت المحيط الهادئ، أي ما يُعادل أوائل بعد الظهيرة في نيويورك. وحينئذٍ، تكون صحيفة تايمز قد صدرتْ في ذلك اليوم. كانت العناوين الرئيسيّة هي نفسها، تتضمَّن تأجيل مُحاكمة المُجرم جون غوتي؛ وتحذير من السيناتور بوب دول من أنَّ الميزانيّة الفيدراليّة في محنة؛ وثمة صورة فوتوغرافيّة للرئيس ريغان مع زوجته، نانسي، يلوّحان مودّعين مع بداية رحلتهما إلى إندونيسيا. وعلى الجانب الأيمن من الصفحة الرئيسيّة، عنوان رئيسيّ، فوق تقرير صغير الحجم، يقول **السوفييت يُعلنون وقوع حادث نوويّ في مصنع لتوليد الكهرباء / والاعتراف بوقوع حادث مؤسف بعد ارتفاع نسبة الإشعاع وانتشاره حتى البلاد الاسكندنافيّة**. وفي اليوم التالي، تصاعدت نبرة العنوان الرئيسي إلى حجم الذعر، يُعلن أنَّ **السوفييت يُقرّرون منطقة المُنشأة النوويّة «منطقة كارثة»، ويسعون للحصول على المساعدة من الخارج لمكافحة حريق المفاعل النوويّ**. وعلى خط واحد مع نبأ موسكو، الاتحاد السوفييتي، هناك أيضاً قسم خاص من ثلاث صفحات بدأ بعبارة، كارثة نوويّة: سحابة تنتشر ومُناشدة لتقديم المُساعدة. وبحلول اليوم الثاني، أشعل الخوف من حادث المفاعل النوويّ في تشيرنوبيل ما كان حينئذٍ أكبر خسارة في يوم واحد في تاريخ سوق البورصة الأميركيّة.

أخيراً ذُكِرَ حادث حريق المكتبة المركزيّة في لوس أنجلوس في صحيفة **نيويورك *تايمز*** في عدد 30 نيسان، في مقالة ظهرت على الصفحة A14. وحدَّدت المقالة الحقائق الأساسيّة، وذكرتْ أنَّ اثنين وعشرين شخصاً جُرِحوا وسط اللهب وأنَّ سبب الحريق ما زال مجهولاً. ومقالة أخرى موجزة زوّدتْ ببضعة تفاصيل أخرى عن الحريق وتضمّنتْ مقابلات مع سكان مدينة لوس أنجلوس بشأن شعورهم حيال إغلاق المكتبة إلى الأبد. ولم ترِدْ أيّة تقارير أخرى حول الموضوع في صحيفة لوس أنجلوس تايمز في ذلك الأسبوع. لقد غطّى انهيار مفاعل تشيرنوبيل على أكبر حريق لمكتبة في التاريخ الأميركيّ. واحترقت الكتب بينما كان مُعظمنا ننتظر لنرى إنْ كنا سنشهد نهاية العالم.

-2-

حريق!: 38 معلومة تنقذك وتنقذ عائلتك (1995)
تأليف غيبون، جيمس.ج
G441 614, 84

السلوك في أثناء الحريق والمرشّات (1964)
تأليف تومبسون، نورمن.ج
T 474 614, 844

الحريق: صديق أم عدو (1998)
تأليف باتنت، دوروثي هينشو
X 634 P295-2

حريق! المكتبة تحترق (1988)
تأليف مرايتون، باري. د
X 614 C997

كان يوم الثامن والعشرين من شهر نيسان، عام 1986، يوماً حارّاً جداً في لوس أنجلوس. وبدل التلألؤ الناعم للربيع، كان ذلك النهار ثقيلاً ونكداً. ولكن مع حلول صباح اليوم التالي، التاسع والعشرين من نيسان، زال الحرّ. وبدا الهواء منعشاً. وكانت السماء عميقة الزرقة.

كان ذلك العام غريباً، وحزيناً، بدءاً بشهر كانون الثاني، عندما انفجرت سفينة الفضاء *تشالنجر*، وقُتِلَ طاقمها رواد الفضاء السبعة. ورزح أسبوع الثامن والعشرين من شهر نيسان تحت ضغط نصيبِهِ الخاص من الأنباء السيئة. فقد هزَّ زلزال قلب المكسيك. واندلعت الحرائق في عدد من السجون البريطانيّة، وهرب منها عدد من السجناء. وتوتّرت العلاقات بين الولايات المتحدة وليبيا. وبجوار موقع المكتبة خرَّبَت جرّافة تابعة لموقع للبناء في كارسون، كاليفورنيا، غطاءَ المجرور الرئيسيّ، وتدفّقت محتويات المجرور إلى نهر لوس أنجلوس.

في التاسع والعشرين من شهر نيسان، فتحت المكتبة المركزيّة أبوابها كالمعتاد عند العاشرة صباحاً، وخلال دقائق كانت تعجّ بالروّاد. كان مئتان من العاملين فيها قد احتلوا مواقعهم في أرجاء المبنى، من منصات الشحن إلى طاولات التوزيع إلى التكديس. كان غلين غليسن، أمين المكتبة المرجع الذي عمل في المكتبة المركزيّة منذ العام 1979، على طاولة مكتبه في قسم التاريخ. وكانت سيلفيا مانوجيان، أمينة قسم اللغات العالمية، قد حصلتْ على سيارة جديدة، فوضعتها بحذرٍ شديد في موقف سيارات المكتبة قبل أنْ تدخل لتقوم بنوبة خدمتها. كان في الداخل حوالي المتين من الروّاد يستعرضون الرفوف أو يجلسون على طاولات القراءة. وجذب أربعة من المُحاضرين جماعة كبيرة تضحك ضحكاً مكبوتاً من أولاد المدارس ليقوموا بجولة حول المبنى. وإليزابيث تومان، رئيسة أمناء المكتبة المركزية، كانت في مكتبها مع نورمان بفايفر، وهو مُهندس معماريّ من نيويورك استُخدِمَ لكي يقوم بتجديد وتوسيع المبنى. وكان بفايفر متحمّساً لهذه المهمّة. لقد أحبّ مبنى غودهيو –قال لي «حالما رأيته حسبتُ أنني متُّ وانتقلتُ إلى الجنّة»– وكان تواقاً إلى البدء بعمليّة تجديده وإضافة جناح كبير جديد. وكانت خطّة الإنشاء نتيجة ما يُقارب عشرين عاماً من النقاش حول ما ينبغي فعله بالمكتبة المركزيّة، التي كانت تتجاوز الستين عاماً من العمر، متهدمة، وأصغر بكثير من أنْ تلبّي حاجات المدينة. كانت رسومات بفايفر منشورة على طاولة مكتب تومان. وكان قد وضع سترة بزّته، التي في جيبها مفاتيح الفندق وسيارته المُستأجرَة، على أحد الكراسي في خلفيّة الغرفة.

في ذلك الوقت، كان مانع الحريق في المكتبة يتألّف من كواشف الدخان وحفنة من مطافئ الحريق. لم تكن هناك مِرشّاة. وكانت رابطة المكتبات الأميركيّة، المعروفة رسمياً بالأحرف ALA، دائماً تنصح بعدم استخدام المِرشّات، لأنَّ ضرر الماء أسوأ تأثيراً على الكتب ممّا يُحدثه الحريق من ضرر. ولكنْ في عام 1986، عكستْ الـ ALA موقفها وبدأتْ تنصح المكتبات بتركيب مِرشّاة. وفي الحقيقة، في صباح ذلك اليوم، في آخر الرواق الذي تقع فيه غرفة مكتب إليزابيث نومن، كان زميلٌ لبفايفر، ستيفن جونسون، يجتمع مع قسم الحرائق لكي يُناقِش كيف يمكن للمرشّاة أنْ توضع بشكلٍ غير مرئيّ داخل حجرات قسم التاريخ في المكتبة. كانت المكتبة قد أنشئت قبل تطوير الأبواب المُقاومة للنار، التي هي الآن متوفرة في كل الأبنية الضخمة لأنها تمنع انتشار الحريق من قسم إلى آخر في المبنى. والأبواب المُقاومة للحريق فعّالة إلى درجة أنّها موجودة في المنشآت الجديدة كلها، والمنشآت الأقدم عهداً تُزوَّد بها من جديد في المعتاد؛ والقانون يفرض وجودها في مُعظم الولايات. والاعتمادات الماليّة الموضوعة في المكتبة موجودة في ميزانيّة المدينة منذ أكثر من خمس سنوات، ولكن بصورة ما، دائماً يتمّ تجاهلها؛ وأخيراً، في ذلك اليوم، جاء العمّال لكي يُركّبوها.

وعلى مدى سنوات، سُجِّلَت في المكتبة مراراً مواقع تنتهك شِفرات أجهزة إنذار حريق عديدة. وفي هذه اللحظة بالذات، هناك عشرون موقعاً قابلاً للانتهاك ينتظر إصلاحه. مُعظم تلك المواقع كان «جاهزاً للعمل»، ومن ضمنها مخارج مسدودة، ولمبات مُعرَّضة للخطر، وأسلاك كهربائيّة مكشوفة، وانعدام وجود أبواب مُضادة للحريق، بالإضافة إلى وجود مشاكل في بُنية المُنشأة. وطوال الوقت يتمّ لفت انتباه قسم الحرائق إلى وجود انتهاكات جديدة. وقد أبدى عدد من المُختصين في صيانة البنية المعماريّة شكّهم في أنَّ هناك مَنْ يُغالي في حجم الانتهاكات لكي يدعم فكرة هدم المبنى وإنشاء آخر بدلاً عنه. وحتى إنْ كانوا يُغالون قليلاً، فإنَّ مشاكل المنشأة حقيقيّة. وقبل ذلك بعشرين عاماً، في عام 1967، توصل تقرير من قسم الحرائق إلى أنَّ احتمالَ حدوث حريق ضخم في المكتبة «كبير جداً». وبعد بضعة أعوام، وَصَفَتْ صحيفة لوس أنجلوس تايمز المكتبة بأنها «شبه معبد،

وشبه كاتدرائيّة، وشبه مصدر اندلاع حريق». وعندما كانت إليزابيث تومان في مدرسة المكتبات، وَضَعَتْ أطروحة تُلخّصُ فيها مشاكل المُنشأة، وقالتْ إنّ المكتبة مُزدحمة بصورة خطرة ولكنَّ العدد الكبير من مُصادفات الحريق والأمان أشدّ إزعاجاً. وحصلت على درجة ممتازة على تلك الأطروحة.

هناك دائماً مَنْ يدخل المكتبة ويخرج منها، ولذلك من المُستحيل معرفة عدد ما تضمّ من أشخاص في أي يوم. وبحلول عام 1986، تمَّ تقدير قيمة محتويات المكتبة المركزيّة، من أجل التأمين عليها، بأنها 69 مليون دولار. وهذا يشمل على الأقل مليوني كتاب، ومخطوطة، وخريطة، ومجلّة، وصحيفة، ومُصوّر جغرافي، ومقطوعة موسيقيّة؛ وأربعة آلاف فيلم وثائقيّ؛ وسجلات إحصاء رسميّة تعود حتى عام 1790؛ وبرامج فقرات كل مسرحيّة قُدِّمَتْ في لوس أنجلوس منذ عام 1880؛ ودلائل هاتف لكل مدينة أميركيّة تعداد سكّانها يفوق عشرة آلاف نسمة. وتضم أفضل مجموعة أميركيّة للكتب في موضوع المطّاط، أهداها السيد هاري بيرسون في عام 1935، وهي مرجع مشهور حول المطّاط. وتحتوي طبعة مؤلفات شكسبير الأصليّة؛ وربع مليون صورة فوتوغرافيّة للوس أنجلوس يعود تاريخها حتى عام 1850؛ وكتيبات لإصلاح السيارات لأنواع السيارات كافة بدءاً بموديل تي؛ وخمسمائة دميّة شعبيّة من أرجاء العالم كافة؛ والمجموعة الوحيدة لبراءات الاختراع المُسجّلة في غرب الولايات المتحدة؛ وواحداً وعشرين ألف كتاب عن الألعاب الرياضيّة. وتضم أكبر مجموعة من الكتب عن الأطعمة والطبخ في البلاد–اثني عشر ألف مُجلّد، تضمّنت ثلاثمائة عن المطبخ الفرنسيّ، وثلاثين حول الطبخ بالبرتقال والليمون، وستة كتيّبات حول الطبخ بالحشرات، بما فيها الكتاب الكلاسيكيّ «*فراشات في معدتي*»

***

قُبيل الساعة الحادية عشرة ببضع دقائق صباحاً، في التاسع والعشرين من نيسان، انطلقّ نفير إنذار كاشِف الدخان في المكتبة. فاتصل عامل مقسم هاتف المكتبة بموظف الإرسال في مركز الإطفاء قائلاً «إنَّ جرس الإنذار ينطلق في المكتبة المركزيّة». وانتشر حرّاس الأمن في أرجاء المبنى، يوجّهون الروّاد إلى جهة الخروج. لم يسُد أي رعب حقيقي بينهم.

كان جرس إنذار الحريق في المكتبة ينطلق طوال الوقت، لأسبابٍ شتّى - سيجارة رُميتْ في سلّة المهملات، تهديد من معتوه بتفجير قنبلة، وغالباً، من دون أي سبب خِلاف أنّه جهاز إنذار عتيق، غريب الشكل، تنتابه نوبات من النشاط المُفرِط. وإنذار الحريق بالنسبة إلى روّاد المكتبة المنتظمين والهيئة الإداريّة يمتلك كل السِمة الصاعقة لنفير المهرِّج. كانت لملمة الأغراض ومغادرة المبنى عملاً مملّاً حتى إنَّ بعض عمّال المكتبة رغبوا في الاختفاء داخل غرف عملهم وانتظروا إلى أنْ تنتهي فترة الإنذار. ومعظمهم تركوا وراءهم أغراضهم الشخصيّة لدى خروجهم تلبية للإنذار، مُفترضين أنهم سوف يعودون في الحال.

عندما انطلقتْ صفّارة الإنذار، بدأ نورمان بفايفر بجمع رسوماته وأخذ سترته، لكنّ تومان أخبرته ألّا يفعل ذلك، لأنها واثقة من أنَّ فترة الانقطاع سوف تكون قصيرة. وبعض الزبائن المُداومين أيضاً لم يزعجوا أنفسهم بجمع أغراضهم عندما أخلوا المكان. وفي صباح ذلك اليوم، كانت امرأة تعمل سمسار عقارات اسمها ميري لودفيغ في قسم التاريخ تقوم ببحث حول أصل الأنواع. وقد اكتشفتْ تواً أنها ترتبط بصِلة قُربى مع رجل في فيرمونت اسمه هوغ هوارد عندما انطلقَ صفير الإنذار. وبدل أنْ تبعثر موادّها كلها، تركتها على طاولة القراءة، مع حقيبة تحتوي ثمرة عامين من وضع ملاحظات البحث، واندفعَتْ نحو المخرج.

خرج الزبائن وأفراد الهيئة الإداريّة من المبنى مع أقلّ قدر من الركض والاندفاع. والشخص الوحيد الذي أبدى الانزعاج كان امرأة عجوزاً أخبرت المُفتشين أنَّ شاباً بشَعرٍ أشقر وشارب ارتطم بها وهو يسرع خارجاً. وقالت إنه بدا غاضباً، لكنّه توقف وساعدها لكي تنهض وتقف على قدميها قبل أنْ يندفع خارجاً من الباب.

خلا المبنى من شاغليه في غضون ثماني دقائق فقط، وتجمّع الرواد وأفراد الهيئة الإداريّة، البالغ عددهم تقريباً أربعمائة شخص، على الرصيف في الخارج. كانت أشعة الشمس ترتفع إلى كبد السماء والرصيف يزداد حرارة. وانتهزَ عددٌ من موظفي المكتبة الفرصة لإشعال سيجارة تشسترفيلد، السيجارة المُفضّلة لدى بعض أفراد طاقم الهيئة الإداريّة. وقرّرتْ سيلفيا

مانوجيان أنْ تقضي الوقت في موقف السيارات لكي تقوم على حراسة سيارتها الجديدة. وتبادلت هيلين موشدلفر، مسؤولة قسم الأدب التي تُكرّس وقتها بتفانٍ للمكتبة إلى درجة أنّها أحبّتْ أنْ تقول إنها تُرِكَتْ على عتبة باب المكتبة كطفلة صغيرة، الحديثَ مع مانوجيان وأبدتْ إعجابها بسيارتها. وراقبَ الجميع باهتمام معتدل سيارة الإطفاء تقترب ويدخل راكبوها إلى المبنى في حيّ الشارع الخامس. وكانت زيارات مركز الإطفاء للمكتبة المركزيّة عابرة بقدر ما كانت متعدِّدة. في المعتاد، في استطاعة رجال الإطفاء أنْ يُلقوا نظرة عامّة ويُعدّلوا إعدادات جرس الإنذار في غضون بضع دقائق. وكانت شركة إنجن 10 -ش إ 10، بلغة مركز الإطفاء- هي التي قامت بالفحص الأوّليّ، واتّصلَ أحد رجال الإطفاء لاسلكيّاً برئيس الحادث يُخبره بأنّه «لا يوجد شيء»: بعبارة أخرى، كان إنذاراً كاذباً. وتوجّه أحد رجال الإطفاء إلى الطابق تحت الأرضي لكي يُسكِت جهاز الإنذار، لكنّه رفضَ أنْ يُعيد إعداده – ظلَّ الجهاز يُشير إلى أنّه يشعر بوجود دخان، افترضَ رجل الإطفاء أنَّ الجهاز يعمل بشكل خاطئ، ولكن من باب التيقّن، قرّر طاقم العمل أنْ يُلقي نظرة أخرى على المكان.

لم تكن في حوزة رجال الإطفاء خريطة لأروقة المبنى ودَرَجه المُعقّدة، لذلك لم يتبقَّ في وسعهم إلّا أنْ يشقّوا طريقهم ببطء. كان المبنى مُنظَّماً حول أربع «أكداس» من الكتب، وهو أسلوب في التخزين في المكتبة ابتُكِرَ في عام 1893 من أجل مكتبة الكونغرس. والأكداس في المكتبة المركزيّة كانت عبارة عن أقسام لولبيّة منفصلة، ضيّقة -في الأساس، أنفاق كبيرة من الإسمنت المُسلَّح- تمتد من الطابق تحت الأرضي إلى سقف الطابق الثاني. وكل كدسة مُقسّمة إلى سبع طَبَقات برفوف مصنوعة من القضبان الفولاذيّة. والنسيج المفتوح للرفوف سمح للهواء بالتغلغل بين الكتب، وهذا شيء مفيد.

ولكن بالنسبة إلى الكائنات البشريّة، كانت أكداس الكتب غير جذّابة. كانت كئيبة وتشبه الأجداث، وضيّقة كمدخنة. جدرانها مصنوعة من الإسمنت الصلب. وكل طبقة تعلو أقلّ من نصف علوّ طابق، ولذلك كان استعراضها يتضمَّن الكثير من الانحناء والجثوم. ولم يكن في استطاعة

تمديدات الأشرطة الكهربائيّة القديمة تحمُّل شيء أكثر سطوعاً من لمبة بطاقة أربعين واط، تاركة أكداس الكتب في حالة من العتمة الدائمة. وكان بعض موظفي المكتبة يستخدمون نسخة مصنوعة يدويّاً من خوذة عامل المنجم -قبعة قاسية مُزوّدة بمصباح وامض مُثبَّت بشريطٍ لاصق إلى حافتها- عندما يباشرون البحث عن الكتب وسط الأكداس. وكان العثور على أي شيء هناك بمنزلة تحدٍ يتجاوز مجرد الافتقار إلى الضوء. وكانت المكتبة قد أنشئتْ لكي تستوعب مليون كتاب. وعند تلك النقطة، كان هناك أكثر من مليونَي كتاب في مجموعتها، لذلك كانت الكتب تُكدَّس على الدَرَج وفي شقوق الجدران وفي الزوايا وتُحشَر في أي حيِّز على الرفوف.

وشركة إنجن 9، أو ش.إ 9، استجابت أيضاً للإنذار الأوليّ الذي انطلقَ في جانب شارع هوب الذي يطلّ عليه المبنى. وبينما كان أحد أفراد فريق ش.أ 9 ينتظر سماع أنَّ المبنى خال وأنَّ جهاز الإنذار أُعيد إعداده بنجاح نظرَ عالياً ولاحظ دخاناً يتسرّب من الطرف الشرقي للسطح. وفي اللحظة نفسها، كان رجال إطفاء الـ ش.إ 10، داخل المبنى، قد وصلوا إلى كتب قسم الأدب الروائي في الربع الشمالي الشرقيّ من المبنى، وشاهدوا الدخان هناك يتسرّب على طول رف الكتب الذي يبدأ برواية روبرت كوفر وينتهي برواية لجون فاولز. وبدأ الدخان يتلوى ويعلو، متسللاً من خلال القضبان المفتوحة للرفوف كأنّه شبح. وحاول رجال الإطفاء أنْ يتصلوا لاسلكيّاً بموقع القيادة للإبلاغ عن أمر الدخان، لكنَّ الجدران الإسمنتيّة السميكة لأكداس الكتب منعت وصول إشارة اللاسلكيّ. وأخيراً ارتقى أحد رجال الإطفاء متجاوزاً حاجز الأكداس وعثر على جهاز هاتف في غرفة القراءة واتصل بالقيادة لكي يبلّغ عمّا اكتشفوا.

في أول الأمر كان الدخان المنبعث من قسم أدب الرواية شاحباً كقشرة البصل. ثم تكثّف حتى أصبحَ رمادياً بلون اليمام. ثم أصبح أسود. وعمَّ قسم أدب الرواية من أ. وحتى ل. ملتوياً على شكل حلقات كسول. ثم تجمَّعَ بكتلٍ ناعمة ارتطمتْ بالرفوف وتراكمتْ عليها كسيارات ارتطم بعضها ببعض. وفجأة، شقَتْ أصابع حادة من اللهب طريقها خلال الدخان واندفعت إلى أعلى. وانبجس المزيد من اللهب. وتزايدت الحرارة. وارتفعتْ إلى 451

درجة فهرنهايت وبدأت الكتب تحترق ببطء. وفرقعتْ أغلفتها كما الفشار. واشتعلت النار في الصفحات واسودَّتْ ومن ثم نُزِعَتْ عن أصلها، ككتلة من قطع السخام تتطاير عالياً. واندلعت النار في قسم الرواية، تلتهمه في أثناء تنقّلها. ووصلتْ إلى قسم كتب الطبخ. وشويتْ كتب الطبخ. وزحفت النار إلى الطبقة السادسة ثم السابعة. وكل كتاب اعترضَ طريقها تورّد باللهب. وعند الطبقة السابعة، ارتطمت النار بالسقف الإسمنتيّ، فتراجعتْ، وعادت إلى الانتشار من جديد في الطبقة السادسة. وأخذتْ تتغلغل في المكان، تفتش عن المزيد من الهواء والوقود. وتهاوت الصفحات وأغلفة الكتب والميكروفيلم وتلاشتْ. وعلى الطبقة السادسة، تزاحم اللهب على أكداس الكتب، ثم قرَّر أنْ يتحرَّك جانبياً. واندلعت النيران في أرجاء طبقة الرفوف السادسة ومن ثم تسللتْ إلى أنْ عثرتْ على ممر يصِلُ بين الركام الشمالي الشرقيّ والأكداس الشماليّة الغربيّة. وامتدّتْ نحو الممر واندلعت على طوله إلى أنْ وصلتْ إلى مجموعة البراءات المُسجّلة المُخزّنة في الأكداس الشماليّة الغربيّة. واشتعلتْ في أكوام المجلات المُسجّلة. كانت الصحف ضخمة إلى درجة أنها قاومتْ، لكنّ الحرارة تكثّفتْ إلى أنْ تصاعد الدخان أخيراً من الصحف، وارتفع اللهب، وتفتّتت، وتفكّكتْ. وملأتْ دفقاتُ الهواء الفراغَ الذي أحدثه اللهب. وتشبّعت الجدران بالهواء الساخن. وبدأت الأرضيّة تتشقّق. وظهرت تشعبات من التشققات الحارة. وتفتّتت عوارض السقف الخشبيّة، قاذفة قطعاً من الإسمنت إلى كل اتّجاه. ووصلت درجة الحرارة إلى 900 درجة، ولمعت رفوف الكتب الفولاذيّة متحولة من اللون الرمادي إلى الأبيض، كأنها مُضاءة من الداخل. وسرعان ما تلألأت وكادت تذوب، وتوهجتْ بلون الكرز الأحمر. ثم تلوّتْ وارتختْ، قاذفة كتبها إلى النار.

شركتا المطافئ اللتان في داخل المبنى وصلتا معداتهما بالمواسير واتّجهتا نحو أكداس الكتب، لكنَّ أكبر خراطيمهما، التي انتفختْ تماماً بالماء لم تتمكن من اجتياز المنعطفات الحادَّة على الدَرَج الضيق. وتذكَّر دين كاتي، أحد القادة العاملين، أنّه كان يشدّ الخراطيم التي رفضَتْ أنْ تتحرّك. واستبدلها رجال الإطفاء بأخرى أصغر وأكثر رشاقة. أزَّ سيل الماء الأرقّ المتدفّق من الخراطيم الصغيرة وتبخّر وسط اللهب. في أكداس

الكتب، برفوفها ذات القضبان المتصالبة المفتوحة، ارتفعت النار بينما الماء ينهمر بغزارة. رمى رجال الإطفاء أغطية إنقاذ على الرفوف، آملين بذلك أنْ يحموا الكتب من حنق النار ومن الماء.

حذَّرَ رئيس الكتيبة، دونالد كيت، بلديّة المدينة ورئيس مركز الإطفاء، دونالد مانينغ، من أنَّ حالة الطوارئ تعمّ المكتبة. كانت مجموعتا ش.إ 9 وش.إ 10 مرتبكتين، وشركات إنجن في أرجاء المدينة كانت مُجنَّدة. ومع حلول الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، اجتمع ثمانية إضافيون من القادة واثنتان وعشرون شركة بكامل تجهيزاتها وأجهزة التنفّس في فيفث وفلور. وتوقفت سيارات الإسعاف في شارع هوب. وعندما برهنت النار على أنها أقوى حتى من هذا الفريق الضخم، طلبَ كيت المزيد من المساعدة. وفي غضون ساعة من الزمن، تعاظمت القِوى وتضمَّنتْ ستين شركة رجال إطفاء، وتسع سيارات إسعاف، وثلاث مروحيات، ووحدتَي طوارئ، و350 رجل إطفاء، ووحدة مكافحة حرائق المباني - في المُجمل، أكثر من نصف مصادر مركز الإطفاء في كامل المدينة في لوس أنجلوس. ووصل دونالد مانينغ إلى المكتبة. كان قلقاً من أنَّ مركز الإطفاء سوف يُعاني من نقص إذا ما حدث حريق كبير آخر في المدينة، لذلك طلب من مركز إطفاء البلاد أنْ يوجّه نداءات من أجل المدينة بينما المكتبة تحترق. في ذلك الحين كان الحريق في المكتبة يمتد بسهولة، كحِبرٍ مُراق. وراقب المتحدث باسم مركز الإطفاء، توني ديدومينيكو، من رصيف الشارع الخامس. وفي حديث له مع أحد المُراسلين، بدا قلِقاً: «ما إنْ احترق الرفُّ الأول، حتى أصبحَ الأمر منتهياً»

***

في عِلم فيزياء النار، هناك ظاهرة كيميائيّة تعرف باسم حالة الاتّحاد العنصريّ، وفيها تُحقِّق النار نسبة الاحتراق المثاليّة للأكسجين في الوقود - بعبارة أخرى، أنَّ هناك بالضبط ما يكفي من الهواء متوفّر للنار لكي تلتهم كل ما يحترق. وهذه النسبة توجِد حالة نار مثاليّة، تُنتِج احتراقاً مثاليّاً، كاملاً. ومن المستحيل خلق حالة الاتّحاد العنصري خارج المُختبَر. إنها تحتاج إلى إحداث توازن مثاليّ مُحيِّر من الوقود والنار والأكسجين نظريّ أكثر منه واقعياً، بمعنى ما. والعديد من رجال الإطفاء لم يشهدوا مثل ذلك الاحتراق

ولن يشهدوه. وقبل وقت قريب، شربتُ القهوة مع رجلٍ اسمه رون هاميل. هو الآن باحث في حرائق الأبنيّة، ولكن في وقت حريق المكتبة، كان هاميل قائداً في مركز الإطفاء. وعلى الرغم من مرور أكثر من ثلاثين عاماً، فإنّه بقيَ يشعر بالرهبة مما شاهد في ذلك اليوم في المكتبة. تحدث عنه كما يتحدث المرء عن مشاهدة كائن من الفضاء الخارجي. وخلال فترة عمله في الإطفاء، كافح هاميل آلاف الحرائق في المكتبة المركزيّة. في المعتاد، تكون النار حمراء اللون وبرتقاليّة وصفراء وسوداء. أما في المكتبة فالنار خالية من اللون. تستطيع أنْ ترى من خلالها، كأنها من زجاجٍ صِرف. وعندما يكون للنار لون فهو أزرق باهت. وكانت الحرارة عالية إلى درجة أنها بدتْ أشبه بالثلج. وقال هاميل إنه شعر كأنه واقف داخل كير حدّاد. قال، وهو يربت على كوب القهوة، «حسبنا أننا ننظر إلى أحشاء جهنم. من المستحيل تحقيق الاحتراق الكامل، ولكن في هذه الحالة، تحقّق. لقد كان شيئاً سوريالياً». وذات مرّة، قال لي فرانك بوردن، الذي يُدير الآن مُتحف مركز الإطفاء في لوس أنجلوس، «في مسيرةِ عملٍ كلّ رجل إطفاء، هناك تلك الحرائق الخارقة التي لا تُنسى. وهذه واحدة منها».

***

شاهد المتجمعون على الرصيف خارج المكتبة الحشد المتراكض لأجهزة الإطفاء ومن ثم لاحظوا الدخان. محت الصدمةُ المللَ الذي أثاره الإنذار الكاذب. وهرع مايكل ليونارد، الذي كان يعمل في قسم العلاقات العامة في المكتبة، إلى محل التصوير القريب وأخبر المُحاسِب أنّه في حاجة إلى كل بكرة فيلم لديهم. وهناك في المكتبة، أخذ يلتقط صوراً للمبنى وللدخان المتصاعِد من النوافذ العليا، لكنّه لم يتمكّن من التقاط صورٍ للعاملين في المكتبة، الذين كانوا يراقبون النار في حزن. بل إنَّ بعضهم كان يبكي. وأخبرتني سيلفيا مانوجيان أنها شمّتْ عبقاً حلواً لاحتراق المايكروفيلم. وقالتْ إنها وقفتْ تراقبُ المبنى يحترق، وطارت صفحة محترقة وهبطتْ على الرصيف، وتذكّرتْ أنها مُنتزَعة من كتابٍ عنوانه «*إنَّ الله يُحاكمكم*». والتفتَ نورمان بفايفر، المهندس المعماري، مُعبّراً عن خشيته من أنْ يكون احتراق المبنى خسارة كاملة، التفتَ نحو إليزابيث تومان وقال،

«لقد كانت تلك أكبر فرصة في حياتي المهنيّة، وها هي تحترق بالكامل».
ووصل عددٌ من أعضاء هيئة إدارة مركز الإطفاء بعد أنْ سمعوا بنبأ اندلاع الحريق ووقفوا مع الواقفين على الرصيف. وكانت شركة البترول المتعددة الجنسيّات ARCO مجتمعة في ناطحة السحاب على الطرف المقابل من الشارع؛ وعندما رأى المُستخدمون الهرج والفوضى، هبط عديد منهم إلى الطوابق السفليّة لكي يروا إنْ كان في وسعهم أنْ يُقدموا يد المُساعدة. وكان لودريك كوك، رئيس شركة ARCO، داعماً للجهد المبذول لإنقاذ وتجديد المبنى القديم. وحالما رأى الشارع يزدحم بسيارات إطفاء الحريق، طلبَ قهوة وطعاماً من فندق بونافينتور من أجل رجال الإطفاء والمتفرجين.

في صباح ذلك اليوم، لم يكن وايْمَن جونز في المكتبة المركزيّة. وكان جونز مسؤولاً عن المكتبات الثلاث والسبعين في المدينة بالإضافة إلى المكتبة المركزيّة؛ وكان لقبه هو رجل المكتبات في لوس أنجلوس وكان مكتبُهُ يقع في الطابق الرابع من مبنى غودهيو. وفي صباح ذلك اليوم، كان في فرع المكتبة في هوليوود، يتحدث بمناسبة إطلاق برنامج محو الأميّة الجديد. وكان جونز أمين مكتبات المدينة منذ عام 1970. كان طويل القامة، سيئ الطبع من ميزوري، وعازف موسيقى جاز على البيانو، وساحراً هاوياً بارعاً، ومن النوع الذي يحبّ أنْ يُدخّن سيجارتين في وقتٍ واحد. وأشرفَ على إنشاء عدد من المكتبات الجديدة في مناصبه السابقة. وجاء إلى لوس أنجلوس على أمل أنْ يهدم المكتبة المركزيّة وينشئ مكانها مبنى أكثر حداثة، لكنّه وافق على مضض بدل ذلك على تجديده وتوسيعه. كان يحبّ أنْ يقول إنَّ الفوضى تعيثُ في كاليفورنيا، وفي لوس أنجلوس، وفي المكتبة، ولكنه سوف يعمل، بصورة ما، على الاستفادة من ذلك على أفضل وجه. وحالما انتهى حدث فرع هوليوود، غادر جونز وعاد إلى مكتبه في المكتبة المركزيّة. وفي طريقه إلى سيارته، اشترى شطيرة من بائع جوّال لكي يأكلها وهو يقود السيارة متوجهاً إلى قلب المدينة. فجلس خلف المقود، وشغّلَ الراديو، وأزال الورقة عن الشطيرة، وسمعَ نبأ حريق المكتبة، فرمى الشطيرة من النافذة، وانطلق بسرعة إلى قلب المدينة.

***

أغلقت الشرطة قِسْماً من طريق هاربر العامة، والشوارع السادس، والخامس، وهوب، وفلور، والغراند، وارتبكت حركة المرور حول المدينة. وازداد الازدحام أمام المكتبة. وتوافد مُراسلو التلفزيون والإذاعة، في انتظار سماع أيّة كلمة. وفي الداخل، كانت النيران تهدر للساعة الثالثة على التوالي. وكان الهواء في المبنى يلذع. والمياه التي ترشّ على اللهب كانت تغلي كماء إبريق الشاي. وتجمّعت المياه المُتدفّقة من الخراطيم في الطابق تحت الأرضيّ وأصبح عمقها خمسين بوصة. وكان الجو حارّاً في المبنى إلى درجة أنَّ رجال المطافئ لم يتحمّلوه طويلاً؛ كانوا يأخذون فترة استراحة كل بضع دقائق لكي تعود درجة حرارة داخلهم إلى مستواها الطبيعيّ. ولأنَّ أنفاسهم كانت ثقيلة، كانت زجاجات الأكسجين الإضافيّة، التي في المعتاد تدوم مدة ساعة، تُستنفد خلال عشر دقائق. وكان البخار المنبعث من المياه التي تغلي يرشح من خلال معاطف رجال الإطفاء الثقيلة والمُقاومة للّهب. ولُسِعَت آذانهم وأرسغهم ورُكبهم. وأصبحت رئاتهم هشّة بفعل الدخان. وعلى مدى يوم، عانى خمسون منهم من حروق، ومن استنشاق الدخان، أو من ضيق حادّ في التنفّس إلى درجة أنهم نُقِلوا إلى مستشفى قريب للمعالجة. وأحد رجال الإطفاء نُقِلَ بمروحيّة من السطح لأنه كان من فرط المرض بحيث لم يتمكن من العودة خلال النيران والخروج من الباب. واستعاد رجال الإطفاء كلهم وعيهم في نهاية المطاف، لكنَّ عدد الإصابات كان الأعلى في حادثةٍ واحدةٍ تعامل معها مكتبُ خدمة الطوارئ في تاريخه.

مع تقدُّم ساعات النهار بدأ يبدو أنَّ النار سوف تلتهم المكتبة على بكرة أبيها. والمساحة المزدحمة بأكوام الكتب جعلت الأمر يبدو أشبه بحريق سفينة وليس حريق مبنى - كان خانقاً، شرساً، يُغذّي نفسه بنفسه. واشتكى الرئيس مانينغ إلى أحد المراسلين قائلاً «إنَّ المهندس الذي صمَّمَ هذا المبنى قد يكون مهندساً عظيماً، لكنّه لم يكن يميِّز بين الفرج والقضيب الساخن عندما يتعلَّق الأمر بالحماية من الحريق». ومع ازدياد تشاؤم التقارير الواردة من رجال المطافئ الذين في داخل المبنى، اعترفَ مانينغ بأنه أصعب حريق واجهه مركز الإطفاء، وسوف يتطلَّب الأمر اللجوء إلى «كل السُبُل لإنقاذ هذا المبنى». ووفق هذا الإقرار بدا كأنّه يفتح الباب على مصراعيه أمام احتمال

ألّا تكون السُبل كلها كافية. وتنحّى أحد وكلاء مانينغ بإليزابيث تومان جانباً وأخبرها بأنه لا يعلم إنْ كان في مقدورهم فعل أي شيء آخر لأنَّ النار من الشِدّة بحيث إنَّ المبنى كان قابلاً جداً للاحتراق، وأنَّ أكوام الكتب تعمل عمل مدخنة موقد والكتب تزود بالكثير من الوقود. وطلب منها لائحة بالأغراض التي لا يمكن التعويض عنها في المبنى، في حال كانت كل ما يستطيعون إنقاذه. وتتذكّر تومان هذا بوصفه اللحظة التي أدركتْ فيها أنَّ الحريق حقيقيّ وأنّه يمكن أنْ يُدمِّر المكتبة برمّتها. وكانت من شدّة الاضطراب بحيث قرّرتْ أنْ تركِّز على القيام بأعمال مفيدة، كوصف تقسيمات الطابق لرجال الإطفاء وإبلاغهم بالأغراض التي يمكن المُحافظة عليها.

أعطى الرئيس تعليماته النهائيّة لوايمن جونز، الذي كان قد وصل تواً، ومن ثم غادر مانينغ إلى بلديّة المدينة لكي يُطلِع المُحافِظ توم برادلي على تطور الحريق ويُحذِّره من احتمال خسارة المبنى. وكان برادلي في صباح ذلك اليوم يحضر اجتماعاً في سان دييغو، وفي طريق عودته بالطائرة إبّان سماعه بأمر الحريق، علِقَ بحركة المرور بالقرب من المطار.

بحلول منتصف النهار، عمّت الأخبار المحليّة تقارير عن الحريق. وكانت باتي إيفنز، مديرة وكالة إعادة تطوير المجتمع في المدينة، قد عملتْ طوال ما يُقارب العامين لمعرفة كيفيّة تمويل تجديد المكتبة المركزيّة. وفي يوم اندلاع الحريق، كانت في مهمة تحكيم في المحكمة، لذلك لم تتمكّن من معرفة الأخبار. وخلال فترة استراحة المحكمة لتناول وجبة الغداء، اتصلت هاتفياً بمكتبها لتتفقّد الأمور، فطلبت منها السكرتيرة أنْ تأخذ نَفَساً عميقاً، ثم شرحتْ لها أنَّ المكتبة تحترق. هرعتْ إيفنز عائدة إلى غرفة التحكيم وطلبت الاجتماع مع القاضي على انفراد، ووافق على مغادرتها. ولدى وصولها إلى المكتبة، قرّرتْ أنْ تتجاوز الإجراءات البيروقراطيّة في المدينة وأنْ تُجري حواراً مع مُراسلي التلفزيون المحلّي، تطلب فيه من سكان المدينة المجيء إلى قلب المدينة لكي يتطوعوا فور إخماد الحريق.

كان الناس في عالم الكتاب النادر يولون انتباها خاصاً للأخبار الواردة من المكتبة. وأوليفيا بريمانيس، التي تعمل في قسم صيانة الكتب وخبيرة أنواع العفن والعفن الفِطريّ، كانت تعيش في تكساس ولكن تصادفَ وجودها

في لوس أنجلوس في ذلك الأسبوع. وعندما سمعتْ رئيسة المُحافظة على الصحف في متحف الفن في مقاطعة لوس أنجلوس عن الحريق، اتصلتْ ببريمانيس وقالتْ «المكتبة تحترق. يجب أنْ تذهبي إلى هناك»

***

على الرغم من استعار أوار النار في الداخل، لم يبد أنَّ المكتبة متأثرة بذلك إذا نظرتَ إليها من الشارع. كانت النقوش الجصيّة ناعمة ولم تتأثر. والحجر الجيري المواجه للجدران الخارجيّة كان سليماً كما الساتان. والتماثيل المنحوتة كانت تحدِّق من دون أنْ ترى إلى المدى المتوسّط. وومضَت النوافذ وتلألأتْ في ضياء الشمس. كان الجو هادئاً. ما عدا تسرّب الدخان الشاحب من السطح، وما كنتَ لتلاحظ أنّ ثمة شيئاً مفقوداً. وفجأةً، إذا بالنوافذ المُطلة على الجانب الغربيّ من المكتبة تنفجر، مع صوت انكسار حادّ، برّاق، وتخترقها أذرع اللهب الحمراء نحو الخارج وعالياً، وتصفع الواجهة الحجريّة. وطفقَتْ إحدى موظفات المكتبة اللاتي يُراقبن من الرصيف تبكي. وانكمشت أمينات أقسام المكتبة. قالتْ إحداهن إنها شعرتْ كأنها تشاهد فيلم رعب. ووفقاً لأمين المكتبة غلين كريسون، كان النسيم ممتلئاً «برائحة تحطُّم قلب ورماد»

في المبنى، بدأ الهواء يرتعش بحرارة متوهجة. وشعر فرقاءٌ كانوا يُحاولون أنْ يشقّوا طريقهم نحو أكوام الكتب كأنهم يُحطمون متراساً، كأنَّ الحرارة أضحت صلبة. وقال لي أحدهم «لم نتمكّن من الوقوف لأكثر من عشر ثوانٍ، أو خمس عشرة ثانية. ثم أسرعنا إلى مغادرة المكان». ووصلتْ درجة الحرارة إلى 2000 مئويّة. ثم ارتفعتْ إلى 2500. وبدأ القلق يتسرَّب إلى نفوس رجال المطافئ بشأنِ قفز الوميض، وهو وضعٌ مُخيف في أثناء أي حريق حيث يُصبح كل شيء ضمن مساحة محدودة –حتى الدخان– عالي الحرارة إلى درجة وصوله إلى نقطة الاشتعال التلقائيّ، مُسبّباً اندلاعاً كاملاً ومُهلِكاً للنار في كل سطح. وحسب تعبير رجال المطافئ، إنها اللحظة التي تتحول فيها النار في غرفةٍ ما إلى غرفةٍ تشتعل. ومع ارتفاع درجة الحرارة إلى هذا المستوى، تتوفر إمكانيّة هائلة لحدوث اندلاع شرارة، مما يجعل فرصة إنقاذ أي شيء شبه مستحيلة.

وتتقدَّم كتلة النار، تقطع مسافة ثلاثمائة قدم على طول الطابق الثاني من المكتبة، ثم تتوقف لكي تقفز إلى الممشى المؤدّي إلى أكداس الكتب في الجهة الجنوبيّة الشرقيّة. وتهاجمها فرق الإطفاء من الجهة الغربيّة، بمنعطفات تستغرقُ خمس عشرة دقيقة على طول خراطيم المياه، وينقضّون بلا رحمة بدفقٍ قويّ من الماء. وأخذَ فريق الإنقاذ بالانقضاض على الجدران بالمطارق، كاسراً النفق الخانق الذي تشكّله الرفوف. وتدفّقَ الهواء العالي الحرارة من الرفوف إلى غرف القراءة، كتدفّق الحرارة من باب أتونٍ مفتوح.

انهارَ الرفّان السادس والسابع في أكوام الكتب الشماليّة الغربية.

أصبحت المياه التي تُخمِد النار مشكلة بقدر ما هي حلّ. وأمناء المكتبة دائماً يقلقون من فيوض الماء أكثر من قلقهم من النار، والآن يخشون الاثنين. فالكثير من الكتب التي لم تحترق غرقتْ في الماء. وانتفختْ أغلفتها وصفحاتها كالبالونات. وشقّت فِرق الإنقاذ طريقها مُتقدِّمة فِرق الخراطيم، وهي ترمي أغطية من البلاستيك على الرفوف، باذلة أقصى جهدها لحماية الكتب قبل بدء رشّ الماء. وفي الطابق الثالث، قامت شركة المنافع الثقيلة 27 بإحداث ثمانية عشر ثقباً في الإسمنت المُسلَّح لتحرير بعض من الحرارة العالية.

أخيراً، وبعد مرور خمس ساعات، خفَّ تدّفق اللهب الشبيه بتدفّق الماء، مُستسلماً لفيوض المياه وللهواء البارد المتدفّقة من خلال الثقوب المفتوحة في السقف وفي الأرضيّة. وتراجعت النار عن القسم الجنوبي الشرقيّ من المبنى وتجمّعتْ في الأكوام الشماليّة الورقيّة، حيث كانت النار تتلظّى بشراسة، وتتغذّى على الكتب واحداً بعد آخر، كوحشٍ يُقرمشُ رقائق البطاطا. وأحدثَ فريق إطفاء النار المزيد من الثقوب – في الطابق الثالث، في جدران أكوام الكتب، وفي السطح. وامتزج هواء نيسان المنعش مع الحرارة الخانقة التي في الداخل، وانخفضَتْ درجة الحرارة شيئاً فشيئاً. ومع تقلّص الحرارة، حفر رجال الإطفاء أعمق وأغرقوها بالماء.

خبا اللهب في الأكوام الشماليّة الغربيّة ثم انطفأ.

كانت النار في الأكوام الشماليّة الشرقيّة، حيث بدأتْ شرارتها الأولى،

ما تزال كامنة، لكنّها لم تعُد شرسة كما كانت في أول النهار: حينئذٍ كانت قد استهلكتْ معظم وقودها. والكتب في الأكوام الشماليّة الشرقيّة كانت قد تحوّلتْ إلى فُتات، ورماد، ومسحوق، وإلى صفحات محروقة متراكمة بعمق قدم. ورفرفتْ آخر رايات النار، ثم خفَّتْ، ثم خمدَتْ، وأخيراً انطفأتْ. وقد استلزمَ ذلك 1400 عبوة من الأكسجين؛ و13,440 قدماً مُربَّعاً من أغطية الإنقاذ؛ ومقدار إكرين من أغطية البلاستيك؛ وتسعين رزمة من نشارة الخشب؛ وأكثر من ثلاثة ملايين غالون من الماء؛ وانضمام معظم رجال إطفاء لوس أنجلوس مع معدّاتهم، ولكنْ أُعلِنَ أخيراً أنَّ حريق المكتبة قد أُخمِدَ، «صُرِعَ»، عند الساعة السادسة والنصف مساءً، في التاسع والعشرين من نيسان، عام 1986. واستمرَّ سعيره سبعَ ساعات وثمانيَ وثلاثين دقيقة.

-3-

«ما يحتاج كل صاحب منزل أنْ يعرفه عن العفن وكيف يُكافحه» (2003)
تأليف لانكارج، فيكي
693.893 L289

«المُحافظة على أغلفة الكتب الجلديّة» (1894)
تأليف بليندرليث، ه. ج.
025.7 P725

«روعة الرسائل: دوام الكتب في عالمٍ غير دائم» (2003)
تأليف باسبانيس، نيقولاس أ.
085.1 B297

«طبخ الفشار المُفرقِع» (1995)
تأليف ستير، جينا
641.65677 S814



الكتب التي ضاعت: جزء من رواية «دون كيخوته» طبعة عام 1850، مع تصاوير من تنفيذ الطابع الفرنسيّ غوستاف دوريه. وكل الكتب التي أُلِّفَتْ عن الكتاب المقدّس، والمسيحيّة، وتاريخ الكنيسة. وكل سيَر الشخصيات التي تبدأ أسماؤها من هـ إلى ك. وكل المسرحيات الأميركيّة والإنكليزيّة. وكل تاريخ المسرح. وكل مؤلفات شكسبير. وتسعون ألف كتاب في

الكومبيوتر، وعلم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، وعلم الأحياء، والطب، وعلم الزلازل، والهندسة، وعلم المعادن. وكل المخطوطات غير المُغلَّفة التي في قسم العلوم. وكتاب من تأليف المهندس المعماري أندريا بالاديو من القرن السادس عشر. وخمسة ملايين ونصف المليون من قوائم براءات اختراع أميركيّة التي يبدأ تأريخها من عام 1799، ومزوّدة برسوم ووصف. وكل براءات الاختراع الكنديّة من الفترة الزمنيّة نفسها تقريباً. وخمسة وأربعون عملاً أدبيّاً، أسماء مؤلفيها تبدأ أحرف أسمائهم الأولى من الألف إلى اللام. وورقة من نسخة كوفرديل للكتاب المُقدَّس عام 1632، كانت أول ترجمة كاملة بالإنكليزيّة الحديثة. والمجموعة الكاملة من حوليّات جين السنويّة عن الطيران، التي يعود تاريخها إلى عدة عقود. وتسعة آلاف كتاب في الأعمال. وستة آلاف مجلّة. وثمانية عشر ألف كتاب في العلوم السياسيّة. والنسخة الأولى من كتاب فاني فارمر «*كتاب طبخ مدرسة الطبخ في بوسطن*» من عام 1896. واثنا عشر ألف كتاب في الطبخ، وتتضمَّن ستة كتب من وصفات تحضير الفشار. وكل دوريات الفنون وكل كتاب في الفن طُبِعَ على ورقٍ صقيل، ذابت وأضحتْ كتلة دبقة عندما تعرَّضَتْ للماء. وكل كتاب في عِلم الطيور. وثلاثة أرباع كافة محتوى المكتبة من المايكروفيلم. ووقعتْ رقعُ المعلومات حول عشرين ألف صورة فوتوغرافيّة، عندما نالها البلل. وكل كتاب وُضِعَ على الرف مُصادفة في الأقسام التي احترقَتْ؛ ولن نعرف أبداً ماذا كانت، لذلك نحن لا نعرف ما الذي فقدناه. وفي المُجمل، دُمِّرَ أربعمائة ألف كتاب في المكتبة المركزيّة في الحريق. وسبعمائة ألف أخرى تضرّرت كثيراً إمّا بفعل الدخان أو بفعل الماء أو، في حالات عديدة، بكليهما. وكان عدد الكتب التي دُمِّرتْ أو تضرَّرتْ يُعادل مجموع فروع المكتبات النموذجيّة. كانت أكبر خسارة مُنيَتْ بها أيّة مكتبة عامة في تاريخ الولايات المتّحدة.

***

بقيَ المكان حاراً على مدى خمسة أيام. واشتعلتْ حرائق صغيرة هنا وهناك، تسبّبت بها الحرارة المُحيطة. واقتربتْ درجة الحرارة من المائة درجة، واستمرَّ رجال الإطفاء في ارتداء الملابس الواقية ووضع أجهزة

التنفّس وكانوا في حاجة إلى التناوب في الخروج بعد كل عشر دقائق في الداخل. وفي الحال بعد إخماد الحريق الرئيسيّ، هرع الطاقم إلى إخلاء الطابق التحتيّ والطابق الرئيسيّ من الماء. وكانت كميّة هائلة من الماء قد تجمَّعَتْ بحيث إنَّ المُهندسين انتابهم القلق من أنْ تنهار الأرضيّة تحت ثقلها. أراد المهندسون أنْ يُبرِّدوا المبنى لكنهم لم يتمكّنوا من المُخاطرة بتدمير المزيد من الكتب بالماء. أرادوا أنْ يُزيلوا بقايا الحطام لكي يلجوا البقع الحارَّة، لكنَّ الرئيس مانينغ أصدر أوامره بترك المكان كما هو، من أجل الحِفاظ على أي شيء يمكن أنْ يُساعد المُحققين لتحديد سبب اندلاع الحريق.

بقيَ موظفو المكتبة فيها على مدى سبع ساعات ونصف الساعة التي اندلع خلالها الحريق، ومكثوا بعد ذلك إلى أنْ أخمدوه. وحالما سمح قسم الحرائق، دخل المئتان كلهم تقريباً المبنى. كان المكان في الداخل قذراً، يعبقُ بالدخان، وزلقاً بسبب المياه الممزوجة بالحطام. وكان الرماد بعمق كاحل القدم. وبدت الرفوف الذائبة غريبة الشكل. وأعلنَ وايمان جونز أنَّ داخل المكتبة بدا «أشبه بموقع تصوير فيلم رخيص، يُنفّذه رجال المؤثّرات الخاصة الذين يتلقّون أجوراً زهيدة». وشقَّ غلين غريسون وأمين مكتبة آخر، اسمه روي ستون، طريقهما داخل أكداس الكتب ليأخذا فكرة عما تمَّ إنقاذه. وكانا أيضاً يبحثان عن حقيبة يد زوجة روي؛ كانت هي أيضاً أمينة مكتبة، وكانت قد تركتْ حقيبة يدها عندما انطلق نفير صفّارة الإنذار. لم يعثرا على حقيبة اليد، فخرج كارسون وستون من بين الأكداس وانتقلا إلى غرفة براءات الاختراع، حيث واجها أكواماً من السخام وصفاً طويلاً من آلات الكتابة الذائبة. وتجوّلَ بيلي كونور، أمين مكتبة الأطفال، بين الفوضى العارمة مع هيلين موتشيدلوفر. وكونور وموتشدلوفر أصبحا متقاعدين معاً الآن، لكنّهما ما زالا يترددان كثيراً على المكتبة، وذات يوم جلسنا وتحدثنا عن تجربتهما عن الحريق. وتصادفَ أنَّ الغرفة التي جلسنا فيها كانت إحدى أشدّ الغرف تأثّراً بالحريق وأضحت الآن غرفة اجتماعات أنيقة. تحدثا عن الحريق وكأنّه وقع في وقتٍ مبكّرٍ من صباح ذلك اليوم. قال كونور إنهم عندما دخلوا المبنى بعد انتهاء الحريق، شعروا كأنهم ماتوا وذهبوا ليروا إنْ كان

دانتي كان يعرف ما يكتب عنه. وقالت موتشيدلوفر، الشبيهة بالطائر وحيويّة، إنها اضطربتْ في يوم الحريق بقدر اضطرابها عندما اغتيل الرئيس كينيدي. وفي حديث أجريته مع أمينة مكتبة كبيرة أخرى في ذلك اليوم أخبرتني بأنَّ مشاهدة المكتبة وهي حُطام آلمَها إلى درجة أنّ الدورة الشهريّة لم تأتها على امتداد الأشهر الأربعة التالية.

كانت الكتب التي نجت من النار مُكوَّمة حيث وقعَتْ أو التصقت معاً على الرفوف. وأخبرت أوليفيا جونز، المسؤولة عن صيانة الكتب، وايْمان جونز بأنهم اضطروا إلى القيام بسرعة بتجميد الكتب وأنَّ أبواغ العفن تبدأ بالتفتّح في غضون ثمان وأربعين ساعة بعد أنْ تنشط بفعل الماء. وإذا أُصيبت الكتب بالعفن، لا يمكن إنقاذها. وهذا يعني أنَّ الهيئة الإداريّة سوف تُضطر إلى الاستعداد لنقل وتخزين سبعمائة ألف كتاب مُتضرِّر إلى مكان بارد قبل أنْ يظهر العفن.

بحلول المساء، كان خبر الحريق قد انتشر في أرجاء المدينة. وجاء مئات المتطوعين إلى المكتبة لتقديم يد العون من دون أنْ يعلموا ماذا يمكن أنْ يُقدّموا من مساعدة. لم تتوفّر إلا حفنة من الخوذ وانعدمت الصناديق من أجل استيعاب الكتب ولم يتوفّر مكان لتخزينها. ولم يكن ممكناً أيضاً ببساطة وضع الكتب في مستودع، بسبب خطر تفشّي العفن. وقبل ذلك ببضع سنوات، كان فندق بينافينتور، القريب من المكتبة، قد عرضَ مساحة داخل مُجمّدة المطعم في حال تبلّلَ كتابٌ نادر واحتاج إلى تجميده إلى أنْ يعمل موظف الصيانة على الاعتناء به. لكنَّ مُجمّدة فندق بونافينتور لم يكن في وسعها أنْ تستوعب سبعمائة ألف كتاب مُشبَّعاً بالماء. وكان في لوس أنجلوس صناعة معالجة السمك قيمتها ملايين الدولارات ولديها أكبر مستودعات للتخزين في البلاد، لذلك كانت هناك مُجمّدات ضخمة في المدينة. واقترحَ أحدهم الاتصال بإحدى شركات إنتاج السمك. وعلى الرغم من أنَّ مُجمّداتهم كانت ممتلئة، فإنَّ الشركات وافقتْ على إفساح حيِّز للكتب.

أُرسِلَ المتطوعون إلى منازلهم وطُلِبَ منهم أنْ يعودوا في الفجر. وأخذتْ محطات الإذاعة والتلفزيون تُطلقُ نداءً طالبة المزيد من المتطوعين

ليأتوا إلى المكتبة في اليوم التالي. واتصلت عُصبة الطلائع بأعضائها وحثّتهم على تقديم يد المساعدة، مُحذِّرة، «هذا عمل ضخم وقذر [إنْ صحّ التعبير] بشكل مُعتدل إلى مُجهِد، لذلك نرجو ارتداء ثياب مناسِبة لذلك». ومنحت شركة IBM مُستخدميها عطلة لكي يتطوّعوا. وفي صباح اليوم التالي، تجمَّعَ ما يُقارب الألفي شخص في المكتبة. وفي أثناء الليل، نجحت المدينة في إنتاج آلاف علب الكرتون، وألفاً وخمسمائة خوذة، وبضعة آلاف لفّة من أشرطة لاصقة للحزم، وخدمات إريك اندكويستْ، المهندس الميكانيكي والموزِّع السابق للفشار، الذي أعاد تجديد نفسه كخبير في تجفيف الأشياء المُبلَّلة. وفكرة وضع الكتب داخل البقاليّة لم تُقلِق لندركويستْ، بما أنّه قام بتجميد أول دفعة كتب تمَّ إنقاذها وجُمِّدَتْ حتى جفَّتْ جنباً إلى جنب مع نتاج فصل الصيف من الفاصولياء والجزر من حديقته.

كان عملاً ضخماً. كانت الكتب الرطبة المسودّة بالدخان في حاجة إلى أنْ تُنقَل، مع كل كتاب آخر في المكتبة؛ كان ينبغي إفراغ المبنى لكي يتمّ إصلاحه. وقرّر وايمان جونز ألّا يكشِف عن مكان تخزين الكتب، في حال كان الحريق مُفتَعَلاً وكان مُفتعلوه يبحثون عن تلك الكتب.

بتعليمات لندكويست، عمل المتطوعون على مدى الأيام الثلاثة التالية وعلى مدار الساعة. غالبيتهم كانوا غرباء أحدهم عن الآخر، اجتمعوا معاً مُصادفة، وعملوا معاً طوال ساعات، باجتهاد وبسلام. شكّلوا سلسلة إنسانيّة، يُمرّرون الكتب من يدٍ إلى يد من شخصٍ إلى آخر، خلال المبنى الذي يعبق بالدخان وإلى خارج الباب. وكأنَّ سكّان لوس أنجلوس، في تلك اللحظة المُلحَّة، شكّلوا مكتبةً حيّة. ابتكروا، فترة وجيزة من الوقت، نظاماً لحماية وتمرير معرفة يتشاركون فيها، لإنقاذ ما نعرفه من أجل كلٍ منا للآخر، وهذا ما تفعله المكتبات في كل يوم.

***

عبّأ المتطوعون أكثر من خمسين ألف صندوق، وكل منها احتوى خمسة عشر كتاباً مرصوصاً. وحالما امتلأت الصناديق، وُضِعَتْ على منصّات نقّالة –وأخيراً، ملأوا أكثر من ألف وثمانمائة صندوق– ومن ثم حمّلوها

على سيارات شاحنة. أما الكتب الجافة والسليمة فأُخِذَتْ على متن سيارات شاحنة مُبرَّدة إلى مستودعات للطعام، حيث خُزِّنَتْ على مناصِب بين القريدس المُجمَّد وأزهار البروكولي عند درجة حرارة معتدلة هي 70 تحت الصِفر. ولا أحد كان يعلم متى ستُذاب الكتب المتضررة أو كم منها يمكن إنقاذه. ولم تُجرَ أيّة مُحاولة على هذا الأساس.

بينما الكتب تُنقَل، كان المُحقّقون يمشّطون المبنى، ويُدوّنون ملاحظات حول أشكال البقع المحترقة التي على الأرض ومسار اللهب. وعلى الرغم من اختراقات شفرات النار وكون المبنى مملوءاً بالكتب وأنَّ الأسلاك الرديئة كان يمكن أنْ تشتعل باللهب من تلقاء ذاتها، فإنّ المُحقّقين اعتقدوا منذ البداية تقريباً أنَّ الحريق مُفتَعَل. كان ذلك افتراضاً مُحافِظاً، لأنَّ حرائق المكتبات في الولايات المتحدة هي دائماً تقريباً ما يُعرَف في علم المفردات بأنها «مُهيَّجة» -أي، حريق سبّبه تدخّل من إنسان. وفي معظمها هي نتيجة تخريب غير مقصود خرج عن نطاق السيطرة.

استخدمتْ لوس أنجلوس تسعة عشر مُحقّقاً في الحرائق المُفتعلة. انضمَّ إليهم عشرون عميلاً من المكتب الفيدرالي للكحول، والتبغ ورجال المطافئ، لحلّ هذه القضيّة. وكان اهتمام الفريق الأول ينصبّ على العثور على مفتاح معرفة كيف بدأ الحريق– ربما كانت شرارة من سلك مسلوخ، أو بقعة تدل على سائل خفيف، أو عود ثقاب رماه أحدهم بإهمال بالقرب من إحدى المجلّات. وأعلنت المدينة عن جائزة قيمتها عشرون ألف دولار لمَنْ يُدلي بمعلومات عن منشأ الحريق. وأضاف المكتب الفيدرالي للكحول والتبغ ورجال الإطفاء مبلغ خمسة آلاف دولار، ووضع متبرّع مجهول الهويّة خمسة آلاف دولار أخرى.

بعد يومين من دراسة المبنى، لم يتوصّل المُحقّقون إلى أيّة نتيجة، لكنَّ عبارة «حريق متعمَّد» بدأتْ تتسرَّب إلى قصص عن الحريق. وأوردتْ صحيفة *لوس أنجلوس ديلي نيوز* مقالة تحت عنوان «الشكوك تزداد حول كون حريق المكتبة المركزيّة مُتعمَّداً». وذكرتْ صحيفة *لوس أنجلوس هيرالد إكزامنر* أنَّ صورةً مُركَّبة لشخص «غريب» عُرِضَتْ على مُستخدمي المكتبة. وفي السادس من شهر أيار، بعد إطفاء الحريق بأسبوعٍ فقط، ظهر

مقال في صحيفة *لوس أنجلوس تايمز* أعلنَ أنَّ «حريق المكتبة مُتعمَّد، حسب تصريح برادلي ورئيس مكافحة الحريق». ونُقِلَ عن الرئيس مانينغ قوله «من دون أيّ تحفّظ... نستطيع الآن أنْ نُخبركم أنّه كان حريقاً مُتعمَّداً». ووِفقاً لمانينغ، فإنهم يبحثون عن «رجل أشقر في أواخر عشرينيات أو ثلاثينيات عمره شاهده عددٌ من المُستخدمين بالقُرب من نقطة منشأ الحريق... طوله ستة أقدام، أزرق العينين، أشقر أصهب الشَعر، له شارب خفيف، ووجه نحيل. كان ينتعل حذاء رياضيّاً، ويرتدي بنطلون جينز، وقميصاً خفيفاً». وصدر رسمٌ أوّليّ مُركَّب. يظهر الرجل في ذلك الرسم بجبين عريض وعينين واسعتين، وأنف معقوف، وبشارب كثّ جدير بشخصيّة كرتونيّة محتالة، وبشعر أشقر غزير شكَّلَ إكليلاً ناعماً يُحيط برأسه ويمتد كجناحين في شبه لفافات تغطي أُذنيه. لا يمكنكَ أنْ تُقسِم على أنّه هاري بيك، ولن تُقسِم على أنّه ليس هو.

***

خلال أيام الأسبوع، هيمن الحادث النوويّ في تشيرنوبيل على الصحف في أرجاء العالم كلّه ما عدا صحيفة *برافدا*، التي ذكرت الخبر باقتضاب لكنها نجحتْ في إيجاد مساحة رحبة لتنقل خبر حريق المكتبة المركزيّة. وبعد مرور ذلك الأسبوع المُرعِب على تشيرنوبيل، استطاعت الصحف الأميركيّة أنْ تُفسِح حيِّزاً لنقل وقائع حريق المكتبة؛ وفي أرجاء البلاد ظهرت مقالات تحمل عناوين على غرار «اللهب يُدمّر كتباً قيِّمة؛ اللهب يُدمّر مكتبة لوس أنجلوس؛ مأساة مدينة؛ الحريق يحرق مجموعات بأكملها؛ والدخان يعمّ». وألمحتْ صحيفة بوسطن غلوب إلى أنَّ أحداث تشيرنوبيل ولوس أنجلوس بينهما «تناسُق مُخيف» لأنَّ كلاً منهما يُثير الخوف البدائيّ من اندلاع حريقٍ يخرج عن نطاق السيطرة، بالإضافة إلى خوفنا من وجود قوة مُهدِّدة لا يمكن التعامُل معها.

كانت المكتبة المركزيّة مكاناً يضجّ بالحركة. وفي كل عام، كانت تتم إعارة تسعمائة ألف كتاب؛ وتتم الإجابة عن ستة ملايين سؤال مرجعيّ؛ ويمرّ سبعمائة ألف شخص من الأبواب. وبعد إخماد الحريق بيومين، كانت خالية إلّا من البقايا السوداء الناعمة لأربعمائة ألف كتاب مُدمَّر. وأُلبِسَت

التماثيل قماشاً مُشمَّعاً أبيض. وكانت الجدران والسقف مكسوّة بالقار وكئيبة، وغرف القراءة خالية. وكانت المداخل مُقفلة وعليها ختم الشرطة. وكانت بضعة صناديق مسحوقة على الأرصفة في الشارع الخامس، بجوار مدخل المكتبة، حيث علّق أحدهم لافتة مكتوباً عليها بخطّ اليد: **شكراً لك يا لوس أنجلوس! سوف نعود أكبر وأفضل.**

-4-

«كل شيء عن كاليفورنيا، وعن إغراءات الاستقرار هناك» (1870)
صفحة مطويّة تحتوي ألوان الطعام، والخرائط.
تأليف اتحاد مُهاجري كاليفورنيا
C1527 979, 4

«حركة الهجرة واقتصاد جنوبيّ كاليفورنيا» (1964)
تأليف مجلس أبحاث جنوب كاليفورنيا
S727-7 330, 9794

«نقوش مقبرة سان جاسينتو، 1888–2003» (2003)
تأليف هال، ديل
Gen 979-41 S227Ha

«ساعي البريد دائماً يقرع الجرس مرّتين» (1944)
تأليف كين، جيمس م.

أخت هاري بيك، ديبرا، تحبّ أنْ تصِف عائلتهما بأنها تعاني من مصائب لا نهاية لها. وهي لا تقول هذا بنبرة رثاء الذات أو رعب بل بحياديّة شخص مُثمِّن يصِفِ الكون حيث الحظ، والثروة، والمأساة، والكارثة مفروضة عشوائيّاً. وفي رأي ديبرا، أنَّ سوء حظ بيك ليس مُخزياً أو يصدم، بل هو مجرد رمية حظ لم تكن في مصلحته.

قابلتُ ديبرا لأنني كنتُ أبحث عن هاري بيك؛ أردتُ أنْ أعرف إنْ كان حقاً أضرمَ النار في المكتبة، وإنْ كان قد فعل، فلِمَ فعلها. وإذا لم يكن مُذنباً، فكيف وُجِّهت يد الاتّهام إليه؟ لم يكن سهلاً تقصّي أثر هاري. وأخيراً، صادفتُ رقم هاتف يخصّ هاري بيك في منطقة لوس أنجلوس، ولكن اتّضحَ أنّه يخصّ والد هاري، الذي كان اسمه أيضاً هاري، وعندما اتّصلتُ أجابت ديبرا على الهاتف. وحالما حدّدنا جيل العائلة الذي عثرتُ عليه شرحتُ لها سبب محاولتي تحديد موقع أخيها. فقالت ديبرا إنَّ ذلك مستحيل، لأنَّ هاري توفيَ في عام 1993، بعد حريق المكتبة بسبعة أعوام. واستأنفتْ قائلة إنها سعيدة لأنني سوف أكتب مقالة حول ما حدث لهاري. ودعتني لزيارتها، فلبّيتُ الدعوة في اليوم التالي.

ديبرا ضئيلة الحجم وذات بنية عضليّة، وعينين زرقاوين وشعر أشقر زُغبيّ ونقرات جميلة تظهر عندما تُدخِّن وعندما تبتسم. يمكن ارتكاب خطأ واعتقاد أنّها مراهقة خشنة، لكنها في الواقع جَدَّة في منتصف خمسينيات عمرها. وفي يوم لقائها كانت ترتدي قميصاً تحتيّاً أبيض قصيراً وبنطلون جينز. وتلك الملابس جعلتها تبدو كأنها استعارتها من أناسٍ أنماط أجسادهم تختلف عن نمطها. إنَّ ديبرا أرملة وأولادها بالغون. ومؤخراً عادت لتعيش مع أبويها لكي تساعدهما في مصائبهما وأمراضهما وتوفّر أجرة السكن في الوقت نفسه.

كان لآل بيك منزل مزرعة متواضع في هيمت، وهي بلدة صغيرة تتألّف من منازل مزارع متواضعة تقع على بُعد ثمانين ميلاً إلى الشرق من قلب مدينة لوس أنجلوس ومقدار ساعة من الزمن عن سانتا فيه سبرينغز، حيث عاش الوالدان بيك عندما كان أولادهما يكبرون. وفي يوم زيارتي لديبرا كان الجو قائظاً، خانقاً. وبلدة هيمت قاحلة ويسودها السكون، وكل شيء يومض كأنّه في مِرجل. الطريق الذي يمرّ من أمام منزل آل بيك يومض. ومرجهم ورصيفهم يومضان. وعندما قُدتُ السيارة على جزء مُرقَّع من الطريق من أمام منزلهم، سمعتُ لزوجة القار الذائب الدبق على دواليب سيارتي.

هتفتْ ديبرا لي وأنا أوقف سيارتي، «حسن، ها قد عثرتِ علينا». ووقفتْ بجوار الباب الأماميّ وأشارت لي كي أدخل. وفي غرفة الجلوس، كان

والدها يغطّ على الأريكة، وأمّها كانت تغفو وهي جالسة على الكنبة. وضجَّ جهاز التلفزيون الذي في الركن بموجة حادّة من التصفيق والضحك من برنامج للألعاب. خرجنا إلى الفناء الخلفيّ وجررنا كرسيّين قابلين للطيّ إلى ظل فضيّ رمته حافة السقف. وفتحت ديبرا عبوة بيرة ومن ثم بدأتْ تتكلَّم عن أخيها – عن شكله، وعن كونه صاحب نكتة. كانت تضحك وهي تتكلَّم، ثم انتقلتْ إلى نوبة من السعال البلغميّ. ورشفت من البيرة واستردَّت أنفاسها. وبعد برهة، بدأتْ تُخبرني كيف جلب هاري المتاعب على نفسه طوال الوقت. وأوردتْ مِثالاً على ذلك، قالت، إنّه رسم على وجهه ابتسامة واسعة كالمجنون عندما أُطلِقَ سراحه من السجن بعد الحريق، بحيث إنّ كل الصور التي ظهرتْ له في الصحف جعلته يبدو كأنَّ الأمر كلّه حلقة من عرضٍ كوميديّ. قالت ديبرا «كان ذا ذكاء خارق، لكنّه كان معدوم الحسّ. كان يعمد إلى التمادي في الأشياء. وتورّطَ في المشاكل بسبب ذلك. هو فقط لم يفهم الحركة التي قام بها ومدى غبائها»

لم يكن آل بيك في حاجة إلى المزيد من المشاكل: قالتْ ديبرا إنَّ لديهم ما يكفي منها. وبدأتْ تُعدِّد أعباءها، وكانت كثيرة: فقد كادتْ تستسلم للموت في المهد كطفلة وهي الآن تعاني من الــ fibromyalgia، وهي حالة عصبيّة عضليّة مؤلِمة. وكان أحد أقربائها قد قُتِلَ في أثناء شجار بين العصابات وقريب آخر مُصاب بحالة توحّد شديدة. وتوفيَ زوج ديبرا، الذي كان يزن حوالي ستمائة رطل، متأثراً بسكتة دماغيّة قوية قبل وقت قصير. بل إنَّ سوء الحظّ كان يتغلغل في الأجيال السابقة. فقد قُتِلَ جدّا ديبرا لأمها في حادث تحطُّم سيارة بعد انتقالهما إلى كاليفورنيا من ميسوري ببضع سنوات. وكانت قد عَرَضَتْ عليّ مقالة صحفيّة عن الحادث ونحن نتجول في المنزل. كانت المقالة موضوعة داخل إطار ومعروضة وسط تحف رخيصة في الرواق بجوار المطبخ. وألمحتُ إلى أنَّ الحادث يبدو مُروِّعاً، لكنَّ ديبرا هزّتْ كتفيها استخفافاً وقالتْ «حسن، لقد كانا ثملَين»

بعد أن انتهتْ من سرد متاعب آل بيك، قالت ديبرا «ولكن سوف أخبركِ شيئاً واحداً موثوقاً»، سكتتْ برهة، وضحكتْ، ثم قالتْ، «نحن *لسنا* عائلة مُملّة»

***

قَدِمَ آل بيك من ميسوري في أربعينيات القرن العشرين، عندما كانت كاليفورنيا أشبه بمغناطيس كهربائيّ عملاق ينتزع عائلات من المزارعين بعيداً عن براريهم. بدتْ كاليفورنيا أشبه بوعد: وفرة مثاليّة رائعة وسط المساحة الثريّة الممتدّة بين المحيط والجبال والصحراء. وكانت الأماكن التي تجذبهم هي بلدات على غرار هيمت وسانتا فيه سبرينغز. ولم تكن مدينة لوس أنجلوس –القذرة، المتنافرة، تعجّ بالمُهاجرين وبالممثلين– تبعد أكثر من ساعة من الزمن. ونظريّاً، كانت مرسى المنطقة، لكنّها كانت على مسافة روحيّة واجتماعيّة نائيّة حتى يمكن أنْ تكون على سطح القمر. وفي الغالب كان المستوطنون في وادي سان جاسينتو لا يأملون في الاقتراب من لوس أنجلوس بل في الابتعاد أكثر عنها. كانوا يطمحون إلى احتلال المزيد من المساحة، وإلى عدد أقلّ من الناس، وإلى سلطة أوسع، وأقلّ فوضى. وبمعنى ما، حاولتْ عائلات مثل آل بيك أنْ تعيد ابتكار الحياة الريفيّة التي خلّفوها وراءهم في أماكن مثل ميسوري؛ أرادوا أنْ يكونوا في كاليفورنيا البريّة، وسط مرج الشجيرات، والمزارع الصغيرة، وليس في لوس أنجلوس الفوضويّة، المحمومة، المنبسطة والملتوية. وكأنَّ وادي سان جاسينتو ليس حقاً منطقة قصيّة عن لوس أنجلوس بل مجرد رافد للسهول المترامية الممتدّة غرباً، تتخطّى المدن الكبرى، ولها حدودها الحقيقيّة في مكان ما ناءٍ وشرس، على غرار، فلنقُل، ألاسكا. حتى في الجزء المُعبَّد من كاليفورنيا والمزدحم بالمنازل، كانت تُثير شعوراً بالعزلة الشتائيّة.

وُلِدَ والد هاري وديبرا في ميسوري، لكنَّ عائلته انتقلتْ إلى كاليفورنيا عندما كان شاباً صغيراً. وطُرِدَ من المدرسة الثانوية وأخيراً أصبحَ ميكانيكيّاً يصنع صفائح معدنيّة، وانضمَّ إلى آلاف الرجال الذين كانت تستأجرهم صناعة الفضاء في جنوب كاليفورنيا في خمسينيات وستينيات القرن الماضي عندما كانت ممتلئة بعقود دفاع ما بعد الحرب وبأموال سباق الفضاء. وتزوج صغيراً. وسرعان ما أنجب هو وزوجته أنابيل أربعة أطفال – ديبرا، وبريندا، وبيلي وهاري.

أُعِدَّت المزارع العشوائيّة والأراضي الجرداء المُحيطة بمصانع الفضاء وزُرِعَتْ بصفوف من منازل من القصب من طابق واحد وغرفتَي نوم لتلائم

كل العائلات الشابة على غرار عائلة آل بيك. وتلك الأحياء الجاهزة كانت متماثلة إلى درجة أنها بدتْ كأنها خرجتْ من قالب واحد، وهبطتْ من الهواء، وأُقيمتْ كمجموعات كاملة. كان الأطفال يخرجون من البيوت كلّها. وكانت البلدات الصغيرة التابعة تبرز بين مظاهر التطوّر، تمثّل الوفرة المُذهلة لمطاعم الوجبات السريعة ومخازن بيع فراش الأسرّة. وكانت معظم الأمهات في الحي يمكثن في المنزل مع أطفالهن، لكنَّ أنابيل عملتْ مُحاسِبة في سوق لبيع التجزئة فيما يمكن اعتباره الاتّجاه الخاطئ – كان المتجر يقع على أطراف لوس أنجلوس. وأخبرتُ ديبرا أنني أُقيم في لوس أنجلوس، فاعتبرتْ أنني أعرف سوق بيع التجزئة. قالت «إنّه ذلك القريب من لوس أنجلوس، كما تعلمين، الذي يمتلكه شخص يهوديّ. تعرفينه، أليس كذلك؟»

ترعرع الأطفال وكبروا في حقبة الستينيات. وتمتّعوا بالحريّة أكثر من الأطفال الآخرين لأنَّ كلا الوالدين كانا يعملان في الليل وينامان في النهار. ولمّا لم يكن عليهم إشراف، كانوا يُدخنون الحشيش ويشربون البيرة. وأحياناً كانوا يقومون بأعمال يمكن اعتبارها إما شريرة أو إجراميّة متطرفة. وكانوا معروفين لدى رجال الشرطة لأنهم كانوا يوقفونهم بين حين وآخر، على الرغم من أنهم لم يكونوا يُودَعون مراكز الشرطة بانتظام.

عندما كان أفراد الأسرة بأكملهم يجتمعون في المنزل، كان يدور بينهم الكثير من الصخب والشجار. ووفقاً لأخت ديبرا، بريندا بيك سيرانو، كان والدهم «رجلاً قاسياً، خسيساً». وبعد زيارتي لديبرا بشهرٍ أو نحوه، اتصلتُ ببريندا هاتفياً لأتحدث معها عن هاري. وفي سياق الحديث، أخبرتني بأنَّ والدها قد توفي قبل قليل. فعبَّرتُ لها عن أسفي لذلك ومن ثم سألتُها عمّا حدث. قالت بريندا «كنتُ أقوم بزيارته، وكان متمدداً على الأريكة منذ ساعتين. وعندما كلّمته لم يُجبني، فافترضتُ أنّه ثمل وأنّه غائب عن الوعي». وبعد مرور المزيد من الساعات، ظلَّ لا يتحرَّك أو يُجيب. وبدأتْ بريندا تشكّ في أنَّ الأمر غير ذلك، فأنزلته عن الأريكة وأخذته إلى المستشفى، وهناك قيل لها إنّه في حالة غيبوبة. واستعاد وعيه. وقالت بريندا إنه قبل أنْ ينقطع معين حياته مالتْ عليه وهمستْ له، «لا أعلمُ لِمَ لمْ تُحبّني». كانت

تعلم أنَّ بعض الناس قد يعتقدون أنَّ ذلك عمل فظّ، لكنها أخبرتني بأنها تفتخر بنفسها لأنها تمكّنت أخيراً من إخباره بشعورها.

كان آل بيك يعيشون حياة تقليديّة، محسوبة بتقاليد مجتمعات ما بعد الحرب في عالم غرفة النوم المُعدَّة مُسبقاً. لم يكونوا أثرياء، ولا فقراء، ولا يسعون وراء مطامح كبيرة: كان هناك افتراضٌ خامل، هادئ يقول إنَّ الأبناء يمكثون بالقرب من المنزل ويتنقلون للعمل في وظائف في لوكهيد أو في روكْويل أو ماكدونل دوغلاس عندما يحين الوقت. وإذا أردتِ أنْ تضعي رسماً بيانيّاً للبلدة على أساس التوزّع البشري، فسوف يكون من الصعب تحديد موقع آل بيك عليه: في حالتهم، مؤشرات وضعهم غير واضحة. ربما يملكون أقلّ مما عند بعض الآخرين؛ ربما حركتهم جانبيّة أكثر منها نحو الأعلى. وأخبرتني ديبرا بأنَّ والدها بنى مكّوكاً فضائيّاً، لذلك بقيتُ فترة من الوقت تحت تأثير الانطباع بأنّه مُهندس ميكانيكيّ، وهي مهنة تتطلَّب مستوى من التدريب لا يتلاءم مع أي شيء تتصِف به العائلة وقضى على محاولتي تحديد موقعهم الاجتماعيّ. ولاحقاً، فصلتْ ديبرا وشرحتْ أنها عملتْ في نظام التجميع في ماكدونل دوغلاس، حيث بُنِيَ جزء من المكوك الفضائيّ، وبدا هذا الكلام لي معقولاً أكثر.

لم يبرز هاري ولا إخوته في الألعاب الرياضيّة في المدرسة، وهي العملة الاجتماعيّة الأكثر قيمة في بلدات على غرار سانتا فيه سبرينغز. ولم يتفوّقوا أكاديمياً – وهذه عملة أقلّ قيمة اجتماعياً نسبياً لكنّها مع ذلك تقدِّم تميّزاً. وعلى الرغم من كونهم من البيض، فإنَّ الأمر انتهى بأفراد آل بيك ما عدا هاري إلى التحالف مع أولاد من الإسبان في المدرسة. وكانت بريندا تخرج مع المتسكعين وأخيراً تزوجت من شاب من عائلة مكسيكيّة. وانضمَّ بيلي إلى عصابة من الإسبان، على الرغم من قول ديبرا إنَّ ذلك كان بقصد نيل الحماية أكثر من أي قصد آخر. وقد كانت ديبرا محبوبة ولكن كانت أمامها تحديات. فبعض الفتيات في المدرسة كنَّ يُسببن لها المتاعب، وهكذا بدأتْ تحمل في كيس نقودها مشرطاً لفتح الصناديق. وفي الصف العاشر، تمَّ توقيفها بسبب جرحها لإحدى التلميذات. وشرحت لي أنَّ الفتاة التي طعنتها كانت تتحرّش بها. قالت، مُشرقة، «أعني، أنتِ تفهمين! كيف كان يمكن أنْ أردَّ عليها بغير ذلك؟»

وهاري، الذي وُلِدَ في عام 1959، كان أصغر الأطفال الأربعة: كان المحبوب، المُدلَّل، إلى درجة الإفساد. وبدا، لبعض الوقت، كأنّه يتمتَّع بسِحرٍ يُساعده على الإفلات من شغف آل بيك إلى سوء الحظ. كان جديراً بهاري، بقامته الطويلة وبنيته المتينة، ووركيه الضيّقَين وساقيه الطويلتين الجديرتين براعي بقر، أنْ يكون الأخ الأصغر للممثّل جون فويت. ولطالما أخبر الناس بأنّه يريد أنْ يُصبح ممثلاً، حتى وهو صغير. وقد جعل شكله وسِحره هذا الأمر يبدو ممكناً. كانت لديه صِفات أخرى. كان يُحرِز تقدّماً في المدرسة عندما يجتهد. وكان في استطاعته أنْ يكتب بكلتيّ يديه، ويستطيع أنْ يؤدي خدعاً سِحريّة. كان يُضحِك الناس. كان مغروراً ولعوباً، ومحبوباً جداً، ويتوق إلى إرضاء الناس، وإلى تسليتهم، وكان نهماً إلى لفت الانتباه. كانت هناك دائماً فتاتان أو ثلاث مُعجبات به يتبعْنه كفراخ البط. وغادر الأولاد، واحداً إثر آخر، بيلي، وبريندا، وديبرا، المدرسة، لكنَّ هاري تابع دراسته ونال الشهادة. كان أول فرد في العائلة ينجِزُ ذلك. لم يفِده أخوه في ذلك، لكنَّ باقي أفراد العائلة كانوا مُعجبين بإمكانياته؛ كان في سبيله إلى أنْ يُصبح نجم العائلة، إنّه الذي خرج من البلدة وأصبح مشهوراً. ولكن، أقول الصِدق، كان غروره وتباهيه بنفسه يُزعجان الناس أحياناً، بمَنْ فيهم عائلته الخاصّة. وفي أحد الأيام قامت أخته بريندا بطعنه بشوكة لأنَّ تباهيه بنفسه أثار أعصابها. قالت لي إنها أحبَّتْ هاري، لكنّه كان يعتقد حقاً أنّه ملك.

ليس كل شيء كان مثالياً بالنسبة إلى هاري. فقد أوقِفَ بضع مرات بسبب عدم انتظامه في العمل. وأساءت الشرطة معاملته لأنها قبضت عليه وهو سكران. كان يحب أنْ يهدر الوقت قدر استطاعته. وفي عهد المراهقة، كان يُدخن الماريجوانا مع أحد المُستشارين القانونيين في مخيّم صيفيّ وبعد ذلك قام المُستشار بالتحرّش به. ووِفقاً إلى أختيه، أدّى الاعتداء عليه إلى تدميره، وبعد ذلك، حاول أنْ ينتحر مرّاتٍ عِدّة. وتعتقد ديبرا أنَّ اعتداء المُستشار عليه دفع هاري نحو المثليّة الجنسيّة. قالت «هو لم يرغب في أنْ يكون مثليّاً، بل أراد أنْ يكون ذا ميول جنسيّة طبيعيّة»، وهي تشدّ لسان عبوة البيرة جيئة وذهاباً إلى أنْ نزعته. قفز غراب على طول حافة الفناء، مُديراً

رأسه كدُمية تعمل بالزنبرك. ورمتْ ديبرا السان عبوة البيرة في اتّجاه الطائر، ثم استندت بظهرها إلى كرسيها وقالتْ «لقد بذل كل جهده ليكون سوياً جنسيّاً»

بعد الاعتداء عليه بسنين، حافظَ هاري على مظهره كسويّ جنسياً. حاولَ أنْ يتصرَّف كلاعب، يُحافظ على علاقته بعدد من الفتيات. وفي عام دراسته الأخير استقرَّ أخيراً على علاقة دائمة مع إحداهن، وأخبر الجميع بأنهما ينويان الزواج. وبعد التخرّج انخرط هاري في خدمة الجيش. ووعدت صديقته بأنْ تنتظره، ولكن عندما عاد إلى الوطن بعد تسريحه، اكتشفَ أنها كانت تواعد شخصاً آخر. ووِفقاً لأقوال ديبرا، حطّمه انفصاله عنها.

بعد مرور بضعة أشهر، ارتبطَ هاري بفتاة أخرى. وحالما بدآ بالتواعد، حبلتْ بتوأم. فسألتُها ماذا حصل لتلك العلاقة. فقالت ديبرا «كانت مشكلة تلك الفتاة أنّها كانت تحب أنْ ترتاد الحفلات، ففقدتْ أحد الطفلَين، ومع ذلك استمرّت في ارتياد الحفلات، ثم فقدتِ الآخر» وأخذتْ ديبرا نَفَساً عميقاً ثم أردفت، «وأعتقد أنَّ هذا ما جعل هاري يُصبح مثلياً. فكلما أراد إقامة علاقة جادّة مع فتاة، يحدث شيء ما. كان يقول «ديب، إنَّ هذا يؤلمني كثيراً»، ونظرت خلفها ومن ثم قالتْ «سوف يقتلني والداي لأنني أخبرتكِ أنّه مثليّ. لقد كان تحوّل هاري إلى المثليّة شديد الوطأة على والدي»

ومن ثم، فُتِحَ الباب المنزلق المؤدي إلى المطبخ مع صرير صارف، ودخل والدها. كان طويل القامة، ممتلئ الجسم مع بطن كبيرة، وذا وجه ودود، يقترب من الحمرة وشعر فضيّ مُنتصِب، كأنّه علامات تعجّب مرتعشة. وبدأ يصرخ بشيء في وجه ديبرا بشأن وجبة غدائه، ثم فوجئ عندما لاحظ وجودي جالسة على الكرسيّ. عرَّفت عن نفسي وقلتُ إنني أكتبُ عن هاري.

أجاب «لقد كان هاري شخصاً هاماً»، وخدش شعر ذقنه القصير ومن ثم بدأ يُمرِّر أصابعه خلال شعره المتشابك. «كان يمكن لهاريّ أنْ يصل إلى القمّة، كان يمكن أنْ يفعل ذلك»

قالت ديبرا «كان يعرف الكثير من النجوم، أليس كذلك، يا أبي؟ كان يعرف أناساً من أرقى الأنواع»

قال والدها، يُصحِّحُ لها، «بل كان يعرف *ثمانين بالمئة* من النجوم الكبار»، وشدَّ شعره أكثر، ثم أضاف، «كان يعرف الممثّل بيرت رينولدز وما اسمها تلك التي تزوجها. ما اسمها، يا ديبرا؟»

قالت ديبرا «اسمها لوني أندرسن، يا أبي». ثم استدارتْ نحوي. «كان هاري يعرفهما معرفة وثيقة. كان يعرف كل شيء عنهما. وقد أخبرني أنَّ بيرت رينولدز ولوني أندرسن سوف يتطلّقان قبل أنْ يعلم أي شخص آخر بذلك»

قال بيك «كان جديراً بأنْ يصل إلى القمّة». ثم تجهَّمَ وقال «ديبرا، أنا جائع»

تجاهلته ديبرا. «لقد كان هاري أكبر فاشل في العالم، أليس كذلك، يا أبي؟»، ثم أومأتْ إلى والدها بالعبوة الفارغة، «أليس كذلك، يا أبي؟ أنت تعلم أنّه كان كذلك. لطالما كان فاشلاً كبيراً»

***

انفصل هاري عن صديقته التي أجهضَتْ توأمهما، ومن ثم انتقلَ إلى لوس أنجلوس -التي لا تبعد أكثر من أربعين ميلاً ولكن يفصل بينها وبين الوطن عالم بأكمله. لم تكن لديه أيّة خُطط ما عدا أنْ يُصبح نجماً. ولم تكن تلك خطوة سهلة بالنسبة إليه. في سانتا فِه سبرينغز، يُعتَبَر فتى وسيم كهاري شخصيّة هامة. أما في لوس أنجلوس فلم تكن له أيّة قيمة. كانت أرصفة هوليوود ترزح تحت ثقل الشبان الوسيمين الذين توافدوا إلى هناك، وكل واحد منهم لديه مَنْ يقول له إنه متميز، وبعضهم كانوا أشدّ شُقرة من هاري، أو يعرفون شخصيّة هامّة، أو تدرّبوا على أنْ يكونوا ممثلين، أو يتمتّعون بجاذبيّة مُبهِرة، في حين أنَّ هاري كان فقط أشدّ الشبان وسامة في سانتا فِه سبرينغز. وتقاسم منزلاً في هوليوود مع بضعة شبّان آخرين يتشبّثون بأهداب عالم الاستعراض. وبعد ظهيرة أحد الأيام القريبة، مررتُ بالسيارة من أمام المنزل الذي يتقاسمونه. وتخميني هو أنّه لم يتغيَّر منذ أنْ أقام هاري هناك. إنّه مجرد منزل صغير من القصب المتهالك، مستكين، لا يُعرَف له عمر، مع مرج باهت وسياج مُدجَّج ببقايا قِمامة الشارع- يُشبه أي كوخ من القصب من ملايين تجدها في المدينة حيث ينتظر أناسٌ يحملون أحلاماً كبيرة حدوث أمرٍ رائع.

حتى بعد أنْ استقرَّ ليعيش في لوس أنجلوس، كان هاري يقود السيارة عائداً إلى سانتا فِه سبرينغز كلما سنحتْ له الفرصة، لكي يتمكن من المرح مع أصدقائه من زمن المدرسة الثانويّة. ربما أحبَّ أنْ يتذكّر شعوره بأنّه شخص مُذهل. ربما شعر بغربة في لوس أنجلوس. وتفاخر أمام عائلته بأنّه أحبَّ العيش في المدينة؛ وأنّه في سبيله إلى الحصول على عمل كممثّل؛ وأنّه عقد صداقات مع الكثير من الممثّلين وأصبحَ يحبّ الحياة في هوليوود. وفي الحقيقة، ربما كان فقط يتجنب الإخفاق، أو ربما فشل في ذلك. واشتكى رفاقه في الغرفة من تأخّره في دفع الإيجار وأحياناً لم يكن يدفعه قط. وسامحوه لبعض الوقت لأنَّ هذا هو حاله - متملّق، لا يعرف الرياء، ومُسلّ. كان صديقاً ينطوي على مفارقة من النوع الذي يستعير شيئاً منك ولا يُعيده أبداً، ومع ذلك يخلع قميصه ويهبك إيّاه. وكثير من الأصدقاء استخدموا التعبير نفسه عندما وصفوه لي. صحيح أنَّ هاري يمكن أنْ يخلع قميصه ويهبك إيّاه، لكنّه كان غريب الأطوار إلى درجة أنْ يدفعك إلى حافة الجنون.

وكسب قوته من القيام بأعمال صغيرة متعددة. وأحد مُستخدميه الثابتين كان جاره، دنيس فاينز، الذي استخدم هاري لأنه ببساطة لم يفشل مرّة في الابتسام وقول «مرحباً» كلما مرَّ فاينز به. ومؤخراً أخبرني فاينز «لقد كان ببساطة محبوباً. كان حقاً فتى لطيفاً. كان صاحب ابتسامة مُميَّزة - ابتسامة رائعة. أتعلمين أنّه كانت له أسنان قوية؟». ونجح فاينز في بيع بعض الشّقق. كان يرى أنَّ هاري من «فرط الطيش» بحيث لا يمكن الاعتماد عليه في تنكب مسؤوليّة جديّة، لكنّه استخدمه للقيام ببعض المهام الصغيرة وأحياناً كان يعمل سائقاً شخصيّاً. وعندما كان هاري يرتدي قميصاً أبيض جديداً وبنطلوناً أسود ويعتمر قلنسوة القيادة الصغيرة، يبدو رائعاً خلف مقود سيارة فاينز الباكارد الكلاسيكيّة. وكان هاري يستمتع حقاً بقيادة السيارة: كان يحبّ التحدث مع الناس حيثما يتوقّف، خاصّة أنَّ السيارة تجذب الكثير من الانتباه.

وانفصل فاينز عن هاري بسبب ما وصفه بأنّه «تصرف نموذجي من هاري». كان قد طلبَ من هاري أنْ يحتفظ بسلسلة مفاتيح تضم المفاتيح الستين لكل ممتلكات فاينز. وفي غضون بضع دقائق. نجح هاري في إضاعة

المفاتيح. وقال فاينز عندما تحدثنا عبر الهاتف، «لا أعلم كيف فعل ذلك، لكنّه فعلها». وضحك ثم تنهّد. «هذا هو هاري. إنَّ لديه أسلوباً خاصّاً في العبث بالأشياء». وعلى الرغم من أنَّ فاينز طرده، فإنّ علاقتهما بقيَتْ وديّة. قال فاينز «كان عذباً حقاً، وإلّا لما تحدثت معه بعد كل أعماله الطائشة»

بعد أنْ فقدَ عمله مع فاينز، بدأ هاري يقوم بمهام صغيرة لمصلحة مكتبَي مُحاماة استشاريّين - واحد في لوس أنجلوس وآخر في سان فرانسيسكو. واكتشف المُحامون أنّه يرتكب حماقات ولكنْ في العموم يمكن الاعتماد عليه. بل إنَّ أحدهم، اسمه روبرت شيهن، اعتمد على هاري كشاهد دفاع في قضية جريمة قتل. وقال شيهن إنَّ هاري تجاهل القواعد التي شرحها له، وتحدث مع المُحلّفين وهو في طريقه إلى منصّة الشهادة. وقال لي شيهن «هذا هو هاري، لا يقوم بالأشياء إلّا على طريقته». وأدلى هاري بشهادته كما يجب. ثم سأل محامي المنطقة هاري، آملاً في أنْ يدحض شهادته، إنْ كان ممثلاً. وكان شيهن يتوقَّع هذا السؤال ونصحَ هاري بأنْ يقول إنّه مُساعد مكتب، لأنه إذا قال إنه كان ممثلاً فسوف يُلقي ذلك ظلاً من الشك على مصداقيّة شهادته. ومع ذلك، أجاب هاري بأنه ممثّل. وانهارت كل المصداقيّة التي جمعها وهو يُدلي بشهادته. ولم يأبه هاري؛ كان عليه أنْ يقول إنّه ممثل، وقد جذب الانتباه إليه، وهذا أهمّ شيء بالنسبة إليه. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي احتاجَ إليه.

***

على الرغم من أنَّ حياة هاري بيك كانت مُخيِّبة للآمال ووضيعة وفقيرة، فإنها كانت في لوس أنجلوس على الأقلّ مُضاءة بالإمكانيّة. كان ذلك داخل نسيج لوس أنجلوس؛ كانت الإمكانيّة عنصراً، كالأكسجين. أما في سانتا فِه سبرينغز فلا يوجد حسّ بالإمكانيّة يسري في الجوّ؛ ما تراه -المرج، المنزل، الوظيفة- هو كل ما تأمل في الحصول عليه. أما في لوس أنجلوس، فاللحظات هي حلوى الحظ الهشّة مُتاحة لمَنْ يُقرمشها، فقد تجد داخلها نجماً سينمائياً، أو جلسة استماع ناجحة، أو لقاء حظ مع شخصيّة متنفّذة تغيِّر حياتك بفرقعة واحدة من أصابعها، كساحر. لقد غذّى إحساسه بأنَّ الحظ يمكن أنْ يتكشَّف له بما يكفي بحيث لا يتخيّل عودته إلى خمول سانتا فِه

سبرينغز وانعدام الأمل فيها. وحالما تخيّل نفسه شخصيّة بارزة، ذات شأن، تُضيئها الشهرة، لم يعُد يستطيع أنْ يتخيّل نفسه هناك. ولكن لم يكن يتّصِف بما يحقّق به تلك الحياة التي حاول أنْ يخلقها في لوس أنجلوس. وأخذ يتأرجح بين ما لم يعد يريده وما لا يستطيع الحصول عليه.

ومرَّتِ الأيام على الفُتات. وقام ببضع ساعات من العمل. وحصل على أعمال وفقدها بسرعة. وفي إحدى المرات عمل خادماً في فندق الشيراتون. وفي يومه الأول من العمل، وضعَ سيارة في إحدى الزوايا الخلفيّة من المرأب ومن ثم نسيَ أين وضعها. ولم يتم العثور على السيارة طوال ساعات. وطُرِدَ في الحال. وسواء أكان لديه عمل أم لا، كان يقضي الكثير من الوقت في الحانات، خاصة خلال ساعات البيع بسعر رخيص، حين كان في استطاعته أنْ يشرب الكثير مقابل القليل من المال. وأدّى جلسات استماع في التمثيل وفي عرض الأزياء. واكتشف، برعبٍ عظيم، أنّه يُعاني من حالة متطرّفة من رهاب المسرح. والشيء الوحيد الذي ساعده على التغلُّب على ذلك كان ولعه بجذب الانتباه، الذي أزال خوفه من الوقوف على خشبة المسرح.

وأخبر الناس بأنه في إحدى جلسات الاستماع تلك قابل بيرت رينولدز، وأصبحا صديقَين. وتركتُ رسائل لبيرت رينولدز أسأله فيها إنْ كان يتذكَّر هاري بيك، لكنّه لم يُجبني قط. وانتابني إحساس بأنّه قابل هاري، ربما عبر مُصافحةٍ في موقع تصوير أو لقاء عابر سريع، وربما لم يتمكن من التعرّف على هاري من بين العديد من الشبّان الشُقر، ذوي الفكوك القوية، الذين ربما داروا في فلكه من دون أنْ يعترضوا طريقه. ومع ذلك، كان لصداقة هاري المُفتَرَضَة مع بيرت رينولدز قوَّة الأسطورة في عائلته. وذات مرَّة أخبره والده وأختاه أنَّ بيرت رينولدز اتصل بوالدة هاري كمفاجأة بمناسبة عيد مولدها، وكادت تُغلق الخط في وجهه لأنها لم تُصدّق أنّه هو حقاً. لقد أردتُ أنْ أُصدّق ما كنتُ أتعلّمه عن هاري، ولكن كلّما سمعتُ أكثر، بدَتْ حياته لي أشبه بسلسلة من المبالغات، ومشاهِد مُستحضَرَة ملأى بالتمنيات. وتوصلتُ إلى تصديق أنَّ من المُستبعَد تماماً أنْ يكون بيرت رينولدز قد قابل هاري أصلاً.

خلال تلك الفترة الزمنيّة ذهبَ قسمٌ كبير من وقت هاري سُدى ولم

يترك أي أثر. فلم تكن لديه سيرة حياة، ولا عمل ثابت. كان أشبه بالعشب الضارّ، يستسلم للريح لكي تحمله إلى حيث تشاء، يحطّ فترة وجيزة على هذا العمل أو ذاك ومن ثم يتابع هبوبه، من دون أنْ يترك خلفه أي أثر وهو ينطلق. وفي عام 1980، استُخدِمَ كأحد الممثلين الإضافيين في إنتاج جديد لفيلم «*ساعي البريد يقرع جرس الباب مرّتين*». وفي موقع التصوير، عقد صلة صداقة مع فنان إضافي آخر، مصوِّر اسمه ديمتري هيوليتس. وخلال فترة قصيرة، توثقتْ علاقتهما، وانتقل هاري للإقامة معه. وهيوليتس يُقيم الآن في فلوريدا، وتحدثنا معاً عبر الهاتف مؤخراً. قال «كان هاري ألطف المخلوقات قاطبة. إنّه يتَّصِف بسِمة ملائكيّة». وعلى غرار كل مَنْ عرِفَ هاري، لم يستطع هيوليتس أنْ يتحمَّل الأساطير التي ينسجها. قال إنَّ هاري كان دائماً يخرج بشيء لا يُصدَّق. قال هيوليتس، «ذات يوم عاد إلى المنزل وقال لي، «خمِّنْ مع مَنْ كنتُ؟ كنتُ أشرب الكوكتيل مع المغنية شير!»، وشعرتُ كأنني أقول «طبعاً يا هاري، طبعاً»»، وبعد ثلاث سنوات، انتهتْ علاقتهما لأنَّ هيوليتس سئم ما سمّاه «استعراض هاري» - كل الأكاذيب والقصص. والغريب في الأمر، حسب تعبير هيوليتس، هو أنّه على الرغم من ولوع هاري برواية القصص، لم يستطع أنْ يُحوِّل ذلك الولوع إلى عمل. كان يشعر بارتياح أكبر في نسج حكاياته وإلقائها على مسمع جمهور يتألّف من شخصٍ واحد.

المكان الوحيد الذي وجد هاري فيه أرضاً صلبة كان منظّمة في إيكو بارك الذي كان من ناحية بمنزلة إرساليّة تبشيريّة، ومن ناحية أخرى جماعة دينيّة، وأيضاً مركزاً اجتماعياً. كان معروفاً باسم الكنيسة الأرثوذكسيّة الأميركيّة، وكان محطة عمل لعصابة رثّة من الشبّان تتسكع في أرجاء لوس أنجلوس، بلا هدى ولا مُستقرّ. والكنيسة لم تكن تتبع أيّة رابطة دينيّة تقليديّة. مؤسّسها كان رجلاً اسمه الأب آرتشي كلارك سميث، كان يُعرَف أيضاً بأسماء المُحترَم جداً باسيل كلارك، والسيد باسيل كلارك سميث، وأ. س. سميث. والمؤسِّس المُساعد للكنيسة كان اختصاصياً في علاج الأقدام اسمه هومر مورغان ويلكي، ومعروفاً أيضاً باسم المحترم جداً نيكولاس ستيفن ويلكي. وكان ويلكي وكلارك/ سميث يرتديان زي القوقاز الأرثوذكسي

الروسيّ الأسود ويقضيان ساعات منتظمة في الحيّ الفرنسيّ، في مقهى في جادّة سانتا مونيكا، في غرب هوليوود. والكنيسة، كما تُسمّى، اندثرتْ منذ زمن بعيد. وويلكي وكلارك/ سميث أيضاً اندثرا منذ زمن بعيد. وعلى غرار هاري بيك، كانا يتّصفان بسِمة الظهور الغريبة، والوجود ثم الاختفاء، من دون ترك أيّة ذِكرى أو معلومات تدل على هويتهما. والأثر الوحيد الذي تركه المحترمان سميث وويلكي كان أنهما في آخر المطاف زوّدا هاري بيك بحِجّة غياب في صباح يوم نشوب حريق المكتبة.

-5-

«إحراق الكتب» (2006)
تأليف بوسامجيان، هيغ أ.
098.1 B743

«إحراق المطّاط» (2015)
تأليف هارلم، ليلي
نسخة إلكترونيّة

«إحراق الكروم» (1987)
تأليف غيبسون، وليم
SF Ed.a

«الحب الملتهب: سلسلة روزنامة الرجال، الجزء 8» (2014)
تأليف كار، كاساندرا
نسخة إلكترونيّة

قرّرتُ أنْ أحرقَ كتاباً، لأنني أردتُ أنْ أرى وأشعر بما كان يمكن لهاري أنْ يرى ويشعر به في ذلك اليوم لو أنّه كان في المكتبة، إنْ كان قد أضرمَ النار. كان إحراق كتاب عملاً شاقّا بالنسبة إليّ. في الحقيقة، كان فعلُ ذلك شيئاً مُريحاً، أمّا الإعداد له فكان تحدياً. والمشكلة هي أنني لم أكنْ قادرة على إلحاق الأذى بأيّ كتاب. حتى الكتب التي لا أريدها، أو الكتب

المتهرّئة والبالية بحيث لم يعُد في الإمكان قراءتها، تتشبث بي كما الشوك. إنني أجمعها بنيّة التخلّص منها، ومن ثم، في كل مرَّة، عندما يحين الوقت لفعل ذلك، أشعر بالعجز. وأشعر بالسعادة إذا تمكنتُ من وهبها أو التبرّع بها. لكنَّني لا أستطيع أنْ أرمي كتاباً في القمامة، مهما حاولت. ففي اللحظة الأخيرة، يلجم يديّ شيءٌ ما، ويتولّد داخلي إحساس يقترب من الاشمئزاز. كم من مرَّة وقفتُ فوق حاوية القمامة، ممسكة بكتاب بغلافٍ مُمزّق وتغليف بالٍ، وتلكّأتُ هناك، أدلّي الكتاب، وأخيراً، أغلقُ وعاء الحاوية وأبتعد مع الكتاب اللعين –الجندي المتهالك، البالي، الذي نال العفو عنه مدة يوم آخر. والشيء الوحيد القريب من هذا الشعور هو ما أختبِرَه عندما أحاول أنْ أرمي نبتة، حتى وإنْ كانت جرداء، ويعجّ فيها العثّ، وساقها ملتوية. إنَّ الإحساس الذي ينتابني عندما أرمي كائناً حيّاً في وعاء القمامة هو ما يُثير اشمئزازي. قد يبدو ذلك الإحساس نفسه حيال كتابٍ شيئاً غريباً، ولكن هذا ما أوصلني إلى الاعتقاد بأنَّ للكتب أرواحاً– أيُّ سبب آخر يدفعني إلى كراهية رمي كتاب؟ لا يهمّ إنْ كنتُ أعلم أنني أرمي مجموعة من الأوراق تحتوي كلاماً مطبوعاً، ومُغلّفة، يمكن إعادة طباعتها بسهولة. إنَّ الشعور لا يشبه هذا. إنَّ الكتاب في مثل تلك اللحظة يكون كائناً حيّاً، وأيضاً يستمر في الحياة، منذ اللحظة التي تبدأ فيها الأفكار حوله تنضج داخل عقل الكاتب وحتى لحظة خروجه إلى المطبعة – إنه خطُّ حياةٍ يستمر بينما يجلس شخصٌ معه ويُبدي إعجابه به، ويستمر، ولا يتوقّف. وحالما تنصبُّ الكلماتُ والأفكار فيها، لا تعود الكتب مجرد ورقٍ وحبرٍ وغراء: بل تتلبَّس ما يُشبه الحيويّة الإنسانيّة. والشاعر ميلتون يُسمّي هذه السِمة «قوة الحياة». لم أكنْ متيقّنة من أنني أنوي أنْ أكون قاتلة.

في هذه الأيام من السهل نسخُ أي شيء، ومُعظم الكتب تتوفّر بأعدادٍ هائلة؛ لم يعُد لكتابٍ واحد سِمة النفاسة التي اتّصفَ بها عندما كانت الكتب تخرج إلى الحياة بعمليّة بطيئة، صعبة. ولذلك كان ينبغي أنْ يكون حرقُ كتابٍ واحدٍ عاديّ أمراً سهلاً عليّ. لكنَّه لم يكن كذلك، قط. بل لم يكن في مقدوري أنْ أنتقي كتاباً لأحرقه. في أول الأمر حسبتُ أنَّ في استطاعتي أنْ أحرقَ كتاباً لا أحبّه، لكنَّ ذلك بدا موقِفاً عدوانيّاً، وكأنني أبتهج بالقيام بما

يشبه عملية إعدام. كنتُ أعلم أنّه ليس في استطاعتي أنْ أحرق كتاباً أحبّه. وأعتقد أنّه كان يمكن أنْ أحرق أحد كتبي الخاصّة، لكنَّ علم النفس كان ببساطة شديد الوطأة عليّ ولا أستطيع أنْ أخوضَ فيه، وأنا أمتلك العديد من نسخ كتبي بحيث أضحتْ بمنزلة قطعٍ أساسيّة في المنزل، وأقرب إلى الطحين أو مناشِف الورق منها إلى الكتب الحقيقيّة. إذن بينما كنتُ أعمل على اتّخاذ قراري بحرق كتاب، تخلّيتُ عن فكرة انتقاء كتاب طوال أسابيع كثيرة، مُحاولة أنْ أتبيّن المعيار الذي يمكن أنْ أستند إليه لانتقاء الكتاب الذي سأحرق. لا شيء بدا صائباً. وحالما أوشكتُ أنْ أتخلّى عن الفكرة، إذا بزوجي يُقدِّم لي نسخة من رواية «*فاهرنهايت 451*»، التي تتحدّث عن سلطة باطشة تحرق الكتب، وأدركتُ أنَّ هذا هو الكتاب الذي سأحرق.

اخترتُ يوماً دافئاً، رياحُه ساكنة وارتقيتُ أعلى الهضبة التي في فناء منزلي الخلفيّ. كان وادي سان فرناندو يمتدّ أمامي -كل ذُرى الأشجار وأعالي المنازل والبنايات لاحتْ ضبابيّة في امتدادٍ من النقاط والبقع: أشبه بلحافٍ باهت خيطَ هنا وهناك بومضٍ من أضواءٍ خلفيّة حمراء، وفوقه، في السماء الزرقاء، مرّتْ طائرة مُفرقعة، جارّةً خلفها ذيلها من الزَبَد الأبيض. كنتُ أعيش في لوس أنجلوس منذ أربع سنين. ولم أفكّر كثيراً في النار قبل أنْ آتي إلى هنا، أما الآن فأنا أعلم أنها تتسلّل إلى كل مكان، وأنَّ عليَّ أنْ أسحق كل رماد متطاير وأنْ أُغرِق أي شرارة متجوِّلة. لقد تعلّمتُ الكثير منذ أنْ انتقلتُ إلى لوس أنجلوس. بتُّ أُفرِّق بين الحي الغربي والحيّ الشرقيّ. وأعرف كيف أتفادى حركة المرور في ليلة توزيع جوائز الأوسكار؛ وأعرف الإيماء الراقي للجمال والهتاف الذي يتصاعد من أجل أي شخصٍ هنا يتوق بشدّةٍ إلى حياةٍ تشبه دوار الأضواء. هنا تخيّلتُ هاري بيك لأنني كنتُ أراه في كل يوم في صورة صبي المطعم الوسيم الذي يُبالغ في أناقته ويعمل على خدمتي، وبين الممثّلين الثانويين الذين أصادفهم أحياناً ويُحافظون على لياقتهم البدنيّة عندما يكون هناك تصوير لأحد الأفلام في حيّنا- ألاحظُ وِقفتهم القلقة، كأنَّ كل لحظة تزخر باحتمالِ تغيير حياتهم بأكملها. كنتُ أراه في كل شخص يجلس بتراخٍ أمام كومبيوتر محمول في مقهى، يكتبُ أهمّ دور في حياته كلها، وفي الفتيات الجميلات اللائي يضعن كميات كبيرة

من تظليل العيون وطلاء الأظافر في محل البقالة، تحبّباً. وأحببتُ لوس أنجلوس؛ بل أحببتُ حتى سُخفها الطموح، الآسر، الأنيق، الشبيه بهاري، لأنَّ نبضها يتوافق مع المشاعر والتمنّي وتحطيم القلب الناضج، لأنها الحيويّة بأشدّ الأساليب عُرياً.

ولكن الآن أنا واقفة على قمة هضبتي لكي أحرق كتاباً، لذلك أشحتُ ببصري بعيداً عن مشهد الوادي ووضعتُ نسخة «*فاهرنهايت 451*» أرضاً. وضعت إبريقاً من الماء، وعلبة كبريت مرسوماً عليها ديك، مع صفيحة من ورق ألومنيوم للفّ الكعك المُحلّى لأضعَ عليها الكتاب. لم أكنْ أعلم إنْ كان الكتاب سيشتعل في الحال أم سيحترق ببطء لبعض الوقت؛ لم أعلم إنْ كان ذلك سيحدث فجأة أم أنني سأجلسُ وأراقب الكتاب يتلاشى صفحة إثر صفحة. لقد اخترتُ حرقَ نسخةٍ ذات غلاف ورقيّ، على الرغم من أنَّ الكتب في المكتبة هي ذات غلاف من الورق المقوّى، لأنني خشيتُ أنْ الورق المقوّى سوف يستغرقُ وقتاً طويلاً حتى يحترق بحيث إنَّ الجيران سوف يُشاهدون الدخان ويُطلقون جرس الإنذار. إنَّ الناس في كاليفورنيا يُجفلون لأقلّ إشارة لاشتعال نار، ولكي أكون صادقة، لقد خفتُ قليلاً مما يمكن أنْ يحدث إذا فقدتُ السيطرة على النار.

قدحتُ عود الثقاب الأول فانكسر، وقدحتُ الثاني، فلفظَ لساناً قصيراً من اللهب. قرَّبتُ العود المُحترِق من غلاف الكتاب، المُزيَّن بصورة لعلبة كبريت. انتقلَ اللهب كرأسٍ من الماء من طرف العود المُدبّب إلى زاوية الغلاف. ثم نزَّ. انتقل إلى أعلى الغلاف وكأنّه يلفّه إلى أعلى، كسجّادة، ولكن بينما هو يتدحرج، اختفى الغلاف. ثم أمسكت النار بكل صفحة داخل الكتاب. ظهرت النار أولاً على إحدى الصفحات كأنّها حافّة برتقاليّة اللون مزخرفة بهدب أسود اللون. ثم، في الحال، انتشرت الحافّة البرتقاليّة والهدب الأسود عبر الصفحة بأكملها، ومن ثم اختفت الصفحة –باحتراقٍ شبه فوريّ– وأتت النار على الكتاب كلّه في غضون ثوانٍ. حدث الأمر بسرعةٍ كبيرة كأنَّ الكتاب انفجر؛ لقد كان الكتاب هنا ومن ثم في طرفة عين اختفى وفي تلك الأثناء كان النهار لا يزال دافئاً، والسماء لا تزال زرقاء، ولم أكنْ قد تحرّكت، وكانت ورقة لفّ الحلوى ما تزال لامعة وخالية إلّا من بعض

الفُتات الذي نُثِرَ عليها. لم يتبقَّ أيّ شيء يُشبه كتاباً، قصّة، صفحة، كلمة، أو فكرة. وسمعتُ أنَّ هناك حريقاً هائلاً يستعر، يتلظّى، ينتشر ويهدر. ولكنّه حريق بشبه صمت، لم يصحبه أكثر من أزيز ضعيف يُسمع في الجو، نوع من *الهسيس*، بينما كان الكتاب يحترق. احترقت الصفحات بسرعة كبيرة حتى لم يكد يصدر عنها أيّة فعقعة؛ كان الضجيج خافتاً، كالأزيز، أو كالصوت الخفيف الخفّاق لماءٍ ينهمر من دشّ. وحالما انتهى، شعرت كما لو أنني قفزتُ من طائرة، وهو ردّ الفعل الطبيعيّ للقيام بأمرٍ لطالما قاومته بشدّة – كان هناك الشعور بالتيه لتغلّبي على غرائزي، بالتباهي بالدفق الجميل للنار، وبالخوف الرهيب من إغوائه وبإدراك مدى السرعة التي يمكن بها دفع شيء ممتلئ بالحكايات الإنسانيّة إلى الاختفاء.

-6-

«الجانب الفكه من النقل بالشاحنة» (2016)
تأليف بويلان، بَكْ
814 B7915
«تنظيم، وإدارة، وتنسيق شؤون مكتبة لوس أنجلوس العامة» (1948)
إنتاج لوس أنجلوس (كاليفورنيا)
027. 47949 L879

«طريق المغامرة: تغيير حياتك وعملك بروح عالية وبرؤيا» (2000)
تأليف سالتز، جيف
171.3 S186

«كيف تعيد تأهيل أبنية مهجورة» (1974)
تأليف بران، دونالد ر.
سلسلة: مكتبة شركة إيزي-بيلد لتطوير المنازل 1-685 643.7 B821

في سياق تجديد نظام التوزيع فيها في عام 2009، فقدتْ مكتبة لوس أنجلوس العامة بعضاً من معلوماتها حول حاملي بطاقات الانتساب قبل ذلك التاريخ، لذلك من المستحيل معرفة إنْ كان في حوزة هاري بيك بطاقة، ولا سبيل إلى معرفة إنْ كان حتى قد دخل مرةً المكتبة المركزيّة. إنَّ الناس يدخلون المكتبة طوال الوقت، لا يلاحظهم أحد ولا يُميِّزهم. وقد تُجسِّد المكتبات فكرة الاستمراريّة، لكنَّ روّادها دائماً يتدفّقون. وفي الحقيقة،

المكتبة هي مدخلٌ بقدر ما هي مكان - إنها نقطة عبور، ممرّ. لأنَّ المكتبة المركزيّة أنشئتْ حول رواقَين متقاطعَين، والمبنى مفتوح على الجهات كلّها، وتستطيع أنْ تجتازه من الجهات الأربع. وكان الطابق الأرضيّ يتّصِف بالنمط المروريّ نفسه الذي تتصف به محطة غراند سنترال في مانهاتن. فكلا المكانين يعجّ بدفقٍ من الناس المُسرعين ينجرفون داخلين وخارجين من الأبواب طوال النهار. ويمكنكَ أنْ تنضمّ إلى ذلك الدفق، من دون أنْ يُلاحظك أحد. والمكتبة هي مكانٌ من السهل التواجد فيه حين لا تعثر على مكان تحتاج إلى اللجوء إليه وترغب في الاختفاء.

***

يبدو من السهل تعريف المكتبة -أي، أنها مكان لتخزين الكتب. ولكن كلّما أمضيتُ المزيد من الوقت فيها، أدركتُ أكثر أنَّ المكتبة هي آلة مُعقّدة، بدعةٌ من المُسننات الهادرة. وقد مرّتْ عليّ أيامٌ أتيتُ فيها إلى المكتبة وتمركزتُ بالقرب من مركز الرواق الأساسيّ وأخذتُ ببساطة أراقب هدير المكان ونبضه. أحياناً يمر الناس متمهلين، بلا وِجهة مُحددة. بعض الناس يمشون برشاقة، يعرفون وِجهتهم حتماً. وكثيرون يأتون وحدهم، والبعض يأتون أزواجاً؛ وأحياناً، يتنقّلون في مجموعات. الناس يعتقدون أنَّ المكتبات هي أماكن يسودها الهدوء، لكنها ليستْ كذلك. إنها تضجّ بالأصوات وبوقع الخطى وبسلسلة كاملة من الأصوات المتعلّقة بالكتب- بفرقعة الأغلفة وهي تُغلَق بقوة؛ وبحفيف أنفاس الصفحات وهي تُفتَح؛ وبالصوت المكتوم الواضح لأحد الكتب وهو يوضَع فوق آخر؛ وبدمدمةِ عربةِ الكتب وهي تسير على طول الأروقة.

في صباح أحد الأيام مؤخراً، قبل الفجر، سمعتُ المكتبة وسط صمت تام. كنتُ قد أتيتُ لأرى قسم الشحن، الذي يفتح أبوابه عند الخامسة صباحاً، ومن ثم لكي أقابل جون زابو، أمين مكتبة المدينة الحالي في لوس أنجلوس. وقبل أنْ أتوجّه إلى قسم الشحن، توقفتُ في الرواق بالقرب من مكتب الاستعلامات الرئيسيّ، فقط لكي أستمتع بالتجربة الغريبة للمكتبة المُثقلة بالهدوء، كمكانٍ ناعس، لا يُقاطعه إلّا الصرير المتقطّع والتنهد اللذان لا يصدران إلّا عن الأبنية القديمة عندما تكون خالية. وقسم الشحن يقع في

الطابق التحتيّ، ومُستتر عن باقي المكتبة. وهو لا يهدأ أبداً. الغرفة سميكة الجدران وسميكة الأرضيّة؛ ترتدّ الأصوات في أرجائها ككرة البلياردو. وفي صباح هذا اليوم بالذات، كان ثمانية رجال وامرأة واحدة في مواقع أعمالهم، يقفون جنباً إلى جنب على منضدة طويلة تتكوّم عليها الكتب.

عندما علِمتُ للمرة الأولى أنَّ في المكتبة قسماً للشحن، لم أكنْ أعلم معنى ذلك بالضبط، لأنني لم أستطع أنْ أفكّر في أي شيء تحتاج المكتبة إلى شحنه. ثم علِمتُ أنَّ ما يُشحَن ليس مادةً تُرسَل إلى العالم؛ بل كتبٌ تنتقل من أحد الفروع إلى آخر. وقسم الشحن في المكتبة ينقل اثنين وثلاثين ألف كتاب -أي ما يُعادل محتوى فرع كامل للمكتبة- إلى أرجاء مدينة لوس أنجلوس على مدى خمسة أيام في الأسبوع. وكأنَّ سيلاً من الدم يتغلغل خلال المدينة، تزوّده الكتب بالأكسجين. وكان عدد الكتب المتدفّقة يزداد منذ التسعينيات، منذ أنْ بدأ الزبائن يتمكنون من طلب الكتب عبر الإنترنت من أيّ فرع من فروع المكتبة الاثنين والسبعين وإرسالها إلى فرعهم المحلّيّ. قال جورج فالديفيا، الرئيس الفاعل للقسم منذ عام 2010، «منذ أنْ دخل الإنترنت، *أُطيحَ* بعمليّة الشحن. كنا قادرين على استخدام سيارات النقل لتسليم الكتب. أما الآن فأصبح لدينا الكثير من الكتب إلى درجة أننا بتنا نحتاج إلى سيارات شحن»، وأومأ عبر الغرفة نحو سيارة شحن واقفة بظهرها إلى ظهر السفينة، وبابها الخلفي مفتوح على مِصراعيه. وكان السائق، وهو رجل مفتول العضل اسمه غونزالو، يُحصي الأوعية البلاستيكيّة في خلفيّة الشاحنة. هتف للطاقم الذي يحزم الأوعية، «لدينا اثنان وعشرون!»، وكانوا جميعاً يضعون سماعات للأذن الموصولة بهواتفهم. ولم يُجِب أحد على هتاف غونزالو. وحرَّكَ أحد الأوعية، وسألَ جورج، «أهذه موسوعات؟ ما أثقلها»

أوشكَ غونزالو أنْ يقود الشاحنة على دربٍ يبدأ من فرع أرويو سيكو، على الحافة الشماليّة الشرقيّة من المدينة، ويمتد حتى يشمل عشرة فروع أخرى، بما فيها تشايناتاون، ليتل طوكيو، وإيغل روك، وسيلفر ليك، وإيكو بارك. وهناك سبعة دروب للتوزيع في المدينة. بعض الكتب المشحونة مكانها الدائم على رفوف المكتبة المركزيّة وهي تُعار. وكتبٌ أخرى مُحمّلة

من الفروع، ولأنَّ قسم الشحن يلجأ إلى نظام محطات الشحن المتعدِّدة، فإنها تمرّ من المكتبة المركزيّة وهي في الطريق إلى الفرع الذي طلبها وسوف تمرّ من المكتبة المركزيّة مرة أخرى في طريق عودتها. والكتب موضوع عليها رقعٌ كما الأمتعة. مرّرتُ أصابعي على ركام منها كان ينتظر حزمه. ووِفقاً لقطعة الورق المُقحَمة في الداخل، كان مُستقرّ مجموعة لوسيا برلين القصصيّة المعتاد هو فرع روبرتسون، ولكن كانت في طريقها إلى زبونٍ طلبها في أرويو سيكو. وهناك شريط DVD بعنوان «*سكّة الحديد الهنديّة المُظمى*» قادم من فرع سان بيدرو، يُغيِّر الطائرة في المكتبة المركزيّة، وسوف يستأنف طريقه إلى مرتفعات لينكولن. وكان هناك شخص ينتظر في فرع ويستشستر لاستلام كتاب مو ويليمز «*عيد خنازير سعيد*»، الذي ينتقل عبر المكتبة المركزيّة من شمالي هوليوود. وكان هناك زبون ينتظر في فرع إل سيرينو لاستلام كتاب «*دليل الكلمات الصعبة في الكتاب المقدّس*»، جاء من شرمان أوكس. وكتاب «*المواد الصلبة، والسائلة، والغازيّة*»، الذي يخصّ المكتبة المركزيّة طوال الوقت، كان ينتظر أنْ يقوم برحلة إلى ستوديو سيتي.

المسؤولون عن الشحن يعرفون الميول كلّها. يمكنهم أنْ يعرفوا متى توصي أوبرا[1] بكتاب، لأنهم سوف يعدّون أعداداً كبيرة من النسخ طُلِبَتْ من أرجاء المدينة كلّها. يعرفون أنه في اليوم التالي لأية عطلة، سوف يكون الطلب كبيراً: من الواضح أنَّ كل شخص في لوس أنجلوس يجلس أمام جهاز الكومبيوتر بعد وجبة عشاء عيد الشُكر ويُقدّم طلبات للحصول على كتب عن الحِمية. ولأسباب لا أحد يستطيع أنْ يُفسّرها، كان كثير من الكتب من فرع أرويو سيكو يستعيرها زبائن من فرع تشايناتاون. وفي منتصف العام الدراسيّ، تتم استعارة أعداد هائلة من كتيبات دراسة اختبار الأهليّة المدرسيّة. وقبل موعد تسديد الضريبة، تُصبح كتب الاستشارة الماليّة في أوج الطلب عليها.

المرأة الوحيدة في قسم الشحن، باربرا ديفيز، أسقطَتْ كتاب فيكتور فرانكل «*بحث الإنسان عن المعنى*» وكتاباً مُصوّراً عنوانه «*الدبّ أكل*

1- يقصد الإعلاميّة الأميركيّة المشهورة أوبرا وينفري.

شطيرتك» في أحد الأوعية المُرسلة إلى فرع نورثريدج. قالت عفويّاً، «لقد سئمت». وباربرا امرأة ضخمة، مُعجبة بنفسها، تظهر بقصّة شَعر إفريقيّة قصيرة جداً ويكتنفها جوٌّ من السخط العميق، المذهول. وقد قبِلت العمل في قسم الشحن في المكتبة بعد عملها فترة وجيزة في مركز المؤتمرات في المدينة. قالتْ «كنتُ أقوم بحزم الأشياء هناك، أيضاً، ولكن فقط طاولات وكراس. لا كتب»، وأخبرتني بأنها كانت تُحصي الأيام لكي تتقاعد. «هيه، إنني في المدينة منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، وأنا مستعدّة الآن، يا عزيزتي» وربتتْ على جيب بلوزتها وأضافتْ «إنني أحمل أوراق استقالتي ها هنا». اعتقدتُ أنها قالتْ ذلك مجازاً، لكنّها أخرجت حزمة من الأوراق من مدينة لوس أنجلوس تشير إلى تقاعدها القادم وإلى تدابير المعاش التقاعديّ. وأعادت الأوراق إلى جيبها وسألتْ إنْ كنتُ أعرفُ كيف أحزم حاوية الكتب. لم أكن أعرف، لذلك بيّنتْ لي كيف يجري ترتيبها بصورة فعّالة. قالتْ «كما ترين، تحتاجين إلى استراتيجيّة». وأقحمتْ كتابَ طبخ وجبات نباتيّة ضخماً داخل حيِّز ضيّق بجوار كتاب «*الهندسة المعمارية لجون لوتنر*» الضخم. وبعد ذلك، أقحمَتْ أربع دُمى أرانب كبيرة كان أطفال أحد موظفي المكتبة في ويلشاير قد طلبوها من قسم الأطفال في المكتبة المركزيّة داخل حاوية بدتْ للوهلة الأولى أنها مملوءة عن آخرها. ثم ملأتْ حاوية بمخزون مُرسَل إلى فرع ويلشاير، من الجليّ أنّها تحتاج إلى بكرة كاملة من الورق اللاصق. قامت بذلك كلّه من دون أنْ تنظر. وقالت إنها لا تمانع في العمل في مكتبة، لكنّها لا تعتبر نفسها من عشّاق الكتب. قالت، وهي تُثبّتُ كتاب تيموثي فيريس «*العمل أربع ساعات خلال أسبوع عمل*» في حاويةٍ مُرسَلة إلى فان نايز، «لا أحبّ القراءة كثيراً». وهنا كانت الحاوية قد فاضتْ بما فيها، ثم أخذتْ تضربها – وهي إشارة موجّهة إلى سائق الشاحنة تعني أنها جاهزة للتحميل. رفعها غونزالو عالياً وأسقطها على خلفيّة الشاحنة. مسحتْ باربرا يديها على فخذيها وأمسكتْ بحاوية فارغة. وحامت يديها فوق كومة الكتب، تخمّن حجمها وتعصرها كأنها ثمار ليمون. واشرأبت برأسها نحوي. قالتْ «إنكِ تقرئين وتقرئين وتقرئين وتقرئين، ثم ماذا؟»

***

عندما كان جون زابو في مدرسة التخرّج في عِلم المكتبات في جامعة ميتشيغان، كان يُعرَف باسم كونان اختصاصي المكتبات[1]، وهذا مُضحك جداً لأنه لا يُشبه في شيء اختصاصي في المكتبات، على الرغم من أنّه حينئذٍ كان شرساً جداً فيما يختص بعمله وهو يُدير المكتبة الصغيرة في صالة مسكنه. كان ذلك في أوائل حقبة التسعينيات، عندما تعرَّف الجمهور العامّ على مُزودي خدمة الإنترنت، وللمرة الأولى في التاريخ، تعرَّضَ وضعُ المكتبات بوصفها المخزن الوحيد والأفضل للمعلومات للتحدّي. ونال زابو شهادته في علم المكتبات عندما بدأ الناس يتساءلون إنْ كانت المكتبات قابلة للحياة أو ضروريّة في العالم المترابط حديثاً.

وُلِدَ زابو في أورلاندو في عام 1968. وكبُرَ في ألاباما، في غالبيّة الأحيان بجوار قواعد القِوى الجويّة، حيث يحترمون المكتبات. كان والده، المتقاعِد من القِوى الجويّة، غالباً ما يترك جون في مكتبة القاعدة في الليالي حين يكون مع فريق لعبة البولينغ. وكان زابو يحبّ الكتب، ومفتوناً بعمليّة استعارة الكتب - كيف تأتي وتذهب، وكيف أنها وساطة للتبادل والتواصُل ضمن المجتمع. وكانت إحدى أدوات المكتبة المُفضّلة لديه هي آلة المُحاسبة، وهي عبارة عن صندوق كبير من المعدن يوجد عند طاولة الخروج التي تختم التاريخ على لسان الكتاب وتقصّ مُزقة منه من أجل إبقاء اللسان مُنتظَماً.

في سن السادسة عشرة، أصبحَ زابو في وظيفة كاتب على طاولة التوزيع في مكتبة القاعدة الجويّة. وفي سن الثانية والعشرين، أصبح لقبه كونان موظف المكتبة. وحالما تخرّج من المدرسة، تقدَّم للعمل في روبنسون، إلينويز -وهي بلدة من ثمانية آلاف نسمة تركت بصمتها في مجال الثقافة العامة في عام 1914، عندما ابتكر أستاذ مدرسة محليّة حلوى هيث. وكان مُعظم سكّان المنطقة إمّا يعملون في مصنع هيث أو كانوا مزارعين، وكانوا يُهملون باعتدال مكتبة روبنسون. أما زابو فاختار أنْ يتقدَّم لطلب العمل في روبنسون لأنه كان مُعجَباً بسياسة الموارد الإنسانيّة للبلدة، التي اتّخذت بصورة غير متوقَّعة مواقع متقدِّمة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنها كانت منطقة

1- مُحاكاة ساخرة لعنوان فيلم أرنولد شفارتنيغر «كونان البربريّ». - المترجم

ريفيّة مُحافِظة. وأحد أول الأشياء التي قام بها زابو بعد أنْ استقرَّ في عمله هو تقديم نفسه إلى المزارعين المحليين، ثم إقناعهم بالتصويت لمصلحة فرض ضريبة لدعم المكتبة– وهو إنجاز بدا مستحيل التحقّق من خلال التطبيق الحكيم لِسحره ودماثته. وبقيَ زابو في مكتبة روبنسون على مدى أكثر من ثلاث سنوات ومن ثم انتُدِبَ لإدارة المكتبة في بالم هاربر، فلوريدا. وبعد بضع سنوات، عُيِنَ مُديراً لجهاز المكتبة في كليرووتر، فلوريدا. ومكثَ في كليرووتر أكثر من ست سنوات، وفي أثناء إقامته في كليرووتر، قابل شريكه، نيك، الذي كان أستاذ مدرسة.

في عام 2005، انتُدِبَ زابو لإدارة مكتبة أتلانتا. كان مَنصِباً جديراً بكثير من الناس أنْ يجدوه فظيعاً والبعض الآخر يعتبره لا يُطاق. وفي ذلك الوقت، كانت أتلانتا نظاماً ممتداً يحتوي مكتبة رئيسيّة وأربعة وثلاثين فرعاً، وهيئة إداريّة تتألّف من أكثر من خمسمائة شخص، وروحاً مُحطَّمة. كانت واحدة من آخر أنظمة المكتبات في الجنوب التي تتكامل – كانت حتى عام 1959 لا تخدم إلّا الزبائن البيض. وعمليّة التكامل تمّتْ على شكل نوبات ووثبات، واستمرّت القضايا العرقيّة تلازم المكتبة على امتداد عقود. وانتُدِبَ زابو وسط آثار حادثة مُسبّبة للكثير من الشِقاق. ففي عام 2000، خُفِّضَتْ مرتبة سبعة من موظفي المكتبة البيض في فرع قلب البلدة واستُبدِلوا بموظفين من الأميركيين الأفارقة. حدثَ ذلك بعد أنْ أعلن رئيس هيئة إدارة المكتبة أنّه يعتقد أنَّ هناك الكثير جداً من «النساء البيض العجائز» يُدرن مكتبة قلب البلدة وأنَّ الهيئة الإداريّة تحتاج إلى «التخلّص منهنّ». وخُفِّضَتْ أيضاً مرتبة مُستخدَم أميركيّ إفريقيّ أيضاً اشتكى لمصلحة المُستخدمات البيضاوات. ورفع موظفون في المكتبة دعوى ضد الهيئة الإداريّة ومدير المكتبة بتهمة التمييز العنصريّ. وكانت اجتماعات هيئة إدارة المكتبات دائماً تُنقَل عبر شاشة التلفزيون في أتلانتا في بثّ مُباشر، وربما جذبتْ، في معظم الأوقات، جمهوراً واسعاً. وخلال فترة الدعوى، كانت الاجتماعات متفجّرة إلى درجة أنَّ الناس كانوا يُقبلون على مُشاهدتها بأعدادٍ غفيرة. وبعد ثلاث سنوات من التجاذب، كسبت موظفات المكتبة تسوية بمبلغ 18 مليون $، وفي العام التالي طُرِدَ مدير المكتبة من منصبه. وعُيِّنَ زابو بعد ذلك مباشرة، في عام 2005.

وزابو رجل طويل القامة يُشبه رجال العصابات، وذو رأسٍ صغير ومُربّع، ولحية صغيرة مُدبّبة، وكأنّه عند نقطة غليان من الصعب تجاوزها. وهو سيد الغمز والهمس التآمريّ الوديّ. ويُعطي انطباعاً بأنّه السيد المحترم المثاليّ، بكل سلوكيات الجنوبيّ الحسنة واللباقة العسكريّة. وقد اعتُبِر انتداب لوس أنجلوس له ليعمل بعيداً عن أتلانتا انقلاباً، لأنه كان قد ولَّدَ لنفسه سُمعة حسنة في عالم المكتبة بكونه أحد المُديرين القلائل الذين أدركوا الانتقال من عصر ما قبل الإنترنت إلى عصر طغيان الإنترنت، وأعدّ بنجاح المكتبة لكي تنطلق نحو المستقبل ليس بوصفها كومة ضخمة، رجعيّة، تئنّ من الكتب، بل بوصفها سفينة أنيقة من المعلومات والخيال. ورأى زابو أنَّ مستقبل المكتبات هو أنْ تكون مزيجاً من جامعة شعبيّة، ومحور المجتمع وقاعدة معلومات، تتشارك بسعادة مع الإنترنت بدل أنْ تتنافس معه. وعمليّاً، شعر زابو بأنَّ على المكتبة أنْ تباشر بإعطاء دروس وتكون مركز تصويت وتعدّ برامج لتعليم القراءة والكتابة وأنْ تُخصص أوقاتاً لرواية الحكايات وسلسلة للمتكلمين وتكون ملجأً للمشرّدين وتقدِّم خدمات في مجال الأعمال واستخدام الكومبيوتر وتأجير الأفلام السينمائيّة وإعارة الكتب الإلكترونيّة وتفتتح متجراً لبيع الهدايا. وأيضاً، أنْ تقدِّم كتباً.

في لوس أنجلوس، صُمِّمَتِ المكتبة لتكون إحدى إدارات المدينة، كقسم الشرطة ومركز المُحاماة وهيئة القبض على الكلاب. ورئيس المكتبة هو مدير المدينة، يُعيَّن –ويُطرَد– من قِبَل المُحافِظ. وقد قام أنتونيو فيلاريغوسا، مُحافظ مدينة لوس أنجلوس ذو الأربعة والأربعين عاماً، بطرد زابو في عام 2012. وانتهت مدة ولاية فيلاريغوسا بعد ذلك ببضعة أشهر، بينما كان زابو لا يزال يحلّ أمتعته. وباشر المُحافظ التالي، إريك غاريتشيتي، ولايته بالطلب من رئيس كل هيئة في المدينة أنْ يُجدِّد طلب تعيينه أو تعيينها في عمله أو عملها. بعضهم لم يستعِد عمله، أما زابو فاستعاده، وانتهى من حلّ أمتعته.

يقع مكتب زابو في الطابق الرابع من مبنى غوذهيو، في غرفةٍ زخرفها بأشياء غريبة وصادفها بينما كان يفتش في الطابق تحت الأرضي من المكتبة. وأحد جوانب مكتبه تسيطر عليه مصابيح نحاسيّة مُزخرفة مأخوذة من غرفة

قراءة قديمة كانت خاصّة للأطفال. عثر عليها مستكينة خلف كومة من قِطع الأثاث الخردة، المكسوّة بالغبار وبالقذارة. وعلى طاولة مكتبه وطاولة تقديم القهوة، كان يضع بعضاً من الهدايا المُخصَّصة للذين تبرّعوا لترميم المكتبة بعد الحريق. أحدها كان فتّاحة رسائل معدنيّة ثمينة على هيئة المبنى؛ وأخرى عبارة عن مسندين للكتب هما نسختان مُنمنمتان لشكل أبي هول يضع عمامة موضوعتين على جانبيّ مطلع دَرَج بجوار غرفة حديقة دائريّة.

عندما تركتُ قسم الشحن وشققتُ طريقي وارتقيتُ الدرج إلى غرفة مكتب زابو، كان يعقد اجتماعاً مع مُحلل الميزانيّة، روبرت موراليس، ومديرة الأعمال، مادلين راكلي، وفي ذلك الاجتماع كانوا ينجزون بعضاً من التوازن في ميزانيّة المكتبة السنويّة البالغة 127 مليون دولار. وبالنظر إلى أنّ المكتبة هي إحدى هيئات المدينة فإنها متوسطة الحجم. هي أكبر من حديقة الحيوان، التي تحصل على مبلغ 20 مليون دولار من المدينة (وهو مبلغ يتضمَّن 13,000 دولار من أجل الاعتناء بأيل الرنّة ومبلغ 108,000 دولار من أجل «تجربة إطعام الزرافة» قُبلة الزوار»)، لكنّها أصغر بكثير من مركز الإطفاء، الذي يحصل على 630 مليون دولار في العام.

في ذلك اليوم، كان زابو يرتدي قميصاً ذا مربّعات صغيرة زرقاء باهتة، ويضع ربطة عنق باللونين الأزرق والأرجوانيّ، وبنطلوناً كاكياً مكويّاً بأناقة. وكان يضع نظارات مستديرة كعينيّ بوم تجعله، بالإضافة إلى حبّه لارتداء الملابس الأنيقة، يبدو أشبه بأستاذ جامعي إنكليزيّ في سبيله إلى الترقية. وفي كل ساعة تقريباً من يومه منهمك في العمل، من ناحية لأنه سوف يُغادر في صباح اليوم التالي لكي يحضر مؤتمراً حول المكتبات في تورينتو حول كيفيّة تجديد المكتبات. ومن تورينتو سوف يتوجّه إلى أوهايو لحضور اجتماع حول إنشاء مكتبة على شبكة الإنترنت، وهي تنسيق عالميّ بين عشرين ألف مكتبة موزّعة في 122 دولة حول العالم. وزابو هو رئيس الإدارة. وبعد انتهاء الاجتماع في أوهايو كان يُخطط للعودة إلى لوس أنجلوس، وبعد ذلك بوقتٍ قصير سوف يتوجّه إلى واشنطن دي سي، لكي يستلم الوسام الوطني لخدمته في المتحف وفي المكتبة، الذي يمنَح في خمس مكتبات في كل عام.

إنَّ بعضاً من عمل زابو يتّسم بضيق تركيز. فقبل بضعة أيام، طلبتْ مجموعة من مُربّي النحل المحليين السماح لهم بوضع مُستعمرة من خلايا النحل على سطح المكتبة. وعندما أخبرني عن الطلب، بدأتُ أتساءل مَنْ لديه السلطة لإعطاء مثل ذلك الإذن - لم أكنْ متيقّنة إنْ كان للمكتبة مدير للسطح، أو مدير مستعمرة حيوان، أو شخص يجمع بين العملَين. واتَّضحَ أنَّ السلطة تقع بين يديّ مدير مكتبة المدينة. وسألت إنْ كان سيُصبح هناك قريباً عسلٌ خاص بالمكتبة. فقال زابو إنه من المتوقَّع أنْ ينجح المشروع أو يفشل حسب قدرته على خدمة المصلحة العامة، كحال العديد من الأمور في المكتبة، ولكن في تلك الأثناء، كان يقرأ حول تربية النحل في المدينة.

إنَّ عموميّة المكتبة العامّة تُصبح باطّراد سلعة نادرة. فطوال الوقت تزداد صعوبةُ التفكير في أماكن تُرحّب بكل شخص ولا تطلب أيّة نقود مقابل ذلك العِناق الحارّ. والالتزام بقبول الانضمام قويّ إلى درجة أنَّ العديد من القرارات بخصوص المكتبة يتوقّف على ما إذا كان خيارٌ ما سوف يدفع فئة من العامة إلى الشعور بالذنب. وفي حالة خلايا النحل، قد تتضمَّن تلك الفئة أولئك الذين يخافون النحل أو مُصابين بحساسيّة من النحل. ووجود خلايا نحل على السطح هو افتراض أشدّ تواضعاً، على سبيل المثال، من وجودها في غرفة القراءة الرئيسيّة. ولكن هناك احتمالاً في أنْ يتجوَّل النحل الحيّ ويلج المبنى، أو أنْ يتجوّل حول المداخل، أو أنْ يكون مصدر إزعاج بطرقٍ أخرى. ويبدا أنَّ زابو أحبَّ فكرة الاستفادة من السطح، خاصّة من أجل شيء غير متوقَّع، كخلايا النحل، لكنّه قال إنَّ الحقيقة الحاسمة ستكون إنْ كان هناك أشخاص سوف يتجنّبون ارتياد المكتبة بسببها.

في الوقت الحالي تمّت جدولة النظر في مسألة خلايا النحل، والتفتَ زابو إلى الاهتمام بتفاصيل الميزانيّة مع موراليس وراكلي. كانت المكتبة وسط فترة عفو خاصّة بالنسبة إلى غرامات الكتب.

سأل زابو موراليس «كم يُكلّفنا هذا؟»

أجاب موراليس «إنّه حتماً خسارة في الدخل. هناك الكثير من الكتب التي فات موعد استحقاقها». خارج النافذة، شقَّ الجو فجأة الصفير الأنفيّ

لمُعدّات الإنشاء التي تقوم بالمساعدة. وبعد حوالي ثلاثين ثانية، توقف الصفير توقّفاً حادّاً، وانهار شيءٌ ما معدنيّ وتحطَّم. ونظر الجميع إلى النافذة برهة ومن ثم عادوا إلى نقاشهم. بدا أنَّ مسألة العفو عن غرامة الكتب قد تمّتْ تسويتها، ومرَّر زابو إصبعه أعلى وأسفل دفتر ملاحظاته. وحالما عثر على ما يُريد، رفع بصره وقال إنّه كان ينوي أنْ يطلب من بلديّة المدينة أنْ تموّل برنامج معونة شهرية للمُشردين في المكتبة.

حذَّرتْ راكلي قائلة «إنَّ مهمتنا الجوهريّة ليستْ إنهاء التشرُّد، بل هي أنْ نكون مكتبة»

قال زابو «لكنَّ المُشردين موجودون هنا أصلاً. ونريد أنْ نوفّر موقعاً لكي نعدُّ مدخلاً إلى كل خدمات المشردين المتنوعة في المدينة». وتقرَّر إجراء اختبار للبرنامج، يُدعى المصدر، في وقتٍ لاحق من ذلك الأسبوع. ودوَّنَ زابو شيئاً على دفتر ملاحظاته ومن ثم انتقل إلى المواضيع التالية: إجراء تحديث لإيجاد الحلول للمشاكل؛ ووضع برنامج للتطعيم ضد الإنفلونزا؛ والخبر القائل إنَّ الخط النهائي السابع في مطار لاكس وافق على إنشاء مكتبة متنقّلة، مما سيُمكّن المُسافرين من التعرُّف على الكتب الصوتيّة والكتب الإلكترونيّة في نفس المكان. والنقاش حول عربة البيع المتنقلة ذكَّرَ زابو بأنَّ شركة تقاسُم الدراجات طلبتْ أنْ تُقيم أحد أكشاكها على الرصيف أمام المكتبة.

قال زابو «أحبّ الدراجات. ووضعُها هنا أمرٌ رائع»

سألتْ راكلي، وقد بدا عليها القلق، «هل نستطيع أنْ نحرّك الكشك، ونضبط موقعه، حالما يوضَع، إذا لم يُعجبنا مكانه؟»

قال زابو إنه سوف ينظر في الأمر، وألقى نظرة سريعة على ساعة يده، واستأذن بالانصراف، ومن ثم نهضَ استعداداً للمغادرة والانطلاق إلى موعده التالي، الذي كان سيتمّ في فرع واشنطن إرفينغ من المكتبة.

استقللنا مصعد الهيئة الإداريّة لنهبط إلى الطابق السفليّ ونجتاز قسم الشحن. حيّا زابو العديد من أفراد الطاقم بالاسم، ولوّحوا بأيديهم له من دون أنْ ينزعوا سماعات آذانهم. ثم ولجنا الجزء الرئيسيّ من المرأب

وركبنا سيارة زابو. وعندما خرجنا من المرأب المُعتِم، ضربتنا الشمس كأنما بلكمة، كأنما أُصبنا بدفقٍ قويّ من مدفع مياه. انطلقنا إلى حيّ يقع بين طريق سانتا مونيكا العامّة وجادّة كرينشو. والحيّ يُدعى رسمياً وسط المدينة، ولكن دائماً يُشار إليه باسم كرينشو. والمنطقة فسيحة وبرّاقة، هي شبكة من الشوارع الصغيرة تتقاطع مع جادّات وامتداد الطريق العام 1–10 المتّجه جنوباً. خرج زابو عن الطريق العام وولج شارعاً سكنيّاً مُشمساً ومن ثم أوقفَ السيارة بجوار سياج من السلاسل. كانت هناك امرأة نحيلة، قاتمة الشَعر تنتظر بجوار السياج مع مجموعة أوراق مُثبَّتة معاً وعلى وجهها تعبير التوقُّع. قالت، وهي تميل نحو السيارة «أخيراً وصلت!». وعرَّفَتْ عن نفسها باسم إلويزا ساراو، مُساعدة مدير أعمال المكتبة. هبّتْ على الشارع عصفة خبيثة من الريح وعبثتْ بصفحات الورق التي تحملها. فقامتْ بصفعها لكي تُثبّتها وقالت «فلندخل!»

كان سياج السلاسل يُحيط بمبنى من القرميد والجصّ ويبدو كما لو أنّه كان ذات يوم جميلاً أما الآن فقد تهدَّمَ بفعل مظهر الإهمال الأشعث، الرماديّ. كان أعلى النافذة، المحفور عليه الكلمات «مكتبة لوس أنجلوس العامة فرع واشنطن إرفينغ»، يبدو كتاج من حجر. والمكتبة بُنِيَتْ على طراز المعبد الكلاسيكي الجديد الذي كان شائعاً في تصميم المكتبات في عام 1926. والحيّ المُحيط بها كان مُخصّصاً لطبقة العمّال، لكنّه نُسيَ خلال العقود القليلة الأخيرة؛ الآن أصبحت نسبة تفشّي العطالة والجريمة في كرينشو أعلى مما هي في المدينة. والمنازل شكلها مُربَّع وبسيط، مع مساحات قليلة من المروج ونوافذها مُزوَّدة بقضبان الأمان. وحتى وسط هذا الجو الكئيب، كان حضور المكتبة فخماً. وفي عام 1987، أُضيفَ المبنى إلى الأماكن المُسجّلة وطنيّاً كمواقع تاريخيّة. وكالعديد من المكتبات في زمنها، لم تكن مُهيّأة لمواجهة معايير الهزّات الأرضيّة ولا تضم مساحة كافية لموقف السيارات أو مساحة داخليّة. ولم يكن سهلاً العثور على موقعها في شارع سكنيّ. ومع ذلك، كان السكّان يُحبّونها.

في عام 1990، أعلنت المدينة أنها سوف تُغلق فرع واشنطن إرفينغ وتنشئ مبنى مكتبة جديداً على مسافة قريبة منها، على موقع سابق لغسيل

السيارات. واحتجّ الجيران بقوة، لكنَّ البلديّة أصرَّتْ. وأُنشئت المكتبة. ومنذ ذلك الحين، بقيّت المكتبة القديمة، التي خدمَت الحيّ طوال خمسة وستين عاماً، خالية، مُهمَلة ككلبٍ عجوز يجلس على أريكة بالية. كانت الشمس قد عاقبتها. وكاد السياج يُصبح جزءاً من المشهد الطبيعي العام؛ يميلُ كميلِ شجرةٍ في وجه الريح واستحال لونها إلى ظلّ ترابيّ، ضبابيّ من الأحمر الفضيّ. وكانت الجذور القويّة، المتشبّثة للنباتات المعترشة ونبات الساطور goosegrass وذيل الحصان، قد شقَّت الأرضيّة حول السياج وأحدثتْ أشكالاً جنونيّة على الرصيف حول المبنى. وبدت النوافذ المسدودة بألواح من الخشب أشبه بعيونٍ مضروبة على وجهٍ خالٍ من القسمات.

في أثناء وقوفنا نتأمّل الحزن الذي يُثيره المشهد، كان صرّار الليل يصرّ مرِحاً بين الأعشاب. وثمة لافتة تحمل عبارة «ممنوع التعدّي» صفراء بلون نبات القطيفة ترفرف وتتأرجح كراية احتفال. ولافتات تعلن عن رغبة عدد من الأشخاص في شراء منازل قبيحة وفي تنظيف المجاري، مُثبّتة على السياج. وكانت نسخة ذات غلاف ورقيّ من كتاب «*الإعداد المرح لغُرَيبة الفريز*» محشورة في أسفل السياج بجوار بقعة من أوراق النبات البنّية وبعض قطع اللف البلاستيكيّة، كسفينة جانحة بسبب جزر منخفض. وكان صمت منتصف النهار يلفّ الشارع، جادّة آرلنغتون. وعلى مسافة قريبة، كانت حركة المرور تموج. مرَّ بنا رجلٌ ممتلئ، يقود كلباً أزرق العينين بحبل. وبعد برهة، فتحتْ ساراو القفل ودفعتْ باب السياج، ثم فتحت قفل الباب الأمامي للمكتبة. فُتِحَ بتردُّد، مع سعال أجشّ، صعب. كانت الغرفة الرئيسيّة فخمة، بسقف مرتفع قائم على دعامات جمالون خشبيّة لامعة. قال زابو، وهو يجتاز الأرضيّة بحذر، «يا إلهي». كانت البقايا تصل حتى كاحليه. وتتألّف من عبوات البيرة، وحزام من الجلد قياس متوسط جميل المظهر، وزجاجة من زيت تنظيف الجسم، وعدد من أكياس رقائق البطاطا المسحوقة، والكثير من كتل القمامة المبهمة. كانت نسخة من كتاب «*سبيل المغامرة: تغيير حياتك وعملك بالروح والرؤيا*» قابعة على طاولة الكتابة الأماميّة، وكأنَّ شخصاً كان واقفاً هناك معه، في انتظار تفحّصه، في اللحظة التي أغلقت المكتبة أبوابها وتجمّدتْ في الزمن.

لم أزر يوماً مكاناً موحِشاً كهذه المكتبة، بجمالها المعطوب، ووحشتها. إنَّ الأماكن المهجورة تتصِف بالخواء المرتعِش، المتوجِع، أعمق من خواء مبنى لم يكن مسكوناً. أما هذا المبنى فكان ممتلئاً بما يفتقده. وكأنَّ الناس الذين دخلوه قد تركوا انبعاجاً في الجو: كان غيابهم حاضراً، يتلكّأ. الطفل الذي تعوّد على القراءة هنا؛ والطالب الذي كتب أطروحة الفصل الدراسي هنا؛ ومُدمن القراءة الذي تجوّل بسعادة بين هذه الرفوف: كلهم رحلوا، رحلوا، رحلوا. كانت بضعة كتب ما تزال على الرفوف - كتب أفلتتْ من الانتباه عندما أُخليَ المكان، كناجين من قنبلة نيوترونيّة. لقد جعلَتْ للكتب المفقودة حضوراً مُراوغاً، مُشاراً إليه، وكأنني كنتُ أرى أشباحاً.

فتشنا عن مصباح لكي نُضيئه، لكنَّ غالبيّة مفاتيح النور لم تستجب. كان الجو في الخارج مُشمِساً، أما داخل المكتبة، فكان مُعتِماً. وكانت النوافذ شديدة القذارة بحيث لم يتسلَّل منها أكثر من خيوط من النور. كان شعوري بالكآبة أشبه بيدٍ تضغط على صدري. لقد ولجتُ الكثير من الأبنية الخالية، لكنَّني شعرتُ بأنَّ هذا أكثر من مجرّد مبنى خال. هذا المبنى جعل دوام المكتبات يبدو منسيّاً. كان ضريحاً للنسيان؛ ولذكريات منثورة كما الملح؛ ولأفكار متبخّرة كما لو أنها لم توجَد قط؛ ولقصص متلاشية كأنما ليس لها مادة ولا وزن يربطانها بالأرض وبكلٍ منا، وفوق كل شيء، بالمستقبل الذي لم يتكشَّف بعد.

تجوّلنا في أرجاء قاعة القراءة بعض الوقت، مرتطمين بالكآبة، ومن ثم قلتُ لزابو إنّه يمكن للمكتبة أنْ تكون مأوى مناسِباً، خاصّة لشخص يُحبّ القراءة. فقال إنها فكرة مُثيرة للاهتمام لكنَّ المدينة كانت تفكِّر في شيء أكثر تلاؤماً مع مركز المجتمع. وهذا المنحى من التفكير مُستمر منذ عام 1990 ولم يتجسَّد على شكل خطّة بعد. قال زابو، وهو يهزّ رأسه نفياً، «مبنى رائع». وأومأتْ ساراو برأسها وقالتْ «كم سيكون شيئاً رائعاً لو نعود إلى استخدامه». أطللنا من النوافذ وتجوّلنا في أنحاء الغرفة الرئيسيّة، وفتحنا بضع خزائن وأبواب. شعرتُ بأنَّ بعض الحيوانات الصغيرة الشرسة قد ترى في المكتبة الخالية مكاناً مناسِباً للاستقرار، وهذا يعني أنني في كل مرة فتحت خزانة أو باباً، عانيتُ من جرعة مُزعجة من الإثارة.

كان زابو قد جاء إلى فرع واشنطن إرفينغ ليتفقّد حاله ويحاول أنْ يُهدِّئ الجيران الذين فزعوا من تخريبه. ذات مرّة، انتعش الشارع بأناقة المكتبة. أما الآن فأضحى أشدّ الجيران قُبحاً في المبنى ويزداد قُبحاً مع مرور الوقت. لم تتوفّر النقود للقيام بأي عمل هام، لذلك كان زابو يفكّر فيما يمكن أنْ يُقدِّم من أجل الجيران. وبينما كان يُناقش هذا الأمر مع ساراو، تبيَّنَ لي أنَّ جزءاً كبيراً من عمل موظف المكتبة في أيّة مدينة هو أنْ يكون مدير عقار. وزابو مسؤول عن ثلاث وسبعين مُنشأة كبيرة تنتشر عبر الأميال الـ 503 المُربّعة هي مساحة مدينة لوس أنجلوس. والقيام حتى بزيارة كل فرع من الفروع هو قضيّة كبيرة. وزابو يقضي أيّامه في التنقّل بين الأفكار الكبرى حول مستقبل أجهزة المعلومات العالميّة وتفاصيل على غرار الطلب من بُستانيّ في المدينة أنْ يقصّ الأعشاب الضارّة التي تنمو حول مكتبة واشنطن إرفينغ. قال لساراو، وهو يُنحّي جانباً بعض القمامة بقَدَمه، «يجب أنْ نكنس هذا المكان. ولكن دعينا نُركِّز على الخارج ونقوم بالتنظيف من أجل الجيران»، وتنهّد. «ينبغي علينا حتماً أنْ نقوم بإزالة كل ما ينمو حول السياج. سوف يُصبح المكان أفضل بكثير»

***

عدنا إلى سيارة زابو، وقدناها إلى بلديّة المدينة، حيث عقد اجتماعاً مُقرّراً مع مديرة سياسة التشرّد في المدينة، أليسا أوردونيا. وقبل خمسين عاماً، كان سيبدو أمراً مُستبعداً تماماً أنْ يعقد مسؤول مكتبة المدينة اجتماعاً مع مدير سياسة التشرّد. في الواقع، قبل خمسين عاماً، لم يكن هناك مدير لسياسة التشرّد. أما الآن فهو منصبٌ أساسيّ. وفي أواخر حقبة الستينيات، جذبَتْ وسائل الإعلام الانتباه إلى الأحوال المُريعة في المصحّات النفسيّة. ومع تطوّر العقاقير المُضادة للأمراض النفسيّة وقيام الرئيس ريغان بتخفيض تمويل الصحّة العقليّة، قامت المستشفيات النفسيّة في الدولة بالتالي إبّان ذلك بصرف عدد هائل من المرضى. والعديد من أولئك المرضى لم يكن لديهم منازل يعودون إليها أو كانوا من فرط العجز بحيث لا يستطيعون الحصول على منازل خاصّة بهم. وعلى امتداد العقود القليلة التالية، نضبَت الأموال اللازمة للإنفاق على برامج الخدمة الاجتماعيّة والإيواء ذي الدخل

المنخفض. ثم ساهم الكساد العظيم وصاعقة حبس الرهون التي سادت البلد بقوة في زيادة عدد السكّان الذين يُقيمون في الشوارع أو في المأوى. وبحلول عام 2009، كان أكثر من مليون ونصف المليون من الناس في الولايات المتحدة ينطبق عليهم التعريف الفيدرالي لصِفة متشرد – أي كل شخص من دون «مسكن ثابت، منتظم، وصالح للإيواء فيه ليلاً». وفي لوس أنجلوس من المشرّدين أكثر من أيّة مدينة أخرى، ما عدا نيويورك: وفي التعداد الأخير للسكان، عام 2017، كان هناك حوالي ستين ألف مُشرَّد في لوس أنجلوس.

من بين الأماكن القليلة التي ترحِّب بالمُشرّدين، ومُزوّدة بالكومبيوترات وبخط إنترنت، وتسمح لهم باللهو طوال النهار (إلّا إذا كانوا يمثّلون)، المكتبة العامّة. لقد أضحت المكتبات مركزاً اجتماعياً حقيقياً للمشردين في كل أنحاء العالم. وليست هناك مكتبة واحدة في العالم لم تتعامل مع قضيّة إعالة المُشردين – ومقدار تلك الإعالة. وكثير من موظفي المكتبات أخبروني أنهم يعتبرون تلك مسألة تحدٍ تواجه المكتبات في الوقت الراهن، وأنهم يائسون من إيجاد توازن بين الترحيب بالمشرّدين وإرضاء الرواد المُداومين بصورة ما الذين يشعرون أحياناً بالخوف منهم أو يجدونهم كريهي الرائحة أو فوضويين أو مُنفرين. إنَّ المكتبة المركزيّة بعيدة عن العديد من الملاجئ الكبيرة ومعابر الطرق العامة المزدحمة بمخيمات المُشردين. وفي الصباح، قبل أنْ تفتح المكتبة أبوابها، هناك العديد من الناس المنتظرين لكي يدخلوا المبنى حاملين متاعهم من الدنيا على ظهورهم. وزابو على عِلم بحقيقة أنَّ المكتبة تُحقّق نوعاً من الحراسة للعديد من مُشرّدي لوس أنجلوس. وعندما تولّى إدارة المكتبة في أتلانتا، أرسل مكتبات سيّارة إلى فنادق الطرق العامة التي يُقيم فيها العديد من المُشردين، لكي يمنح الأطفال كتباً ويُخصِّص لهم ساعات لحكاية القصص لهم. وأضاف إلى تلك السيّارة ممرضة في الصحة العامة لكي تتفحّص صحّة النزلاء حالما يخرجون إلى السيّارة.

قابلتنا أليسا أوردونيا في البهو البارد، اللامع، لمبنى البلديّة وقادتنا إلى الطابق العِلويّ حيث غرفة مكتبها. وهي امرأة عريضة الكتفين، صريحة، ذات ابتسامة مُضيئة، وينتشر على أنفها رذاذٌ من النمش. وعلى الرغم من تعاملها

طوال النهار مع القضيّة العنيدة لأناس مرضى عقليين ومُشوّهين، تبدو مرحة وحيويّة، وتكاد تكون مبتهجة. وهي وزابو يتواصلان بانتظام. واجتماع اليوم تصادف مع صدور أمر جديد من المدينة يُحدِّد حجم الأشياء المسموح بوضعها على أرصفة المدينة، وهذا أسلوب مُراوِغ لإحباط الناس عن إقامة مخيمات وعربات للتسوق وحقائب. لا أحد كان متيقّناً كيف ستنتشر النتائج في أرجاء المدينة عندما يوضع القانون موضع التنفيذ، ولكن سوف يترك حتماً أثره على المكتبة. قالت أوردونيا لزابو حول الأمر الصادر «إذن، سوف يُنفَّذ غداً. وتخميني يقول إنّه سوف يُحدِثُ توتّراً»

ربتَ زابو على ذقنه برهة ومن ثم قال «إنَّ لدينا سياسات بشأن حجم حقائب الظهر التي يمكن للناس أنْ يُحضروها معهم إلى المكتبة. هل نحن في حاجة إلى أنْ نكون أكثر تساهلاً، للمساعدة في التخفيف من هذا الأمر؟ في حال جاء الناس حاملين الكثير من أغراضهم من المخيمات؟» وتحدّثا عمّا إذا كانت هناك وسيلة يمكن للمكتبة بها أنْ تزوِّد غرفة إيداع الأغراض بمساحة لتخزين الأغراض الكبيرة، بما أنّه سوف يُطلَب من الناس الآن تنظيف مواقع تخييمهم خلال النهار وقد لا يجدون مكاناً يضعون فيه حاجياتهم.

قالتْ أوردونيا «سيكون هذا شيئاً عظيماً. بالإضافة إلى أنّها سوف تكون فرصة لإجراء بعض التضييق. سوف نُحبّ تلك البيانات»

قال زابو «أنا أيضاً سوف أحبّ البيانات». تحدثا قليلاً عمّا إذا كان هناك حيِّز شاغر في مكان ما في المكتبة. حاولَ زابو أنْ يُبدي الحماس لكنّه حذَّرَ أوردونيا من أنَّ المبنى ممتلئ أصلاً. ثم قال زابو إنه سوف يطلب تمويلاً في ميزانيته التالية من أجل برنامج إعانة المُشردين. أو المصدر، الذي كان قد أتى على ذِكره في وقتٍ مُبكِّر من النهار. انتعشتْ أوردونيا وسألتْ إنْ كان في استطاعة المكتبة أنْ توفِّر عمّالاً اجتماعيين لكي يُقابلوا زبائن مُشرّدين. أجفلَ زابو وقال إنّه لا يعتقد ذلك لكنّه دوَّنَ ملاحظة لكي يتمكّن من القيام بمزيد من البحث حول هذا الموضوع. وتنهّدتْ أوردونيا وقالت «جون، أنتَ تعلم كيف هو الأمر. إنَّ ما نقوم به هو مُحاولة تغذية الأمل بينما الناس ينتظرون إيواءهم. إنَّ مجرّد التمسّك بالأمل شيء هام»

قال زابو إنَّ في استطاعته أنْ يُرسِل مكتبات سيّارة إلى مناطق تسكنها عائلات المُشرّدين، كما كان قد فعل في أتلانتا، إذا استطاع أنْ يعرف كيف يحصل على الموارد والتمويل للمكتبات السيّارة من دون أنْ يُضطرّ إلى المرور بأقنية البلديّة الاعتياديّة. وقال زابو بينما أوردونيا تومئ برأسها «لقد سمعتُ أشياء تُشبه الكوابيس، إنَّ الحصول على أي شيء يستغرقُ عامَين، حتى الحصول على مكنسة كهربائيّة، أو ما شابه من أشياء»

شهقَتْ أوردونيا «أوه يا إلهي! من أجل الحصول على مكنسة كهربائيّة؟»

***

موعد زابو التالي كان يقع في الطرف المقابل في ليتل طوكيو. الحيّ يضمّ فرعه الخاص من المكتبة، في مبنى منخفض وطويل من الإسمنت تمَّ افتتاحه في عام 2005. واجهة المبنى منفعيّة: والجزء الخلفيّ موصول بمطعم ريذبيرد، وهو أحد أفخم المطاعم في قلب مدينة لوس أنجلوس. وكان رئيس الفرع قد طلبَ من زابو أنْ يتوقّف لكي يُناقشا الاتّفاق حول إيقاف السيارة مع المبنى المُجاور والخُطط المُعدَّة للأرض البور الواقعة بين خلفيّة المكتبة ومطعم ريذبيرد. وكان فرع المكتبة في ليتل طوكيو يقع على مرمى حجر من المكتبة المركزيّة، ولكن يبدو كأنّه مختلف بالكامل. إنّها من دون أدنى شك مكتبة حيّ – مُحكَمة، مُحدَّدة، وأليفة. ومجموعتها من الكتب تعكس اهتمامات الحيّ. والمكتبة المركزيّة تضمّ قسماً لا بأس به خاص بكتب الرسوم الفكاهيّة اليابانيّة، أما فرع ليتل طوكيو فيحتوي قسماً كبيراً خاصاً به. والعائلات في الحي لديها الكثير من الأطفال الصِغار، ولذلك يحتوي الفرع قسماً كبيراً خاصاً بالأطفال، وكتباً بالإنكليزيّة وكذلك باليابانيّة.

خارج الباب الأمامي مباشرة، جلسَ رجلٌ شديد النحول تكسو وجنتيه وذقنه بقعٌ رماديّة على طاولة من ألواح بلاستيكيّة. وشرح لنا أنّه تطوّع بتقديم معونة لمصلحة برامج جنود القوات الأميركيّة الخيريّة. كانت أعداد كبيرة من الكتيبات تغطي سطح طاولته على شكل زهرة، وأعطانا عدداً منها.

سأله زابو «أكان يوماً حافلاً؟»

هزَّ الرجل رأسه نفياً وقال «كلا، ليس كثيراً»، وعدَّلَ من وضعيّة أحد الكتيبات ورسم ابتسامة واسعة، «أعتقد أن كل الموجودين في الخارج يتشمّسون»

انطلقَ زابو ليفتش عن رئيس فرع المكتبة، لذلك رحتُ أتجول وحدي في أرجاء غرفة المطالعة. كانت تسري فيها تلك الهمهمة المُهدِّئة الخاصّة بالمكتبات -ليست ضجيجاً، ولا جَلَبَة، بل صوت متواصل فقط، دافئ وبلا شكل- كانت مساحة ممتلئة بهدوء ولهدف معروف بالعديد من الغرباء. مشيتُ بين حشد من رفوف الكتب نحو قسم الأطفال. كان رجلان وامرأة من العجائز يستعرضون الكتب هناك، يُخرِجون الكتب من بين الرفوف ومن ثم يتشاورون فيما بينهم باليابانيّة. لعلهم من الأجداد ينتقون كتباً لأحفادهم، لكنَّ موظفة المكتبة المسؤولة أخبرتني بأنّهم ينتقون الكتب من أجل أنفسهم. وقالتْ إنَّ العديد من الناس في الحيّ يستخدمون الكتب المُصوّرة للتدرّب على تعلّم اللغة الإنكليزيّة.

عاد زابو بعد بضع دقائق. بدا متحمّساً وقال إنّه يبدو أنَّ قضيّة إيقاف السيارة قد حُلَّتْ؛ لقد وافقت إدارة المكتبة على السماح لأصحاب مبنى ريذبيرد بتطوير الأرض البور. وتضمّنت الخطّة وضع مساكب في الحديقة، ونافورة، وأشجار زيتون، وحوضاً لتربية السمك. في تلك الأثناء، كان مدير الفرع قد طلبَ بنجاح تنظيف مكتبة ليتل طوكيو.

كان وقت الإغلاق يتم عند الساعة الخامسة مساءً، لكن كان لا يزال أمام زابو حضور اجتماع في غرفة مكتبه، مع امرأة شابّة اسمها كرينْ مالون، التي ستحلّ محلّه كمدير لخدمات المكتبة المركزيّة. وسوف تُصبح المدير الحالي، إيفا ميثْنيك، مدير الارتباط والتعلّم، وهو منصِب واسع الطيف أوجده زابو، ويتضمّن الإشراف على موظفي المكتبة الذين يُتقنون لغتين أو عدداً من اللغات، وخدمات للأميركيين الجُدد، وكل برامج المكتبة من أجل المُحاربين القُدامى.

ومنصِب مدير المكتبة المركزيّة يختلف عن منصِب زابو. فزابو يُدير شبكة مكتبات المدينة كلها ولديه غرفة مكتب في المكتبة المركزيّة، بالإضافة إلى

باقي إدارة المكتبة. أما مدير المكتبة المركزيّة فيُدير المكتبة الأساسيّة بنفسه، ويُقدِّم التقارير لزابو، تماماً كما يُدير رئيس فرع ليتل طوكيو ذلك الفرع ويُقدِّم تقاريره لزابو. والفرق هو في حجم مجموعات كتب المكتبة المركزيّة وتعقيدها – الكتب النادرة، مواد البحث، المجموعات الخاصّة، بالإضافة إلى كتب المكتبة المعتادة.

كانت مالون، وهي امرأة من العرق الأميركيّ الإفريقيّ، ممشوقة القامة، هادئة، ذات شَعر طويل متموّج وابتسامة خجول، وعملتْ في المكتبة طوال السنوات السبع عشرة الأخيرة. وعندما وصلنا، كانت تنتظر في غرفة مكتب زابو، تقرأ لائحة بطلبات الكتب. حيّاها زابو وباشر بإخبارها عن إقامة مركز لتقاسُم الدراجات. وتحدثا عن ذلك بينما كان زابو يخلع سترته، ويُعدِّل من شأن ربطة عنقه، ثم يجلس. بعد ذلك انتقل الحديث من المكتبة المركزيّة إلى بويل هايتس، وهو حيّ يقع شرقيّ مركز المدينة. كان مصنع لإعادة تدوير البطاريات في الحيّ يحتوي تربة ملوّثة بمستويات سامّة من الرصاص، مما استلزمَ إجراء أكبر عملية تنظيف من الرصاص في تاريخ كاليفورنيا. وكانت شركة إكسايد تكنولوجيز، التي تُشغِّل المصنع، قد وافقتْ توّاً على تمويل عمليّة إجراء فحص للدم لواحدٍ وعشرين ألفاً من قاطني الحيّ. وسوف تتم العمليّة في فرع المكتبة في بويل هايتس. ففي الأوقات العصيبة، تتحول المكتبات إلى ملاجئ. تتحول إلى ساحات في المدينة ومراكز اجتماعيّة – وحتى مواقع لسحب عيّنات من الدم. وكانت قد وقعتْ في لوس أنجلوس العديد من الكوارث تطلّبتْ وجود مكتبات لكي تلعب ذلك الدور. في عام 2006، على سبيل المثال، حدث تسرّب في مُنشأة لتخزين الغاز في حي بورتر رانش، وتدفّق غاز الميثان، مُسبّباً الصداع للسكّان، ونزيفاً في الأنف، وأوجاعاً في البطن، وضيقاً في التنفّس. وأخيراً، اضطروا إلى إخلاء المنطقة بأكملها. وبمساعدة أجهزة تنقية الجو الصناعيّة، نجحت المكتبة في الاستمرار في فتح أبوابها. أصبحت أرض تبادل المعلومات بشأن الأزمة، بالإضافة إلى كونها مكاناً يمكن للسكان أنْ يلتقوا فيه في أثناء نفيهم من منازلهم. ولاحظ رئيس الفرع مدى قلق الرواد الدائمين، فأُدخِلت فصولٌ في اليوغا والتأمّل لمساعدة الناس في التحرُّر من الضغط. وتعلَّمَ أفراد الهيئة الإداريّة كيف يملؤون

استمارات الإنفاق من شركة سذرن كاليفورنيا غاز لكي يتمكنوا من مساعدة الناس في تقديم الطلبات من أجل الحصول على تعويض إيواء وتكاليف الطبابة. وأطرَتْ *مجلّة المكتبات الأميركيّة* استجابة المكتبة، مُلاحِظةً أنّه «وسط تسرّب مُدمِّر للغاز، تبقى مكتبة بورتر رانش راسخة القَدَم»

تبادل زابو ومالون آخر المُستجدات حول مشاريع شتّى. سوف يتم قريباً إنجاز البطاقات الجديدة للمكتبة، التي صمّمها الفنان شيبارد فيري. إنّ أعداد التوزيع جيدة. وتم طلب آلات تصوير إضافيّة للأمان من أجل المبنى وسوف تصل في غضون أسبوع أو اثنين. ودوّنت مالون بعض الملاحظات وأومأتْ برأسها بعد سماع كل جُملة. وسألتْ زابو متى سيعود من جولته التي سيبدأها مع بزوغ فجر اليوم التالي. قال «بعد أسبوع»، وابتسم ثم أضاف، «لن يُتاح لكِ وقت لتشتاقي إليّ!»

عندما تهيّأتْ مالون للمغادرة، ذكّرَ زابو أنّه سوف يعود في الوقت المناسِب لحضور الاحتفال المُرتقَب الذي سيُقام في المكتبة. وفي عام 2014، كان زابو قد وضع حجر الأساس لمدرسة كارير أونلاين الثانويّة -أو م.ك.أ.ث- وهو أول مشروع مدرسة ثانوية مُعتمَدة داخل مكتبة في الولايات المتحدة. يستطيع فيها البالغون الذين لم يحصلوا على شهادة المرحلة الثانويّة في المدرسة أنْ يتلقّوا أياً من دروس مدرسة كارير أونلاين الثانويّة التسعمائة عبر شبكة الإنترنت مجّاناً، من خلال موقع المكتبة الإلكترونيّ، وأنْ يتحصّلوا على شهادة تعادل شهادة المدرسة الثانويّة. وكان زابو يُبشِّر على الدوام بالمكتبة بوصفها الجامعة الشعبيّة، وقد نجح بفكرة مدرسة كارير أونلاين الثانويّة أنْ يفعل خيراً. كانت فكرة شديدة الوضوح ومُناسبة جداً لموقع مكتبة، وبعد أنْ أطلقها زابو، باشرت خمسون مكتبة أخرى في أرجاء البلاد بإطلاق دورات مدارسها الثانويّة الخاصّة للبالغين. وكان إطلاق مدارس كارير أونلاين الثانويّة هو أحد أشدّ الأوجه المُرضية خلال فترة وجوده في لوس أنجلوس، حسب قول زابو. وبعد بضعة أسابيع من عودته من جولاته في تورينتو وأوهايو، سوف يترأس أول احتفال تخرّج في مدرسة كارير أونلاين الثانويّة، حيث سينال اثنان وعشرون من البالغين شهادة المرحلة الثانويّة، بفضل مكتبة لوس أنجلوس العامة.

-7-

«فن المواساة: ماذا تكتب، ماذا تقول، ماذا تفعل في زمن الخسارة»
(1991)
تأليف زونين، ليونارد م.
177.9 Z95

«لا وقت لذرف الدموع: التعامُل مع الدموع في عالمٍ منهمك في العمل»
(2015)
تأليف هيث، جودي
157.3 H437

«أسماء فِرَق موسيقى الروك: من أبا إلى زي زي توب: كيف حصلتْ فِرَق الروك على أسمائها» (1995)
تأليف دولجينس، آدم
781.9903 D664

حالما انتشر خبر حريق المكتبة المركزيّة، بدأتْ تتوافد عبارات المواساة من مكتبات في بلجيكا، واليابان، وإنكلترا، وألمانيا، ومن أنحاء العالم كلّه. وكتب مدير البيبليوتيك ناسيونال في فرنسا يقول، «عندما يحين الوقت وإذا وجدتَ ذلك ممكناً، [نودُّ] أنْ نتلقى كل المعلومات... المتعلِّقة بالحادث المشؤوم». ووصلتْ أيضاً عبارات من مكتبات من الجانب المقابل للولايات المتحدة – من نيويورك، وسان دييغو، وديترويت، وكنساس سيتي، ومكتبة

الكونغرس، ومن جامعات وكلّيات. «إنَّ إدارة متحف هارفرد لِعِلم الحيوان المُقارَن تعبّر عن أساها العميق بعد سماعها نبأ مأساتكم الأخيرة». «إننا في المركز الطبي لمقاطعة لوس أنجلوس نقاسمكم الصدمة والأسى إبّان الحريق المأساويّ». «نحن في مكتبة أوكلاهوما سيتي شديدو الأسف لسماع نبأ نكبة مكتبتكم. تشجّعوا!». وعبَّرت العواطف المشحونة في تلك العبارات في مُعظمها عن الحزن، والصدمة، والأسى، والانهيار.

استأنفت الهيئة الإداريّة للمكتبة عملها، لكنّها لم تكن متيقّنة مما تعنيه كلمة «عمل» في مكتبةٍ تُغلِقَ أبوابها الآن في وجه الجمهور وخالية من الكتب. وكان بعض أفراد الهيئة الإداريّة قد أرسِلوا إلى المخزن الذي في شرق لوس أنجلوس حيث كان يُخزَّن العديد من الكتب السليمة. وأرسِلَ البعض الآخر إلى المبنى المُحترِق، حيث كنسوا الأرضيّات وحاولوا أنْ يُنظّموا أي شيء تبقّى. كان المزاج السائد كئيباً. بدا كأنَّ الاعتداء تمَّ بفعل فاعل. وبعد انتهاء الحريق شعر غلين كريسون بـ«سواد مُعيق». وأخبرني بأنّه أسوأ يوم مرَّ عليه في حياته؛ أما ثاني أسوأ يوم فكان يوم وفاة والده. وشعرت سيلفا مونوجيان بحزنٍ شديد حتى إنّها لم ترتدِ إلّا ملابس بيضاء طوال الأشهر التي تلتْ، على أمل أنْ يُساعدها ذلك على أنْ تشعر بالنقاء من جديد. وأرسل أحد أعضاء الهيئة الإداريّة رسالة مجهولة المُرسِل يقول فيها «كان ينبغي أنْ نعقد جلسات صلاة... لكي نمنع شرارة الحريق من الانتشار. [والآن] تبقّى مذاق الموت... والخوف الفارغ، الخالي من الروح واليأس يغمرانك». ووِفقاً لِما ورد في الرسالة، أُصيبَ معظم أعضاء الهيئة الإداريّة «بسُعال المكتبة» و«بدوار المكتبة، وهو نوع من حركة القدمَين المُضطربة، إلى الأمام –وإلى الخلف– وإلى الأمام»

وسُعال المكتبة نشأ من الغبار المُعبّأ بالسخام. ودوار المكتبة هو القلق السائر في أثناء النوم. وعلى الرغم من أنَّ إدارة الأمان في المدينة طمأنته بأنَّ الأمر ليس كذلك، فإنَّ الهيئة الإداريّة تبيَّنتْ أنَّ الحريق أزال جدراناً وفرز معدن الإسبستوس. وخشيتْ من عدم قُدرتها على فتح أبوابها من جديد أو من عجزها عن إعادة تكوين مجموعتها من الكتب. وانتابها القلق من أنْ يُحاول الشخص الذي تعمّد إضرام الحريق أنْ يُكرِّر المُحاولة. والأسوأ من

ذلك، خشيتُ من أنْ يكون الذي تعمَّدَ الحريق هو أحد أفراد الهيئة الإداريّة. واعتبر العديد من العاملين في المكتبة أنّ زملاءهم من العمّال يشكّلون عائلة. والآن أصبحت العائلة موضع شك. وأرسل أحد الكَتَبَة في قسم التاريخ مُذكّرة إلى الشرطة يَتَّهِمُ فيها موظفة أخرى بأنّها هي التي تعمّدت الحريق. كتبَ يقول، بعد أنْ لاحظَ أنَّ الموظفة تستطيع أنْ تصل إلى البقعة التي بدأ فيها الحريق، «إنها مُثيرة للمشاكل وغاضبة من زملائها العمّال». ولم ينفِ المُحقّقون احتمال أنْ يكون أحد أفراد الهيئة الإداريّة هو الذي افتعلَ الحريق، واستجوبوا العديد من أعضاء الهيئة الإداريّة، بمَنْ فيهم أي شخص ادّعى المرض في يوم الحريق. واستُجوب أيضاً كل فرد من الهيئة يمكن وصفه بالـ«ساخط». وقبل وقت قريب، أمضيتُ يوماً مع موظف متقاعد من المكتبة اسمه ميل روزنبرغ، تصادفَ أنْ كان خارج المدينة في يوم الحريق. قال روزنبرغ «أوه، لقد تحققوا مني. أرادوا أنْ يتيقّنوا من أنني كنتُ حيث كنت». وبدأ يضحك بصوت مرتفع وتذكّرَ أنّه عندما قُبِلَ في العمل، حذّره وايمان جونز من أنْ يُفرِط في مواقفه الليبراليّة. «فقلت، أوه يا إلهي، يا وايْمان، أتعتقد أنَّ هناك أي ليبرالي مُحافظ؟». كان روزنبرغ يضحك بقوة حتى ظننتُ أنّه ربما يبكي. ثم بدأ يفكّر من جديد في الحريق واستعاد رصانته. «لقد احترقت المجلات كلها في قسمي، القسم الفنّيّ. كلها. كان شيئاً فظيعاً. لا يمكنك تخيّل الأمر»

استمرَّ المُحققون حول مُفتعِل الحريق في استجواب أعضاء الهيئة الإداريّة، مع إيلاء اهتمام خاص بكل مَنْ يبرز لأي سبب. ووُزِّعَتْ مُذكَّرة على المُديرين، تُقدّم اقتراحاً بوجوب وضع «خطّة عمل» إذا ما اتّضحَ أنَّ مُفتعل الحريق هو أحد المُستخدمين. وتتضمَّن الخطّة تعتيماً عن الخبر، وتدرُّب على الإجابة عن «أسئلة صعبة» واقتراحاً بأنْ يتم إبلاغ الهيئة الإداريّة إمّا عبر «شبكة هاتف» أو عبر «مُذكَّرة تُسلَّم باليد»

سرعان ما طلب أربعة وعشرون من أصل 250 من موظفي المكتبة المركزيّة نقلهم إلى فروع أخرى. وسأل مسح لِما تبقّى من الهيئة الإداريّة عن الوجه الأشدّ إثارة للأسى من الحريق. كانت الإجابات كئيبة. من بينها: «إحساس بالعجز، عجز أثارَته الفوضى... إحساس بالعزلة لاضطراري إلى

العمل في مبنى يُشبه الصَدَفة الفارغة وكان ذات يوم مكاناً يضج بالحيويّة»؛ «شعور بالخوف من أنَّ أحدهم سوف يُقتَل أو يتأذّى بصورة شنيعة بسبب العديد من مشاكل الأمان، على الرغم من أنّه لا أحد قُتِلَ في الحريق»؛ و«إنني أشعر كأنني لاجئ. كأنَّ ثقوباً تمزّقُ كياناً عُضويّاً». ونقلتْ صحفٌ محليّة ما تعانيه الهيئة الإداريّة من ضيق. كان عنوان إحدى المقالات **ثمّة إحساسٌ باليأس بعد الحريق يُثيرُ توترات بين موظفي المكتبة**. كان موظفو المكتبة يُعانون من إصابات في العيون، ومن ضيق في التنفُّس، ومن حساسيّة في الجلد، ومن اضطرابات جراء الضغط إثر انتهاء الأزمة. وأخبر رئيس القسم السمعي – البصريّ صحيفة *لوس انجلوس دايلي نيوز*، «بعد انتهاء الحريق ببضعة أيام، رجعتُ إلى المنزل وقدحتُ عود ثقاب، فعادت صورة المكتبة بأكملها إلى ذهني». وإحدى المُذكّرات التي وُزِّعَتْ على المديرين حذَّرتْ من أنَّ «أفراد الهيئة الإداريّة هنا لا يستطيعون تحمُّل الأحوال السائدة. إنهم يكنسون الأرضيّات وينظّفون المغاسل... ويجب أنْ يكون هناك حرّاس خلال ساعات العمل على الأقل ما دام المجرم طليقاً». وقال أحد كبار موظفي المكتبة، في حديثٍ أجْرته معه نقابة موظفي المكتبة، «في الحقيقة، إنَّ ظروف العمل مُطبقة. والمعنويات تختلف... هناك كميّة هائلة من الدعم الشعبي. والعديد من موظفي المكتبة لا يعرفون كيف يدعمهم الجمهور بأيّة وسيلة ملموسة». ومن ناحية أخرى، بعض الموظفين شعروا بأنهم معزولون وسط كآبتهم إلى درجة أنهم أصبحوا يشعرون بأنهم غرباء عن زوجاتهم. وأخبرني غلين كريسون بأنَّ العديد من العلاقات الزوجيّة، بما فيها زيجته، اضطربتْ خلال الأشهر التي تلت الحريق.

وتفاقمَ قلق إدارة المكتبة بشأن حالة الموظفين العقليّة إلى درجة أنهم أحضروا طبيباً نفسيّاً، هو الدكتور ستانلي كسيونسكي، لكي يُجري جلسات علاج جماعيّة. وشجَّعَ كسيونسكي موظفي المكتبة على الانخراط في «تصوّر وهمي» لجَمال المكتبة عندما سيُعاد فتحها. وبالنسبة إلى الذين قلقوا، لأنَّ روّاد مكتبتهم شعروا بأنهم نُبِذوا، شجّعهم الدكتور كسيونسكي على تخيّل رواد المكتبة يلجؤون إلى فروع أخرى ويصبحون في أحسن حال. وموظفو المكتبة أنفسهم حاولوا أنْ يجدوا شيئاً يدفعهم إلى الضحك

وسط هذا الدمار. وأولئك الذين نُقِلوا إلى مبنى كئيب في مدينة على جادة ريو فيستا ألّفوا أغنية على لحن أغنية «أوكلاهوما!» تقول «ريو فيستا / حيث يقضي سارقو السيارات نهارهم / إذا نجوت بحياتك من الساعة الثامنة وحتى الخامسة / سوف تعود إلى المنزل وفي جيبك دولار وخمسة وعشرون سنتاً / وهكذا نحن نقفُ هنا / لأنَّ الغبار الذي نستنشق فخم...». اقترحَ أحدهم تشكيل فرقة موسيقيّة في المكتبة لأنَّ الأغنية حقّقتْ نجاحاً واسعاً بين أفراد طاقم العمل. ووُضِعَتْ رسالة على لوحة أخبار طاقم العمل تقول «في حين أنَّ المعونة الوحيدة المتوفّرة تدلّتْ كجزرة على شكل علاج جماعيّ، فإنَّ المجموعات التالية انضمّتْ لكي تستفيد من الوسائل المُتاحة للعلاج والإصلاح». وتبعَتْ ذلك لائحة بألقاب مُقترَحَة للفرقة الموسيقيّة، ألقاب تُجسِّدُ أسماء بعض موظفي المكتبة، من بينها «فرقة بيتي غاي والأحزان»، وفرقة «دان دبيل والساخرون» وفرقة «بيل بين ومُفتعلو الحرائق».

-8-

«حكايات من دورة الزمان: أشمل ما كُتِبَ عن فضح للمؤامرة العالميّة وكل ما تحتاج إلى معرفته لكي تُصبح حرّاً حقاً» (2003)
تأليف أيك، ديفيد
909 I17-3

«ثمل، ومُطلّق ومكسوّ بشَعر قطّة: عثرات حظ واقعيّة لشخص تجاوز الثلاثين من العمر تعلّمَ حبك الصوف بعد أنْ انفصل عن زوجته» (2007)
تأليف بيري، لوري
392.3428 P463

«المخترقون والاختراق: مرجع» (2013)
تأليف هولت، توماس ج.
364.38 H7578
«انظِّم حياتك الرقميّة: كيف تُخزِّن صورك الفوتوغرافيّة، وموسيقاك، وشرائط الفيديو، والوثائق الشخصيّة في عالمٍ افتراضي» (2009)
تأليف بالدريدج، إيمي
621.3819533 B178

في كل شهر، يصل أكثر من سبعمائة كتاب جديد إلى المكتبة. ومن ثم تُفك حِزمُها، وتُستخرج من صناديقها، وتُختَم، وتُلصَق عليه رُقع، وتوصَل بنظام فهرس إلكترونيّ، وتوضَع باستكانة بين دفّتي غلاف مايلار، وتزوّد

بالرموز، وأخيراً، توضع على الرفوف. وتستغرق عمليّة تسجيل كتاب جديد حوالي الأسبوع. وذات يوم عندما كنتُ في قسم خدمات المجموعات، حيث تجري هذه العمليّة، كانت الكتب الواصلة تتضمَّن «*100 منزل من الداخل في أرجاء العالم*»؛ و«*حرب هوفر على المثليين*»؛ و«*فضح برنامج الإف بي آي حول المنحرفين جنسيّاً*»؛ و«*لا تكن أحمق: ونصيحة عمليّة أخرى من دوغن، أعظم حكيم في فلسفة الزن في اليابان*». وكانت هناك مجموعة من الكتب الإسبانيّة، والروسيّة، والأرمنيّة والسويديّة، تشقّ طريقها إلى قسم اللغات العالميّة.

بدأتْ بيغي مورفي، التي تُدير خدمات المجموعة، عملها في المكتبة وهي مُراهقة في ماونت فيرمونت، نيويورك، في وقتٍ كان كبير موظفي المكتبة يستدعي الكتبة مُستخدماً ما يُشبه المطرقة المعدنيّة التي تُستخدم الآن في الغالب لتدريب الكلاب. وكل كاتب كان يُستدعى بمِطرقة خاصّة به سواء أكان رجلاً أم امرأة. وكانت ميرفي تُستدعى بضربتين قصيرتين. والكتب التي كان كبير الموظفين في ماونت فيرمونت يعتبرها «خطِرة» -أي، الجنسيّة- كانت توضَع على رفّ داخل قفصٍ معدني مُقفَل في الطابق تحت الأرضي من المكتبة. هناك كنتَ تعثُر على كتب لبودلير، وبلزاك، وكتب ماسترز[1] وجونسون، خلف القضبان. واكتشفت مورفي بصورة ما مكان مفتاح القفص، وكانت في فترات استراحتها تتسلل إلى هناك وتقرأ. ومع حلول وقت تخرّجها من المدرسة الثانويّة، كانت قد نجحتْ في قراءة كل كتاب من الكتب الموضوعة في القفص. وكانت تحبّ أنْ تقول «لقد وسَّعتْ من أفق رؤيتي للعالم».

في الغالب كان الكتاب المشهور الذي يُستعار خارجيّاً يبدأ بالتفكّك في غضون عام، والعديد من الكتب التي تصل إلى قسم الفهرسة كانت نُسَخاً بديلة عن كتبٍ تمتلكها المكتبة أصلاً. وكتب على غرار، مثلاً، «*شِيفرة دافنشي*»، الذي كان يُستعار خارجيّاً مراتٍ عديدة في الشهر الواحد، كان

1- إدغار لي ماسترز (1868-1950): شاعر أميركي. أشهر أعماله «Spoon River Anthology». - المترجم

محظوظاً لأنّه استمرّ عاماً كاملاً. وبعض الكتب استُبدِلَتْ قبل أنْ تبلى. على سبيل المثال، كانت الكتب التي تحمل أسماء أطفال تُستعار خارجيّاً بانتظام. قالت مورفي، «لم تكن النساء الحبالى يرغبنَ بالتعامُل مع كتابٍ بالٍ، ولذلك كنا نُحافِظ على تلك الكتب جميلة وكأنها جديدة»

كان هناك ميل إلى استعارة بعض الكتب وعدم إعادتها أبداً. وقد اشترتِ المكتبة نسخاً لا حصر لها من كتب كارلوس كاستانيدا لأنّ العديد منها خرجَ ولم يُسترجَع قط. وثمة مؤلِّف آخر، هو ديفيد أيك، يكتب عن نظريات المؤامرة العالميّة وعن سُلالة من المخلوقات الفضائيّة الزاحفة يعتقد أنها سوف تُهيمن في نهاية المطاف على الكرة الأرضيّة، صُنِّفَت كتبه -بوصفها قصصاً، على الأقلّ- على أنّها كتبٌ تختفي باستمرار. وكان لأيك قرّاء ممتازون بحيث إنَّ المكتبة توقّفت ببساطة لفترة من الوقت عن طلب نُسخٍ بديلة لكتبه لأنها تُكلِف الكثير. وفي يوم وفاة إلفيس بريسلي، استعار أحدهم خارجيّاً كل ما تحتوي المكتبة من تسجيلات لإلفيس ولم يُعِدها قط. وملفّات قضيّة عائلة مانسون والمتعلّقة بجريمة قتل زهرة الدهليّة السوداء، والتي تتضمّن قُصاصات وملاحظات مؤقّتة اختفَتْ قبل عقود؛ ولا يمكن استبدالها في الأساس. وفي عام 1981، اكتشف المُحقّقون امرأةً تبيع كتباً في بهو فندق في حيّ بيفرلي هيلز. كانت تكسب ما يُقارب الأربعين ألف دولار في العام من تجارتها بالكتب المُستعملة. كل تلك الكتب كانت مسروقة من المكتبة العامة في لوس أنجلوس. وفي عام 1982، تمّ العثور على عشرة آلاف كتاب كانت قد فُقِدَتْ من المكتبة في منزلٍ في لوس أنجلوس يخصّ أحد كَتَبَة المكتبة اسمه غلين سوارتس، قال إنّه يُعاني من مشكلة في التخزين. (واستقال من عمله). وتم إلقاء القبض على أناس وهم يُحاولون تسريب كتب عبر عربة أطفال، كانت أحياناً تحمل أطفالاً صغاراً وأحياناً أخرى لا تحمل.

على مدى سنين، كانت استوديوهات السينما منابر كبيرة لسرقة الكتب. وبدل أنْ تقوم ببساطة باستعارة الكتب التي تحتاج إليها من أجل أبحاثها خارجيّاً -وهكذا تُضطر إلى التقيّد بتاريخ مُحدَّد- كانت الاستوديوهات تُرسِلُ مُساعدَين إلى المكتبة من أجل سرقتها. وتتضمَّن الخطّة أنْ يتمركز

أحد المُساعدَين خارج إحدى النوافذ ويقوم الآخر برمي الكتاب المرغوب من النافذة إلى نظيره أو نظيرته. وقد تكرَّر هذا الأمر كثيراً بحيث إنَّ المكتبة عيَّنت مُستخدَماً مهمّته الرئيسيّة هي زيارة الاستوديوهات بانتظام من أجل استرجاع الكتب. ومن أجل المُساعدة في إحباط خطّة السرقة من خلال النافذة، قام موظفو المكتبة أيضاً بسدّ النوافذ المُستخدَمة غالباً كلها بأسلاك. (على الرغم من هذه القضية الواضحة من الأهداف المتعارضة، كان للمكتبة دائماً صِلة وطيدة مع الاستوديوهات. وفي بحثٍ موجز من عقد الخمسينيات تحت عنوان «*أرادو الحقائق... وعثروا عليها في المكتبة*»، ورد أنَّ «استوديوهات السينما تحاول أنْ تتفادى الغلطات الشنيعة بالقيام ببحثٍ مُكثَّف... [في المكتبة]. ومشّطتْ شركة فوكس للقرن العشرين ملفّات المكتبة... من أجل الحصول على وجهات نظر مُعاصِرة حول قضيّة جريمة قتل شهيرة!»)

***

بالقرب من مكتب بيغي مورفي تقبع آلة درز الكتب –وهي آلة معدنيّة ضخمة بحجم وشكل آلة إزالة الثلوج. والآلة قديمة جداً إلى درجة أنَّ أجزاءها المُعدَّة مُسبقاً لم تعُد متوفّرة. وكانت مدينة لوس أنجلوس تضمّ قسماً محلّياً للتجليد تابعاً للبلديّة. ومع مرور الزمن، اختُزِلَ قسم التجليد الكبير وأصبح صغيراً ومن ثم أصبح مُجلِّد الكتب شخصاً واحداً، يُخيط الكتب المُفكّكة من المكتبة وأيضاً من أقسام المدينة الأخرى. وعندما نفكّر في الأمر، تجِد أنَّ المُدن تضمّ آلاف الكتب ومواد التجليد– يوميات قانونيّة من أجل مُحامي المنطقة؛ وكتب إرشادات وقواعد؛ ومواد للمراجع؛ وقوانين مدنيّة؛ وغيرها. وآخر مُجلِّدي الكتب الرسميّين في المدينة كان امرأة تقاعدتْ في عام 2014. ولم يُستأجر آخر ليحلّ محلّها، ولم يعد «راتب مُجلِّد الكتب» مادة مُدرَجِة في ميزانيّة المدينة. وفي هذه الأيام، تُرسَل كتب المكتبة النادرة أو الباهظة الثمن إلى مُرمِّمين خاصّين إذا احتاجت إلى عملية جراحيّة طارئة. والكتب العاديّة التي تبدأ بالتداعي تُرمى ببساطة، وتُشترى نسخٌ جديدةٌ بدلاً عنها.

تقبع الآلة القديمة لخياطة الكتب على مسافة تُقارِب عشر ياردات من

تجمُّع لأبراج كومبيوتر بعلوّ سبعة أقدام يتدفّق من خلالها مائة ميغابايت من المعلومات في اللحظة. وكانت مكتبة لوس أنجلوس العامة على شبكة الإنترنت منذ عام 1994، وهذا وقت مُبكّر بالنسبة إلى أكثر من العديد من الأنظمة الأخرى. كان هذا هو الجانب العُلويّ غير المتوقّع من الحريق. وأصبحت فهارس الكتب الإلكترونيّة البدائيّة مُتاحة في حقبة السبعينيات، لكنَّ الأنظمة الأرقى على شبكة الإنترنت المُشابهة لِتلك المتوفّرة هذه الأيام تطورتْ حوالي عام 1990. في أول الأمر، رفضَت العديد من المكتبات التحديث لتلك الأنظمة المتطوّرة لأنها كانت قد باشرت بالاستثمار في الدورة الأولى من الفهارس الإلكترونيّة ولا تستطيع تحمُّل تكاليف التحديث من جديد. لكنَّ لوس أنجلوس كانت قد فقدت الكثير من الكتب في الحريق بحيث إنَّ فهرس البطاقة قديم الطراز لم يعُد دقيقاً ولو قليلاً، ولم تؤمن قط بالفهارس الإلكترونية لأنَّ الحريق جعل من جرد الكتب أمراً مستحيلاً. والمجموعة التي نجت توجَّبَت إعادة جردها، إلى جانب مئات الآلاف من الكتب التي تمَّ شراؤها لتحلّ محل ما احترقَ منها. وبدل أنْ تُعيد المكتبة إنشاء الفهرس الأصليّ، قرّرتْ أنْ تبدأ من جديد بفهرس إلكترونيّ. كانت إحدى المكتبات الكبرى في البلاد التي تفعل ذلك.

وِفقاً لماثيو ماتْسون، المسؤول عنها، تمَّت زيارة موقع المكتبة الإلكترونيّ في عام 2015 أكثر من أحد عشر مليون مرّة، وتمّت استعارة الفهرس أكثر من عشرة ملايين مرَّة. ومن بين الزوّار كان هناك بضعة من المُخترقين للموقع. وقد أخبرني ماتْسون أنّه لاحظَ أحدهم يُحاول أنْ يخترق موقع المكتبة الإلكتروني في كل يوم تقريباً. ويبدو أنَّ مُعظم الدخلاء يتمركزون في الصين أو في روسيا. واختراق موقع المكتبة يبدو بلا معنى، بما أنّ في الإمكان الدخول إليه قانونيّاً في أي وقت، لذلك سألتُ ماتْسون ما الذي يدفع أي شخص إلى تكبّد معاناة القيام بعمليّة الاختراق. فقال «إنهم يتدرّبون على ذلك». ووِفقاً لتفسيره، فإنَّ الناس يخترقون موقع المكتبة لكي يتدرّبوا على اختراق أهداف أكبر، وأكثر أماناً، وقيمة.

***

إنَّ أشهر صورة في مجموعة صور المكتبة الفوتوغرافيّة هي التي

تبيِّن فيلاً في الخامسة من العمر اسمه بيمبو الابن، يمتطي لوح تزلّج على الأمـواج. والصورة ظهرت في صحيفة لوس أنجلوس هيرالد في عام 1962. ووِفقاً للتعليق المُرفق بها، كان بيمبو الابن «يتميَّز بميزة نادرة هي كونه أصغر فيل سناً يقوم بهذا الإنجاز الرائع»، وهو تعليق غريب يوحي بأنَّ هناك فيلة أخرى، أيضاً، تقوم بالتزلّج على الأمواج، وكان تميُّز بيمبو يكمن في صِغَر سنّه. والصورة الثانية المشهورة، قياساً بعدد مرّات زيارتها على شبكة الإنترنت وطلب نسخة مطبوعة منها، هي من حقبة الخمسينيات وتمثّل فتيات يرتدين بنطلونات ضيقة ويرمين سهاماً على كومة من كرات الشاطئ. والصورة قبل الأخيرة هي صورة حافلة فوكسفاغن ممتلئة بعدد كبير من القطط، متوقفة على شاطئ مدينة البندقيّة مُخصص لاستعراض العضلات؛ والتاريخ واسم المُصوِّر مُغفلان. ومعظم الصور الفوتوغرافيّة البالغ عددها 3.4 ملايين صورة في مجموعة المكتبة جُمِعَتْ كصور طبيعيّة. وفي كل يوم، يُدقَّق المزيد منها ويوضَع على شبكة الإنترنت، حيث يمكن البحث عنها باستخدام كلمات سرّ وأوصاف. وبعض الصور في المجموعة هي من تصوير مُصورين مشهورين. في عام 1939 جاء أنسيل آدمز إلى لوس أنجلوس ووثَّقَ السنوات الأولى من صناعة الفضاء، ومنح الصور السلبيّة للمكتبة. والمصور الأميركي الإفريقيّ رولاند كرتيس وثَّقَ المجتمع الأسود في لوس أنجلوس في الستينيات والسبعينيات ووهبَ أرشيفه أيضاً. ومعظم الصور البالغ عددها 3.4 ملايين تمثّل الحياة اليوميّة. وصحيفة *لوس أنجلوس هيرالد إكزامنر*، التي صدرتْ ما بين عامي 1903 و1989، أهدت مجموعتها التي تبلغ مليوني صورة إلى المكتبة في عام 1991. وصحيفة *فالي تايمز*، وهي صحيفة كانت تصدر في ضاحية المدينة في الأربعينيات وحتى السبعينيات، وَهبتْ مجموعتها المؤلّفة من خمس وأربعين صورة عندما أغلقتْ أبوابها.

سوف يستغرق تدقيق كل صور صحيفة *فالي تايمز* الفوتوغرافيّة أربع سنوات. وإحدى العاملات في التدقيق كلّه هي مُساعدة في المكتبة اسمها ليسا أوندوي. وعندما عرَّجتُ على القسم في أحد الأيام، كانت أوندوي تعمل على فهرسة صورة تمثّل ثلاثة أولاد صِغار يبدون في سن الرابعة عشرة

أو الخامسة عشرة من العمر ويحملون ثمرة بطيخ عملاقة. وعمليّة تدقيق الصورة ظاهرة على شاشة كومبيوترها، وأوندوي تتفحّصها بضع دقائق وهي تشرئبّ بعنقها لكي ترى كلّ تفصيل. وطبعت كلمتي «مراهقون» و«وادي سان فرناندو» كمُحركَي بحث، ثم استرخت على كرسيها، وفكّرتْ لحظة. قالت «ربما سوف أبحث باستخدام كلمة «بطيخ» أيضاً. لابد أنّه كانت هناك موجة حارّة هنا في عام 1960، لأنَّ الكثير من الحكايات دارت حول سكّان الوادي وما كانوا يفعلون لكي يتغلّبوا على الحرارة»

كانت أوندوي تعمل على ابتكار أدوات بحث –الكلمات الوصفيّة– من أجل أرشيف صحيفة *فالي تايمز* طوال عامَين. وكانت قد أكملت كلمات 18,500 صورة. قالتْ إنها إذا عملتْ بحذر، يمكنها أنْ تنتهي من ثلاث صور أو أربع في الساعة. يبدو هذا العمل قاسياً ومُملاً قليلاً، لكنَّ أوندوي تُحبّه. قالت «إنني أشعر بالضجر منه. أحبّ أنْ أعثر على أشياء في الصور كنتُ أعتقد أنّها اندثرتْ. أشياء منسيّة. قد يبدو هذا شيئاً مُبتذلاً، لكنني أكاد أشعر كأنني أنقذها»، وقالتْ إنها تحبّ الطريقة التي توثّق بها صور صحيفة *فالي تايمز* الحياة اليوميّة. قالتْ «حصلنا على الكثير من صور كعك أعياد الميلاد والكثير من صور أعياد الزواج الذهبيّة»، وأشرقَ وجهها، وأضافت «إنني حقاً أحبّها»

طبعت المزيد من كلمات البحث من أجل صورة البطيخة، ووضعتها في ملفّ، وأظهرت الصورة التالية في جدولها، والتي تبيّن كلب صيد ضخماً، ونحيلاً، يغتسل بالشامبو. قالت أوندوي إنَّ أرشيف صحيفة فالي تايمز يتضمّن الكثير من صور الكلاب، وهذه مملوءة بصور كلاب يستحمّون. وبينما هي تُخبرني بهذا، طبعتْ كلمات «كلاب» و«الاستعداد»، و«حمامات» و«والدي سان فرناندو». وقرّبت الصورة وتفحّصتها. وأشارتْ إلى أنَّ كميّة من المناشِف بالكاد تبدو في زاوية الإطار، لذلك أضافتْ كلمة «مناشِف»، وأضافتْ أيضاً «مروج»، لأنَّ مغطس استحمام الكلب كان موضوعاً على بقعة من العشب، ووِفقاً لأوندوي، غالباً ما يبحث الناس عن صور للمروج، لذلك هي تحبّ أنْ تبحث عنها بوفرة. وثمة كلمة بحث تردَّد هي «برك سباحة»، لذلك فإنَّ أيّة صورة تبيّن حتى جزءاً صغيراً من صورة بركة سباحة تبحث عنها فقط تحسّباً. وأمضينا بعض الوقت في النقاش حول ما إذا كان

المغطس البلاستيكي الذي كان كلب الصيد يجلس فيه صالحاً ليكون بركة سباحة، لكنَّ أوندوي قرّرتْ أنّه غير صالح. ووضعتْ صورة كلب الصيد في ملفّ وانتقلت إلى شيء آخر.

الصورة التالية كانت صورة شخصيّة لكاهن يرسم ابتسامةً عريضة، ويُطوّق بذراعيه رجلاً أنيق الملبس وامرأة تبتسم أيضاً ولكن ليس ابتسامة عريضة. وكانت الصورة قد ظهرتْ في صحيفة فالي تايمز في عام 1961 مع تعليق «الأب كولينز يوقِّع على تشاور زوجين». وانتقلت ليسا إلى أسفل لكي تقرأ المقال، الذي يُناقش نسبة حالات الطلاق في لوس أنجلوس –كانت النسبة الأعلى في الولايات المتحدة في ذلك الوقت– وبذلت الكنيسة الكاثوليكيّة جهوداً لمعالجة الأمر. وأشارت أوندوي على صورة الأب كولينز المُبتسِم بالتعليق عليها بكلمات («الكنيسة الكاثوليكيّة»؛ «كاهن»؛ «طلاق») وأظهرتْ صورة أخرى لتعمل عليها قبل أنْ تغادر لأخذ فترة استراحة. كانت صورة أخرى لكلب. وقرّبتها لكي تتفحّصها. هذا الكلب لم يكن في مغطس. بل كان جافّاً تماماً وله وبر طويل ومتموّج. والتعليق على الصورة يقول، «صديق ضخم وناعم»

في الطرف المقابل من الغرفة فتحت زوكيتل أوليفل، موظفة مُخضرمة في المكتبة ومسؤولة عن الترقيم وعن المجموعات الخاصّة في المكتبة المركزيّة، فتحتْ صندوقاً من عدّة صناديق كانت قد وصلتْ توّاً إلى القسم. كانت هِبة للمكتبة من طالبٍ من جماعة مُعادية للحرب، نشطَتْ من عام 1967 وحتى عام 1971، وتُعرَف باسم مقاومة لوس أنجلوس. والمواد الموجودة في الصندوق كانت موادّ مؤقّتة تعين المجموعة في نشاطاتها، بما فيها مُلصقات، وصور، ونشرات إخباريّة، وكراسات. ومعظم المواد بقيَتْ مُخزّنة طوال السنوات الثلاثين الأخيرة في منزل شجرة يخصّ أحد الأعضاء في شماليّ كاليفورنيا. ومؤخّراً، كان أعضاء الجماعة قد قرّروا أنْ يُفرِغوا خزائنهم، وأيضاً، منازلهم فوق الأشجار، وأرادوا أنْ يبحثوا عن مأوى دائم لأرشيفهم. وعادت المكتبة إلى الأذهان. وتمّ قبول الهِبة بحماس، قالت أوليفا، وهي تنقّب في الصندوق، «هذه مواد مُذهلة. إنها تاريخ حقيقيّ»

***

غادرتُ قسم الترقيم وخرجتُ في إحدى نزهاتي سيراً على قدميّ حول المبنى. كنتُ فقط أحاول أنْ أتشرَّب المكان، وآخذ فكرة عنه. أحياناً من الأصعب أنْ تلاحظ مكاناً تظنّ أنكَ تعرفه جيداً؛ تستعرضه عيناك، فتراه لكنكَ لا تراه على الإطلاق. وكأنَّ الألفة تمنحك نوعاً من العمى المؤقَّت. كان ينبغي أنْ أُجبِر نفسي على الإمعان في النظر وأنْ أحاول أنْ أرى ما يكمن خلف مفهوم المكتبة ويستتر في ذهني.

قبل أنْ أسمع بأمر حريق المكتبة، كنتُ قد قرَّرتُ أنْ أتخلّى عن تأليف الكتب. بدا العمل عليها أشبه بمباراة في المُصارعة بالحركة البطيئة، ولم أكنْ في مزاجٍ يسمح لي بالتصارع من جديد مع التزام كبير. ولكن ها أنا ذي. كنتُ أعلم أنَّ جزءاً مما أسرني هو صدمة الألفة التي شعرتُ بها عندما رافقتُ ابني إلى مكتبتنا المحليّة - الطريقة التي تواصلت بها مع طفولتي، وصلتي بوالدي، بأمي، وبحبي للكتب. لقد قرَّبتني، في تأملاتي، من أمي، ومن إقامتنا المؤقّتة في المكتبة. كان شيئاً رائعاً وحلواً-مُرّاً، لأنني بينما كنتُ أُعيد اكتشاف تلك الذكريات، كانت أمي تفقد ذكرياتها كلها. وعندما أخبرتها أول مرّة أنني أؤلّفُ كتاباً عن المكتبات العامة، ابتهجتْ، وقالتْ إنها فخورة لأنَّ لها دوراً في جعلي أجد المكتبات شيئاً رائعاً. ولكن سرعان ما قبضَتْ عليها أصابع الخبل القاتمة، وأخذتْ تنتزع قطعاً عشوائيّة من ذاكرتها في كل يوم. وفي المرة الثانية التي ذكّرتها بالمشروع وأخبرتها كم فكّرتُ في رحلاتنا إلى برترام وودز، ابتسمتْ مُشجّعة ولكن من دون تمييز واضح لِما كنتُ أعني. وكلما قمتُ بزيارة، كانت تتراجع أكثر قليلاً -أصبحتْ مُبهمة، شاردة، معزولة داخل أفكارها أو ربما داخل فراغٍ أشبه بالنوم يسد مكان غياب الذكريات- وعلِمتُ أنني الآن أحمل التذكُّر بالنيابة عن كلينا.

لقد شرَّبتني أمي حبّ المكتبات. وسبب اعتناقي أخيراً مشروع هذا الكتاب -رغبتي، ومن ثم حاجتي، إلى تأليفه- كان إدراكي أنني أفقد أمي. لقد وجدت نفسي أتساءل إنْ كان في الإمكان وجود ذكرى مُشتركة إذا كان الشخص الذي يتقاسمها لم يعُد يتذكّرها. هل انكسرت الدورة، وأعتمت الذاكرة؟ كانت أمي هي الشخص الوحيد الذي يعرف كيف كانت تلك الأيام الشفّافة. كنتُ أعلم أنني أكتب هذا لأنني أحاول جاهدة أنْ أحافظ على تلك

الأيام. وأقنعتُ نفسي بأنَّ إيداعها صفحة من الورق يعني أنَّ الذاكرة قد تمَّ حِفظها، بصورة ما، من تأثير التآكل بفعل مرور الزمن.

أن يكون المرء منسياً هي فكرة مرعبة. وليس كوني، شخصياً فقط، سأصبح منسيّة تخيفني، بل إنّه محكومٌ علينا جميعاً بأنْ يطوينا النسيان -إنَّ الحياة بأكملها لا معنى لها على الإطلاق: إنَّ اختبارنا الفرح وخيبة الأمل والآلام والمباهج والخسارة، لا يجعلنا نترك إلّا أقلّ الأثر على العالم، ومن ثم نختفي، ويُمحى كل أثر لنا، وكأننا لم نوجَد. وإذا أمعنتَ النظر في ذلك الفراغ ولو لبرهة، فإنَّ الحياة بأكملها تُصبح عَدَماً وفراغاً، لأنّه إن كان لا شيء يدوم، ولا شيء يهمّ، فهذا يعني أنَّ كل ما نختبر هو مجرد فوضى، وأنَّ الحياة ليست أكثر من ظاهرة مُحيِّرة، عشوائيّة، طائشة، ملاحظات مُبعثَرة بلا أي تناغُم. ولكنْ إذا كان في الإمكان تدوين وحِفظ شيء تعلّمته أو لاحظته أو تخيّلته، وإذا استطعتَ أنْ ترى صورة حياتك منعكسة في حيوات سابقة، واستطعتَ أنْ تتخيّلها منعكسة في حيوات تالية، فسوف تستطيع أنْ تبدأ تكتشف نظاماً وتناغماً. أنت تعلم أنكَ تشكّل جزءاً من قصةٍ أكبر لها شكل وهدف- ماض ملموس، ومألوف ومستقبل مُتجدِّد باستمرار. نحن جميعاً نهمس داخل علبةٍ من التنك موصولة بخيط، لكننا مسموعون، ولذلك نهمس برسالة نرسلها عبر علبة التنك التالية والخيط التالي. إنَّ تأليفَ كتاب، يُشبه تماماً إنشاء مكتبة، هو فعلُ تحدٍ صِرف. إنّه إعلان أنكَ تؤمن بإلحاح الذاكرة.

في السينغال، التعبير المُهذَّب لقول إنَّ شخصاً ما قد توفي هو قول إنَّ مكتبته أو مكتبتها قد احترقَتْ. وعندما سمعتُ تلك العبارة للمرة الأولى، لم أفهمها، ولكن مع مرور الوقت أدركتُ أنها تعبير مِثاليّ. إنَّ عقولنا وأرواحنا تضمّ مجلدات خطّتها تجاربنا وانفعالاتنا؛ ووعي كل فرد هو مجموعة من الذكريات صنّفناها وخزّناها داخلنا، لتكون مكتبة خاصّة لحياةٍ عيشَتْ. إنّها شيء لا يمكن لأي شخص آخر أنْ يتقاسمها بشكلٍ كامل، شيء يحرقه المرء ويختفي بعد أنْ يموت. ولكنْ إنْ كان في استطاعتك أنْ تأخذ شيئاً من تلك المجموعة الداخليّة وتتقاسمه -مع شخص واحد أو مع العالم الأوسع، على الورق أو على شكل حكايةٍ تُروى- فإنه يأخذ شكل عالمٍ خاصٍ به.

-9-

«المكتبة الضائعة»
تأليف دين، أ. م.
س.

«من البلاط الملكي إلى مستشار الرايخ: صورة تاريخيّة في أوراق مفكّرة» (المجلد الأول. كانون الثاني 1932 وحتى الأول من شهر أيار 1933) (1934)
تأليف غوبلز، جوزيف
G 943.085 G593-2

«حماية الملكيّة الثقافيّة في حالة النزاع المُسلَّح: تعليق على عُرف حماية الملكيّة الثقافيّة في حالة النزاع المُسلّح والمُعاهدة، الموقّعة في 14 أيار، عام 1954 في الهيغ، وعلى أدوات أخرى» (1996)
تأليف تومان، جيري
709 T655

«المِحرقة والكتاب: الدمار والوقاية» (2001)
تحرير روز، جوناثان. سلسلة: دراسات قيد الطباعة «الثقافة وتاريخ الكتاب»
940.5315296 H7545-4

إنَّ الناس يحرقون المكتبات منذ أنْ بدأوا تقريباً بإنشائها. وكما كتب وليم بليدز يقول في عام 1880 في أول كتابٍ عن إحراق الكتب، إنَّ الكتب ضحايا سهلة لـ«الحريق غير المتعمَّد، والإحراق المتعمَّد المتعصِّب، وللحرائق الشرعيّة، وحتى للمدافئ المنزليّة». وأول مِثال عن إحراق كتاب كان في عام 213 قبل الميلاد، عندما قرَّر الإمبراطور الصينيّ كين شي هوانغ إحراق أي كتاب في التاريخ يُناقِض نسخته عن الماضي. وزيادة على ذلك، دفنَ أكثر من أربعمائة فقيه أحياء.

أشهر مكتبة ضائعة في العالم القديم كانت مكتبة الإسكندريّة في مصر. على الرغم من أنَّ التاريخ القصصيّ يُصوّرها ضخمة، فإنَّه في الواقع لا يُعرَف عنها إلّا القليل. فلا يوجد سجل يذكر شكل المبنى أو موقعه الدقيق. من المُفترَض أنَّ المكتبة كانت تضمّ نصف مليون وثيقة ومخطوطة وتضم هيئة إداريّة تتألّف من مائة موظف مُقيم. ويُقال إنَّ مكتبة الإسكندريّة احترقتْ مرّات عِدَّة. المرَّة الأولى وقعَتْ عندما هاجمَ يوليوس قيصر ميناء الإسكندريّة في عام 48 قبل العصر الحالي. لم يكن قيصر ينوي مهاجمة المكتبة، لكنَّ الحريق الذي اندلعَ في الميناء امتد في نهاية الأمر إليها وحاصرها. وأُعيدَ بناء المكتبة وتجديدها. لكنّها أُحرِقَتْ مرتين أخريين خلال اعتداءين تاليين على المدينة. وفي كل مرَّة كانت تُجدَّد.

الحريق الأخير والختامي، الذي محاها من التاريخ إلى الأبد، حدث في عام 640 ميلادي. في ذلك الوقت، كانت المكتبة توحي بالمهابة وبقليل من الخوف. وكان الناس قد بدأوا يؤمنون بأنها مخلوقٌ حيّ – عقل هائل، مُشاع لا محدود يضمّ كل المعرفة الموجودة في العالم أجمع، مع احتمال تمتّعها بعقلٍ مُستقلّ نخشاه الآن في الكومبيوترات المتفوّقة. وعندما وصل الخليفة عمر، الذي قاد حملة المُسلمين على مصر، إلى المكتبة، قال لقادته إنَّ محتوياتها إمّا تناقض ما جاء في القرآن، وفي هذه الحالة ينبغي تدميرها، أو تدعم ما جاء في القرآن، وفي هذه الحالة هي فائضة عن الحاجة. وفي كلا الحالتين تقرَّر تدمير المكتبة. واستمرَّ إحراقها على مدى ستة أشهر إلى أنْ لم يتبقَّ فيها أي شيء يُحرَق، والكتب القليلة التي تبقَّتْ استُخدِمَتْ كوقود من أجل تسخين الماء في الحمّامات المحليّة.

إنَّ كل ما دار حول مكتبة الإسكندريّة مُبهَم. وحتى يومنا هذا، لا أحد يعلم عِلمَ اليقين إنْ كانت القصص التي دارتْ حولها صحيحة. حتى نهايتها بالحريق المأساويّ كان موضع شكّ؛ بعض المؤرخين يعتقدون أنَّ الزلازل والميزانيّة القليلة هي التي قضَتْ عليها. إنها محكّ تاريخ المكتبات كلّه، لكنَّ بدايتها، وتطورها، ثم نهايتها تبقى لغزاً.

في ملحمة الجنس البشري، مُعظَم الأشياء تُنجَز مقابل المال -خاصة الحرق المتعمَّد- لكنَّ إحراق المكتبات لا يُجازى عليه بالمال. بل في المعتاد تُحرَق لأنها تحتوي أفكاراً يجدها البعض مُثيرة للمشاكل. وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر، أمر البابا بجمع الكتب اليهوديّة و«إحراقها» (وهو خيار العصر في ذلك الوقت) لأنّه يعتقد أنّها تنشر الفِكر المُعادي للكاثوليكيّة. ومحاكم التفتيش الإسبانيّة هي التي أدخلتْ فكرة إقامة احتفالات لإحراق الكتب، وهي تجمّعات حول نيران تُضرَم من إحراق كتب «هرطقيّة»، بما فيها تلك المكتوبة بالعبريّة، خاصّة في التوراة.

استمرَّ الإسبان في حرق الكتب في الخارج. ففي منتصف القرن السادس عشر، قام هرنان كورتيث وجنوده بإحراق أعداد كبيرة من مخطوطات الأزتيك على أساس أنّها تحتوي سِحراً أسود. وبعد انتصار كورتيث، عُيِّنَ كاهن يُدعى دييغو دو لاندا لفرض المذهب الكاثوليكيّ على شعب المايا. وكان دو لاندا مفتوناً بثقافة المايا، لكنّه أشرفَ على تعذيب واغتيال عشرات المايا، وأحرقَ كل كتاب وصورة للمايا عثر عليها. والمعروف أنّه لم ينجُ من حملة تطهير دو لاندا غير حفنة من المخطوطات، وهذه من بين وثائق حضارة المايا الوحيدة المتبقّية.

***

يمكن ملء كتاب بلائحة من المكتبات الضائعة في العالم، وفي الحقيقة، لقد كُتِبَت الكثير من الكتب عنها، بما فيها كتاب يحمل عنواناً مُرعباً هو «***Libricide***» (إحراق الكتب أو المكتبات) ألّفه بروفيسور في عِلم المكتبات. وفي فترة مُبكّرة من التاريخ، عندما لم يكن هناك إلّا عدد قليل من الكتب، كانت النسخ المطبوعة باهظة الثمن وتستهلك وقتاً، وفقدان مكتبة

يكون إلى الأبد. ونشرت منظمة اليونسكو في عام 1949 وفي عام 1996 دراسات أدرجتْ فيها لائحة بكل المكتبات المُدمَّرة، وفي تقدير اليونسكو، كان عددها هائلاً -بالمليارات- حتى إنه يصعبُ عليَّ أحياناً أنْ أُصدِّق أنّه تبقّى أيّ كتاب في العالم.

إنَّ الحروب هي أكبر سفّاح للمكتبات. وبعض تلك الخسارات كانت مُصادفة. ولأنَّ المكتبات تقع في المعتاد في قلب المدن، ففي الغالب تُدمَّر عندما تتعرَّض المدن للهجوم. ولكن في أوقات أخرى، تكون المكتبات أهدافاً مُحدَّدة. وفي الحرب العالميّة الثانية دُمِّرَ من الكتب والمكتبات أكثر من أيّة مناسبة على مدى التاريخ الإنسانيّ. والنازيون وحدهم دمّروا عدداً يُقدَّر بمائة مليون كتاب خلال فترة هيمنتهم التي دامت اثني عشر عاماً. كان إحراق الكتب، كما ألمح الكاتب جورج أورويل، «أبرز سِمات نشاط [النازيّين]». وبدأ الاعتداء على الكتب في ألمانيا قبل نشوب الحرب. وحالما أصبح هتلر مُستشاراً، منعَ كل المطبوعات التي اعتبرها مُخرِّبة. وشملَ المنع تلقائيّاً الكتب التي ألّفها يهود ويساريّون. وفي العاشر من شهر أيّار، عام 1933، جُمِعَتْ آلاف الكتب الممنوعة في ساحة الأوبرا في برلين من أجل حدث سُمّيَ ***Feuerspruche***، أو «تجسُّد النار». وكان الـ***Feuerspruche*** هو المشروع الأثير لدى جوزيف غوبلز، رئيس الدعاية السياسيّة للحزب النازيّ، الذي أدرك مدى أهميّة الكتب بالنسبة إلى الثقافة اليهوديّة، اللاهوت، الهويّة. وكان حرقُ الكتب اليهوديّة، في رأيه، هو الشكل المثاليّ للتعذيب الذي لا ينطوي على سفك دماء، ويستعرض الهيمنة الألمانيّة غير المحدودة. واستأنف أعضاء من اتحاد الطلاب الألمان حملة حرق الكتب بكل حماس. وفي ساحة الأوبرا، شكّلَ الطلاب سلسلة بشريّة، وأخذوا يتناقلون الكتب من يد إلى يد، ومن ثم يرمونها على شكل ركام. وتقديرات عدد الكتب التي تمّ حرقها في ركان النار تراوح بين الخمسة والعشرين ألفاً والتسعين ألفاً. ومع رمي كل كتاب في النار كان الطالب يُعلنُ السبب الذي دعا إلى «إعدام» ذلك الكتاب. وكانت الأسباب تُعلَن بوصفها تُهماً إجراميّة. على سبيل المثال، اتُّهِمَت كتب سيغموند فرويد بأنّها مُفسِدة للروح و«بالمبالغة في الدوافع الجنسيّة وبالتعقيد المُضرّ بالصحة». وبعد تلاوة

التهمة، يرمي الطالب الكتاب إلى الركام مُعلِناً، «إنني أُسلِّم كتب سيغموند فرويد للَّهب!». وكانت تُهمٌ أخرى تتضمَّن «دوافع يهوديّة-ديمقراطيّة»؛ و«تشويه اللغة الألمانيّة»؛ و«الخيانة الأدبيّة لجنود الحرب الكبرى». وبعد اكتمال الركام، كان يُشبَّع بالبترول وتُضرَم النار فيه.

كان الـ***Feuerspruche*** يلفّه جو احتفاليّ، من رقص، وغناء، وموسيقى حيّة. وعند منتصف الليل، يظهر غوبلز ويُلقي خطاباً عاصِفاً يُعرَف بالخطاب الناريّ. وفي الليلة نفسها، كانت تُقام احتفالات مُشابهة في ميونيخ، ودريسدن، وفرانكفورت، وبريسلاو، ويُقام أكثر من ثلاثين ***Feuerspruches*** آخر داخل الجامعات في أرجاء ألمانيا كلّها على امتداد عام. وفي مدينة بون، في أثناء احتراق الكتب، نُقِلَ عن المُحافِظ قوله إنَّ الرماد بدا كأنّه «الروح اليهوديّة [حلَّقَتْ] في السماء»

كان مشهد تدمير الكتب بوجه خاصّ يُعذِّب أجساد وأرواح اليهود، الذين لطالما عُرِفوا بأنهم «أهل الكتاب». فالديانة اليهوديّة تعتبر الكتب مُقدَّسة، والنصّ الأكثر قداسة، التوراة، موضع شغف، ويُغلَّف بالقماش، ويُزيَّن بالحجارة الكريمة، ويُرصَّع بالفضّة وبتاج. وعندما تتهرَّأ الكتب المُقدَّسة تُدفَنْ ويُصلّى عليها صلاة الجنازة. واليهود يؤمنون بأنَّ الكتب هي أكثر من مجرد وثائق مطبوعة؛ ويؤمنون بأنَّ الكتب كائنات بشريّة ولها أرواح. والمؤلفون الأحبار غالباً ما يكفّون عن استخدام أسمائهم المُعطاة لهم ويرغبون في أنْ يُسمّوا بأسماء كتبهم. ومُفارقة الـ***Feuerspruche*** هي أنها عاملت الكتب بجدّيّة كما فعل اليهود. والشعور بالحاجة إلى تدميرها هو اعتراف بقوة الكتب وقيمتها، وبالصِلة اليهوديّة الوثيقة بها.

لقد سحق الدمار الماحق للحرب مكتبات أوروبا. وكان بعضها فقط عاثر الحظ واندلاع النار فيها كان بقصف قنابل وشن غارات جويّة الغاية الأساسيّة منها هي أهداف استراتيجيّة. لكنَّ الجيش الألمانيّ قصد أنْ يُدمِّر الكتب. فقد أُرسِلَتْ فرق خاصة بإحراق الكتب تُعرَف باسم «فرق الإحراق الخاصّة» لكي تحرق المكتبات والكنائس. وكانت الفرق فعّالة. إنَّ مُضاعفة خسائر المكتبات في أثناء الحرب، سواء بقصد أو من غير قصد، يُثير الدوار. وفي إيطاليا دُمِّرَتْ عشرون مكتبة كبيرة تضمّ مليوني كتاب. وفي فرنسا دُمِّر

مليون آخر، بما فيه 300,000 في ستراسبرغ، و42.000 في بوفيه، و23.000 في شارتر، و110.000 في دواي. وأُحرِقَتْ مكتبة التجمُّع الوطني في باريس، واحترقَ معها عدد لا يُحصى من القطع الفنيّة التاريخيّة والكتب العِلميّة. وفي ميتز، أخفى الموظفون الرسميّون معظم الكتب القيِّمة في مستودعات خفيّة من أجل المُحافظة على سلامتها. وعثر جندي ألمانيّ على المستودع ورمى فيه أداة حارقة. ودُمِّرَ معظم الكتب، بما فيها مخطوطات نادرة من القرنين الحادي عشر والثالث عشر. وفي أثناء الهجوم المُدمِّر، أُحرِقَ عشرون مليون كتاب في بريطانيا العظمى أو خُرِّبَ بفعل الماء المُستخدَم في إطفاء الحرائق. وتمّتْ إبادة مكتبة الإعارة المركزيّة برمّتها. (ما تبقّى من مكتبات في المدينة بقيَتْ أبوابها مفتوحة خلال الهجوم الكبير، وحافظَتْ على ساعات دوامها المنتظمة مع تلقّي الغرامات المتأخّرة المعتادة)

بعد مؤتمر ميونيخ عام 1938، صودر كل كتاب باللغة التشيكيّة يعالج موضوع الجغرافيا، والسيرة، أو التاريخ، إمّا أُحرِقَ أو حُوِّلَ إلى كتلة من المادة الخام. وفي فيلنيوس، ليثوانيا، أُحرِقت المكتبة التي في الحيّ اليهودي. وبعد ذلك ببضعة أشهر، رُحِّلَ سكان ذلك الحيّ إلى معسكرات اعتقال وقُتِلوا بالغاز، وجسّدوا حقيقةً عبَّر عنها الشاعر الألمانيّ هاينريش هاينه بتحذيره: «إنَّ الذي يحرق الكتب، سوف ينتهي به الأمر إلى حرق البشر». وفي بودابست، دُمِّرتْ كل المكتبات الصغيرة وعلى الأقلّ جزء من كل مكتبة كبيرة. ومكتبة جامعة لوفين الضخمة في بلجيكا عانَتْ أكثر مما عانته أيّ مكتبة في أوروبا تقريباً. وكان الجيش الألمانيّ قد أحرقها في أثناء الحرب العالميّة الأولى. وبعد وقف إطلاق النار، قام اتحاد الأمم الأوروبيّة المالي بإعادة إنشاء المكتبة، وفتحتْ أبوابها من جديد باحتفال عظيم. وفي عام 1940، تعرَّضَت المكتبة لقصف المدفعيّة الألمانيّة، وضاعت كل الكتب المُكدّسة على رفوفها، بما فيها لوحات كبار الرسامين القُدامى وحوالي ألف كتاب ممّا نُشِرَ قبل عام 1500. وفي بولندا، دُمِّرَ ثمانون في المئة من كتب البلاد. وفي كييف، رصفَ الجنود الألمان الشوارع بكتب المراجع من مكتبة المدينة من أجل تأمين مسار لآلياتهم المُدرَّعة وسط الطين. ثم أضرمت قوات الجيش النار في مكتبات المدينة، وأحرقت أربعة ملايين كتاب. وبينما

هي تشقّ طريقها خلال الأراضي الروسيّة، أحرقت تلك القوات ما يُقدَّر بحوالي ستة وتسعين مليوناً آخر.

وقصفُ الحلفاء بالقنابل لمراكز مدن في اليابان وألمانيا أصاب حتماً المكتبات. وكان ثيودور ويلش، الذي يدرس المكتبات في اليابان، قد كتب يقول إنّه مع وصول الجيش الأميركيّ في عام 1945، كانت ثلاثة أرباع كل الكتب التي في البلاد قد أحرِقَت أو دُمِّرَت. وكانت الخسائر في ألمانيا مُذهلة. ومُعظم كتب المكتبات التي في المدن بما فيها بريمن، وآخن، وشتوتغارت، ولايبزيغ، ودريزدن، وميونيخ، وهانوفر، ومونستر، وهامبورغ قد أُحرِق. ودُمِّرَ ثلاثة أرباع المليون في دارمشتات؛ وأكثر من مليون في فرانكفورت؛ ومليونان في برلين. ومع انتهاء الحرب، كان ثلث الكتب التي في ألمانيا كلّها قد أُبيد.

***

لقد أثار تدمير المكتبات وممتلكات ثقافيّة أخرى خلال الحرب الخوفَ في قلوب الحكومات في العالم ودفعها إلى اتّخاذ الإجراءات اللازمة للحرص على ألّا يتكرّر حدوث ذلك. وفي عام 1954 تمَّ تبنّي معاهدة عالميّة عُرِفَتْ باسم معاهدة هيغ لحماية الملكيّة الثقافيّة في حال وقوعِ نزاعٍ مُسلَّح. ووقَّعَتْ حتى الآن 127 دولة على المعاهدة. ومع ذلك، فإنَّ حماية ممتلكات ثقافيّة، بما فيها الكتب، والمخطوطات، والأعمال الفنيّة، والنصُب التذكاريّة، والمواقع الأثريّة الهامّة، لا تستحق الذِكر. وظهر الدمار حتى بعد توقيع المعاهدة مباشرة. وكأنَّ توهّج «تجسّد النار» النازيّ أكّدَ أنَّ حرقَ الكتب هو وسيلة سهلة لتوجيه ضربة شريرة إلى المجتمع، وكانت أنظمة حكم جائرة أخرى قد تبنَّت الفكرة. وعندما كان ماو تسه-تونغ في منتصف عشرينيات عمره، عمل مُساعد أمين مكتبة في جامعة بيكين. وكان دائماً يقول إنَّ نشر الوعي السياسيّ في المكتبة هو الوسيلة التي اكتشفَ بها كارل ماركس وتشكّل لديه وعيه السياسي الخاصّ. ولكن كما أنَّ بعض الأطبّاء يتحولون إلى قَتَلَة، فإنَّ ماو الذي كان أمين مكتبة تحوّلَ إلى حارق للكتب. فحالما استولى على السلطة، أمرَ بتدمير كل الكتب التي اعتبرها «رجعيّة، وبذيئة، وسخيفة». وخلال فترة الثورة الثقافيّة، أمرَ بتطهير الكتب

التي تعتنق الأفكار والعادات القديمة، وأرسلَ الحرس الأحمر لكي «يُنظِّف» مكتبات التيبت. وفي بعض المكتبات، كانت الكتب كلّها تُحرَق ما عدا تلك التي ألّفها ماركس، ولينين، وماو نفسه.

وحديثاً، رمى الخمير الحُمر كتب المكتبة الكمبوديّة الوطنيّة إلى الشوارع وأحرقها؛ فقط عشرون بالمئة نجا. والجيش العراقي أحرقَ معظم المكتبات في الكويت بعد غزو عام 1990. وحوالي مئتي مكتبة أُحرِقَتْ خلال حرب البوسنة، وتسعون بالمئة من محتويات المكتبة الوطنيّة لساراييفو دُمِّرَ. وكتب الشاعر فيل كوزينو يقول إنَّ «رماد مليون ونصف مليون كتاب محترق» سوَّدَتْ الثلوج التي هطلتْ على ساراييفو. وتحت حكم طالبان، أُغلِقَتْ خمس عشرة من أصل ثماني عشرة مكتبة في كابول، وأُحرِقَ مُعظم ما احتوت من كتب. وفي أثناء الحرب العراقيّة، فقط ثلاثون في المئة من كتب المكتبة الوطنيّة العراقيّة نجا. وبعضها أُخرِجَ من المبنى قبل أنْ يصل القِتال إلى بغداد: كان صدّام حسين قد سرقَ العديد منها ليضمّها إلى مجموعته الخاصّة، والعراقيون الذين شكّوا في نجاة المكتبة من أوار الحرب أخفوا الكتب في منازلهم. ومع تراجع الجهاديين الإسلاميين من تيمبوكتو في عام 2013، دمّروا العديد من مخطوطات مكتبة تيمبوكتو التي لا يمكن تعويضها، وبعضها يعود إلى القرن الثالث عشر.

وقد وقع عدد من عمليات حرق الكتب في الولايات المتّحدة، في معظمها تعبيراً عن الغضب العارم من محتوى الكتب. في حقبة الأربعينيات، على سبيل المثال، أطلقَتْ مُعلِّمة مدرسة في ويست فيرجينيا اسمها ميل ريدل، بالتعاون مع الكنيسة الكاثوليكيّة، حملةً لجمع وحرق الكتب الهزليّة بسبب تصويرها الفاضح للجريمة والجنس. والنار التي أُشعِلَتْ في العراء، والتهمتْ عدداً من آلاف الكتب الهزليّة، استُقبِلَتْ بحرارة حتى إنَّ الفكرة انتشرتْ إلى مدنٍ على امتداد البلد، ورعى العديد من الأبرشيات المحليّة حرائق خاصة بها للكتب الهزليّة. وفي بعض الحالات، قامت الراهبات بقدح أول عود ثقاب.

***

إنَّ حرق الكتب وسيلة غير ناجعة لإدارة حـرب، بما أنَّ الكتب والمكتبات لا قيمة عسكريّة لها، لكنّه عمل مُخرِّب. وتدمير مكتبة هو نوع من العمل الإرهابيّ. والناس يعتبرون أنَّ المكتبات هي أشدّ الأماكن أماناً وأكثرها انفتاحاً في المجتمع. وإضرام النار فيها يُشبه الإعلان بأنه لا شيء آمن، ولا مكان آمن. وأعمق أثر لإحراق الكتب هو انفعاليّ. وعندما تحترق مكتبة، فإنَّ الكتب توصَف أحياناً بأنها «جرحى» أو هي «ضحايا» كما لو أنّها كائنات بشريّة.

إنَّ الكتب هي نوعٍ من الـDNA الثقافي، الشِفرة التي تميِّز هويتنا، كمجتمع، ومعرفتنا. إنَّ كل العجائب والأعمال الفاشلة، وكل الأبطال والأوغاد، وكل الأساطير والأفكار والرؤى في أيّة ثقافة تدوم إلى الأبد داخل الكتب التي تتحدث عنها. وتدمير الكتب هو وسيلة لقول إنَّ الثقافة ذاتها لم يعُد لها وجود؛ إنَّ تاريخها قد اختفى؛ والاستمراريّة بين ماضيها ومستقبلها تمزّقتْ. ونزع الكتب عن الثقافة يعني نزع ذاكرتها المُشتركة. إنّه أشبه بنزع المقدرة على تذكُّر أحلامك. وتدمير كتب ثقافةٍ ما يعني الحكم عليها بشيءٍ أسوأ من الموت: الحكم عليها بأنْ تبدو كأنّها لم تكن.

***

بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية ببضعة أشهر والدخان لا يزال يتصاعد من مكتبات أوروبا المُحترقة، بدأ كاتبٌ اسمه راي برادبيري العمل على تأليف قصّة سمّاها «رجل الإطفاء»، تجري أحداثها في مجتمع وهميّ يُحرِّم الكتب. فإذا اكتُشِفَ كتابٌ مُخبّأ في منزل أحدهم، يُستدعى رجال الإطفاء لإحراقه. وعلى غرار كتائب الإحراق، يبدأ رجال الإطفاء أولئك بإضرام الحرائق بدل إخمادها. وعندما كتب برادبيري قصّة «رجل الإطفاء» كان في الثلاثين من العمر. نشأ وترعرع في لوس أنجلوس وكان يكتب قصصاً خياليّة وقصص خيال علمي منذ أنْ كان مراهقاً. وسرعان ما بدأ يبيع قصصه لمجلات الخيال العلمي على غرار *Amazing Stories*, *Imagination*, و*Super Science Stories*. تخرَّجَ من المدرسة الثانويّة في عام 1938، في قلب فترة الكساد الاقتصادي. ولم تتمكّن أسرته من تحمّل تكاليف إرساله إلى الجامعة. وكان دائماً يحب اللجوء إلى المكتبة، كبديلٍ لالتحاقه بالجامعة، وكان يقضي تقريباً

كل يوم من حياته على مدى السنوات الثلاث عشرة التالية في مكتبة لوس أنجلوس العامّة، وكان يتنقّل بين أقسامها ويقرأ محتوياتها. ولطالما أشار إلى نفسه بوصفه «استمدّ ثقافته من المكتبات» وكان يعتقد أنّه تعلّم من المكتبات أكثر مما كان يمكن أنْ يتعلّم من الجامعة. ولاحقاً قال «لقد بدأتُ وأنا في عمر الرابعة عشرة وتخرّجتُ وأنا في السابعة والعشرين. زرتُ كل غرفة في مبنى المكتبة كله. وفي بعض الغرف، قرأتُ ربما مائة كتاب... قرأتُ كل شِعر العالم. وكل المسرحيات. وكل قصص الجرائم الغامضة. وكل المقالات».
بدأ الأمر بالنسبة إلى برادبيري كضرورة، ولكن سرعان ما أضحت المكتبات -خاصة المكتبة المركزيّة- هي شغفه. وكتب يقول «كانت المكتبة هي المكان الذي أجد فيه الراحة؛ هي مسقط رأسي؛ ومكان نشأتي»

وتابع برادبيري العمل على قصّة «رجل الإطفاء» على مدى بضعة أشهر، ثم خاب أمله بها، ونحّاها جانباً. وبعد ذلك بأربعة أعوام ألقى المُحرّض اليمينيّ السيناتور جوزيف مكارثي خطاباً ادّعى فيه أنَّ وزارة الخارجيّة أفسدها الشيوعيون بـ«مُجازفات الولاء»، مُثيراً نوبة من الشعور بجنون الارتياب اجتاحت الولايات المتحدة. أُصيبَ برادبيري، الذي وصف ذات مرّة مكارثي بأنّه «ذلك السيناتور الغريب الأطوار»، بالرعب. وقرّر أنْ يُحاول إنهاء قصّة «رجل الإطفاء»، التي تنطوي على إحساس مُسبق مخيف عن الحالة السياسيّة السائدة.

كان لبرادبيري وزوجته أربع بنات صغيرات. وعندما حاول أنْ يعمل في المنزل، أمضى وقتاً أطول في اللعب مع بناته أكثر من الكتابة. لم يكن يستطيع أنْ يتحمّل نفقات أنْ يكون له غرفة مكتب، لكنّه علِمَ أنَّ هناك غرفة في الطابق تحت الأرضي من مكتبة باول في جامعة لوس أنجلوس، كاليفورنيا، حيث يمكن استئجار آلة كاتبة مقابل عشرة سنتات في الساعة. وتبيَّنَ له أنّه سوف يكون هناك تناسُق رائع إذا ألّفَ كتاباً عن حرق الكتب في مكتبة. وعلى امتداد تسعة أيام في غرفة الآلات الكاتبة في جامعة لوس أنجلوس، كاليفورنيا، أنهى برادبيري تأليف قصة «رجل الإطفاء»، بعد أنْ مدّها لتُصبح رواية قصيرة. وأنفقَ مبلغ تسعة دولارات وثمانين سنتاً على استئجار الآلة الكاتبة.

إنَّ قصة «رجل الإطفاء» قصة مُخيفة. بطلها رجل إطفاء شاب اسمه مونتاغ، يعيشُ مع زوجته، ميلدريد. تبدو حياتهما عاديّة، لكنها أيضاً بلا ملامح ومُقيَّدة. ميلدريد تتنقَّل في الحياة كالسائر في نومه، مُخدَّرة بدفقٍ لا يتوقّف من التسلية التلفزيونيّة والمُخدرات. ومونتاغ يبدو رجل إطفاء مُطيعاً، لكنّه ينطوي على سرٍّ خطِر: أصبحَت الكتب تُثير فضوله وبدأ يسرقُ بعضاً ممَّا من المُفترَض أنْ يحرق. وكان من خلال عمله قد أحرقَ طائعاً آلاف الكتب، ولكنْ حالما بدأ يقرأ، أصبح يُحبِّذ قيمة ما دمَّر. ويقول في نفسه «للمرة الأولى أُدركُ أنَّ ثمة إنساناً وراء كل كتاب من الكتب». وذات يوم، تكتشف ميلدريد أنّه يقرأ وتُفشي أمره لزملائه في مركز الإطفاء، فيهبطون إليه، ويحرقون منزله وكتبه. ثم يُحاول رجال الإطفاء أنْ يقتلوه، لكنَّ مونتاغ ينجح في الهرب. ويفرّ من المدينة، وأخيراً يُصادف مُعسكراً من المنبوذين. إنهم من مُحبّي الكتب، يعيشون بالفرار، ويُحاولون أنْ يُحافظوا على الأدب بحفظ محتويات الكتب عن ظهر قلب. ودائماً يتْلونَها لكي يُساعدهم ذلك على حِفظها؛ كان المعسكر يضجّ طوال النهار بهدير تلاوة مؤلفات شكسبير وبروست. وكما يُخبر أحد أعضاء المجموعة مونتاغ، فإنهم «متشرّدون في الظاهر، وفي داخلهم هم أمناء مكتبات». إنهم يحافظون على الكتب بإعادتها إلى أصولها – إلى تقليد الرواية الشفويّة، الذي أضفى على الحكايات دوامها قبل أنْ يقوم الورق والحبر بهذه المهمّة.

إنَّ وصف برادبيري للكتب وهي تحترق ليس مُرعباً، وهذا شيء غير متوقّع؛ في الحقيقة، تبدو رائعة، بل كأنّها مسحورة. إنّه يصِفها بأنها «فراشات سوداء» أو عصافير مشويّة، «تلتهب أجنحتها بريشٍ أحمر وأصفر». في الكتب، النار ليست مُنفِرة؛ بل مُغوية – رائعة، قوة غامضة يمكنها أنْ تحوّل الأشياء الماديّة. النار هي «الشيء الذي أراد الإنسان أنْ يخترعه ولم يستطع». إنَّ أناقة هذه الأوصاف تجعل فكرة إحراق الكتب حتى تتحول إلى رماد تُسبِّب اضطراباً شديداً: كأنّها مقطوعة باليه تُصّور مليون جريمة قتل صغيرة.

بعد أنْ انتهى من تأليف الكتاب، حاول برادبيري أنْ يخرج بعنوان أفضل من «رجل إطفاء». ولم يتوصّل إلى إيجاد عنوان يُحبّه، وذات يوم، دفعه دافع إلى الاتصال برئيس مركز الإطفاء في لوس أنجلوس وسأله عن درجة

الحرارة التي يحترق الورق عندها. وأصبح جواب الرئيس هو عنوان كتاب برادبيري: «*451 فهرنهايت*». وعندما احترقت المكتبة المركزيّة في عام 1986، دُمّرَ قسم أدب النثر بدءاً بحرف ألف وحتى حرف لام، بما فيه كُتُب راي برادبيري كلها.

***

إنَّ المكتبات تحترق في زمن السِلم، أيضاً. هناك حوالي مئتي مكتبة تحترق في كل عام في الولايات المتحدة، وعدد لا يُحصى أيضاً في مكتبات حول العالم. كثير منها يندلع بسبب حوادث لأسباب تعود مثلاً إلى قِصَر في الدارة الكهربائيّة، وارتفاع درجة المراوح، وأوعية إعداد القهوة السيئة الصُنع، وصواعق البرق. فاللهب الذي انطلق من الموقد إلى خشب الأرضيات دمَّرَ مكتبة هارفرد في عام 1764. وشرارة انطلقتْ من مروحة أرضيّة نتجَ عنها فقدان كل الكتب في المكتبة القانونيّة في جامعة تمبل في عام 1972. وفي عام 1988، التهمَ حريقٌ هائل واحدة من أضخم المكتبات في العالم –مكتبة أكاديميّة العلوم الوطنيّة في لينينغراد، التي تضمّ مجموعة من الكتب يبدأ تاريخها بعام 1714– ودمّرَها أو دمَّرَ أربعمائة ألف كتاب، وفسدَت ملايين أخرى تشبّعتْ بالماء. ونُسِبَ وقوع الحريق إلى التمديدات الكهربائيّة الرديئة. وفي أثناء احتراق المكتبة، لم يدخل رجال الإطفاء المبنى، واكتفوا بإيقاف عدد من سيارات الإطفاء في موقعٍ مُجاور ورشّوه بالماء على مدى ما يُقارب أربعاً وعشرين ساعة. وعندما أُخمِدَتِ النار في نهاية المطاف، وصلت آلة جرّافة لكي تُزيل أكواماً من الكتب المُدمَّرة، لكنَّ المُحتجّين أبعدوها. ثم قاموا بجمع ما استطاعوا جمعه من الكتب المنقوعة بالماء وأخذوها إلى منازلهم، وعلّقوها على حبال نشر الغسيل، وحاولوا ترميمها. وفي اليوم التالي لإخماد الحريق، أخبر مدير المكتبة، فلاديمير فيلوف، المُراسلين أنَّ ما قيمته خمسة آلاف دولار من الكتب فقط تم تدميره. وفي اليوم الذي تلاه، نُقِلَ فيلوف إلى المستشفى بسبب ما قيل إنّها «مشاكل في القلب». ومن ثم اختفى عن الظهور العلني.

إنَّ العديد من حرائق المكتبات هي نتيجة التخريب غير المُتعمَّد. وعلى امتداد السنين، أصبح رمي عود ثقاب مُشتعل في شق الكتب المرتجعة يُسبب

العديد من الحرائق. وربما الكثير من الناس يُخطِئ ويظنّ أنّ وعاء المُرتجَع من الكتب هو حاوية قمامة، ولكن ربما غالبيّة الناس يفعلون ذلك لأنهم أُجبروا على القيام بعمل أحمق. وهذا النوع من الحرائق يُصبح أكثر شيوعاً حتى إنَّ معظم المكتبات الآن تُسقِطُ الكتب في موقع منفصل عن المبنى الرئيسيّ، بحيث إذا ما اندلع حريق في ذلك الموقِع يبقى مُحاصراً.

كان يُعتقَد، على مدى زمن طويل، أنَّ السبب الرئيس لحرائق المكتبات هو التدخين بإهمال. ثم حظرتِ المكتبات التدخين. كان من المُفترَض أنْ يقلّ عدد الحرائق، لكنَّه ازداد. والمُحققون الآن يعتقدون أنَّ الغالبية العظمى من حرائق المكتبات مُتعمَّدة. والحريق المتعمَّد هو جريمة شائعة. وفي عام 1986، العام الذي احترقت فيه المكتبة المركزيّة، أُبلِغَ عن 5,400 حريق مُتعمَّد في لوس أنجلوس. وفي مُعظم الحالات، يكون الحريق المتعمَّد بقصد الربح - والحالة النموذجيّة هي أنَّ شخصاً يقوم أو تقوم بحرق البناء الذي يُقيمُ فيه لكي يتلقّى مبلغ التأمين. وبعض الحرائق تُضرَم انتقاماً لعلاقة حب انفصمَتْ أو لاتّفاق عمل أخفق. وبعض الحرائق في الأبنية الحكوميّة تكون ذات صِبغة سياسيّة. والناس أحياناً يفتعلون الحرائق بقصد القيام بإخمادها والظهور بمظهر الشجعان. ويُسمّي رجال الإطفاء تلك الحرائق «حرائق الغرور» أو «حرائق الأبطال». والحرائق تُضرَم أحياناً من أجل التغطية على جرائم أخرى. أي أنّه يمكن لشخص أنْ يغتال شخصاً آخر ومن ثم يحرق المبنى الذي يضم الجثّة لكي يُصبح من الصعب التحقيق في جريمة القتل أو حتى معرفة إنْ كانت جريمة قتل. (هذه حبكة فيلم سينمائيّة مُبتذلة، ولكن يتصادف أنّها تحدث في الحياة الواقعيّة) إنَّ بعض الحرائق يُضرمها أناسٌ يُعانون من هوس الإحراق، وهو اضطراب في السيطرة على الحافز يجعلهم يجدون في رؤية الأشياء تحترق إشباعاً لهم.

وللوس أنجلوس نصيبها من الحرائق الضخمة، فهي مدينة حارة، وجافّة ومُفرقِعة، كحجرة وقود. وينتابك شعورٌ هنا بأنَّ ثمة لهباً يكمن تحت السطح، مستكيناً، يفيض على الشجيرات الصغيرة؛ وفي الشجيرات الجافّة والعشب المتيبِّس تشعر بحضور نارٍ لم تولَد بعد، تنتظر أنْ تنفجر. الأبنية تحترق والهضاب تحترق. وللحرائق في لوس أنجلوس أسماء. حريق توماس.

حريق لا تونا. حريق الطائر الفخور. حريق المحطة. وفي حقبة الثمانينيات، اندلعت سلسلة من الحرائق داخل لوس أنجلوس وحولها، في حلقةٍ حارّة اكتنفت المدينة. اندلعتْ بأداة حرق بسيطة مصنوعة من سيجارة مشتعلة، وثلاثة عيدان كبريت، وشريط من المطّاط، يُحيط بقطعة من ورق دفتر. وغالبيّة متعمّدي الحرائق كانوا في مدينة غلينديل، المُتاخمة لمدينة لوس أنجلوس، وعلى امتداد بضعة أعوام، دُمِّرَ هناك سبعة وستون منزلاً. وعدد من الحرائق أُضرِمَتْ بالقرب من موقع اجتماع مُحقّقين في الحرائق المُتعمَّدة؛ وبضعةٌ منها أُضرِمَ في متاجر بيع الخردوات؛ والعديد اشتعلَ في أراضٍ بور. واندلع حريقٌ في شركة وورنر بروذرز. وتدمّرت استديوهات موقع تصوير فيلم «*آل والتون*». وبحلول منتصف الثمانينيات، كانت الحرائق التي نشبتْ بتلك الأداة الصغيرة قد تسبّبتْ بأضرار تُقدَّر قيمتها بملايين الدولارات.

في حوالي ذلك الوقت، كتب قائد مركز الإطفاء في غلينديل، وخبير الحرائق المتعمَّدة جون ليونارد أور، رواية. ووصفَ كتابَه المُعنون «*نقاط بدء الحرائق*» لوكيلٍ أدبيّ بأنه عمل أساسه واقعيّ يُتابع سلسلة من الحرائق المُتعمَّدة الواقعيّة. وكتب يقول «كما في القضيّة الواقعية، مُتعمِّد الحرائق في الرواية هو رجل إطفاء». ووافق الوكيل على قبول الكتاب. وعندما سأل الناشرون عن أحداث الرواية الغريبة الموازية للحرائق المتعمَّدة الجارية في لوس أنجلوس، هزَّ الوكيل كتفيه استخفافاً، وقال «نحن نعيش في لوس أنجلوس! كل شخص هنا لديه مخطوط أو كتاب يريد أنْ يبيعه». وقُبيل توزيع الرواية على الناشرين، احترق متجر غلينديل للخردوات اسمه أورز هوم سنتر، وقُتِلَ أربعة أشخاص. وقد وردَ وصفٌ مشهد مُشابه في رواية «*نقاط بدء الحرائق*». ونُشِر كتاب أور بطبعة شعبيّة وصدر عن شركة تُدعى إنفينيتي ببليشنغ. وعلى الرغم من أنّه كان قائد مركز الإطفاء، فإنّ شيئاً ما في سلوك أور أزعجَ باقي فريق غلينديل للحرائق المُتعمَّدة، ووضعوا في سيارته جهازاً للتعقّب. وقد كشفَ أنّه قام بزيارة العديد من مواقع الحرائق المتعمَّدة قُبيل اندلاعها مباشرة. ولاحقاً، عُثِرَ على بصمات أصابع في أحد المواقع. وكان دائماً يُعتبَر رجلاً مُهذّباً لكنّه كان أيضاً غريب الأطوار قليلاً. وحامت الشبهات حوله، واكتشفَ المُحققون أنَّ أور كان قد تقدَّم بطلب للانخراط

في قسم شرطة لوس أنجلوس لكنَّ طلبَه رُفِضَ لأنَّ الطبيب النفسيّ الخاص بالشرطة اعتبر أنّه «مُصابٌ بانفصام الشخصيّة». وأخيراً، اتُّهِمَ أور بارتكاب أكثر من عشرين حريقاً مُتعمَّداً وبأربع جرائم قتل. وأُدين بمُعظم التُهَم الموجّهة إليه. وواجه عقوبة الموت ولكن حُكِمَ عليه بالسجن مدى الحياة من دون إمكانيّة إطلاق سراح مشروط. ويُعتقَد أنّه تسبَّب في إضرام ألفَي حريق في لوس أنجلوس وحولها. وبعد أنْ سُجِنَ، انخفض عدد حرائق الشجيرات في منطقة غلينديل بمقدار تسعين في المائة.

***

لم يكن حريق المكتبة المركزيّة هو الحريق الوحيد لمكتبة في لوس أنجلوس. ففي عام 1982، دُمِّرت مكتبة فرع هوليوود في حريقٍ مُتعمَّد ولم يُعرَف الفاعل. واعتُقِدَ أنَّ أحدهم افتعل حريقاً صغيراً بجوار المبنى ومن ثم امتدَّ وخرج عن نطاق السيطرة. وتضرَّرت المكتبة ضرراً بالغاً بحيث إنّهم اضطروا إلى هدمها، ولم يتمّ إنقاذ إلّا عشرين ألفاً من كتبها. والمكتبة المركزيّة نفسها احترقت مرَّتين بعد الحريق الرئيسيّ في نيسان من عام 1986. ففي شهر أيلول من ذلك العام، نشبَت نارٌ في وسط مجموعة الموسيقى والفنون، حيث ما زال هناك على الرفوف عدد من الكتب والمخطوطات. كان حريقاً صغيراً نسبيّاً إذا ما قورنَ بحريق شهر نيسان الذي دام سبع عشرة ساعة، وأخمده فريق إطفاء بفترة سريعة مقدارها ست وثلاثون دقيقة. لكنَّ المُحققين أصابتهم الحيرة. وأُغلِقَ المبنى أمام الجميع ما عدا فرق الإنقاذ وهيئة أمناء المكتبة بعددها القليل. ولم يكن هناك إلّا منفَذ واحد إلى داخل المبنى، وكان أحد الحرّاس قد قام بمعاينته قبل أنْ تنشب النار بخمس عشرة دقيقة. وأُلقيَ القبض على رجل كان يتسكَّع خارج المبنى في أثناء نشوب الحريق، ولكنْ اتَّضحَ أنّه كان يتمشّى في الجوار على أمل أنْ يتمكن من بيع بعض الماريجوانا. وهيئة المكتبة الإداريّة التي هزّها الحريق الكبير، فقدتْ أعصابها في الحريق الثاني. وبعد ذلك بشهر، اندلع حريقٌ آخر، وهذه المرَّة في الطابق تحت الأرضي من المكتبة. وكان لهذا الحريق، على الأقلّ، مصدر واضح: لقد أسقطَ عامل في فريق الإنقاذ عَرَضَاً مادةً حارّة في أنبوبٍ يؤدي إلى الطابق تحت الأرضي، وهناك استقرَّ على ركام من القمامة وبدأ يشتعل.

-10-

«رمي الممتلكات: حصّل بعض الأرباح الفوريّة من بيع العقارات»
(2006)
تأليف برونتشيك، وليم
333.6 B869

«خادمات منحرفات: الموسم الأول كاملاً» (2014)
DVD

«الجسم بعد ممارسة اليوغا واحداً وعشرين يوماً: كُتيِّب تجديد النشاط وتغيير أسلوب الحياة وجعلك متناسق الجسم، عنيفاً، ورائعاً في غضون ثلاثة أسابيع» (2013)
تأليف نارديمي، سادي
613.71 N224

«مقاتل الشوارع: رواية تصويريّة، مأخوذة عن لعبة فيديو» (1994)
تأليف سترازفيسكي، لين
740.914 H655ST

كان أرين كاسباريان يبيع الشطائر، لفترة من الوقت، في النفق. لم يعتبر ذلك عمله الدائم، لكنّه كان مرتاحاً في حياة النفق حتى إنَّ أمّه بدأتْ تقلق. لقد أرادتْ له أنْ يقوم بعمل قيِّم أكثر من صنع شطائر كرات اللحم مع الصلصة،

لذلك حثّه على التقدُّم للعمل في المكتبة. في أول الأمر لم يُبدِ كاسباريان اهتماماً - لسببٍ وحيد، هو أنّه في النفق كان يحصل على طعام مجّانيّ. قال كاسباريان «كان عليَّ أنْ أختار بين الحصول على شطائر مجّانيّة أو أنْ أكون بين الكتب، وأُدخلَ السعادة إلى قلب أمي». وكاسباريان هو في منتصف عشرينيات عمره، ذو شَعرٍ أسود مُشعّث وسلوك عابث، مرح. عندما تحدثنا، كان جالساً على طاولة توزيع الكتب في البهو الرئيسيّ من المكتبة المركزيّة، في بداية نوبة عمله. قال «لقد تبيَّنَ لي أنَّ العمل في المكتبة هو أفضل عمل قمتُ به». لطالما كان طموحه الحقيقيّ هو إخراج الأفلام السينمائيّة، لكنَّ «الواقع ضربَ ضربته»، حسب تعبيره، ثم اكتشفَ مدى صعوبة تحقيق ذلك الهدف. والآن هو يُخطِّط للالتحاق بمدرسة المكتبات ويُصبح أميناً لمكتبة للأطفال واليافعين. وقال إنّه يستيقظ في الصباح شاعراً بالسعادة. قال «أشعر كأنني... في أحسن حال! كل شيء على ما يُرام!»

في عام 1997، بدأ القائمون على إدارة مدرسة المكتبات يُلاحظون أنَّ طلبات الوظائف تتراكم؛ وأنَّ متوسط سن المتقدّمين يقلّ؛ وأنَّ العديد من طلاب عِلم المكتبات ينحدرون من أوساط فنيّة، أو يعملون في مجال العدالة الاجتماعيّة، أو في التكنولوجيا. والعديد منهم، أو على الأقلّ أكثر مما كان في الماضي، كانوا من الذكور. وكان عددٌ منهم يضعُ وشماً. وعديد منهم قالوا إنهم انجذبوا إلى المهنة لأنها تجمع بين إدارة المعلومات والخير العام، ولأنَّ أمناء المكتبات يعيشون حياة لائقة. وحسب نظام لوس أنجلوس، فإنّ مستوى الراتب الأوّليّ يزيد على ستين ألف دولار، وأمين أحد الأقسام، الذي يُشرِف على عدد من الفروع، يمكن أنْ يربح ما يُقارب المئتَي ألف. والاهتمام الجديد، الأحدث، بالمهنة غيَّرَ ذلك. وهناك سلسلة من الكتب الهزليّة تدور حول أحد أُمناء المكتبة؛ هي شخصيّة أمينة المكتبة نانسي بيرل الحيويّة من سياتل المحبوبة؛ بالإضافة إلى صفحات تعليقات عدد من أمناء المكتبات على شبكة الإنترنت، بما فيها واحدة تُسمّى «*أمين المكتبة الأقوى في العالم*»، وهناك إحساسٌ بأنَّ كون المرء أمين مكتبة هو فرصة ليكون ناشطاً اجتماعياً يُدافع عن حريّة التعبير وحقوق الهجرة وهموم المُشردين في أثناء عمله ضمن نظام ديوي العِشريّ. وحسب عِلمي، مثَّلَ

كاسباريان النتيجة النهائيّة لتغييرٍ يمكن تحديد تاريخه بعام 1995، عندما قام الممثل باركر بوزي بدور موظف صغير في مكتبة في الفيلم ذات الفِكر المُستقلّ *«الفتاة المرحة»*

هتف كاسباريان، «التالي!» فتقدَّمت فتاة مراهقة ذات شعر أخضر عشبيّ وسجّلتْ رواية مُصوَّرة. وبعدها، رجل أكبر سناً حسن المظهر يرتدي بذلة عمل بلون رماديّ داكن، سجّلَ دليلَي سفر إلى تايبه. وأبقى كاسباريان عينيه مُثبَّتين على وجوه الروّاد بينما هو يقوم بخدمتهم، متعاملاً مع كتبهم بالإحساس وليس بالنظر. وعندما غادر رجل الأعمال، همس كاسباريان لي قائلاً، «أنا لم أعرف قط إنْ كان ينبغي عليَّ أو لا ينبغي أنْ أنظر إلى ما يتقون من كتب»، ورسم ابتسامة واسعة، «أحياناً أنظر، ويكاد المرء لا يُصدِّق أنَّ مثل ذلك الكتاب موجود»، عندئذٍ بالذات، لوّحتْ له امرأة بيدها تقف على مسافه قصيرة في الطابور. فأخبرني بأنّها من روّاد المكتبة – «أنا أعرفها، ولكن ليس معرفة وثيقة. أعني، أعرفها من هنا، ولذلك أعرفها بتلك الطريقة الخاصّة...»، وسكت بالتدريج، وهو غير متيقّن من أنّه يصِفُ العلاقة بشكلٍ صحيح. وعندما وصلت المرأة إلى الطاولة، حيّاها كاسباريان بإشراق وقال إنّه لم يرها منذ مدَّة. فابتسمت المرأة وقالتْ «أنت على صواب، أنا لم آتِ إلى هنا منذ مدَّة. لقد أنجبتُ توأماً»

خلفها وقفت امرأة حزينة الوجه شعرها على شكل كعكة شعثة. كانت تستنشق وتزفر، ثم قالت «أنا أبحث عن كتاب في اليوغا»

اقتربَ رجلٌ بشعر شائب يرتدي معطفاً بنيّ اللون فضفاضاً من الطاولة حاملاً قائمة من عشرين عنواناً لأفلام سينمائيّة مُرتّبه حسب الأحرف الأبجديّة، وتبدأ بـ «أناكوندا» وبـ «جيغلي». سأل كاسباريان «هل أستطيع أنْ أحصل على هذه؟»، فأومأ كاسباريان برأسه إيجاباً وقال «نعم طبعاً تستطيع!»

بعد ذلك اقترب شاب بجدائل شعر تصل حتى خصره، قائلاً «أين أجد كتاباً عن مُدمني الخمر المجهولين؟»

اقترب من الطاولة رجلان في منتصف العمر، يرتديان قميصَي لعبة البولو متشابهين، واستعارا ثلاثة دلائل إلى عالم ديزني.

وصلت امرأة ضئيلة الحجم ذات رأس من حلقات الشعر البنيّة إلى الطاولة وأسقطَتْ كمية كبيرة من سلسلة كتب «منزل الشجرة السِحريّ» على الطاولة. وقالت لكاسباريان من دون أنْ يسألها، «من أجل ابنتي البالغة الثامنة من العمر. إنها لا تكتفي من هذه»

وقال شابٌ برأسٍ حليق، يُعيد خمسة عشر كتاباً، «بعض هذه الكتب فات موعد إعادته» فنظر كاسباريان إلى جهاز الكومبيوتر وقال إنَّ الغرامة تصل إلى 10.40 $. فقال الشاب بتأنٍّ «حسنٌ. سوف أدفع عشرة دولارات»

على الطاولة بجوار كاسباريان، كان نلسون توريس قد أنهى نوبته. أخبرني بأنه لطالما رغب في أنْ يتعامل مع الناس لأنّه يعتبر نفسه ودوداً وسهل المعشر. قال إنه لم يكن يوماً قارئاً جيداً، لكنّه بدأ العمل في المكتبة عندما كان في المدرسة الثانويّة وبقيَ فيها منذ ذلك الحين. وبينما كان يتكلّم، اقتربَ رجلٌ من الطاولة وسألَ إنْ كانت المكتبة تحتوي DVD لبرنامج تلفزيونيّ يُدعى «*خادمات منحرفات*»

قال توريس، وهو يومئ، «هذا برنامج جيد». وبينما كان يبحث عن موقع البرنامج على الرفوف، توقفت امرأة وربتت على طاولته، قالتْ «كيف حال أمّك، يا نلسون؟». قال لها «بألف خير»، ومن ثم التفت إلى الخلف لينظر إلى الرجل وأعطى تعليماته بشأن برنامج «*خادمات منحرفات*»

اقترب مساعد آخر في المكتبة، اسمه غاريت لانغان، من خلف الطاولة ووضعَ يده على كتف توريس. قال لانغان، وهو يضحك «لقد انتهى أمرك، يا نلسون، سوف يُعيد الحرّاس الأصفاد إلى يديك من جديد الآن»

مرّتْ سيلينا تيرازا، كبيرة العاملين في المكتبة التي تشمل صلاحياتها مركز الكومبيوتر، ومكتب المراجع، وقسم الأطفال والمراهقين، ومكتب التوزيع، وألقتْ نظرة استحسان على المشهد. إنها امرأة ودودة، مُضحكة، ذات شعر أزرق اللون وتضع نظارات حديثة الطراز. نظرتْ إلى سوار مقياس اللياقة المدنيّة وقالت «إنني أركض حول المبنى عشرة آلاف خطوة في اليوم!» ومن ثم اختفَتْ داخل غرفة العمل خلف طاولة المكتب.

عندما رجعتُ إلى كاسباريان، وجدته يُساعد شاباً من إنكلترا يقدّم طلباً

للحصول على بطاقة مكتبة. وامرأة بشعر أشعث وحقيبة ظهر قذرة زهريّة اللون تمرّ بخطى متهادية، تبدو مشوّشة الذهن. قال كاسباريان إنّه في أول عهده بالعمل في المكتبة، «كان مشهد المُشرّدين يبثّ فيه بعض الخوف»، أما الآن فإنّه يتعرَّف على الكثير منهم، ولم يعد يخافهم. قال بل إنَّ معرفتهم تريحه، وحسب تعبيره «وكأنّهم يمدونني بالطاقة». وطلبتُ منه أنْ يكون دقيقاً في كلامه، فقال، «إنهم يجعلونني أشعر... بأنني شخصيّة هامة». بدا من كلامه أنّه خجول قليلاً، ومن ثم أضاف، «وكأنَّ في استطاعتي حقاً أنْ أقدِّم العون»

-11-

«في المدينة مع هيويل هاوسر (تسجيل فيديو) 110#، كنيسة الباب المفتوح» (2007)
DVD 979.41 L88Do-6

«شركة آركو في عمر الـ125: تحتفل بالماضي، وتتوقَّع المستقبل» (1992)
تأليف كوك، لودريك م.
338.78 A8815Co

«ميسوري: دليل إلى ولاية أرني» (1941)
تأليف برنامج الكتّاب لإدارة مشاريع الأعمال في ولاية ميسوري.
977.8 W956

«كيف تكتب رسائل ناجحة لجمع المال» (1996)
تأليف واررويك، مال
361.73 W331

أنْ تكون أمين مكتبة مدينة لوس أنجلوس في زمن الحريق يعني أنْ تحاول أنْ تكون كذلك. كانت الهيئة الإداريّة في حالة اضطراب، وكانت المكتبة الأساسيّة مُغلقة، وليس هناك جدول لإعادة فتحها. وساعدت قيمة التأمين على تغطية قيمة الأضرار التي لحقَتْ بالمبنى -الإسمنت المتشقِّق، وطبقات

السخام والأوساخ، والثقوب التي حفرتها هيئة الإطفاء. وفي الحقيقة، كانت المكتبة المركزية، بصلابتها، قد نجت بشكلٍ جيّد من الحريق. وما لم تتمكّن قيمة التأمين من تعويضه هو محتويات المبنى. والتكلفة التقديريّة لاستبدال الكتب الضائعة التي بلغ عددها أربعمائة ألف تجاوزت الـ 14 مليون دولار- ستة ملايين دولار ثمن الكتب، وستة ملايين دولار ثمن الدوريات، وأكثر من مليوني دولار ثمن المجموعات المُسجّلة ووثائق علميّة وتكنولوجيّة أخرى. وتكلفة تخزين وترميم السبعمائة ألف كتاب المتضرّرة أمكنَ فقط تخمينها. والمال اللازم لإعادة تجهيز المكتبة لم يكن بكل بساطة متوفراً.

اعتبر أمين مكتبة المدينة، وايمان جونز، أنّه عَلى عِلمٍ تام بالصراع الذي يواجهه. كان قد وُلِدَ في ميسوري في عام 1929. كان والده مدير مدرسة ثانويّة، لكنَّ عائلته الممتدة كانت من المزارعين القذرين. وحديثاً أخبرني «لقد أضرَّ الكساد الاقتصاديّ بنا». وكنتُ قد اتّصلتُ به هاتفياً في بورتلاند، أوريغون، حيث كان قد انتقلَ بعد أنْ تقاعد من العمل في المكتبة. وعندما بدأتُ أشرح له أنني أؤلّف كتاباً عن المكتبة، قال إنّه يرفض التحدّث معي لأنه يُخطِّط لتأليف كتابه الخاصّ عن الموضوع نفسه. قال إنّه سوف يُسمّي كتابه «في اتجاه راقصة شرقيّة». وبعد أنْ أصرَّ باستخدام عبارات قويّة على أنّه لا ينوي أنْ يُجري معي حواراً، أبقاني على خط الهاتف أكثر من ساعة. وهذا ما كان يحدث كلما دار بيننا حديث عبر الهاتف على مدى بضعة أشهر: كان يشرح لي سبب عدم رغبته في التحدث معي، ومن ثم لا يدعني أبتعد عن الهاتف. أحياناً كنتُ أختلقُ أعذاراً زائفة لأقطع الخط بعد مرور ساعة أو نحوها، عندما تتعب يدي من تدوين الملاحظات أو عندما يحين وقت إعداد وجبة العشاء. كان التحدّث معه أشبه بالانخراط في الملاكمة مع شخص يتفرَّس في وجهه في المرآة في أثناء توجيه اللكمات إليك. وقال لي أكثر من مرَّة «قبل أنْ تؤلفي كتابك، يجب أنْ تجمعي معلومات حقيقيّة حول المكتبات. ماذا تعرفين عنها؟ أنتِ لستِ أمينة مكتبة». وخلال حديثنا الأول، عاد مرّاتٍ عِدَّة إلى موضوع الكساد الاقتصاديّ، ثم كرَّر القول إنها كانت فترة عصيبة على عائلته. وقال «أنا لا أحاول أنْ أقنعكِ، يا سوزان. أنا فقط *أخبرك*»

قبل أنْ يأتي جونز إلى لوس أنجلوس كان يُدير أنظمة مكتبات. كان

معروفاً بأنّه مُنشئ فروع، وعندما وصل إلى كاليفورنيا في عام 1970، كان في نيّته أنْ يهدم المكتبة المركزيّة ويبني أخرى أكثر جِدَّة، وأكبر وبعنوان مختلف. ولم تكن لديه صِلة بمبنى الشهير برترام غودهيو. وكلما تحدثنا عن المبنى، كان يرفضه بوصفه من تنفيذ «مهندس مزاجيّ» لا يعرف شيئاً عن المكتبات». كان يعتقد أنَّ مبنى غودهيو عموماً يحظى بتقدير مُغالى فيه. قال «إنَّ عالم الهندسة المعماريّة لا يُقدِّر كثيراً هذا المبنى»، فقلت له إنني في الواقع قرأتُ الكثير عن مديحه، وإنَّ العديد من المهندسين اعتبروه أقرب إلى التحفة الفنيّة. قال، وهو يشخر عمليّاً، «حسن، ربما هناك قدر من السِمة العاطفيّة العامة لأنَّ الناس يذهبون إلى هناك لكي يقرؤوا أو ما شابه. لا أحبّ أنْ يخدعني أحد ويقول لي إنه تحفة هندسيّة رائعة»

عندما تشكَّلَ تآلفٌ من المهندسين المعماريين، وعمّال الصيانة، ومُخططي المُدن، وقرّرت المدينة أخيراً أنْ تجدِّد المكتبة المركزيّة وتوسِّعها بدل أنْ تهدمها، رضخَ جونز للقرار وأشرف على مضض على الخطط. وعاملَ الحريق كما يُعامل المرء لائحة طويلة من المُزعجات التي انهالتْ عليه خلال العشرين عاماً هي مدّة خدمته كأمين مكتبة المدينة. وذات يوم قال لي في حديث عبر الهاتف «اسمعي، لقد شهدتُ ثلاثة زلازل وثلاثة حوادث شغب وأنا هناك. هذا، بالإضافة إلى تعرّضي لثلاث نوبات قلبيّة». قال إنّه غالباً ما وجد أمناء المكتبات مُثيرين للجنون ودائماً متطرفين. («إنَّ نقابتهم سخيفة. لقد أدرتُ ذلك المكان على مدى عشرين عاماً، ولم يثقوا بي حول أي أمر») والأسوأ منهم كانوا القائمين على إدارة المدينة، الذين كان ينظر إليهم باشمئزاز. قال «موظفو بلدية المدينة؟ لم أعتبرهم إلّا كالصديقة الصعبة المراس. يجب أنْ تمارس أمامهم خدعة سِحريّة، ويجب أنْ تعزف على البيانو لأجلهم، يجب أنْ تبقيهم سعداء، هذا كل ما في الأمر. لقد عملت طويلاً مع سياسيين من الدرجة الثانية ومع أشخاص غير مؤهّلين. أتعلمين ما الذي حدث؟ لقد اجتهدتُ في العمل طويلاً، ولم أتلقَّ أيّة رشوة»، وأخبرني بأنّه كان مشهوراً في لوس أنجلوس في أثناء شَغله منصبه في المكتبة إلى درجة أنّه لم يكن في استطاعته أن يذهب إلى أي مكان من دون أنْ يُشار إليه بالبنان. وقد أدهشني سماع هذا الكلام، لأنني لا أعتقد

أنَّ معظم الناس يُميِّزون رئيس أمناء المكتبة في مدينتهم، خاصة بعيداً عن عمله، لكنَّ جونز أصرَّ على أنّه إذا تناول طعام العشاء في أحد المطاعم، كان يُقاطَع مرّات عديدة. «لقد مكثتُ في المكتبة طوال عشرين عاماً. عشرون عاماً! لم يكن في استطاعتي أنْ أذهب إلى أي مكان من دون أنْ يطلب أحدٌ مني شيئاً»، ثم سألني «أتعلمين ماذا يُشبه هذا؟ أتدركين لِمَ أرفض أنْ أتقاعد في مدينةٍ كتلك؟ أتفهمين سبب انتقالي؟». عندما تلكّأتُ في الإجابة، قال فجأةً بعنف «هيه، أعطيني جواباً! لا تحاولي إرضائي. أخبريني عن سبب اضطراري إلى الانتقال»

حتى لو أنَّ في حوزة المدينة مبلغاً يُقدَّر بحوالي 14 مليون دولار، فإنَّ إعادة تجهيز مكتبة كبيرة كالمكتبة المركزيّة كانت ستكون عملاً شاقاً. وقال جونز إنَّ معظم الكتب كانت طبعاتها نافدة، والمتوفّر منها كان يجب أنْ يُطلَب من سبعة آلاف بائع مختلف. قال جونز بجِدَّة «وفي الأصل كان العثور على هذه الأشياء اللعينة يحتاج إلى خِبرة هائلة. كان يتطلَّب الكثير من الوقت والكثير من المال. أتعتقدين أنَّ ذلك كان أمراً سهلاً؟ أتعتقدين؟ حسن، صدّقيني، لم يكن كذلك»

***

كان لودريك كوك، رئيس شركة آركو، رئيساً لمجلس الإدارة المُساعد لحملة «أنقذوا الكتب»، التي تشكَّلتْ من أجل جمع تمويل استبدال كتب المكتبة الضائعة. كان في استطاعة كوك أنْ يشاهد المكتبة من موقع مكاتبه في الشارع الخامس، وحالما تمَّ إخماد الحريق، منح وايمان جونز وهيئة المكتبة التنفيذيّة مساحة في مكاتب شركة آركو. وقد حذَّرَ كارلتون نوريس، رئيس مكتب شركة آركو للعلاقات العامّة، أمناء المكتبة من أنَّ «أصحاب البترول يستخدمون أحياناً... لغة مُهذَّبة، أو فظّة، أو مُباشَرة» قد يجدونها مُحبِطة، لكنَّ جونز مع ذلك قبِلَ العَرض.

كان أمناء المكتبات يقتصدون في ميزانيّة البلديّة، لذلك شعروا بالرعب من رفاهيّة مكاتب آركو. ووِفقاً لكارلتون نوريس، كانت آلة النسخ التي تقارن بين النصوص أكبر مصدر للتعجّب. وأثار أمناء المكتبة، بدورهم، الرعب

في أعضاء الهيئة الإداريّة لآركو. وقال نوريس إنَّ العديد منهم نشأوا وكبروا في بلدات في مناطق إنتاج البترول صغيرة جداً إلى درجة أنّها لم تكن تضمّ مكتبات. كانوا يعتبرون أمناء المكتبات أشخاصاً أنيقين، ومُثقفين ومُهذَّبين.

بدأ لودريك كوك حملة «أنقذوا الكتب» بمنحة مقدارها خمسمائة ألف دولار من شركة آركو وبدأ يحثّ على تقديم الدعم. أخذ يبعثُ رسائل شخصيّة إلى نصف سكّان هوليوود. فكتب إلى المخرج جورج لوكاس «عزيزي جورج، إنَّ مأساةً مُروّعة تستنهضنا أنت وأنا... يعلم الله أنه في كل ساعة تقريباً يُحاصرك شخص ويتشبّث بك، طالباً بعض المال... لكنَّ المكتبة هي بشكلٍ فريد حقل نماء المجتمع المُبدِع وأساس تغذيته في هذه البلدة». وكتب لجاك فالينتي، رئيس رابطة الفن السينمائي في أميركا، الذي وافقَ على أنْ يخدم اللجنة حالما يسمع أنَّ ليو فاسرمان، الذي يمتلك استوديوهات يونيفرسال، وضعَ توقيعه. وأرسل فالينتي وكوك معاً رسائل إلى رئيس كل استوديو وكل مُنتِج كبير في المدينة، طالبين فيها مُساهماتهم. وكان الهدف جمع مبلغ 10 ملايين دولار من أجل إنقاذ كتب المدينة.

وعملت المُغريات عملها في الحال. وأتى المال سريعاً. وكانت بعض الهِبات كبيرة. على سبيل المثال، منحت شركة ج. بول غيتي تراست مبلغ مليوني دولار؛ ومؤسسة ميرور تايمز، التي كانت تمتلكها حينئذٍ صحيفة *لوس أنجلوس تايمز*، منحتْ مبلغ نصف مليون دولار. ومنح سيدني شيلدون، مؤلّف الكتب الرائجة المُربِحة على غرار «*الجانب المقابل من منتصف الليل*»، مبلغ 25,000 دولار. والدكتور سوس منح عشرة آلاف دولار. وبعض الهِبات كانت لا تتجاوز بضعة دولارات. والعديد من الهِبات الصغيرة كانت مصحوبة برسائل تبيّن فيها سبب رغبة الواهب في دعم المكتبة. وكانت الأسباب لا تُحصى. إحداها قالت «ما الذي يدفع بزوج من العجائز في سان فرانسيسكو إلى منح مكتبة لوس أنجلوس نقوداً لإنقاذ الكتب؟ في الواقع أنَّ والدي انهار ومات في مكتبة عامة في لوس أنجلوس في السابع عشر من شهر تموز، عام 1952. متأثراً بنوبة قلبيّة أو بسكتة دماغيّة. لم أعرف قط أيّهما. أتمنى التوفيق لحملتكم». وكانت هناك هِبات من الكتب، من ضمنها مجموعة كاملة من الطبعات ذات الغلاف المُقوّى من

تأليف لوي دامور من أرملته؛ ومجموعة ضخمة من قصص *طرزان* للمؤلّف إدغار رابس بورروز؛ وألف وأربعمائة كتاب في الطبخ من عزبة أحد الجُباة. وأقام الممثل تشارلتون هيستون حفل كوكتيل من أجل جمع المال لـ «أنقذوا الكتب». وفي الخارج وهبتْ شركات الإعلان ما يُقارب ستين لوحة إعلان في أرجاء المدينة من أجل المساعدة في نشر الدعوة.

حثَّ المُحافِظ توم برادلي ناخبيه على وهب قدر ما يستطيعون. وانتشر جمع التبرعات من أجل المكتبة المدينة كلها. وقام أولاد المدارس بجولات لجمع الزجاجات وعلب الألومنيوم من أجل إعادة تدويرها. وأعدتْ في الأحياء أغنية للبيع من أجل حملة «أنقذوا الكتب». وساد إحساس مُشترك بالهدف في المدينة وجده كثير من الناس مُلهِماً. كان ذلك نسخة أخرى من كتيبة المتطوعين في يوم الحريق: أشخاصٌ غرباء يتكاتفون، يتناقلون الكتب فيما بينهم، من أجل إنقاذ ما لم يطله الحريق. في مدينةٍ قد تبدو أحياناً ممزّقة وكئيبة، يُقدِّم الاهتمام بالمكتبة تجربة نادرة للاتحاد. ومع ذلك، كانت تظهر اعتراضات بين حين وآخر. فقد كتب أحد المنشقّين، «عزيزي المُحافظ برادلي:

«أجده أمراً شنيعاً أنْ يتوق الناس إلى إنفاق مبالغ ضخمة من المال من أجل إنقاذ كتب، في حين أنَّ المدينة تقتل الكثير من الكلاب والقطط الجميلة، والصحيحة، والذكيّة، والمحبوبة في كل يوم، لأنَّ المدينة فقيرة جداً ولا تستطيع أنْ تربي الحيوانات وتتبنّاها... وكالمعتاد، تبقى حاجاتها منسيّة، بينما قضيّة رائجة مؤقّتاً تجد تأييداً من عصبة من المُثقّفين الأدعياء. ملاحظة: دعونا لا ننسى الدلافين التي تنفق في مرفأ سانتا مونيكا. *«أنقذوا الكتب»* يا له من نداء!»

خرجت اللجنة بخططٍ أخرى بارعة من أجل جمع المال وإكمال حجم التبرعات. فاقترح جونز إقامة أكبر تجمُّع في العالم لممارسة لعبة البينغو (ورُفِضَ العرض). واقترح شخصٌ آخر أنْ يخوض فريق الليكرز في لوس أنجلوس مباراة خيريّة مع مُدربين مشهورين، على غرار جون فان أرك من

«تونس لاندينغ» (وتم الاتفاق عليها وتقرير موعدها، بإشراف المُدرِّب فان أرك). ومحل تجاري يبيع بضائع عليها شِعار «أنقذوا الكتب» (أباريق، علامات للكتب، قمصان رياضيّة) فتح أبوابه في بهو مبنى شركة أركو. ونُظِّمَ مهرجان بدقّة عسكريّة ببطاقات دخول باهظة الثمن من أجل جمع التبرعات يحضره الأمير أندرو وسارا فرغسون، يتضمَّن داعمين للمكتبة مع مواضيع للنقاش مع ضيفيّ الشرف. وتلقَّتْ زوجة لودريك كوك ورقة تضم تفاصيل عن الاجتماع تُحذِّرها من أنَّ سارا فرغسون لا تهتم بالموضة أو بتسريحات الشَعر «وأنَّ الأمير أندرو» لا يهتم بالألعاب الرياضيّة، لكنَّ سارا تهتم بها»

اشتركَ عشرون ألفاً من تلاميذ المدارس وألفا شخص بالغ في مسابقة كتابة مقالة عن «أنقذوا الكتب»، وقدَّمتْ بطاقات للقيام بجولة في أوروبا بالإضافة إلى جوائز أخرى. وكان موضوع المقالة «ماذا تعني المكتبة بالنسبة إليك». كان راي برادبيري أحد الحكّام. وكانت المقالات الفائزة عميقة، مُثيرة للقلق، وانفعاليّة بصورة قاتمة. وكلها تشبه اعترافات تتسِمُ بحسٍّ وحشي بالوحدة، لم يُخفِّف منه إلّا مكان كالمكتبة، حيث يمكن للّذين يشعرون بالوحدة أنْ يخفّ شعورهم بالوحدة عندما يجتمعون معاً. وكانت إحداها تبدأ بـ «على مدى سنين طويلة، كنتُ كالقلعة داخل المكتبة، أتقاسمُ مساحات من الصمت، بصمت، مع آخرين سجناء عزلتهم مثلي... وبدأتُ أفهم الكوكب الذي أعيشُ فيه وتعلّمتُ التمسُّك بأملي... وبدأ حزن الحياة اليوميّة من حولي يُصبح بصورة ما مقبولاً...»،

إحدى المواد الفائزة كانت قصيدة ألّفها أمين مكتبة اسمه جيل كرين كان يعمل في مجال التنظيف بعد إخماد الحريق. وبدأتْ كما يلي:

حملنا كُتلاً من الكتب
المحترقة والمُشبّعة بالماء
بأيدينا.
والتاريخ، والمخيلة، والمعرفة،
تنهار بين أصابعنا.
وجمعنا ما تبقّى.

قبالة المدخل الجنوبي للمكتبة وبالقُرب من مبنى شركة آركو نهضَ مبنى ضخم من طراز أوائل القرن الماضي في شارع هوب مزوَّد بقاعة اجتماعات تتسع لأربعة آلاف مقعد مع واجهة تضمّ تسعة مداخل مُقنطرة، وبقيَ المبنى الأكثر ارتفاعاً في لوس أنجلوس. كان قد أُنشئ في الأصل كمقرّ إدارة الطائفة المسيحيّة الإنجيليّة المُسمّاة «كنيسة الباب المفتوح». والمبنى مُزوّد بشعار بأضواء النيون يقول «يسوع يُخلِّص»، يمكن مشاهدته من أي مكان تقريباً في البلدة، والترانيم التي تصدح منه مرّتين في اليوم يمكن سماعها بقدر اتّساع المساحة.

ومع تضاؤل المنتسبين إليها داخل المدينة، قرّرتْ كنيسة الباب المفتوح أنْ تنقل مقرّها إلى الضواحي. وبيع المبنى في عام 1986 إلى جين سكوت، قسّ من أبرشيّة خمسينيّة تُدعى مركز ويستوكوت المسيحيّ. وكان سكوت يحمل شهادة الدكتوراه من جامعة سانفورد وهو من ريف ولاية إيداهو وكان يصف نفسه بأنّه «المؤمن الأكثر إيماناً باللاأدريّة وأشدّ المؤمنين لا أدريّة». وبعد عهد شباب متمرِّد، تبعته فترة استبطان أقلّ شباباً بقليل –وهذا كلّه مُفصَّل في مقالته «فيلسوف ينظر إلى المسيح»– وباشر سكوت الوعظ في عام 1968. وجذبَ إليه المتحمسين. وبدءاً بعام 1975 أصبحتْ قداديسه تُنقل تلفزيونيّاً على شبكة محطة الإيمان. وفي غضون بضعة أعوام، أصبحَ برنامجه يُبثّ على مدار الساعة ويُشاهَد في 180 بلداً. وكان أتباعه يشاهدون مواعظه كأنها فرض. ولاحظ طاقم موظفي المكتبة المركزيّة أنّه أينما ألقى سكوت موعظةً عن كتابٍ معيَّن، يزداد الطلب على ذلك الكتاب زيادة هائلة. وكان سكوت يناقش بين حينٍ وآخر ما يعتقد أنّه الطاقة الغامضة للأهرامات العظيمة. وكلما فعل ذلك، يهرع الناس من أجل الحصول على كتاب بيت تومبكن «*أسرار الهرم الأكبر*» من المكتبة العامة.

لم يكن سكوت يتصرَّف كعجوز عادي في الكنيسة. كان له شعر فضيّ غزير ولحية كثّة ويضع نظارات قراءة صغيرة ومُستديرة على ذؤابة أنفه. كان كلِفاً باعتمار غطاء رأس أشبه بخوذة من النسيج وقبعة إسبانيّة عريضة في أثناء إلقاء مواعظه، وكانت لديه عادة الخربشة باليونانيّة، والعبريّة، والأرمنيّة على لوح الكتابة الموجود خلفه. وعندما لا يقف أمام لوح الكتابة، كان يُحدِّق أمامه مباشرة إلى آلة التصوير. وبعض الناس كانوا يجدون تحديقه مُثيراً

للأعصاب، لكنَّ آخرين وجدوه يجذب كالمغناطيس. في العموم، كانت نبرة صوته متبلّدة. وغالباً ما كان يوجّه أسئلته باتجاه آلة التصوير مباشرة – أسئلة على غرار، مثلاً، «هل تجدونني مملاً؟»، وفي أثناء إلقائه موعظته، كان يسبّ. وأحياناً، يُدخِّن السيجار. وفي مناسبات أخرى، كان يجعل بعض الصبايا الجميلات يرقصن على خشبة المسرح في أثناء إلقاء موعظته. وفي وقت لاحق من مسيرته المهنيّة، صوّره التلفزيون وهو يُلقي موعظته من المقعد الخلفيّ لسيارته الكاديلاك ذات الغطاء القابل للطيّ، ومعه بعض من أولئك الصبايا أنفسهنّ يرتدين البكّيني. وكان سكوت مُطلّقاً ويعيش في عزبة في باسادينا. كانت ثقافته متعدّدة الجوانب. كان يعزف على الغيتار، ويمتلك واحدة من أكبر المجموعات الخاصّة من نسخ الكتاب المُقدَّس في العالم، وكان كاتباً مسرحيّاً. وإحدى مسرحياته التي عنوانها «*القفز إلى المكتب البيضاويّ*»، تدور قصّتها حول حفلة مُتخيّلة من الموسيقى تجمع بين فاتس والر والرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت. وكان بارعاً في جمع المعونات. كان يحبّ أنْ يحضّ مُستمعيه على تقديم الهِبات لكنيسته بتصريحات على غرار «إذا لم ترسلوا نقوداً، فيجب أنْ تتقيّؤوا على أنفسكم ورؤوسكم مرفوعة عالياً». وبدا أنَّ أسلوبه ناجع. وبراتب الواعظ اشترى طائرة خاصة وبضع مزارع خيل. وعندما استُجوبَ حول ما إذا كان من اللائق أنْ تجمع كنيسته كل ذلك الكم من المال، أجاب سكوت، «حسب عِلمي، إنَّ هيئة كهنوتي ليست عضواً في المجلس الإنجيليّ حول المسؤوليّة الماليّة»

اقترح أحدهم في المكتبة أنّه سيكون شيئاً عظيماً من أجل حملة أنقذوا الكتاب أن تكون لدينا حملة تبرّعات طويلة الأمد كتلك التي أقامها الممثل جيري لويس لمكافحة الضمور العضليّ. وأعلن جين سكوت، الذي كان في لجنة «أنقذوا الكتاب»، أنّه يريد أنْ يستضيف برنامج التبرّع في قاعة الكنيسة الشاسعة وأنْ يدير المراسِم. وقد وجد بعض أعضاء اللجنة جين سكوت شائناً قليلاً، لكنّهم اعترفوا بأنَّ استضافته سوف تكون نعمة بسبب جمهوره الواسع وشخصيته المُقنِعة. وقد صادقَ على مُساهمته وايمان جونز، الذي عرضَ تقديم موهبتيه البعيدتين عن الروتين –عزف الجاز على البيانو والسِحر– في البرنامج،مكتبة .. سُر مَن قرأ

أُقيمَ المهرجان في شهر كانون الثاني من عام 1987 واستمرَّ في بثٍّ حيّ على مدى أربعٍ وعشرين ساعة من دون توقف، ثم أُعيد بثّه على مدى الأربع والعشرين ساعة التالية. وشغل متطوعون مقعداً أمام مئتي جهاز هاتف لتلقّي العربون. وكان الهدف جمع مبلغ مليوني دولار. وتمَّ دفع شخصيات مشهورة إلى الظهور في العرض، وقراءة مقاطع من كتبهم المُفضَّلة. وكان هناك عدد كبير من القرّاء المشاهير، من بينهم ريد بتونز، والحاكم السابق بات براون، والممثلة أنجي ديكنسون، ومُدرِّب فريق الليكرز بات رايلي، والممثل إرنست بورغناين، وإيدي ألبرت، وهنري كيسنجر. قرأت المغنية دينا شور من رواية «*أمير التقلّبات*». وقرأ تشارلتون هيستون الفصل الأخير من «*موبي ديك*» وحضرتْ زازا غابور لكنها نسيت أنْ تُحضِر كتاباً.

وقام بالقراءة عدد آخر من الضيوف المشاهير. وقام لودريك كوك، المعروف عنه أنّه مُساعد مُنفِّذ رصين، بالرقص وحده على خشبة المسرح على أنغام أغنية «أنا مجرد متودِّد إلى النساء». وقد وصف أحد المراسلين الذين يُغطون الحدث عَرضَه بأنّه «مُغر». ولاحقاً أخبرتْ زوجة كوك صحيفة *لوس أنجلوس تايمز*، «لقد اتصلتْ أمي بي وأخبرتني أنَّ [لود] كان يرقص... فقلتُ، «أوه، يا إلهي». وكان أداء كوك مُثيراً إلى درجة أنّ رقصه جلبَ، في غضون بضع دقائق، مائة ألف دولار كرهان. وتفوّقَ وايمان جونز، خاصة في العزف على البيانو. وطوال مدة المهرجان، كانت فرقة جين سكوت، التي اسمها «لا-فرقة» تعزف أغاني فريق البيتلز. وأخذ سكوت يُدخِّن حتى أنهى مقدار علبة من السيجار، وأعلن عن اسم كل قارئ ومؤدٍ بتباهٍ، وفي العموم بدا مُبتهجاً بالعَرض، وبتدفّق العرابين، وبالتشكيلة العجيبة من أصحاب النفوذ والمشاهير الذين توافدوا على خشبة مسرحه. وفي الختام، حقّقَ المهرجان هدفه بتحصيل مبلغ مليوني دولار. وربما كانت واحدة من أغرب الليالي في تاريخ لوس أنجلوس، التي هي مدينة لها نصيبها من الليالي الغريبة.

-12-

«تقرير خاصّ عن تاريخ وحاضر حالة تربية الغنم في الولايات المتحدة»
(1892)
الناشر سلطة أمانة سر الزراعة.
636.305 U51

«فلنبحث عن الذهب» (1964)
تأليف هول، ج. بي
332.4973 H177

«العبوديّة في الغرب: القصة الخفيّة لاستعباد سكّان أميركا الأصليين في الغرب» (2011)
تأليف نيكسون، غاي
970.3 M685Ni

«مُداعبات...» (1921)
تأليف ريشيان، جان
F.841 R528-4

من بين الكتب الأولى التي حصلتْ عليها مكتبة لوس أنجلوس كانت *«تلميحات إلى مرّبي الخيول»*؛ و*«في تربية الأغنام»*؛ و*«كيف تكسب المال»*؛ والكتاب الذي عنوانه ببساطة *«نحل العسل»*. كانت أول مكتبة عامة في

المدينة قد تأسّستْ في عام 1844، عندما افتتَحَ نادٍ اجتماعيّ يُدعى «أميغوس ديل بايس» غرفةً للقراءة في قاعة الرقص. في ذلك الوقت، لم يكن هناك الكثير من الكتب في جنوب كاليفورنيا، وأكبر مجموعة كتب كانت موجودة في الإرساليات الدينيّة الإسبانيّة ولم تكن مُتاحة للعامّة. وعندما وقع نادي «أميغوس ديل بايس» في الدَين، أُقفِلَتْ غرفة القراءة. وبقيَ الاهتمام بافتتاح مكتبة في البلدة، وفي عام 1872، تشكّلتْ رابطة من أجل تأسيس مكتبة عامة في المدينة. ولكي تجمع الرابطة المال اللازم، قامت برعاية «حفلة لديكنز»، ارتدى كل مشترك فيها شخصيته المُفضّلة من شخصيات روايات تشارلز ديكنز. واستمرّت الحفلة أسبوعاً كاملاً. وتمَّ شراء كتابَي «*تلميحات إلى مربّي الخيول*» و«*عن تربية الأفنان*» من عائدات الحفلة.

أول شيء احتاجت المكتبة إليه هو مبنى. وافق عضو في رابطة المكتبة اسمه جون داوني على وهب مساحة في المبنى الذي يملكه، مبنى داوني، في قلب المدينة. والمبنى يضمّ مكاتب وساحة خارجيّة حيث كانت تجري مزادات العمال والعبيد. كان مسموحاً بالعبوديّة في ظل قانون كاليفورنيا لعام 1850 الذي سمح للبيض بشراء أطفال سكان أميركا الأصليين كـ«عمال مبتدئين» وبـ«المزايدة» على الأميركيين الأصليين الذين اعتُبِروا «مُشرّدين»، وأجبروهم على العمل بأقلّ من سِعر المزاد. (والقانون، المعروف بأنه لمصلحة الحكومة ولحماية الهنود، لم يُلغَ بشكل كامل حتى عام 1937)

فتحت المكتبة أبوابها في عام 1873. وكانت قيمة العضويّة تبلغ خمسة دولارات في العام. وفي ذلك الوقت، كان الدولار يمثّل أجر العامل العادي لبضعة أيام، لذلك كان الأثرياء فقط قادرين على الانتساب إليها. وكانت القواعد المُتّبعة متسلّطة وفظّة. كان يطلَب من الرجال أنْ يخلعوا قبعاتهم، ويُنصَح مرتادو المكتبة بعدم قراءة الكثير من الروايات، لئلّا يتحوّلوا إلى ما صنّفتهم الرابطة بأنهم «عفاريت القصص». والكتب التي اعتُبِرَتْ ذات «تأثير أخلاقي مُريب، أو قذرة، أو رديئة التأليف، أو فضفاضة» كانت تُستثنى من المجموعة. ولم يكن يُسمَح للنساء باستخدام التسهيلات الرئيسيّة، ولكن سرعان ما أُضيفَتْ «غرفة خاصّة بالسيدات» مزوّدة بمنتخبات من المجلات بعد افتتاح المكتبة. أما الأطفال فكانوا ممنوعين تماماً من دخول المكتبة.

المساحة المُخصَّصة في مبنى داوني كانت مؤلَّفة من غرفة للقراءة مزوَّدة بطاولات طويلة وبكراسٍ معتدلة الظهر. وكانت هناك غرفة صغيرة للإيداع حيث يودِع الروّاد قبعاتهم ومظلاتهم؛ وأحياناً، كان الناس يودِعون دجاجاً، وبطاً، ودجاجاً رومياً. وعلى الرغم من الترحيب الذي لقيته المكتبة الجديدة فإنَّ العديد من الناس أبدوا قلقهم من أنَّ تقاسُم الكتب وتقارب الأحياء قد ينشر الأمراض. كانت المساحة «مزدحمة وغير مناسبة... وتشكّل تهديداً للحياة» وِفقاً لصحيفة لوس أنجلوس هيرالد. وفي ذلك الوقت، كانت أمراض الإنفلونزا، والجُدري والتيفوس منتشرة في المدن. وأخبر أحد مسؤولي المدينة صحيفة لوس أنجلوس تايمز أنَّ كل مَنْ يستعير كتاباً خارجيّاً ويعلم أنّ شخصاً ما في عائلته أو عائلتها مصاب بمرضٍ مُعدٍ فإنّه بذلك يرتكبُ «ما يُعادل الجريمة»

أول أمين مكتبة في لوس أنجلوس كان رجلاً صارماً مُصاباً بالربو اسمه جون ليتلْفيلد. كان يكره الأماكن المزدحمة أكثر من أي شخص، وكان يخرج من غرفة القراءة كلما تمكن من ذلك لكي يختبئ في غرفة مكتبه ويُدخّن مزيجاً طبيّاً من عشبة الداتورة[1] لكي يُهدّئ الألم عن صدره. ووفقاً لأحد التقارير المُبكّرة للمكتبة، كان لجوء ليتلْفيلد إلى التدخين أمراً غير مألوف بالنسبة إلى مرتادي المكتبة. يقول التقرير «عندما كان [ليتلْفيلد] يسعل ويُصدر أزيزاً وغرغرة ويُدخّن، كانت الأدخنة ذات الرائحة الشنيعة لـ[الداتورة] المُحترقة تنتشر في أرجاء المؤسّسة كلها وتكاد تخنق كل الموجودين فيها». في العموم، بدا ليتلْفيلد مُرهَقاً، ونادماً، ويتعذّب. وكلّما استُدعيَ إلى خارج غرفة مكتبه، كان يتمتم، «إنْ كان لابد من ذلك، فلابد منه»، ويتبع ذلك أنينٌ مسموع. وقد نجحَ بصورة ما في أنْ يستمر في منصبه على مدى ستة أعوام. وخلِفه رسّامٌ سكّير اسمه باتريك كونولي لم يستطع أنْ يستمر عاماً واحداً إلّا بصعوبة.

لم تكن ميري فوي تتجاوز الثامنة عشرة عندما حلّتْ محل كونولي. ولمّا كان من المُدهِش أنْ تُقبَل تلك الشابة الصغيرة لشغل ذلك المنصِب،

1- الداتورة: عشب شائك سامّ.

فإنَّ المفاجأة الأكبر هي أنَّ الذي احتل ذلك المنصِب كان امرأة، بما أنّه في عام 1880 كانت المكتبة لا تزال منظّمة يُديرها، ويرتادها، الرجال. لم يكن قد سُمِحَ بعد للنساء بالحصول على بطاقات انتساب للمكتبة وكان يُسمح لهنّ فقط بدخول الغرفة المُخصّصة للنساء. لم تكن هناك في البلد كلّه مكتبة ترأسها أمينة مكتبة أنثى، وفقط رُبع مُستخدمي المكتبات الأميركيين كلهم كانوا من النساء. كان لا يزال يفصلهم عن السماح للنساء بنيل عضوية المكتبة مقدار عقدٍ من الزمان.

تبيَّنَ أنَّ فوي إداريّة صارمة وفعّالة، على الرغم من صِغَر سنّها إلى درجة أنَّ والدها كان يُضطرّ إلى السير معها من المنزل إلى مقرّ عملها في كل يوم. لم يكن للمكتبة فهرس، لكنَّ فوي كانت تعرف المواد إلى درجة أنه كان في وسعها أنْ تعثر على أي شيء على الرفوف خلال دقائق. كانت تسعى إلى تحصيل الغرامات المتأخّرة بإلحاح، وتضعها في كيس نقود من الجلد المدبوغ تُحيط به عنقها ويتدلّى على صدرها كحزام طلقات الرصاص. وكان البالغون من الروّاد الرجال يحترمونها. ومن بين مسؤولياتها الاعتياديّة كان الحكم في مباريات الشطرنج والداما التي كانت تجري بينهم طوال النهار في غرفة القراءة. وكانت أيضاً تُدير باستمرار الرهانات التي تجري بين المترددين الذين يتجادلون حول مسائل تافهة.

ربما كان يمكن لميري فوي أنْ تستمر كأمينة مكتبة طوال سنين عديدة، ولكن عندما ترك المحافظ الذي عيَّنها منصبه في عام 1884، صوّتت الهيئة الإداريّة للمكتبة على خلعها من منصبها. والسبب الذي أوردته كان أنَّ والد فوي في وضعٍ ماليّ جيّد بحيث يستطيع أنْ يُنفِق عليها؛ وافترضَتْ أنها لم تعُد تحتاج إلى العمل. وزيادة على ذلك، كان هناك مدير مزرعة اسمه ل. د. غافيتْ قد توفيَ تواً، وكانت ابنته جيسي في أمسّ الحاجة إلى العمل، ولذلك قرّرت الهيئة الإداريّة أنْ تعيِّنها في ذلك المنصِب. وتركت فوي العمل محتجّة وكتبتْ نقداً لاذعاً لإدارة المكتبة نشرته في الصحيفة فور مغادرتها. ثم انتقلتْ لتُصبح مُدرِّسة ومُدافعة عن حقوق المرأة.

***

أدارت غافيت ومن بعدها خليفتها، ليديا بريسكوت، المكتبة بهدوء ومن دون وقوع أيّ حادث. وفي عام 1889، عُيِّنَتْ مُراسِلة صحيفة من أوهايو اسمها تيسّا كيلسو في المنصِب. كانت كيلسو عريضة الكتفين وكبيرة الصدر، تقصّ شَعرها قصيراً، وكانت تخرج وتظهر مكشوفة الرأس علناً – وهذا تصرّف صاعِق بالنسبة إلى وقتٍ كانت النسوةُ فيه يرفعنَ شعورهن الطويلة عالياً على شكل كعكة أو عقدة على قمة الرأس ولا يظهرنَ أبداً في الشارع من دون قبّعة. وكانت كيلسو عزباء وتدخّن السيجار. وكان الناس يُشيرون إليها بوصفها «متمرّدة». وكانت شديدة الذكاء وممتلئة بالحيويّة حتى إنّها أقنعَتْ الهيئة الإدارية بتعيينها على الرغم من أنّه لم تكن لديها خبرة عمل خِلاف قيامها ذات يوم بتغطية مؤتمرٍ في المكتبة لمصلحة الصحيفة التي كانت تعمل فيها.

رأتْ كيلسو أنَّ المكتبة متخلّفة وتحتاج إلى تحديث. فألغتْ قيمة رسم العضويّة. وفي الحال، ارتفعَ عدد حاملي بطاقات العضويّة من أكثر قليلاً من مائة شخص إلى عشرين ألفاً. ونقلتْ مُعظم الكتب إلى رفوف مفتوحة وسمحت للأطفال الذين تتجاوز أعمارهم الثانية عشرة باستخدام المكتبة إذا كانوا قد حصلوا على درجة متوسطة في الامتحانات هي تسعون. وعيَّنتْ «محطات توزيع» هي نسخ مبكِّرة من فروع المكتبة في المناطق النائية حيث يستقر المُهاجرون. ونقلت المكتبة من غرفها المزدحمة في مبنى داوني إلى مساحة أرحب في مبنى البلديّة الجديد. وكانت تأمل في أنْ تتوسَّع المكتبة بوجود المساحة الإضافيّة وتبدأ بإعارة ما هو أكثر من الكتب؛ كانت تفكّر في تخصيص غرفة لتخزين مضارب لعبة كرة المضرب، وكرات القدم، «ألعاب داخليّة، ومصابيح سِحريّة، والمعدّات الكاملة للتسليّة الصحيّة والآمنة التي... تكون بعيدة عن متناول الفتى والفتاة العاديّين». كانت تؤمن بأنَّ المكتبة يمكن أنْ تكون أكثر من مجرّد مستودع للكتب؛ وشعرتْ بأنها ينبغي أنْ تكون «مركز التسلية والتثقيف في المدينة». هذا الطموح لم يتحقَّق في أثناء شَغلها منصبها، لكنّه توقَّع الفكرة الحديثة لِما يمكن أنْ تكون عليه المكتبة قبل حدوثه بما يُقارب المئة عام.

على الرغم من أنَّ كيلسو لم تتدرَّب على ممارسة عملها كأمينة مكتبة،

فإنها طلبتْ طاقماً مُدرَّباً تدريباً عالياً. وعيَّنت نائبة عنها امرأة اسمها أديلائيد هاسّه، كانت بطلة في سباق الدراجات في لوس أنجلوس بالإضافة إلى كونها أمينة مكتبة متخصّصة، وأسّستا مدرسة في عِلم المكتبات - وهي من أوائل برامج المكتبة على الشاطئ الغربيّ. واشتهرت المدرسة بصرامتها. وكانت ردّة أفعال عدد من الطلاب على تعرّضهم للضغط الأكاديميّ هي إصابتهم بنوبات من الإغماء والانهيار العصبيّ. وفي عام 1898، توفيَتْ طالبة اسمها كورين وايز فجأة. وعزا بعض الأشخاص وفاتها إلى قلقها المُفرِط من امتحاناتها. ورفضَتْ كيلسو هذا الافتراض بوصفِه هراءً بل وأوقفتْ طالبَين بسبب الإشاعات التي نشراها عن وفاة وايز.

عندما وصلتْ كيلسو إلى منصبها، كان عدد مجموعة كتب المكتبة لا يتعدّى الاثني عشر ألف كتاب. وحصلتْ على كتبٍ جديدة، وخلال شغلها منصبها، تزايد عدد كتب المجموعة إلى الثلاثمائة ألف. وفي عام 1893، وقَّعَتْ كيلسو على طلب شراء عدد كبير من الروايات، من بينها رواية من تأليف الكاتب الفرنسي جان ريشبان. وكان معروفاً أنَّ أعمال ريشبان، الخاضع لتأثير بودلير، تتسِم بنبرة إباحيّة بغيضة. وبعد أنْ نشر ريشبان روايته «*أغنية الشحّاذين*» في عام 1876 أُدينَ وحوكِمَ في المحاكم الفرنسيّة بتهمة الوقاحة الفظّة. وعندما أرسلتْ كيلسو في طلب رواية «*المبتدئ*»، كان ريشبان قد حظيَ بمقدارٍ من الترحيب في أوروبا، لكنَّ عمله كان لا يزال يُعتبَر صادِماً في الولايات المتحدة.

وقَّعَتْ لجنة الكتاب في المكتبة على عقد شراء رواية «*المبتدئ*»، ولكن من غير الواضح إنْ كان أي عضو في اللجنة على عِلم بما تحتويه الرواية. أولاً، لا أحد منهم كان يُحسِن الفرنسية، وربما كان الكتاب واحداً من كثير ضمّتها لائحة لم يمرّوا عليها إلّا مرور الكِرام. ووصلت رواية «*المبتدئ*» إلى المكتبة بلا أي ضجيج. مرّت بالإجراءات الاعتياديّة ووُضِعَتْ على الرف كأي كتابٍ آخر وربما بقيَتْ من دون أنْ تلفت انتباه أحد على مدى عقود. لكنَّ مُراسل صحيفة *لوس أنجلوس إكزامينر* اكتشف وجوده ببراعة، وكان على دراية بسُمعة ريشبان الشائنة. وقد تسبَّبت المقالة التي كتبها المُراسِل عن الكتاب في حدوث هياج. وعلى الأثر ظهر عدد من الافتتاحيات المنتقدة في

الصحف المحليّة، طالبتْ كيلسو بإصدار حُكمها في الأمر. وأبدى رئيس أول كنيسة منهجيّة في لوس أنجلوس، المحترم ج. و. كامبل، اعتقاده بأنَّ كيلسو كانت تُحابي الشيطان، فأقام صلاةً عامّة لخلاص روحها. قال كامبل في عِظته «يا رب، امنح بركتك المُخلِّصة لأمينة مكتبة لوس أنجلوس سيتي - وطهّرها من كل إثم، واجعلْ منها امرأة جديرة بمنصبها»

تركت كيلسو «*المبتدئ*» على الرف ومن ثم اتخذتْ ما سمّته صحيفة *لوس أنجلوس تايمز* «خطوة جديدة حازمة واستعراضيّة» -أي، أقامت دعوى على المحترم كامبل بتهمة القذف والافتراء. وادّعتْ أنَّ شجبه هو تدخّل في مقدرتها على أداء واجبها وأنها لم تكن تعلم أنَّ رواية «*المبتدئ*» مُثيرة للجدل. وزيادة على ذلك، أشارتْ إلى أنَّ لجنة الكتاب، وليس هي، تقبَل كل ما يصلها. وأشارت في دعواها إلى أنها لا تنتمي إلى المذهب المنهجي، لذلك من المُشين جداً بالنسبة إلى كاهن منهجيّ أنْ يُدينها. وطلبتْ مبلغ خمسة آلاف دولار تعويضاً عن الأضرار- ويُساوي بعملة اليوم مبلغ 140,000 دولار.

ودارت القضية والتفَّت حول موضوع حريّة التعبير طوال أشهر. وادَّعتْ كيلسو أنَّ الحصول على الكتاب كان تعبيراً عن حريّتها في التعبير. وادّعى المحترم كامبل أنَّ حقّه بالصلاة من أجل راحة شخص ما هو إلا تعبير عن حرّيته هو في التعبير. ومع تقدُّم القضيّة، بدا أنَّ حريّة المحترم كامبل في التعبير كانت لها اليد الطولى أخلاقيّاً، على الرغم من أنَّ المحكمة اتّخذتْ قرارها لمصلحة كيلسو على أساس أنَّ كامبل قصدَ حقاً أنْ ينتقص من قدرها. واستقرّت الكنيسة على مبلغ لم يُعلَنْ، لكنَّ الانتصار كلَّفَ كيلسو أكثر من ذلك بكثير: فلم يعُد الرأي العام ولا هيئة المكتبة الإداريّة يقفان في صفّها بعد ذلك.

بعد دعوى كيلسو ضد كامبل، رفعَتْ دعوى ضد المدينة، قائلة إنه لم يسبق لها أنْ تلقَّتْ تعويضاً عن تكاليف تكبّدتْها عندما سافرتْ لحضور مؤتمر عن المكتبة. وتلقَّتْ قيمة التعويض، لكنَّ حماسها للمُقاضاة تخلّى عنها أخيراً، وحالما تمَّ البتُّ في تلك القضيّة، ألحّتْ هيئة المكتبة الإداريّة عليها لكي تترك منصبها. فرفضتْ، قائلة إنها لطالما أحسنت العمل في

المكتبة، لكنَّ الإدارة أصرَّتْ وكان لها ما أرادتْ. وتابع أهل المدينة بأكملها شؤون المكتبة كلها، وهكذا انتشر خبر إجبار كيلسو على الاستقالة بين العامة. وأعلنت الصفحة الافتتاحية لصحيفة *لوس أنجلوس تايمز*، «انتهى الأمر! انتهت معاناة قضيّة المكتبة. وعُقِدَ اجتماع خاص للهيئة الإداريّة... بعد ظهيرة يوم أمس بغرض خلع الآنسة كيلسو عن منصبها بمراسيم كاملة»

بعد رحيل كيلسو، اندفعت المكتبة في تقدّمها تحت الإشراف الهادئ للمديرين كلارا بيل فاولر وهارييت تشايلد وادلاي. ونمَتْ واستمرّتْ في النموّ ومن ثم تجاوزت في نموها زوايا في بلديّة المدينة بدتْ في أول الأمر واسعة ورحبة. أصبحت المكتبة أشبه بدار للمجانين. كان مرتادوها يتزاحمون على طاولات القراءة. وتناثرت الكتب خارج الرفوف وبعيداً عن الطاولات وتراكمت على الدَرَج وفي العليّة. بعضها تهرَّأ في الطابق تحت الأرضي. وبإلحاحٍ من هارييتْ وادلاي، أصدرت الهيئة الإداريّة نداءً لجمع تبرعات من أجل إنشاء مكتبة جديدة مُستقلّة، ولكن لم يستجِب أحد. وظهرت في صحيفة لوس أنجلوس هيرالد مقالة تحت عنوان «نريد مكتبة جديدة. والجواب لا تمويل يلوح في الأفق»

تمدَّدت المكتبة مع تمدُّد المدينة. كانت لوس أنجلوس تزدهر وتمتد. وفي عام 1887 وحده، باع ألفا وسيط عقارات في المدينة. وكانت سكة حديد جنوبيّ المحيط الهادئ وسكة حديد سانتا فِه تخوضان حربَ أسعار، وعند نقطةٍ ما، أصبحت قيمة بطاقة الانتقال بالقطار من شيكاغو إلى لوس أنجلوس لا تكلّف أكثر من دولارٍ واحد، وهو إغواء لا يكاد يُقاوَم للتوجّه غرباً. كان الخط الحديديّ يختصر المسافة الهائلة، المترامية عبر البلاد إلى بضعة أيام. واندفع مئات الآلاف من الناس إلى كاليفورنيا. وعلى امتداد ربع القرن التالي، برهنَ ذلك على كونها أكبر عمليّات الهجرة الداخليّة في تاريخ الولايات المتّحدة.

***

في عام 1898، عثر زوج هارييت وادلاي على عِرق ذهب في بستان البرتقال في فناء بيتهما الخلفيّ، وفي عام 1900، قرّر الزوجان أنْ يذهبا

في إجازة دائمة. كان التوقيتُ مُريباً، بما أنَّ وادلاي كانت مرتبطة بهيئة إدارة المكتبة. وكانت بديلتها، ميري ليتيتا جونز، أول أمينة مكتبة مدينة في لوس أنجلوس قد تخرَّجتْ من مدرسة المكتبات. وقبل مجيئها إلى لوس أنجلوس، أدارت جونز مكتبات في نبراسكا وإلينويز، حيث حظيَتْ بالمديح على دماثتها وحِرفيتها. كانت جونز رقيقة الشفتين وطويلة القامة وتسرِّح شعرها الأشقر على شكل كعكة تتجمَّع على قمّة رأسها أضافتْ ست بوصات إلى طولها. كانت جادَّة، ومؤهّلة، ومُبتكِرة بأسلوبها الهادئ. وباشرت عملها بتخفيض الحد الأعلى لسن الأطفال المسموح لهم بارتياد المكتبة بمقدار سنتين، وسمحتْ لذوي سن العاشرة بارتيادها. وجنَّدتْ أمناء للمكتبة من الأميركيين الأفريقيين للعمل في الفروع في أحياءٍ ذات عدد سكان كبير من السود وشجّعتهم على تكوين مجموعة من الكتب تدور حول «تجربة السود». وازدهرت المكتبة. كانت توزّع سنويّاً حوالي أربعمائة ألف كتاب عندما استلمت جونز الوظيفة. وبحلول عام 1904، تضاعفَ تقريباً ذلك العدد.

لم يحبِّذ الجمهور العريض حقاً قيمة المكتبات العامة حتى نهاية القرن التاسع عشر. قبل ذلك، كان يُنظَر إلى المكتبات بوصفها خاصّة بالمثقفين وبالنخبة، وليس بكونها منبعاً عاماً ديمقراطيّاً ولا غِنى عنه. وكانت لا تزال هناك مكتبات عامة تتلقّى رسوم عضوية. وبدأ التغيُّر في الموقف مع النزعة الخيريّة لرجل الأعمال الاسكتلنديّ أندرو كارنيغي، الذي أطلقَ مشروع إنشاء مبنى مكتبة في عام 1890. كان كارنيغي قد وُلِدَ في اسكتلندا ومن ثم هاجر إلى الولايات المتحدة. كان والده نسّاجاً، وكانت أحوال العائلة تتأرجح بين الفقر والوضع المُريح باعتدال طوال فترة طفولته. عندما أصبح فتى صغيراً، لم يكن لديه إلّا القليل من النقود يوفّرها؛ على سبيل المثال، لم يكن يستطيع أنْ يدفع دولارين رسم عضوية في المكتبة المحليّة. وأخيراً، جمع ثروة من الفولاذ وسكك الحديد، وفي وقت من الأوقات أصبح أشد الرجال ثراءً في العالم. ومع بلوغه منتصف العمر، قرَّر أنْ يُكرِّس الثلث الأخير من حياته لوهب ماله. كانت خيبة أمله في عدم تمكّنه من دفع رسم الانتساب إلى عضوية المكتبة المحليّة قد صَدَمته، واختار أنْ تكون المكتبات هي أحد

المُستفيدين الرئيسيّين من إحسانه. وقدَّم مبالغ ضخمة لإنشاء مكتبات في أوساط اجتماعيّة تلتزم بدعم تلك المكتبات بعائدات الضرائب. وبدأت المدن والبلدات تسعى إلى الحصول على تمويل كارنيغي، وكان لعمليّة التطبيق تأثير حشد الاهتمام ودعم المكتبات العامّة. وانتهى الأمر بكارنيغي إلى إنشاء ما يُقارب 1,700 مكتبة في 1,400 وسط اجتماعي. وموَّلَ ست مكتبات صغيرة في لوس أنجلوس، أُضيفَتْ إلى المنظومة الرئيسيّة كفروع.

مع قضائها عامها الخامس في منصبها، أصبح لدى ميري جونز سببها الخاص لاعتبار عملها مضموناً. ونوَّه التقرير السنوي للهيئة الإداريّة بإنجازها الجيد. وفي شهر حزيران من عام 1905، حضرتْ جونز اجتماع الهيئة الإداريّة الشهريّ. وبعد اكتمال العمل الجاري إنجازه، التفتَ رئيس الهيئة، وهو مُحامٍ اسمه إيزيدور دوكوايلر، إلى جونز وطلب منها أنْ تستقيل. ووسط انشداه جونز شرح دوكوايلر الأمر قائلاً إنَّ الهيئة الإداريّة تعتقد أنَّ من مصلحة الجميع أنْ يقوم رجلٌ بإدارة المكتبة. وكان يفكِّر مُسبقاً باسم ذلك الرجل – كان صحفيّاً، وشاعراً، ومُحرِّراً، ومؤرِّخاً، ومُغامراً اسمه تشارلز فلتشر لميس.

حتى بمعايير ذلك الزمان، كان طرد جونز من عملها أمراً مُحيِّراً. فالنساء يُدرن المكتبة في لوس أنجلوس منذ عام 1880، ويُهيمنَّ على المؤسّسة قبل أنْ تقوم مُعظم المكتبات في أرجاء البلاد بتعيين نساء. وخِلافاً لكيلسو، لم تكن جونز مُثيرة للجدل. والإشاعة الوحيدة التي لاحقتها كانت أنَّ دوكوايلر، الذي كان مُرشّحاً لمنصب نائب حاكم وأباً لثلاثة عشر طفلاً، تودَّد إليها، وأنها صدَّته.

الشخصيات الأولى في حركة إنشاء المكتبة الأميركيّة كانت من الرجال، ومعظمهم من العائلات الثريّة في نيو إنغلند، الذين حصلوا على العضوية كشكلٍ من أشكال العمل التبشيريّ، لينقلوا الحِكمة إلى الجماهير الجاهلة. كانت هناك بعض أمينات المكتبة من النساء، لكنّهنّ كنَّ أقلّيّة بلا سلطة يقمن في المعتاد بأدوار ثانويّة. وعندما تأسّستْ رابطة المكتبة الأميركيّة في عام 1876، كانت نسبة المؤسّسين تبلغ تسعين في المئة من الرجال وثلاث عشرة امرأة. وبعد ذلك بأحد عشر عاماً، تأسّستْ أول مدرسة للمكتبات على

يد ملفيل ديوي، مُبتكر نظام ديوي العَشريّ. وجذبت حِرفيّة هذا المجال المزيد من النساء، وقُبِلنَ في وقتٍ كانت الأعمال المُتاحة للنساء قليلة. زيادة على ذلك، كان كثير من المكتبات تمولها نوادٍ للنساء، مما جعلها أكثر قبولاً للمستخدمات من النساء. لكنَّ ما جذب حقاً النساء إلى ذلك المجال هو النمو الهائل للمكتبات في نهاية القرن التاسع عشر، الذي توَّجته قُدوة كارنيغي. وبدأت الأوساط الاجتماعيّة في أرجاء البلاد تبني المكتبات بسرعة. وذلك الانتشار الواسع كان يعني أنَّ هناك حاجة مُلحّة للمزيد من المكتبات. وفي ذلك الوقت، كان أحد دروب العمل القليلة المفتوحة أمام النساء هو التدريس، وكان الانتساب إلى عضوية المكتبة خطوة جانبيّة طبيعيّة. ولأنَّ الحاجة إلى أمناء المكتبات كانت شديدة جداً، كانت مقاومة الذكور لفتح المناصِب تتغلَّب عليها الحاجة المُلحّة لمزيد من العناصر الإداريّة. وإضافةً إلى ذلك، وكما أوحى عنوان أحد المقالات التي صدرت في عام 1876، «كيف نجعل من مكتبات البلدات مشروعاً ناجحاً»، حتى عندما كانت النساء الحاصلات على ثقافة عالية ينلن رواتب أقلّ من رواتب أمناء المكتبات من الذكور كنَّ مع ذلك يقبلن العمل.

***

كان تشارلز لميس قد وصلَ إلى لوس أنجلوس في عام 1885، وعَرَضَتْ صحيفة لوس أنجلوس تايمز عليه منصِباً فيها. في ذلك الوقت، كان لميس مُراسلاً صحفيّاً في أوهايو. وقبِلَ العرض وحزم أمتعته. ثم قرَّرَ أنْ يقطع المسافة بين أوهايو وكاليفورنيا سيراً على الأقدام. والملابس الأولى التي ارتداها لميس في رحلته كانت بنطلوناً قصيراً، وقميصاً من الفانيلا، وجورباً يصل حتى الرُّكبتين أحمر بلون البندورة، وحذاء للسير في الشارع قصير العنق، وارتدى معطفاً من قماش القنّب مزوَّداً بثلاثة وعشرين جيباً، ملأها بطُرَف غريبة متنوعة كان يلتقطها طوال الطريق، من بينها قطع ذهبيّة، قرون غزلان، تبغ، حجارة جميلة، جلد أفعى مُجلجلة. وفي منتصف الطريق إلى كاليفورنيا، بدَّلَ بنطلونه القصير بكساء للساقين من جلد الغزال. بعد وصوله إلى لوس أنجلوس، استمرَّ لميس في ارتداء ملابس لا تتلاءم مع ذكر أبيض في ثمانينيات القرن التاسع عشر. وكانت الملابس المُفضّلة لديه معطفاً

بثلاثة أزرار وبنطلوناً مصنوعاً من الجوخ بأضلاع عريضة خضراء اللون برّاقة، كان يرتديه مع حزام أحمر وأسود. والملابس التالية المُفضّلة لديه كانت سترة فضفاضة قصيرة من الجلد المُزأبر وبنطلوناً واسعاً من الأسفل وضيّقاً جداً حتى لا يكاد المرء يتخيّل كيف حشر نفسه فيه. وكان دائماً تقريباً يعتمر قبعة سومبريرو ستيتون عريضة الحواف وحذاءً خفيفاً. وظل يرتدي هذه الملابس حتى آخر حياته، بما فيها السنوات الخمس التي عمل خلالها أمين مكتبة لوس أنجلوس.

في العموم، كان مظهر لميس لافتاً للنظر. كان صاحب وجه بيضاويّ، طويل، وذا تحديق شرس، وأنفٍ مُدبَّب، وفم صغير. كان ضئيل الحجم ملفوف العضل، كعضلات مُصارع متينة، ومشدودة. وُلِدَ في لين، ولاية ماساتشوستس، في عام 1859. والده الأرمل كان كاهناً منهجيّاً صارماً لا يلين، وأراد أنْ يُنشئ أولاده ليكونوا مثله صارمين لا يعرفون اللين. وتمرَّد لميس حالما أصبح في مقدوره أنْ يُفلِت من قبضة والده. وذهب إلى هارفرد ليلتحق بجامعتها ويتعرَّف على تيدي روزفلت. ولم يكد لميس يُحصّل أي قدرٍ من المعرفة الأكاديميّة، لكنّه كان معروفاً بسمعته كمُصارع ممتاز، وملاكم، ولاعب بوكر. وكان أيضاً مشهوراً بأنّه صاحب أطول شَعر في الجامعة. وكان كثير من الطلاب يعتبرون شَعر لميس شيئاً مُشيناً. وعندما كان في السنة الجامعيّة الثانية، نشرَ الطلاب المتقدّمون تحذيراً في صحيفة الطلاب يقولون إنّه إذا لم يقصّ لميس شَعره، فسوف يُحضرون مِقصّاً ويقصّونه له بأنفسهم.

لم يكن لدى لميس أيّ ميل إلى التعليم التقليديّ، لكنّه كان يقرأ ويكتب بغزارة ونهم، خاصة الشِعر. وفي صيف عامه الدراسي الأول، قرَّر أنْ ينشر قصائده. ورأى أنَّ الكتاب الورقيّ سوف يكون أمراً عاديّاً بشكلٍ مفرِط، لذلك فكّرَ في أنْ يطبع قصائده على لحاء شجر البتولا. فأحضَرَ كميّة من لحاء البتولا وصقله حتى أصبح شبه شفّاف، أشبه بالورق. وقام بنفسه بخياطته على شكل كتاب. الكتاب جميل، فريد من نوعه، خفيف كالغبار، وصغير الحجم – بحجم علبة حبوب الدواء. والكثير من القصائد هي تأمّلات لميس في بهاء طبيعة نيو إنغلند، لكنَّ أكثرها شيوعاً كانت أغنية إلى التبغ، وهي من انفعالات لميس الكبرى؟ عنوانها «سيجارتي»، وتبدأ كما يلي:

سيجارتي! هل أنسى
كيف جلسنا أنا وكيت،
في الطقس المُشمس،
في ظلال شجرة الدردار،
وصنعنا سجائر الحشيشة العطرة معاً...

كان لميس موهوباً في الشِعر، لكنَّ موهبته الأكبر كانت في الترويج لنفسه. أرسل نُسخاً من «*قصائد لحاء البتولا*» إلى الصحف والمجلات. ونجح في إيصال كتابه إلى يديّ الشاعرَين والت ويتمن وهنري لونغفيلو، ومدحاها كلاهما. وانتهى الأمر بكتاب لميس الصغير إلى أنّه بيع منه آلاف النسخ، وهو عدد مُذهل بالنسبة إلى شِعرٍ كتبه طالب جامعة حديث العهد.

بعد نشر «*قصائد لحاء البتولا*»، فقدَ لميس كل اهتمام بالجامعة. وترك هارفرد وأخبر أصدقاءه بأنّه سوف يُصبح صحفياً. ثم، ومن دون سابق إنذار، تزوّج من صديقته، طالبة الطب دوروثيا رودس، وانتقل للعيش في مزرعة عائلتها في أوهايو. ووِفقاً لِما ورد في كتاب مارك طومبسون «*شخصيّة أميركيّة: الحياة الغريبة لتشارلز فلتشر لميس وإعادة اكتشاف الجنوب الغربيّ*». وقام لميس بإدارة شؤون مزرعة رودس في أثناء بحثه عن فرص للكتابة. وفي غضون عامٍ، عُرِضَ عليه كتابة عمود في صحيفة محليّة. وأصبح العمود رائجاً جداً إلى درجة أنّه وصل إلى انتباه هاريسون غاري أوتيس، ناشر صحيفة *لوس أنجلوس تايمز* التي كانت قد تأسستْ حديثاً، وأقنعَ لميس بالانتقال إلى لوس أنجلوس لكي يكتب لمصلحة صحيفته.

***

أحبَّ لميس أنْ يقول إنّه انتقل سيراً على قدميه إلى كاليفورنيا سعياً وراء «المتعة والمعلومات». كان خجلاً من كونه لا يعرف إلّا القليل عن أميركا، واعتقد أنَّ عبورها سيراً على قدميه هو الحل. ثم إنَّ السير الطويل يُناسِبه: كان قلقاً، وفضوليّاً، ومتحمّساً للتحدّي الجسدي. وكان سعيداً بفراره من الساحل الشرقي البورجوازي. لقد بدا له الغرب خشناً وأصيلاً، مكاناً

يستطيع فيه أنْ يبتكر نفسه في الحال – إنّه المكان الذي لن يُلاحقه فيه أحد شاهراً مِقصّاً إذا ما أطال شَعره. لقد رأى لميس في السير إلى لوس أنجلوس، الذي سمّاه «تسكّعي» رحلة ضروريّة. كانت الأولى من عديد سوف يقوم بها في حياته.

وكان تسكّعه أيضاً أداءً مسرحيّاً –نوعاً من الشكل البارع، كطبع قصائده على لحاء البتولا. كان يعلم أنّه إذا وصل إلى كاليفورنيا سيراً على قدميه، وليس بالأسلوب النموذجيّ، فسوف يجذب الانتباه. وقبل مغادرة أوهايو، أقنعَ صحيفةً محليّة بنشر يوميات رحلته، التي كان سيسجّلها على شكل رسالة أسبوعيّة. وكان عموده الأول تحت عنوان لافت للأنظار «ساقا لميس: كيف تقيسان المسافة بين سينسناتي ولوس أنجلوس. لقد قطعتا حتى الآن ثلاثة وستين ميلاً ولم يتبقَّ غير ثلاثة آلاف ومائة وسبعة وثلاثين لتقطعاها». كانت الأعمدة مُضحكة وذات طبيعة ثرثارة وتعجّبيّة. ووصفَ فيها التحدّي البسيط لقطع ثلاثين ميلاً في اليوم، وما شاهده واختبره في أثناء سيره– وما اصطاد من طيور ومن أسماك، والأشخاص الذين قابلهم، وأوجاعه العديدة وآلامه، والإثارة التي شعر بها لدى مقابلته رعاة بقر حقيقيين. وبعد أنْ قطع نصف البلاد، وصفَ انبهاره الجديد بالجنوب الغربيّ وبثقافة الأميركيين الأصليين.

كانت الرحلة شاقّة. فقد تعرَّضَ للسرقة على أيدي الأفّاقين في ميسوري وشقَّ طريقه بصعوبة خلال الثلوج في الممرات الجبليّة في نيو مكسيكو. وفي أريزونا، سقطَ عن صخرة بارزة وكسرتْ ذراعه، بحيث اضطرَّ إلى تضميدها باستخدام أغصان أشجار وبمُزقٍ من القماش. (لاحقاً قال إنّه نجا من كارثة حقيقيّة لأنّه تعلَّم لفّ السجائر بيدٍ واحدة). ومرّت عليه أوقات لم يتبقَّ معه إلّا أقلّ القليل من الأكل والشرب. وبقيَ وحده في معظم مسافة الرحلة. وفي كولورادو، تبنّى جرو كلب صيد منبوذاً سمّاه الشبح. وأحبَّ رفقة الشبح، ولكن بعد بضعة أسابيع، أُصيبَ الكلب بداء الكَلَب، واضطرَّ لميس إلى قتله بإطلاق النار عليه.

على الرغم من التحديات التي واجهها، فإنَّ ذلك كان أفضل أوقات حياته. كان حرّاً، يعيش معتمداً على قُدراته، تكتنفه التخوم، ويتنابه مع قطعِ

كل ميل شعورٌ جديدٌ أو يشاهد شيئاً جديداً. لقد شعر بأنّه حيّ. واقتنعَ بأنّ السير على القدمَين يُفيد روحه. وكان ذلك حتماً جيداً لشعبيته. كان عموده الصحفيّ يُنشَر في عددٍ من الصحف عبر البلاد. وكانت صحفٌ أخرى تغطّي رحلته بوصفها جزءاً من الأخبار العامة. وتجمّعت الحشود لكي تشهد مروره. وأحياناً عندما كان يجتاز البلدات، تقوم عدّة مئات من الأشخاص بتحيته. ومع وصوله كاليفورنيا، كان قد أضحى شخصيّة مشهورة.

-13-

«زوايا غريبة من بلدنا: عجائب الجنوب الغربيّ» (1906)
تأليف لميس، تشارلز فلتشر
987 L958-3

«عشرون ألف فرسخ تحت البحر» [مصادر الصوت] (2003)
تأليف فيرن، جول
كتاب صوتي إلكترونيّ.

«قرنٌ من الكفاح: حركة حقوق المرأة في الولايات المتحدة» (1968)
تأليف فليكسنر، إلينور
324.373 F619

«موسوعة الأمم كلّها» (1861)
تأليف مري، هيو
910.3 M982



لم يبدُ لميس شديد الفرح لوصوله إلى لوس أنجلوس. فقد وصفها بأنها «مكان صغير مملّ يقطنه حوالي 12.000 نسمة... [و] ربما ستة أبنية من ثلاثة طوابق أو أكثر». لم تكن لوس أنجلوس في عام 1885 تُقارَن ببوسطن، حيث أمضى لميس مُعظم حياته. بالكاد كانت مدينة. حتى في كاليفورنيا، كانت لوس أنجلوس تُعتبَر أقلّ رقيّاً وأهميّة من سان فرانسيسكو. وخيّبت

المدينة أمله، لكنَّ لميس اغتبط بالعمل في صحيفة *لوس أنجلوس تايمز*. والشهرة التي حصّلها في أثناء تسكّعه لحقته إلى هناك، وقفزت نسبة التوزيع حالما ظهر اسمه في أعلى المقالة.

ولكن في الحال تقريباً، عاد إليه قلقه. في الواقع لم يكن يرغب في الحصول على عمل. لقد اشتاقَ إلى استمتاعه بتسكّعه. ولكي يُخفِّف ناشر صحيفة «*تايمز*» من قلق لميس شجّعه على تغطية أحداث تقع خارج المدينة. كانت حروب الأباش تجري في الجنوب الغربيّ، ولذلك بدأ لميس بالسفر إلى هناك لكي يكتب عنها. كان اهتمامه بالمنطقة وبشعبها ثابتين. وقرَّر أنْ يتعلَّم الإسبانيّة وبدأ يتحدث بخليط من الإنكليزيّة والإسبانيّة كلما استطاع ذلك.

في أحد تلك الأسفار، عانى لميس من نوبة شلل. وبرِئ منها بما يكفي بحيث يتمكّن من امتطاء الخيل، وإطلاق النار من البندقيّة، ولفّ السجائر، لكنّه أصبح أسوأ حالاً عندما عاد إلى لوس أنجلوس، ولم يعُد يستطيع أنْ يجرّ قدميه جرّا للتوجّه إلى مقر عمله. وأخيراً، أخبر صحيفة *التايمز* بأنه في حاجة إلى إجازة لكي يتمكّن من استعادة عافيته وانتقل إلى قرية سان ماتيو، في نيو مكسيكو. وافترَض أنَّ عمله سوف يكون في انتظاره حالما يُصبح جاهزاً لاستعادته. لكنَّ صحيفة *التايمز* نفد صبرها من شهوة لميس إلى السفر ومن عدم قدرتها على الاعتماد عليه، كما كان حال زوجته. وطرده الناشر؛ وتطلّقت دوروثيا منه. وكان لميس دائماً يُنفِق مدّخراته مما يكسب على شراء الكتب وعلى الأعمال البارعة وعلى السفر. وحالما تحسّنت صحته، بدأ يمارس الكتابة والتصوير بحريّة. كتبَ بلا خوف عن الفساد في سان ماتيو. واضطرَّ إلى مغادرة البلدة بعد نشر أحد تقاريره لأنه سمعَ أنَّ كبار المُجرمين هناك يُخطّطون لقتله. (بعد أنْ غادر سان ماتيو ببضعة أشهر قام أحد القتلة المأجورين بملاحقته وأطلقَ عليه الرصاص في ساقه)

حالما طلّقَ دوروثيا، تزوّجَ من امرأة اسمها إيفا دوغلاس، كان قد قابلها في نيو مكسيكو، ومن ثم سافر إلى بيرو وغواتيمالا برفقة عالِم بنشوء الأعراق أدولف باندلييه، كان يدرس الشعوب الفِطريّة. وعاد هو وإيفا إلى لوس أنجلوس في عام 1893. كان بالكاد قادراً على إيفاء ديونه. كان يعمل

بشراسة، ويقبل أي عمل يستطيع أنْ يعثر عليه. وقبِلَ، مُخالِفاً بذلك كل غرائزه، منصِب مُحرِّر لمجلّة محليّة اسمها *أرض الشمس المُشرقة* ترعاها غرفة التجارة. وانتهى الأمر بلميس إلى أنّه غيَّرَ المجلّة من مجلّة صقيلة رائجة إلى أخرى جادّة. وسمّاها «*نحو الغرب*» وأقنعَ كُتّاباً من أمثال جاك لندن وجون ميوير على المُساهمة بمقالاتهما فيها. وبدأ أيضاً بكتابة عموده الخاص. وسمّاه «في عرين الأسد» وكتبه بصوت أسد جبليّ عنيد يتكلّم الإنكليزيّة.

بالإضافة إلى مساهمته في «*نحو الغرب*»، ألّفَ كتباً وشِعراً وترجمَ وثائق إسبانيّة هامة إلى الإنكليزيّة. واحتفظَ بشعوره الريفيّ العدوانيّ بكاليفورنيا القديمة، التي كانت تختفي بسرعة مع تنامي عدد السكان. وبتكريس نفسه للحِفاظ على ذلك التاريخ، أسّسَ متحف الجنوب الغربيّ ونادي لاندماركس لجنوب كاليفورنيا، المُكرَّس للحِفاظ على الإرساليات الإسبانيّة القديمة. وأمضى الكثير من الوقت في المُطالبة بحقوق الأميركيين الأصليين، مما أزعجَ الحكومة الفيدراليّة.

جمعَ لميس ما يكفي من المال لكي يشتري قطعة أرض في شرق لوس أنجلوس، على حواف أرويو سيكو، وباشر ببناء منزل هناك. واستغرقَ منه عشرة أعوام لإكمال المنشأة الحجريّة الغريبة، التي بناها بإطار من أعمدة هاتف مهجورة وروابط من سكك الحديد. وأطلقَ على المنزل اسم إل أليسال. كان منزل عائلة لميس، لكنّه كان أيضاً موقع الاجتماعات الدائم للفنانين والكُتّاب. وكنّى لميس حفلاته بـ«الضوضاء». وبعض تلك الضوضاء كان ذا طابع إسبانيّ بشعراء التروبادور وبالطعام التقليديّ. وأخرى كانت مُحاكمات ساخرة اتُّهِمَ بها لميس أحد الضيوف بأنّه لا يعرف كيف يستمتع بوقته. وانهالت الأسئلة من الضيوف الآخرين على المُدَّعى عليه، وعندما وجدوا أنّه ليس مُذنباً، أُطلِقَ سراحه لكي ينضمّ إلى الاحتفالات. وكانت معظم الحفلات التي تُقام في إل أليسال تتضمّن الكثير من المشروبات الكحوليّة.

لم تكن حياة لميس تتجّه في مسار يقوده تلقائيّاً نحو تحوّله إلى أمين مكتبة. وفي الغالب، هو لم يتخيَّل قط أنّه سوف يُصبح كذلك إلى أنْ عُرِضَ

عليه العمل. كان قارئاً شرِهاً، وكان أحياناً يجتمع بأعضاء هيئة إدارة المكتبة لكي يُشجّعهم على جمع كتبٍ عن كاليفورنيا وعن الجنوب الغربيّ. وكان عدد من أعضاء إدارة المكتبة يحضرون بانتظام الضوضاء التي تُقام في إل أليسال. ولكن لم تكن لدى لميس أيّة تجربة أو أي تدريب على إدارة مكتبة. وعندما أُعلِنَ تعيينه أمين مكتبة مدينة لوس أنجلوس في عام 1905، ادّعت هيئة تحرير صحيفة *لوس انجلوس تايمز* أنّه غير مؤهّل للمنصِب لأنه «لم يسبق له أنْ وطئ مدرسة مكتبات من قبل، ولأنّه يرتدي ملابس غريبة من الجوخ ومعروف عنه أنّه يُعاقر الخمر وأحياناً يسبّ»

في ذلك الوقت، كانت حياة لميس الشخصيّة ممزّقة. كان قد تورّطَ في علاقات عديدة خارج رباط الزواج. وقيل إنَّ خليلاته كنَّ يتضمّنَ أركاديا بانديني دو ستيرنز بيكر، وهي واحدة من أشد سكان كاليفورنيا فحشاً في ثرائها؛ وكيت ويغن، مؤلّفة رواية «*ربيكا من صني فارم*»؛ وعديداً من سكرتيراته؛ والإنجليزيّة إيمي سمبل مكفرسن؛ والابنة المراهقة لهاريسون غراي أوتيس، ناشر صحيفة *لوس أنجلوس تايمز*، الذي كان أول مَن استدعاه للمجيء إلى لوس أنجلوس. وكان قد تناهى إلى عِلم لميس تواً أيضاً أنَّ لديه ابنة غير شرعيّة هي ثمرة لقاء رومانسي قصير خلال فترة التحاقه بالجامعة. وبعد ذلك اللقاء، انتقلت الفتاة إلى لوس أنجلوس لكي تعيش معه.

ليس مُدهِشاً أنَّ لميس كان مثار ثرثرة لا تنتهي. كان متهوراً، استعراضيّاً، غير عمليّ، ورومانسياً، وربما مُدَّعياً قليلاً. كان يُفرِط في شرب الخمر، ويُعاني من سلسلة من الأمراض الغامضة ربما كانت جسديّة – نفسيّة. وأصبح بعض الناس يجدون ميله إلى حبّ الظهور، الذي كان ذات يوم لا يُخطئ وجميلاً، متكلّفاً ومتبجّحاً. وكان إيزيدور دوكوايلر صديقاً مُخلصاً للميس وضيفاً دائماً على إل أليسال. وعندما اقترحَ أنْ يتولّى لميس شؤون المكتبة، لابد أنَّ ذلك بدا للميس فرصةً للراحة في حياته العاصفة.

***

لم توافق ميري جونز على طردها من المكتبة، واعترضتْ بوجه خاص على فكرة تنازلها عن منصبها لأنها ببساطة ليست رجلاً. وتجاهلتْ طلب

هيئة إدارة المكتبة وأتت إلى مركز عملها في اليوم التالي. وأمرتْ طاقم موظفيها بمتابعة العمل كما يفعلون في أي يوم عاديّ، وبأنها لا ترغب في مناقشة الأمر أكثر من ذلك. وفي أمسية ذلك اليوم، اجتمعت هيئة إدارة المكتبة بلميس من أجل مناقشة تفاصيل منصبه الجديد. وكان الراتب الذي عُرِضَ عليه هو ضعف ما تتلقاه جونز. ودعت الإدارة جونز إلى الانضمام إلى الاجتماع، على أمل أنْ تأتي وهي تحمل طلب استقالتها. وحضرت الاجتماع، ولكن من دون طلب الاستقالة أو أيّة نيّة في ذلك. وبدل ذلك، أدلتْ بتصريح قالتْ فيه إنّه ليس في نيتها أنْ تتخلّى عن عملها «عندما يكون أساس الطلب منها تقديم استقالتها هو فقط لأنَّ مصالح القسم تتطلَّب ألّا تقوم امرأة بإدارة شؤونه»

أجاب دوكوايلر بأنَّ جونز ليست في حاجة إلى الاستقالة لأنها طُرِدَتْ. كان لميس جالساً في خلفيّة الغرفة. وبعد برهة من الصمت المشحون، نهضَ واقفاً وقال إنه يقبل الوظيفة لأنه سمعَ أنَّ جونز سوف تترك العمل طوعاً. وأضاف أنّه يتطلّع إلى «إعادة بناء شخصيّة المكتبة، التي تتمتّع أصلاً بسُمعة جيدة». لم يبدُ على لميس، المتحمِّس لقضيّة حقوق الأقليّات، أنّه قلق من ظروف قبوله العمل.

في اليوم التالي، عقد «نادي صباح الجمعة»، أبرز مُنظّمة نسائيّة في المدينة، اجتماعاً تكلَّمتْ فيه ميري جونز. أخبرت الجمهور بأنها لا تزال تعتبر نفسها أمينة مكتبة المدينة، وأنَّ في حوزتها مفاتيح غرفة مكتبها ومفاتيح خزينة المكتبة وأنها تنوي الاحتفاظ بها. هللت نساء نادي «صباح يوم الجمعة». ثم توجهت جونز إلى مركز عملها. ومكثَ لميس في المنزل وهو يغلي من الغضب وكتبَ عموداً لصحيفة *«اذهب غرباً»* متجهّماً مُبرِّراً قراره بقبول الوظيفة، ومنوّهاً بأنّه «ليست هناك أيّة وظيفة في القِطاع العام... في كاليفورنيا تتولاها امرأة، ولا يُتوقَّع أنْ يحدث هذا»

في اليوم التالي، وقَّعتْ ألف امرأة على عريضة تقول إنَّ حرب المكتبة العُظمى في لوس أنجلوس لن تنتهي إلّا إذا أُعيدتْ جونز إلى منصبها ككبيرة موظفي المكتبة وأنْ يُطرد من الإدارة الموظفون الذين وقفوا خلف محاولة طردها. ولم يستجب لدعوتها لا الهيئة الإداريّة ولا المُحافِظ، أورين مكالير،

الذين أبلغَ ضدَّهم للإدارة. وبعد بضعة أيام، خرجت نساء لوس أنجلوس، بقيادة «نادي صباح يوم الجمعة»، في مسيرة تضامن مع ميري جونز. وامتلأت الشوارع. ولم تمنع الحشود لميس الذي جاء إلى بلديّة المدينة مُرتدياً زياً من الجوخ الأخضر ومعتمراً قبعة سومبريرو عريضة الحواف، وأدلى بقَسَم تسلّمه منصب أمين مكتبة المدينة. ومن ثم غادر وذهب لكي يصطاد السمك مع ابنه. واستمرّت جونز في الحضور إلى غرفة مكتبها في المكتبة، ربما وهي تخشخش بمفاتيحها.

انتشر خبر المعركة، وخرج أمناء المكتبات حول البلاد في مسيرة دعم لميري جونز. سافر بعضهم إلى لوس أنجلوس من أجل المُشاركة في الاحتجاجات. وقام العديد منهم بزيارة جونز في مكتبها: أحضر عددٌ منهم لها أزهاراً. وكره المحافظ مكالير الانتباه الذي جلبه الجدل إلى المدينة وأراد أنْ يحلّ الوضع بأسرع وقت ممكن، ولهذا دعا إلى عقد اجتماع عام. حضر الاجتماع آلاف النساء، بمَنْ فيهن الناشطة المُدافعة عن حقوق المرأة س. وزان ب. أنتوني والمحترمة آنّا ه. شو. كان النقاش الناتج خشناً وغير حاسِم. ورفضَ أعضاء الهيئة الإداريّة الكلام عندما سئلوا. ثم أعلنَ المُحافِظ ماكلير أنّه سوف يطرد أعضاء هيئة المكتبة الإداريّة كلهم. لكنهم رفضوا تنفيذ أمر الطرد. واستمرَّ الوضع الحرِج أسابيع. وفي تلك الأثناء، كان يُدير شؤون مكتبة لوس أنجلوس العامة كبير أمناء المكتبة المطرود الذي رفضَ المغادرة، وهيئة إداريّة مطرودة من الموظفين الذين رفضوا الاستسلام.

كان يمكن لحرب المكتبة الكبرى أنْ تستمرّ إلى ما لا نهاية، بما أنَّ ميري جونز وضَّحَتْ أنه ليس في نيّتها أنْ تستسلم، لكنَّ سخط المُحافظ ماكلير بلغ أقصى مداه حتى إنه طلب من محامي المدينة أنْ يرى إنْ كان هناك حلّ شرعي. حدث ذلك قبل أنْ يمنع قانون شرعيّ فيدراليّ التميزَ في العمل على أساس الجنس بستين عاماً. وبعد مرور بضعة أيام، أعلنَ محامي المدينة قراره، قائلاً إنَّ أمينة مكتبة المدينة عملتْ بإرادتها، ولذلك يحقّ للهيئة الإداريّة شرعيّاً أنْ تطردها لأي سببٍ كان، بما فيه كونها امرأة. فثار غضب جونز وداعميها واستمروا في حركة الاحتجاج، ولكن كان قد بات جليّاً أنَّ حُكم مُحامي المدينة لن يهتزّ أبداً. وأخيراً، سلّمتْ جونز مفاتيحها وغادرتْ

لوس أنجلوس إلى الأبد، وقبِلَتْ عملاً كأمينة مكتبة في برين ماور، وهي جامعة خاصّة بالنساء في بنسلفانيا. وتمّ تلخيص هزيمتها في صحيفة *لوس أنجلوس تايمز* مع عنوان رئيسيّ يقول بعد شجارٍ طال أمَدُه حول ما إذا كان رجلٌ أم امرأة سيتولّى المنصِب – انتصر إيزيدور دوكوايلر و«Mushy» ميلر أخيراً على الآنسة ميللر.

حالما أخلتْ جونز مكتبها، قام التقرير السنويّ للمدينة بالتعريف بأمين مكتبة المدينة الجديد. كان لميس «ربما أشهر رجل يهتمّ بالكتاب في كاليفورنيا... فهو كاتب ذو سمعة وطنيّة... اسمه يرد في كل الموسوعات الحديثة؛ إنّه رجل ذو خِبرة ناضجة كمُحرِّر، ومُكتشِف، ومؤلِّف، وناقد أدبيّ وتاريخيّ، وفقيه ومع ذلك هو قياديّ عمليّ». واعترفَ الإعلان بأنَّ لميس «ليس نِتاج مدرسة التدريب على إدارة المكتبات»، بل يُعتقَد أنَّ «ثقافته في مجال الكتب والناس، وحسّه السليم، وتصميمه واتّزانه، ومقدرته الشخصيّة المعروفة على «إنجاز الأعمال» أهمّ بكثير»

عاد لميس من رحلة صيد السمك لكي يستلم يومه الأول في عمله. وأرسل مُذكِّرة إلى طاقمه من الموظفين بخصوص العاصفة التي صاحبَتْ تعيينه في المنصب. كتبَ فيها يقول «إنني وإياكم في موقفٍ لا يخلو من حرج، رُغماً عنّا. لم يعُد عملنا هو مَنْ كان، أو يمكن أنْ يكون أو يجب أنْ يكون الأمين العام للمكتبة. أنا أمين مكتبة – وسوف أبقى كذلك مدة طويلة جداً بالنسبة إليّ وإليكم بحيث نكتسب عادة ثابتة هي العمل معاً بانسجام... سوف أبذل في هذه المكتبة أقصى طاقتي». كان لميس لا يزال يترك شعره طويلاً، بالأسلوب المُسترسل الذي أوقعه في مشاكل في جامعة هارفرد. وقرّر أنْ يُميِّز هذه البدايِة الجديدة في المكتبة بقصّة شَعر، تابعتها الصحف المحليّة كما لو أنها حدثٌ إخباريّ كبير.

***

الشيء الوحيد الذي كان يمكن الاعتماد عليه في تشارلز لميس هو أنّه لم يكن يُنجِز الأمور بطريقة عاديّة. فهو لم يصل إلى لوس أنجلوس بطريقة عاديّة. ولم يعِش حياته الخاصّة بأسلوب عاديّ. ولم يُصبح أمين مكتبة

عاديّاً. وكان يُشير إلى أسلوب إدارته بأنّه «تجربة في الديمقراطيّة». كان يرى في إدارة المكتبة مشروعاً كبيراً آخر، وأصبح ممسوساً بجعلها مثاليّة. وركَّزَ على التفاصيل بقدر تركيزه على الملامح العريضة: كان يعمل على تنفيذ خطّة طموحة لجعل المكتبة واحدة من أعظم مكتبات العالم، وفي الوقت نفسه، قدَّم توصيات بشأن ما ينبغي على طاقم موظفيه أنْ يأكلوا على الغداء. (أعلنَ «ليس هناك بعد الآن وجبات غداء تحتوي مخللات وسكاكر تُقدَّم لفتيات المكتبة. إنهنّ في حاجة إلى تناول ثلاث وجبات كاملة بانتظام»)

لقد شعر بأنّه مسؤول شخصيّاً عن الصحّة الفكريّة للمترددين على المكتبة. وأقلقه رواج الكتب العلميّة الزائفة، التي اعتبرها «لا تستحقّ عود الثقاب الذي يحرقها». وبدل طرح تلك الكتب من المجموعة، أسَّسَ ما سمّاه «عمليّة غذاء أدبي صاف» لكي يُحذِّر القرّاء منها. ولجأ إلى حدّاد لكي يصنع ميسماً على شكل جمجمة وعظمتين متصالبتين -رمز التحذير من السُمّ- واستخدمه لكي يسِم به صورة أغلفة الكتب المُهينة. وابتكرَ أيضاً بطاقات تحذير يُقحِمها في الكتب المريبة. أراد أنْ يُكتَب على البطاقات، «هذا الكتاب هو من أسوأ أصناف الكتب التي يمكن أنْ نحتفظ بها في مكتبتنا. ونحن آسفون لأنكَ ستقرأه»، لكنّ ثمة مَنْ نصحه بأنْ يستخدم نبرة كلام أقلّ توتّراً. وكان مكتوباً على البطاقات، التي على شكل علامات الكتب، «من أجل معالجة لاحقة وعِلميّة أكثر لهذا الموضوع، استشر ------» وبعد ذلك مساحة فارغة لكي يضع فيها أمناء المكتبة لائحة كتب حول الموضوع نفسه. وأشار لميس في يومياته إلى أنّه اعتبر رمز السُمّ أحد أفضل ابتكاراته في المكتبة. واستخدم أيضاً ميسماً لحلّ مشكلة أخرى. فقط سُرِقَ معظم كتب المراجع القيِّمة عن الرفوف، ولذلك قام بوسمها بعبارة «من أملاك مكتبة لوس أنجلوس». واشتكى المترددون على المكتبة من أنَّ لميس يُشوِّه ممتلكات المكتبة، لكنّه لم يندم. وكتب في أحد تقاريره السنويّة «إننا نسِم الأبقار، ألا نفعل؟ فهل كتب مراجعنا أقلّ قيمة؟»

لقد أحبَّ المكتبة، لكنّه شعر بأنه في غير مكانه بين رؤساء أمناء المكتبات الذين قابلهم في المؤتمرات الوطنيّة. لقد رأى أنهم «طنّانون»، لذلك شكّلَ جمعيّة أمِلَ في أنْ تمنحه ملجأً له ولرفاقه من أمناء المكتبة من مُحطِّمي

المعتقدات التقليديّة. سمّاها «ابتسامات الكتب» وكانت أيضاً معروفة بلقب «أمناء المكتبات لكنّهم بشر». ومن بين الأعضاء المؤسّسين كانت تيسا كيلسو، التي شاركت لميس احتقاره للوضع الراهن. وكان شِعار الجمعيّة «ابتهجي، يا رابطة المكتبة الأميركيّة!». وكان المشروب الرسميّ لها هو براندي المشمش. وكل عضو له لقب خاص بالجمعيّة. كان لقب لميس هو «الواقع الكئيب»

***

منذ البداية، ظهرتْ شكاوى من أنَّ لميس كان يختفي من المكتبة طوال أيام دفعة واحدة. كان يذهب كثيراً لصيد السمك، ويقضي الوقت في حضور مشاريعه الأخرى -كتبه، متحف المنطقة الجنوبيّة الغربيّة، واعتناؤه المستمر بقضايا سكان أميركا الأصليين- لكنّه في معظم الوقت كان يغيب عن المكتبة، ويعمل في إل أليسال، حيث كان يقضي أحياناً أربع عشرة ساعة أو خمس عشرة في اليوم في الاعتناء بشأن المكتبة. كان يُناسبه أنْ يعمل من المنزل. على الرغم من أنّه كان موظفاً تنفيذياً غير تقليديّ، كان مولعاً بالعمل، وكل ما فعله من أجل المكتبة جعل منها المؤسّسة التي هي عليها الآن. وفي الوقت الذي استلم عمله، كانت المكتبة قد أضحت مكتبةَ إعارةٍ جيدة؛ ودفع بها لكي تُصبح مركزاً جاداً لأبحاث العلماء. وأسَّسَ مجموعة الصور الفوتوغرافيّة، ومجموعة تاريخ كاليفورنيا، ومجموعة التاريخ الإسبانيّ. ورأى أنَّ تأسيس مجموعة للتوقيع بخط اليد سيكون شيئاً نافعاً، وهكذا أسَّسَ قرطاسيّة خاصّة لـ«مجموعة التوقيع بخط اليد» وراسل كل الشخصيات البارزة في ذلك الوقت -كل شخص بدءاً بصديقه الحميم تيدي روزفلت وحتى وليم جيننغز براين وحتى فريدريك ريمنغتون- طالباً تواقيعهم مع ما يُشبه الإضافة إلى الصفحة كالتعليق أو الرسم العابث. وكان كل مَنْ يقترب هو منه تقريباً يُرسِل إليه توقيعه وأيضاً، في حالات كثيرة، رسوماً دقيقة. وفي الوقت الذي ترك العمل في المكتبة في عام 1910، كان لميس قد جمع 760 توقيعاً بخط اليد، وكثير منها مُرفق برسوم أوّليّة وتعليق من أبرز الفنانين، والكتّاب، والسياسيين، والعلماء في العالم.

عندما استلم لميس المنصِب، كان نظام ترتيب الرفوف في المكتبة غير

منطقيّ بصورة ما. على سبيل المثال، كان قسم الفلسفة يتضمّن كتباً في قراءة الكفّ، وقِتال الديكة، والزنا، وسباق الدراجات، والخادمات. وأعاد لميس تنظيم أقسام المواضيع؛ وهدفه من ذلك كان وضع نظام يُمكّن كل شخص من العثور على أي شيء يريد على الرفوف في غضون أقلّ من عشر دقائق. وكان طموحه في ذلك أنْ يجعل المكتبة في متناول الجميع – «ورشةً للعلماء بمَنْ فيهم كل مُبتدئ يعمل مع رسّام أو صبي عامل أو سائق حافلة يرغب في التعلُّم، كما أنّها تضم أساتذة اللغة الإغريقيّة أو مُحبّي الفن». كان موقفه من الشموليّة غريباً في ذلك الوقت. وأطلقَ حملةً لجذب مترددين لم يفكّروا في استخدام المكتبة من قبل. ولكي يجتذبهم، بعث برسائل إلى المدارس والمتاجر والمصانع، تقول:

«هل تهتمون بالقراءة؟ هل تهتمون بالتعلُّم؟ إنْ كنتُم كذلك فإنَّ مكتبة لوس أنجلوس العامة جُعِلَتْ من أجلكم»

حثّت الرسائل الناس على ألّا يخشوا المكتبة.

«إنَّ [المكتبة] لا تضمّ فقط الكتب بل أناساً ليُساعدوكم على العثور عليها واستخدامها. اسألوا في غرفة المراجع عمّا تريدون. وإذا لم تعثروا عليه (وتعثروا على الخدمة المرحة معه) أرسلوا إليّ بطاقة بريديّة... كلّما تعلّمتم أكثر، سوف تحصلون على راتب أكبر. المُخلِص لكم، تشاز ف. لميس، أمين مكتبة»

بعثَ رسالة إلى شركات سكك الحديد، طالباً منها أنْ تحثّ مُستخدميها على الانضمام إلى عضوية المكتبة، لأنَّ «الكتب هي آخر الأشياء التي يستطيع أي كائن بشري أنْ يستغني عنها»

كانت جهود لميس التي بذلها من أجل جذب المزيد من الناس ناجحة إلى درجة أنَّ المكتبة سرعان ما احتاجتْ إلى العثور على أماكن أرحب. وكانت غالبيّة سكّان لوس أنجلوس قد صوّتت لمصلحة عرض بناء مكتبة

في عام 1904، لكنَّ المدينة لم تبذل أيّ مجهود للتقدُّم بخطّة. وفي عام 1906، وقَّعَ لميس عقد استئجار الطابق العُلوي من مبنى هومر لافلن، الذي يقع على الطرف المقابل من الشارع حيث إينجل فلايت، سكّة الحديد المُعلَّقة التي تنقل سكّان بنكر هيل الأثرياء إلى أسفل الجانب الحادّ من التلّ نحو منطقة الأعمال المركزيّة. وكانت مساحة هومر لافلن تبلغ حوالي ضعف مساحة المكتبة في بلديّة المدينة ويمكن أنْ تتّسع لـ 123.000 كتاب تضمّها المجموعة. وفرح لميس لأنَّ هناك أيضاً غرفة للتدخين وحديقة على السطح مع أزهار. كتب يقول «[لن تكون] حديقة دمية مزوّدة بفناجين دمية من الخزف، بل حديقة حقيقيّة، وربما الحديقة الوحيدة من نوعها [في أيّة مكتبة] في العالم»

ولكن بعد عامَين فقط في مبنى هومر لافلن، احتاجت المكتبة من جديد إلى المزيد من الحيِّز. كانت قد نمتْ باطراد: كان ترتيب مجموعتها من الكتب قد أضحى الآن هو السادس عشر بين المكتبات الأضخم في الولايات المتحدة. كانت تنمو في وقتٍ واحد مع نموّ مدينة لوس أنجلوس أيضاً. وفي عام 1900، كان ترتيب مدينة لوس أنجلوس هو السادس والثلاثين بين مدن البلاد الأضخم؛ وبحلول عام 1905، أصبح ترتيبها السابع عشر بين المدن الأضخم. في عام 1908، وقَّعَ لميس عقد استئجار الطابق الثالث في مبنى وسط المدينة كان أكبر بثلاث مرات من مساحة ذاك الذي في مبنى هوملر لافلن. والساكن الرئيس في المبنى كان مخزناً تنويعياً، لذلك كان على المترددين على المكتبة أنْ يركبوا مِصعداً يمرّ من خلال المتجر التنويعيّ، ويتوقّف على طول المسافة لكي يستقبل متسوقين ويُفرِغ آخرين. وكانت قيمة الإيجار باهظة، وشروط العقد فظيعة. وإذا أثار أحدهم سؤالاً عن استئجار المكان، كان لميس يتجاهله بكل وضوح. لقد أحبَّ موقعه الرائع في مبنى فاخر، وكان السطح يطلّ على منظر جميل.

***

الشيء الوحيد الذي لم يتمكّن لميس من تحمّله هو أنّه يمكن لأيٍ من المترددين على المكتبة أنْ يضيع وهو يتجوّل في أرجاء المكتبة. وكان حلّه هو تدريب طاقم موظفيه على أنْ يكونوا مفيدين بعدوانيّة. كان يرشدهم قائلاً «لا

تنتظروا أحداً حتى يوقظكم. فتّشوا عن فرصة لتمدّوا يد العون!» هذا كان هدف لميس عندما أسّسَ قسم القراءة، والدراسة، والبحث، في المكتبة. كان يُشرف على القسم موظفان من الكتبة يعملان دواماً كاملاً عُيِّنا لكي «ينقضا» -ذلك كان اختيار لميس لصيَغ الأفعال- على كل مَنْ يلج المكتبة «بهيئة غير مألوفة ومن الواضح أنّه لا يعلم كيف يتوجّه». وقد عيَّنَ لميس رئيساً جديداً للقسم صديقه القديم، الدكتور ك. ج. ك. جونز. والدكتور جونز كان في السابق قسّاً موحّدياً[1]، وعضواً في هيئة المكتبة الإداريّة وفي حوزته أكثر من مئتيّ كتاب حول زراعة البرتقال، والليمون، وليمون الجنّة - في الحقيقة، كان الدكتور جونز يمتلك أفضل مكتبة خاصّة في زراعة الحمضيّات في الولاية كلّها، وِفقاً لسيرته التي ظهرت في عام 1918 في مجلّة *كاليفورنيا سيتراغراف ماغازين*. ومع استغلال «المؤهّلات البارزة» لجونز لقيادة القسم، من دون تحديد تلك المؤهّلات، خصَّصَ لاميس راتباً ضخماً لجونز ولقب «الموسوعة البشريّة»، وأصبحَ جونز «مكتب معلومات يسير على قدمَين يتجوّل في أرجاء المكتبة ويُعطي أجوبة على أيّة أسئلة يمكن للمترددين أنْ يطرحوها عليه.»

كان الدكتور جونز ضخم الجثّة صاحب فم مُقوَّس ولحية بيضاء مُشذَّبة وهيئة واهنة بأهميته الذاتيّة. كانت لديه عادة الربت على جبينه بعد أنْ يسأله أحدهم سؤالاً، وكأنَّ عليه أنْ يهزّ الجواب لكي يُخرجه من صندوق تخزينه في عقله. وليس هنالك سجل يُبيِّن شعور مرتادي المكتبة حياله، لكنَّ طاقم موظفي المكتبة كانوا يكرهونه. مقتوا غروره وضخامة مرتّبه، الذي كان يبلغ تقريباً ضعف راتب كبار أمناء المكتبة، وأدرك جونز أنّه ليس محبوباً. واشتكى إلى لميس من أنّه أحياناً يجد ثمار ليمون ومطارق على طاولة مكتبه، واعتبر ذلك إهانة له. وتسلّل خبر عن نشوء خلاف بين طاقم العمل والموسوعة البشريّة إلى الصحافة. صرخت إحدى المقالات التي ظهرت في صحيفة لوس أنجلوس تايمز قائلة **هل أصبحتْ مكتبة لوس أنجلوس العامة مأوى لألف فضيحة؟** وخمَّنتْ أنَّ الدكتور جونز صاحب الراتب الضخم يقضي معظم وقته في حديقة سقف المكتبة ليروي أزهار الجيرانيوم.

1- الموحديّ: عضو في طائفة مسيحيّة لا تؤمن بالتثليث وتؤمن بالإله الواحد. - المترجم

بعد أنْ ألقَتْ صحيفة تايمز ظلاً من الريبة حول فعاليّة الدكتور جونز كأحد موارد المكتبة الماليّة، أُعلِنَ أنّه قد تم تعيينه من دون أنْ يجتاز اختبار الخدمة العامة المطلوب من مُستخدمي المكتبة كلهم. وعندما أخبرته إدارة المدينة بأنَّ عليه أنْ يُجري الاختبار وإلّا فسوف يفقد عمله، أبدى سخطه، مُدّعياً أنَّ مكانته الفكريّة تتحدث عن نفسها. لكنَّ المدينة أصرتْ على موقفها، فرضخَ جونز أخيراً لإجراء الاختبار. وفشلَ في اجتياز الاختبار. ومن بين الأسئلة التي أخطأ في الإجابة عنها: «سمِّ ثلاث مُختارات أدبيّة خاصّة بالأطفال وصِفها»؛ «أعطِ موجزاً لقانون حقوق النشر الحالي»؛ و«ما هو مغزى «أساطير آرثر»؟». ووِفقاً للشخص الذي قيَّمَ الاختبار، فشل جونز أيضاً «في إعطاء إجابات مُرضية عن أسئلة في مجال معرفة الخرافات». يبدو أنّه عندما سُئلَ أنْ يورِد ثلاث حكايات خرافيّة، أعطى جونز اسم رواية جول فيرن «*20.000 فرسخ تحت البحر*». وتصدَّرَ أداؤه المتواضع في الاختبار عناوين الأخبار. كان العنوان الذي أوردته صحيفة *لوس أنجلوس هيرالد* هو **«مدير أبحاث يقبض مرتّباً ضخماً يفشل في اجتياز الامتحان»**

كان لفشل جونز في الاختبار وانعدام شعبيته بين أفراد طاقم العمل في المكتبة أثر سلبيّ على لميس. لكنّه دافعَ عن جونز وشرح قائلاً إنَّ معرفته شاملة إلى درجة أنّه لا يمكن تقديرها بشكلٍ مُرضٍ عبر أي اختبار. ومن الصعب معرفة سبب تصميم لميس على حماية جونز؛ بدا كأنّه يتعامى عن غروره المتضخِّم ونرجسيّته. وفي محاولته الثانية، نجح جونز في اجتياز الاختبار، واستطاع أنْ يحتفظ بوظيفته كموسوعة بشريّة، لكنّه لم يتمكّن قط من استعادة مكانته السابقة، وبدا أنَّ الصحافة المحليّة تبتهج بالسخرية منه. ولخّصَت صحيفة *تايمز* الحادثة بالقول، «إنَّ الجنس البشري... لديه سبب للابتهاج لهذا، لفجر القرن العشرين، الذي أنتجَ... وقذفَ إلى شواطئ الزمن، الدكتور ك. ج. ك. جونز...»

***

كان لميس يُبْدي ذكاءً في العديد من الأشياء. كان يتمتّع بموهبة جذب الانتباه وبعبقريّة إنجاز أمور يعتقد الكثير من الناس أنَّ إنجازها أمرٌ مستحيل. كان شجاعاً. وكان مِقداماً. كان يجذب الناس إليه فقط باستخدام قوة

قناعاته الخاصّة: كان يتّصِف بقوة جاذبة. كان ينجح في الاستعراض وفي التحدّي وفي قدرٍ معيَّن من العماء. وعندما باشر عمله في المكتبة، كانت حياته الخاصّة مُضطربة، والمشهد الذي ساد في إل أليسال كان أشبه بسيرك. كان إل أليسال منزلاً صغيراً؛ أقام فيه لميس وزوجته وأولادهما وابنتهما غير الشرعيّة، بالإضافة إلى عائلة من الشعراء الجوالين التروبادور ودفق لا ينتهي من مُرتادي الحفلات الذين كانوا يأتون ويرحلون بلا نظامٍ معيَّن. وفي عام 1907، اغتال أحد أفراد التروبادور إحدى العاملات في منزله. ومع ذلك، استمرّت الحفلات، وكانت تُقام مرّتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، واحدة تلو الأخرى، وبعض الضيوف كانوا يرفضون أنْ يُغادروا. وذات يوم من عام 1909، وقعت المذكرات بين يديّ زوجة لميس، إيف، وكان قد دوَّنَ فيها تفاصيل ما يُقارب الخمسين علاقة غرامية غير شرعيّة. جنَّ جنون إيف، وغادرت منزل إل أليسال وانتقلتْ إلى سان فرانسيسكو مع طفليها، تُربيسه وكيث. أما ابنهما كويمو فمكثَ مع لميس. كان لميس يعبد أطفاله. وتعلَّقَ بهم، خاصة بعد أنْ توفيَ ابنه الأكبر، أمادو، متأثراً بذات الرئة وهو في سن السادسة. كان يحبّ كثيراً أنْ يجلس بين الأطفال الصغار حتى إنّه كان دائماً يدعو نساءً حبالى لكي يكنّ ضيفات لفترات طويلة إلى منزل إل أليسال، لكي يمكثن هناك فترة بعد أنْ يولد أطفالهن. وعندما انتقل تُربيسه وكيث إلى سان فرانسيسكو مع إيف، تحطَّم لميس. وانشغلتْ وسائل الإعلام المحليّة بأمر رفع إيف دعوى طلاقها منه مع تفاصيل خياناته. كان ذلك أكثر ما ذُكر عنه في الصحافة في لوس أنجلوس، كان معروفاً، بما أنَّ حياته جذبت انتباه وسائل الإعلام منذ اليوم الأول لوصوله.

بقدر ما كان لميس لامعاً، لم يكن لديه أي حسّ بالحِفاظ على الذات. في أثناء عمله في صحيفة *لوس أنجلوس تايمز* -عندما فقد عمله بصورة مُفاجئة- لم يعتبر أنَّ سلوكه أو الجدل الذي دار حوله يمكن أنْ يُعرِّض موقعه في المكتبة للشبهة. لقد عاش بعناد، وبأنانيّة، وبغفلة متعمَّدة متهوّرة. كان فخوراً بالمكان الجديد في قسم البرغر من المخزن التنويعي لكنّه لم يُدركِ أنْ عقد الإيجار الكريه سوف يؤخذ ضده. لقد اعترفت الهيئة الإداريّة بأنّه طوّرَ مجموعة كتب المكتبة وأنّه جذبَ أعداداً واسعة من المترددين

الجُدد. ولكنّها اعترفَتْ بأخطائه على قَدَم المُساواة. على سبيل المثال، غابَ عن المكتبة مدة ثمانين يوماً في عام 1907، وأضاف ثمن السيجار على حساب المكتبة. وقد جعله تعيين الدكتور جونز من دون أنْ يُجري الاختبار الضروريّ يبدو مُهمِلاً. وفي الختام، لم ينفعه حتى ولاؤه للدكتور جونز كصديق. وجونز هو الذي أشاعَ أنَّ لميس كان يغيب باستمرار عن دوام المكتبة: ذكرَ ذلك عندما أدلى بشهادته في دعوى رفعها موظف كاتب ادَّعى أنَّ إدارة المكتبة سيئة.

***

لم تكن تقارير لميس السنويّة التي يُقدِّمها لهيئة إدارة المكتبة متشابهة ومُملّة كما هي العادة، بل كانت أشبه بالحكاية وغنيّة بالتفاصيل، وغنيّة بالآراء حول حالة المكتبات والمدينة والحياة، وغالباً ما ضمَّتْ وصفاً طويلاً، دقيقاً لمكتبات مدن أخرى قام بزيارتها في أرجاء الولايات المتحدة. كان يستمد متعة بالغة من كتابة التقارير. كان يُقسِّمها إلى مقاطع بعناوين على غرار «معركة الرفوف» و«تخرج النقود عندما تُفتَح الحقيبة» و«ماذا نفعل هنا؟». وأحياناً كانت التقارير تمتد حتى أكثر من 120 صفحة. وأضحتْ تقارير لميس بالنسبة إلى كبار أمناء المكتبات في أرجاء البلاد عبقريّة، وغالباً ما كانوا يطلبون نُسخاً منها لكي يقرأوها ثم يتناقلوها بين أفراد طاقم الموظفين. وبسبب التقارير، ربما أصبحَ لميس أمين المكتبة الأوسع شهرة في الولايات المتحدة.

ولكن بعد مرور خمس سنوات من قراءة تقارير لميس، لم يعد مندوبو مكتبة لوس أنجلوس يجدونها فاتنة، وأدانوه على إطنابه وتبجّحه. وتجاهل لميس انتقادهم، وعزاه إلى التفكير السياسي التافه. وقد كانت الهيئة الإداريّة فعلاً ذات طابع سياسيّ. وأحد آخر أعضائها كان امرأة اسمها شيلي تولهيرست وكانت داعمة فاعلة لميري جونز في حرب المكتبة الكبرى. وعاملَ لميس الهيئة الإداريّة بوصفها إزعاجاً لابد منه. واشتكى للمُحافِظ قائلاً «إنَّ المكتبة مؤسسة رائعة لا شيء يُعيقها... إلّا السياسة التافهة، وعجز بعض الأشخاص الطيبين عن فهم مسؤوليات ووظائف مكتبة عامة عظيمة»

لقد غيَّر لميس مكتبة لوس أنجلوس العامة إلى الأبد. جعلها أكثر ديمقراطيّة وأيضاً أكثر رقيّاً؛ أكثر ثراءً، وانفتاحاً، وشهرة. وفي الوقت نفسه، أهان الناس وأنفقَ مبالغ طائلة من المال وأصبحت شهرته واسعة الانتشار بصورة مُبالغ فيها بالنسبة إلى أعماله الشخصيّة. وأخيراً، تخلّى عنه أصدقاؤه في هيئة إدارة المكتبة، وفي نهاية عام 1910، زاد الضغط عليه لكي يُغادر. حتى الشخص الذي كان بمثابة موسوعة بشريّة، وكان قد دافع عنه وردّ الأذى عنه، تخلّى عنه: وحالما أعلنَ لميس استقالته، عُيِّنَ الدكتور ك. ج. ك. جونز مكانه.

***

تألَّم لميس بشدّة لطرده من المكتبة. ولاحقاً كتب إلى إيزيدور دوكُوايلر، «سوف تتذكّر أنني لم أكنْ تلك الفتاة العذبة المتخرّجة من مدرسة المكتبات. لقد كنتُ مُثقفاً ورائداً ورجلاً فعّالاً ووصلتُ إلى جذور تلك المكتبة الواهنة وجعلتُ منها، في غضون عامَين، مؤسّسة ذات شخصيّة مميّزة، مكتبة قوية، افتخرنا كلنا بها». وتظاهر لميس أمام أصدقائه بأنَّ تركَه العمل في المكتبة كان بمنزلة تحُّوُّل سعيد في مجرى الأحداث. قال إنّه سئم العمل، وإنّها «استنزفته» و«بدّدتْ» السنوات الستّ التي كان يمكن أنْ يُكرِّسها لتأليف كتبه الخاصّة. ودوَّنَ في مذكراته بعد طرده «أشعر بتحسّن كبير، وقريباً سوف أتمكّن من بناء المنزل وأمارس الرياضة في الهواء الطلق... وأنتهي من تأليف كتبي وأؤلّف كتباً جديدة وأكتب مقالات و... أستعيد نشاطاتي التبشيريّة التي أحتاج إليها حاجة ماسّة... ولديّ حدسٌ يُنبئني بأنني سوف أصطاد سمكة تروت في هذا الربيع وللمرّة الأولى منذ سنين عديدة... سوف أبدو في أحسن حال عندما لا أضطرّ إلى الانزعاج بشأن أي شيء يخصّ المكتبة وأنْ أقوم بكل ما يسرّني». وباشر تطبيق برنامج لتطوير ذاته، فترك شرب الخمر، والتدخين، والشتم. حاولَ أنْ يُدخِلَ بعض النظام المتوازن إلى حياته التي كانت تعيثُ فيها الفوضى كالمعتاد؛ فليس معه نقود، وأمامه إجراءات طلاق ينبغي أنْ يُنهيها، وعدد من الكتب كان قد وَعَدَ بتأليفها؛ ونجح بصورة ما في أنْ تكون له عشيقتان تقيمان معه في إل أليسال.

كانت نهاية عمله في المكتبة هي بداية نهاية حياته. ولم يعُد يُبدي التبجّح والثقة اللذين دعماه وهو يقطع ثلاثة آلاف ميل سيراً على قدميه عبر أميركا،

وإلى أدغال وسط أميركا، وإلى البلدات القبليّة في الجنوب الغربيّ – كل تلك الرحلات المشحونة بالطاقة وبالفضول اللذين جعلا حياته فريدة ومُلهِمة. وفي عام 1911، قام برحلة للبحث عن الآثار إلى غواتيمالا، ولكنْ في أثناء وجوده هناك، أُصيبَ بالحمّى فتسبَّبت في عماه التامّ. ونجح في الاستمرار في الكتابة باعتماده على فريق متناوب من السكرتيرات، كنَّ أيضاً عشيقاته بالتناوب. واستمر في التقاط الصور. وأنجزَ ذلك بجعل ابنه كويمو يصِف له المشهد ويقود آلة التصوير. وأبدى بعض من أصدقائه شكّهم في إصابته بالعمى. وبعد مرور سنين عديدة من الإصغاء إلى حكايات لميس المُثيرة، لم يعودوا يُصدقونه. في الحقيقة، في عام 1912، أعلنَ أنَّ بصره قد عاد إليه بصورة مُعجزة، مما أقنع العديد من أصدقائه بأنّه كان يمثّل عليهم طوال الوقت.

بدأت الحياة الرحبة والمتهورة التي صاغها لميس لنفسه تنكمش. لقد أُجبِرَ على الخروج من متحف الجنوب الغربيّ الذي قام بتأسيسه. والكتابة، التي كانت تنساب منه بسهولة، نضبَ معينها. والكتب التي كان يأمل في أنْ يُنجِزها لم تتجسّد. بدأ بكتابة عمود صحفيّ في صحيفة لوس أنجلوس تايمز، ولكن بعد مضيّ فترة وجيزة، رفضت الصحيفة ذلك العمود. وفي عام 1915، وصل إلى لميس خبر سعيد. إنَّ ملك إسبانيا يمنحه رتبة فارس تكريماً له لِما أنجزه لتشريف المُساهمات الإسبانيّة في الثقافة الأميركيّة. وبصورة ما، كان ذلك دِفاعاً عمّا أنجزه من عمل في حياته، وبقيَ لميس يُحيط عنقه بمداليّة الفروسيّة حتى آخر أيام حياته. ولسوء الحظ، لم يكد ذلك يساهم في استقرار حياته. فقد كان مُفلِساً تقريباً. وناشد إيزيدور دوكوايلر أنْ يُساعده للعثور على وظيفة حكوميّة؛ قال إنّه مستعد لقبول أي عمل في أيّة دائرة وإنّه يُحبّذ القيام بعملٍ بدنيّ. وأخبر دوكوايلر أنّه واثق من أنَّ كتاباته سوف تجلب له قريباً دخلاً، ولكن حتى ذلك الحين، هو في حاجة إلى أنْ يأكل. ولم يردّ دوكوايلر عليه قط.

وبصورة ما نجا لميس، ظلّ يُقيم حفلاً بين حينٍ وآخر في إل أليسال. وتزوج مرَّة أخرى، وقام برحلة أخرى إلى قرى الجنوب الغربي الجافة المبنيّة من اللبن التي كان يحبّها حبّاً جمّاً. وكتبَ في مذكراته عن تلك

الرحلة، وعن المناظر الشبيهة بالحلم، وعن الجبال الحمراء والوديان البريّة، وقطعان الغزلان التي تهرول مُدمدمة، والغيوم التي تعدو عبر الأفق الممتدّ. كانت لا تزال هناك المناظر التي قابلها للمرة الأولى في عام 1884 وهو شاب صغير يقطع البلاد سيراً على قدميه، عندما لم تكن يدٌ قد لمستْ تلك المناظر الطبيعيّة كما القمر، وجعلته كآبته يشعر بأنها لن تعود إلى نقائها من جديد. ولكن في تلك اللحظة، وفي تلك الرحلة الأخيرة، بدا كأنَّ نيو مكسيكو لا تزال قديمة ونقيّة، وعاد شاباً صغيراً من جديد، بلا خوف، بلا تعب، وليس وحيداً، بل لا يزال ممتلئاً بالطموحات التي يمكن لمُعظم الناس أنْ يجدوها مستحيلة التحقيق أو جنونيّة، ولا يزال مُقتنعاً بأنّه سوف يشهد تحققها كلها. وعندما عاد إلى لوس أنجلوس، شعر بوجود كتلة لديه اعتقد أنّها من أثر عضّة حشرة لكنَّ التشخيص بيَّنَ أنها سرطان. وفي أثناء احتضاره، ألَّف كتابَين آخرين - ديواناً من الشِعر عنوانه «*صهوة الجواد المُجنَّح*»، ومجموعة من المقالات عنوانها «*أزهار حبّنا الضائع*». ومدَّ الله في عمره حتى شهد وصول النسخ الأولى من ديوان الشِعر إلى إل أليسال، وعلِمَ أنّه تمَّ قبول نشر مجموعة المقالات. ربما تخيَّلَ أنه سوف يتمكن من القيام بجولة أخرى حول العالم، ولكن في وقتٍ متأخّر من أمسية اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، عام 1928، توفي تشارلز فلتشر لميس. وحالياً تضم مكتبة لوس أنجلوس العامة تقاريره إلى المكتبة: ويومياته؛ وتغطيته لحروب قبائل الأباشي؛ وديوانه «*قصائد لحاء البتولا*»؛ وكتبه التي تدور حول البعثات التبشيريّة الإسبانيّة، وحول هنود بويبلو، وهنود موكوي، وتاريخ المكسيك؛ و«*رسائل من الجنوب الغربيّ، من 20 أيلول، 1884، وحتى 14 آذار، 1885*»، ومجموعة الأعمدة الصحفيّة التي كتبها في أثناء تسكّعه المجيد عبر البلاد.

-14-

«واسا-واسا: حكاية قوافل وكنز في أقصى الشمال» (1951)
تأليف ماكفي، هاري
971.05 M144

«أمانة مكتبة الخرائط: مقدّمة» (1997)
تأليف لاراغارد، ميري لينيت
025.176 L334

«مدفون في الكنوز: المُساعدة في الاكتساب، والتوفير، والتخزين الإجباريّ» (2014)
السلسلة: معالجة ذلك العمل.
تأليف تولين، ديفيد ف.
616.8522 T649

«علم الأنساب، والاستمتاع به» (1982)
تأليف كولمان، روبي روبرتس
929.01 C691-1

يقع قسم التاريخ في الطابق الأسفل من المكتبة ويشغل المساحة الأكبر من أي قسم، ويمتد من قعر المصعد عبر عرض الجناح الجديد من المبنى. وغلين كريسون، أحد كبار أمناء القسم، انتسبَ إلى مدرسة المكتبات في

عام 1979 بدافع نزوة، هي اعتقاده أنّه سيكون مكاناً جيداً لكي يُقابل فيه نساء جميلات. في ذلك العام، أعلن رئيس شركة *راند* أنَّ المكتبات سوف تُصبح قريباً في عالم النسيان. وكريسون الآن هو أمين المكتبة الأطول أمداً في عمله في المكتبة المركزيّة. لديه مزيج من الشعر الأبيض المائل إلى الشُقرة مع غُرَّة جامحة، ولحية قصيرة، وجسم يُشبه علامة الاستفهام. يُحبّ أنْ يتظاهر بأنّه صارم وساخر، ربما لكي يُخفي كونه ضعيفاً وعاطفيّاً بعمق. لديه حنين قويّ إلى أشياء على غرار الأيام التي كانت في المكتبة لوحة مفاتيح، تعمل عليها سيدة أنيقة اسمها بيرل؛ وعندما كانت المواد تُنقَل من قسم إلى قسم عبر أنابيب تعمل بضغط الهواء؛ وأيام كان المرء يُخاطب أمينة المكتبة بـ «سيدة» و«آنسة» أو، في حالات نادرة، بـ «سيد»؛ وأيام كان أمين مكتبة اسمه توم أوينز يمشي خمسة أميال على قدميه جيئة وذهاباً من مركز عمله وإليه في كل يوم؛ وعندما كان كريسون يتناول وجبة الغداء مع موظف كاتب اسمه تد إيتاغاكي، الذي «كان في استطاعته أنْ يبتلع شطيرة هامبرغر كاملة بثلاث لُقَم». وكان يكنُّ حنيناً أقلّ لأيام ما بعد الحريق، عندما غلبه اليأس. حينئذٍ كان يعمل في موقع المكتبة المؤقّت في شارع سبرينغ وكانت إبر الزرق تحت الجلد تسقط عن الرفوف وهو يُعِيد الكتب. ومع مرّ السنين، أصبحَ هو نفسه أشبه بالمكتبة: إنّه مستودع لقصص لا نهاية لها عن أشدّ مرتادي المكتبة إثارة للاهتمام. وقد وصفَ لي أحدهم، على سبيل المثال، بأنّه أستاذ رياضيات سابق من ويسكونسن أُصيبَ بانهيار عصبيّ وانتهى به الأمر بوصوله إلى لوس أنجلوس؛ وأمضى كل يوم من حياته تقريباً في قسم التاريخ، يقرأ أو يقصّ شَعره فوق سلّة المهملات، وأحياناً يُعلن أمام أمناء المكتبة قائلاً «لقد مشيتُ من راسين إلى شيبويغان في عزّ الشتاء. وتجمَّدَ قضيبي وحلمتاي»، قبل أنْ يعود إلى قصّ شعره أو إلى كتبه. أو التوأم الثمانيني -كان كريسون وزملاؤه يُشيرون إليهما بلقبَي هيكل وجيكل- اللذين كانا يأتيان إلى المكتبة يومياً، ويُمضيان وقتهما في قراءة مؤلفات هيرودوتوس وثرسيديدس ويُلقيان على مسمع كريسون النكتة نفسها على مدى سبع سنوات. أو المتردد الذي ادَّعى أنّه سلطان بروناي (غير صحيح) وأصرَّ على أنّه عانى من نزيفٍ دماغيّ في الدقيقة نفسها التي تمّ فيها اغتيال

جون ف. كينيدي. وعلى امتداد الأشهر التي أمضيتها معه، أخبرني كارسون قصصاً عن الرجل المطّاطيّ ورجل قرن الوعل ورجل ساعة التوقيت وستامبي والجنرال هيرشي بار وصديقه الحميم، الكولونيل ديسماي، وعن شخص كنّاه كريسون بلقب المُنقِّب، الذي يرتدي ملابس المُنقِّب عن الذهب وكان دائماً يطلب مجلة «*الكنز المدفون*». كانت حكايات كريسون عن مرتادي المكتبة مُسلّية وأثيرة في مُعظمها. وفي لقائنا الأول، وصفَ لي، بلا أي سُخرية، امرأة بملابس جميلة اقتربت من الطاولة ذات يوم وأخبرته بأنها كانت في المحيط الأطلسي منذ عام 1912، ثم تحوّلت إلى حيوان فقمة وسبحتْ حتى ميناء لوس أنجلوس.

امتدت فترة شَغل كريسون لمنصبه منذ الحريق، حتى أزمة مرض الإيدز، الذي قتل أحد عشر من أمناء المكتبة، وحتى إعادة افتتاح المبنى، وحتى تكيُّف المكتبة مع الإنترنت الحاضر في كل مكان، وحتى طلاقه، الذي يضع اللوم في حدوثه جزئيّاً على حالة الكآبة التي انتابته بعد الحريق، وحتى انضمام ابنته، كاتيا، إلى طاقم موظفي المكتبة. إنهما يشكلان ثُنائيّاً واحداً بين العديد من ثنائيات الأب–والابنة في طاقم العمل ضمن نظام لوس أنجلوس. وقد قام كريسون بمساعدة المؤرّخين ويل وإريل دورانت للعثور على الكتب التي يُريدانها. وساعد أيضاً المتردِد على المكتبة ريتشارد راميريث، الذي كان يبحث عن كتبٍ في التعذيب وعِلم التنجيم. (واتَّضَحَ أنَّ راميريث كان قاتلاً متسلسلاً معروفا بلقب جائس الليل وحُكِمَ عليه بعقوبة الموت لارتكابه ثلاث عشرة جريمة قتل في لوس أنجلوس. (يقول كريسون، «لقد كان يُثير القشعريرة في الجسم من دون أدنى شك») وكان بوبي فيشر، سيد لعبة الشطرنج، يأتي بانتظام إلى قسم التاريخ، حاملاً حقيبة سفر بنيّة ثقيلة الوزن، ولكنه في العموم كان ينفرد بنفسه. أحياناً كان كريسون يُثير بعض الجلبة حول تقاعده، ولكن من الصعب تخيّله في أي مكانٍ آخر غير خلف طاولة المكتب في المكتبة – باستثناء أوقات ممارسة لعبة دودجرز. إنّه يبدو أمين مكتبة بكل معنى الكلمة عندما يقول أشياء مثل «عندما أُعيدَ افتتاح المكتبة، كم أسعدنا أنْ نشاهد كتبنا من جديد!»

***

في صباح أحد أيام السبت، اتّصل كريسون هاتفياً وقال إنَّ معه شخصاً يدعوني إلى مقابلته. وعندما وصلتُ كان الجو يسوده النعاس في القسم. كان هناك بضعة أشخاص جالسين على الطاولات، يُقلّبون الكتب. وكانت هناك امرأة جالسة على طاولة في الركن القصيّ من الغرفة وتطلي أظافر قدميها بطلاء الأظافر. تجوّلتُ حول طاولة استعلامات القسم ومررتُ بعربة مكتوب عليها «كتب مرفوضة». ومن بين الضحايا كانت سيرة حياة بيلي كارتر؛ و«*سجلات بلدة فرانكلين الحيويّة، ولاية مين*»، ونسخة مُبقّعة ومتهرّئة من كتاب من الحكايات الشعبيّة عنوانه «*واسا-واسا*»، مُترجَم عن اللغة السويديّة الأصليّة. وقسم التاريخ يُشبه قليلاً حقيبة سفر، تشتمل على مواد التاريخ كلها التي في المكتبة، بالإضافة إلى قسم عِلم الأنساب الشائع جداً، ومجموعة خرائط المكتبة، وهي واحدة من أكبر خمس مجموعات في الولايات المتّحدة. لقد نمتْ مجموعة الخرائط باطراد منذ تأسيسها عند تأسيس المكتبة. والشيء الوحيد الهامّ الذي نقُصَ كان إغلاق غرفة خرائط الجيش، التي وُجِدَتْ في أثناء الحرب العالميّة بوصفها مستودعاً لخرائط الخدمة العسكرية الرسميّة ورسومها البيانيّة.

إنَّ كريسون هو أمين مكتبة مُخضرم مسؤول عن قسم الخرائط. وعندما اقتفيتُ أثره في صباح ذلك اليوم، كان واقفاً مع ثلاثة أشخاص آخرين بالقرب من ملفّات مفتوحة حيث تُخزَّن غالبية الخرائط القيِّمة. أحدهم -وهو رجل مرح، متقوّس الساقين وذو شاربٍ أبيض كثّ عرَّفَ عن نفسه باسم براين هاتشر- كان جامع خرائط مختصّاً في الخرائط المطبوعة في نادي السيارات في جنوب كاليفورنيا. في ذلك اليوم، كان مع هاتشر ثلاث حاويات ممتلئة بالخرائط المُنسّقة من أجل وهبها للمكتبة. قال إنّه ليس سعيداً لفعل ذلك، لكنَّ زوجته كانت قد طلبتْ منه أنْ يبدأ بغربلة مجموعته وإلّا فعلتْ هي ذلك نيابة عنه.

وقف إلى جوار هاتشر شابٌ يضع نظارات سميكة، وسماعات للأذن، وترتسم على وجهه نظرة عذبة، شاردة. قال كريسون، مومئاً إلى الشاب، «هذا ك. ج.، الشخص الذي أردتكِ أنْ تقابليه. جاء إلى هنا لكي يعمل على الخرائط». الرجل الآخر في المجموعة كان والد ك. ج.، جون مون.

وأخبرني جون بأنَّ ك. ج. أصمّ ويُعاني من التوحّد، وأنّه مفتون بالخرائط ولديه معرفة خارقة بها. وبدأ ك. ج. بالتركيز على الخرائط في وقتٍ مُبكّر. وفي سن الخامسة كانت لائحة أمنياته في عيد الميلاد تتألّف من شيء واحد: «*دليل توماس*»، وهو أحد تلك الطُّلُس الدقيقة المُزوّدة برقّاص لولبي لمناطق العواصم، التي يُفضّلها سائقو سيارات الأجرة وسماسرة العقارات. لم يرغب ك. ج. في «*دليل توماس*» - أراد طبعة عام 1974 من سان برناردينو. ومع بلوغه سن الحادية عشرة، أصبح ك. ج. ربما أحد خبراء العالم في طبعات «*دليل توماس*». وبينما كان الوالد يُخبرني هذا، كان ك. ج. يُدقق النظر في رفوف الخرائط. وفجأة التفتَ نحوي وطلب عنوان بيتي. وبعد أنْ أعطيته إياه، وقف برهة وعيناه مُغمضتان، ثم أعلنَ الصفحة التي يوجد فيها في «*دليل توماس*» نسخة لوس أنجلوس. وعثر كريسون على الدليل في الرف، وعُدنا إلى الصفحة، فقط لكي نتأكّد. كان الشارع الذي أُقيم فيه يقع في منتصف الصفحة.

كان ك. ج. وهاتشر قد تقابلا على موقع جامع خرائط إلكترونيّ وقرّرا أنْ يتقابلا في هذا اليوم؛ كانت تلك المرّة الأولى التي يتقابلان فيها على أرض الواقع. كان قسم الخرائط هو موقع طبيعي للّقاء. إنَّ ك. ج. هو متردِّد مواظب على المكتبة. كان هو ووالده يمشيان ساعة من الوقت لكي ينتقلا من المنزل إلى المكتبة المركزيّة مرةً على الأقلّ في الشهر. قال جون، وهو يُحرِّك ذراعه حركة دائريّة فوق رأسه، «هذه هي جنّة ج. ك.، هذا هو عالمه»

في العام الفائت كان ك. ج. يُساعد كريسون في تصنيف مجموعة من الخرائط والطُّلُس تُدعى مجموعة فيذرز. وكان فيذرز عالِماً خجولاً بالأغذية له شقّ في شفته العليا ويكره الاختلاط بالناس. وقد عثر على السعادة أخيراً وهو في خمسينيات عمره مع رجل أكبر منه سنّاً اسمه والتر كيلر. وانتقل إلى منزل كيلر، وهو عبارة عن كوخ يقع في ركنٍ منعزل من حي في لوس أنجلوس يُدعى جبل واشنطن، بجوار مركز رئاسة جماعة الوعي الذاتيّ. وما كان فيذرز يفعله في وقت فراغه هو جمع الخرائط. وكان يجمع خرائط فرز الأراضي وخرائط مُصوَّرة ودراسات طوبوغرافيّة؛ ومُخطّطات المدن ودلائل سياسيّة وخرائط طرقات من منشورات ستيت فارم وراند

ماكنالي وهاغستورم؛ وطُلُس الرياضيين؛ وخرائط طولانيّة؛ وخرائط مسح جيولوجي. وجمع مجموعة شبه كاملة من «*دليل توماس*»، بما فيها أول أربعة منها طُبِعَتْ، بالإضافة إلى مجموعة شبه كاملة من مُنافِس لـ «*دليل توماس*»، هو «*أطلس ريني*». كان في حوزته خرائط عامّة وأيضاً العديد من الخرائط النادرة –طُلُس خاصة من عام 1891 ومن عام 1903؛ وخريطة لأوروبا منشورة في عام 1592. كان الكوخ صغيراً– لا يكاد يبلغ ألف قدم في مساحته – لكنَّ فيذرز نجح في إقحام ما يُقارب المئة ألف خريطة فيه، بالإضافة إلى مجموعاته من صابون الفنادق وعلب كبريت المطاعم.

في عام 2012، توفيَ فيذرز في عمر السادسة والخمسين. وكان كيلر قد توفيَ قبله. وانتقلتْ ملكيّة الكوخ إلى أقارب كيلر الذين قرّروا أنْ يبيعوه مُفكَّكاً، وعيّنوا سمساراً اسمه ماثيو غرينْبرغ لطرحه في السوق. وكان كيلر وفيذرز قد عاشا معاً حياةً هادئة في كوخهما الصغير. وعندما ذهب غرينبرغ لكي يُعاينه للمرّة الأولى، توقَّعَ أنْ يرى الآثار المعتادة لحياة مَضَتْ – ربما مشهد هزيل ومُحزِن لأحذية وسترات، وأصيص نبات مُهمَل، وصورة فوتوغرافيّة مُثبَّتة بدبوس، وطبق مكسور. لكنَّ كوخ كيلر كان ممتلئاً حتى الانفجار. كل بوصة فيه كانت مزدحمة بخرائط فيذرز، المُكدَّسة على الأرض وداخل صناديق ملفّات، ومُقحَمة داخل خزانات المطبخ، بل وداخل الفرن. وكان بطن جهاز الستيريو قد أُفرِغ من أحشائه من أجل إفساح مكان لأكوام من نسخ «*دليل توماس*». لم يكن غرينْبرغ متيقّناً مما سيفعله بها ولا فكرة لديه ما إذا كانت الخرائط هي نفايات أم مواد قيّمة، لكنّه لم يستطع أنْ يدفع نفسه إلى استدعاء جامع نفايات. وبدل ذلك، اتّصل بالمكتبة التي جعلته يتكلّم مع غلين كريسون. أخبره غرينبرغ «يجب أنْ تأتي لترى هذا. لديّ هنا منزل ممتلئ بالخرائط».

في تلك الليلة، فرحَ كريسون كثيراً إلى درجة أنّه لم يستطع أنْ ينام. وعندما طلع النهار أخيراً، انطلقَ إلى الكوخ مع عشرة من أصدقائه من أمناء المكتبة وبعض الصناديق الفارغة. وعلى امتداد يوم كامل، قاموا بتعبئة أكثر من مئتي كرتونة من تلك المواد. وفي تلك اللحظة، تضاعفَ عدد مجموعة المكتبة من الخرائط. لأنَّ كميّة مجموعة فيذرز الضخمة مُذهلة. وقد شغلَتْ مساحةً

من الرفوف تعادل مساحة ملعبَي كرة قدم. وتعقيد تلك اللُقية الضخمة يكمن في أنَّها وصلتْ مُختلَطَة، من دون أي نوع من النظام -وهذا إثم جسيم في أي مكتبة، حيث الالتزام بالقدرة على العثور على المادة مُطلَق. إنَّ تصنيف الخرائط عمل رتيب، ويستهلك وقتاً-يتطلَّب براعة فائقة، ويُرهِق العينين- ولا مجال للخطأ. كان ينبغي تصنيف كل خريطة حسب اسم الشركة التي طبعتها، واسم الخريطة، وعام طباعتها، وعام تصويرها، وأيّة تفاصيل مُميَّزة ينبغي تسجيلها من أجل تصنيفها. أما بالنسبة إلى اليوم الذي تقابلنا فيه، كان ك. ج. قد صنَّفَ ألفيّ خريطة. إنّه يُحبّ أنْ يعمل على مدى سبع ساعات في التصنيف من دون أخذ فترة استراحة لتناول وجبة الغداء عندما يأتي إلى المكتبة، لكنَّ والده يُصرّ على أنْ يأكل على الأقلّ شطيرة واحدة. كان يتحرَّق ليبدأ العمل، لذلك مشى كريسون معه واجتازا باباً موصَداً يوصل إلى الأكوام، حيث تُحفَظ الخرائط غير المُصنَّفة. وفي أثناء انتظارنا عودتهم، أخبرني والدي، ارتجالاً، أنَّ عائلة مون لها تاريخ خاصّ مع المكتبة.

سألته «كيف؟»

قال جون «أتعلم بأمر الحريق الذي نشبَ في عام 1986. كان جدّ ك. ج. أحد رجال الإطفاء الذين ساعدوا في إخماده. وهناك رقعة نحاسيّة على الباب الأمامي خاصّة برجال الإطفاء. تستطيع أنْ تجد اسمه مُسجّلاً عليها. الكابتن هوارد سليفن»

وقفتُ هناك مذهولة من هذه الموهبة على العثور على الأشياء النفيسة، وعاد كريسون من الأكوام حاملاً خريطةً كان ك. ج. قد عثر عليها تواً بين صفحات أطلس الشوارع. نشر كريسون، المولع جديّاً بالخرائط ولديه نقطة ضعف حيال الخرائط المُصوّرة، على الطاولة ومال عليها، ليستوعب ما عليها. قال «واو» عدة مرّات بصوت منخفض. وأخيراً، اعتدل في وِقفته، وربتَ على الخريطة، وقال «هذه إحدى اللحظات.. تلك اللحظات النادرة...» وهزَّ رأسه إنكاراً. «أنا لم أرَ في حياتي مثيلاً لهذا من قبل. لم تقع عيناي قط على مثيل له من قبل». كانت خريطة للألعاب الأولمبيّة الصيفيّة لعام 1932، التي أُقيمَتْ في لوس أنجلوس مع بداية فترة الكساد العظيم. تلك الألعاب الأولمبيّة التي كانت أوّل مَنْ قدَّمت الرياضي العظيم

بيبه ديدريكسون زاهارياس إلى العالم. كانت الخريطة بلون أصفر كالكريما وعليها طرقات مُحدَّدة بخطوط دقيقة وثمة مستطيلات تُحدِّد العديد من المواقع الأولمبيّة في المدينة، بما فيها روز باول، ومتنزّه غريفيث، وملعب مارين. من الواضح أنَّها مصنوعة لكي تساعد السيّاح في الألعاب الأولمبيّة على التجوّل في أرجاء الانتشار العظيم للوس أنجلوس؛ وعلى طول أعلى الخريطة كُتِبَتْ عبارة مُشجِّعة ولكن بلهجة آمرة حذار من الفوضى. كانت الخريطة تتصِفُ بسِمة اللحظة المتجمّدة التي توجد في لقطة مُصوَّرة. كان يمكن أنْ تبقى مدسوسة بين صفحات أطلس الشارع إلى الأبد، لو لم يعثر ك. ج. عليها مُصادفة. وها هي قد تمَّ العثور عليها، وإنقاذها. وسوف تُصنَّف وتفهرَس وتُصبح جزءاً من مجموعة فيذرز للخرائط في مكتبة لوس أنجلوس العامة، إنها قطعة أخرى من الأحجية الأكبر التي تسعى المكتبة دائماً إلى جمع قِطعها - القصّة التي تدور في دائرة مُقفلة، لا تنتهي، هي هويتنا.

-15-

احترقت مكتبة لوس أنجلوس العامة
وسُوّيت بالأرض
تلك المكتبة التي في قلب المدينة
ومع احتراقها اندثر
جزء كبير من
شبابي

ذلك المكان الرائع
مكتبة لوس أنجلوس العامة

من قصيدة تشارلز بوكوفسكي، «احتراق الحلم»
من مجموعة «اليخنة السبعينية» (1990)
تأليف بوكوفسكي، تشارلز
818 B932-1

حالما خَبا الحريق، بدأ مركز الإطفاء التحقيق. عُيِّنَ أعضاء فريق قسم الحريق المُتعمَّد الثلاثة للتحقيق في القضيّة، وانضم إليهم عملاء فيدراليون مختصون في شؤون الكحول، والتبغ والأسلحة النارية الصغيرة. وكان هناك عدد من المُحقّقين الذين يعملون سرّاً في المكتبة تحسّباً لعودة مُشعلي الحرائق إلى العمل. والباقون انتشروا في المنطقة المُجاورة، وأجابوا على مكالمات المعلومات، وتبعوا المؤشّرات، وبحثوا عن دليل.

أشاعت المدينة خبر عمليّة البحث عبر لوحات الإعلانات ومراكز الإذاعة. ومُستخدمو البلديّة المائة ألف كلهم عثروا على رسائل في مغلفات رواتبهم تطلب منهم معلومات وتقدِّم جائزة مقدارها ثلاثون ألف دولار. واتّصل أكثر من أربعمائة شخص أو أرسلوا معلومات بالبريد. كثير من تلك المعلومات لم تكن مفيدة. وإحدى المعلومات التي تكرَّرتْ كانت الإيحاء بأنَّ عملاء ليبيين يمكن أنْ يكونوا قد أضرموا النار لأنَّ العلاقات بين ليبيا والولايات المتحدة كانت مُضطربة جداً. وثمة معلومات أخرى كانت أكثر تحديداً:

«أيّها السادة، إنَّ مُفتعل الحريق الذي أحرقَ مكتبتكم هو... السيد ثيادور الخامس – الذي كان ممثلاً في الأفلام الإباحيّة... إنّه زعيم المافيا رقم واحد في ماساتشوستس... وهو أيضاً زعيم توزيع المخدرات وكان يوزّع المخدرات في أثناء وجوده في لوس أنجلوس!»

«أيها السادة الأعزاء، فيما يتعلّق بمفتعل الحريق في المكتبة، فكّروا في [الاسم محذوف] رقم واحد. هذا الشخص يُعاني من اضطراب عقليّ... اسألوا طبيباً نفسيّاً في هذا الشأن؛ سوف يشرح لكم أنَّ ذلك الشخص مجنون بلا أدنى شك»

«سيدي العزيز، إنَّ هذا الرجل، ريتشاردو. – ربما يكون قد أضرم الحريق بمكتبتك. إنّه يعتقد أنّه الله مُدرَك. وهو من مواليد برج الحمل. واعترفَ بأنّه ارتكبَ جريمة الاغتصاب مع عصابة من راكبي الدراجات النارية وقد يكون اغتال أشخاصاً آخرين. وفي العام الفائت قلت له أنْ يذهب إلى الجحيم، وأنْ يبتعد عني. وظلَّ يُضايقني لكي أكون صديقته المُخلصة، لأنه تعرَّضَ للكثير من الإجحاف. ولأنني شرقيّة. قال لي إنني ساحرة ولم يتبقَّ لي من الحياة أكثر من ثلاثة أشهر. إنْ قام هو... باستعارة الكتب خارجيّاً فسوف يكون مضمونها هو إدراك الله، والبوذيّة، وديانة الزن، أو السِحر. ربما لم يكن في نيّته أنْ يُعيد أيّاً من الكتب. ولذلك أحرقَ المكتبة لأنه لم يكن قادراً على إخراج أي شيء منها»

عَلِمَ المُحقّقون أنَّ وسيطاً روحانيّاً معروفاً في لوس أنجلوس، يُدعى غاري بومان، قد علَّقَ على القضيّة. كان بومان يبلغ من العمر خمسة وسبعين ألف عام ويعيش في أدغال أميركا الجنوبيّة مع قطيع من الخيول القزمة المسحورة وكان أيضاً يُقيم في لوس أنجلوس. كان مرشده الروحيّ هو يوحنا الرسول. وعندما تكلَّم يوحنا الرسول عبر بومان كانت له لكنة أستراليّة قويّة مزعجة. وعانقَ الجمهور بومان؛ كان برنامجه الإذاعي «*عبر إذاعة عاديّة*»، يحظى بجمهور واسع. وعندما علَّقَ على حريق المكتبة كان يتواصَل مع يوحنا الرسول.

المُحاوِر: هل يمكن تسمية أو التعرُّف على الأشخاص المتورطين [في حريق المكتبة]؟

بومان (بصوت يوحنا الرسول): نحن لا نهتم بفعل ذلك.

المُحاوِر: هل ستقع محاولات أخرى لحرق المكتبة؟

بومان/ يوحنا: نعم، في غضون ستة أشهر. سوف تقع محاولات أخرى لحرق المكتبة –المبنى القديم– في غضون ستة أشهر.

الجمهور (مع شهيق): لماذا؟

بومان/ يوحنا: لأنَّ [مرتكبي الجريمة] أغبياء. إنَّ دوافعهم هي في الحقيقة أنهم غاضبون... لذلك سوف يأخذون كل ما يعتبره الآخرون ذا قيمة ويسعون إلى حرمانهم منه لأنهم يشعرون بأنهم محرومون. هل تفهم هذا؟ وهكذا فإنَّ هذا ما يهدفون إليه... سوف يُحاولون من جديد في غضون ستة أشهر.

***

إنَّ التحقيق في الحريق المُتعمَّد صعب بصورة تُثير الغضب. حتى أضخم الحرائق يمكن إضرامها بقدح عود ثقاب واحد –واحد صغير، يمكن أنْ يمحوه الحريق الذي تسبّبَ به، يمكن للحريق أنْ يخبو ببطء. ومُشعِله لديه وقت كاف ليبتعد قبل أنْ يبدو أنَّ ثمة خطباً. وبداية حريق يمكن ألّا يكون أكثر من ذلك– ومض لهب، خيط رفيع من الدخان. ومع وصوله إلى ذروته،

يمكن لمُشعله أنْ يكون قد ابتعد كثيراً. من الصعب تخيُّل جريمة أكثر اكتمالاً من الجريمة التي يختفي سلاحها والتي يمكن لتنفيذها أنْ يبقى سرّاً. ومن بين الأعمال الإجراميّة الكبرى كلّها، الإحراق المتعمَّد هو الأقلّ نجاحاً في تنفيذه. ونسبة التجريم هي أقلّ من واحد بالمئة. ومُنفِّذ الإحراق المتعمَّد أمامه احتمال تسع وتسعين في المئة أنْ ينجو بجريمته.

إنَّ ما جعل التحقيق في قضيّة إحراق مكتبة أمراً صعباً جداً هو أنَّ الحريق حدث في مكان عامّ. وإذا لم تستعِر كتاباً، فإنَّ وقتك الذي تقضيه في المكتبة لا يُسجَّل ويبقى مجهولاً. وقد وقع حريق بعد فتح أبواب المكتبة العامّة بساعة. وكان قد دخل المبنى مئتان من مرتاديها، وليس هناك من سبيل لمعرفة عدد الأشخاص الآخرين الذين دخلوا وخرجوا قبل ذلك. إنَّ المكتبة مفتوحة أمام الجميع، وهذا يعني أنَّ كل شخص مُعرَّضٌ للشُبهة. وكان مستحيلاً على المُحقِّقين أنْ يحصروا تحقيقهم.

تمنى فريق مكافحة الحريق المتعمَّد من طاقم العمل في المكتبة أنْ يكونوا قد لاحظوا شخصاً ما يتصرَّف بصورة شاذّة في صباح ذلك اليوم، لأنَّ هذا سوف يوفّر لهم على الأقل نقطةً يبدؤون منها. وذكرتْ إحدى كبار أمناء المكتبة أنّها رأتْ شاباً غريباً أشقر الشعر يلج غرفة عمل الطاقم في صباح ذلك اليوم ويُعدّ لنفسه فنجاناً من القهوة. كان من السهل دخول غرفة العمل، ولكن من الواضح أنها لا تشكّل جزءاً من منطقة القسم العامّة. وقامتْ أمينة المكتبة بطرده. وفي قسم آخر، شوهِدَ شابٌ آخر -ربما هو الشابّ نفسه- يدخل المنطقة المحظورة. وعندما قامتْ أمينة المكتبة المُناوبة بتأنيبه، قال الرجل إنّه المُستخدَم الجديد وإنّه يُلقي نظرة على الرفوف. فرحَّبَت أمينة القسم بارتباك بانضمامه إلى فريق الطاقم وعاد إلى عمله. وفي الوقت نفسه تقريباً، شوهد شابٌ بين رفوف قسم التاريخ، المحظور دخوله على أي شخص ما عدا أفراد طاقم العمل. ولاحظت أمينة القسم وجوده فسألته إنْ كان مُستخدَماً، فأجاب بأنّه يبحث عن صحيفة. وتلكّأ مدة عشر دقائق ومن ثم استدار فجأة وغادر. وعند مدخل شارع هوب -الذي يستخدمه المُستخدَمون قبل أنْ تفتح المكتبة أبوابها- حاول شاب لا يضع رقعة تقول إنّه مُستخدَم أنْ يجتاز الباب، فأوقفه حارس الأمن وشرح له قائلاً إنَّ المكتبة

لم تفتح أبوابها بعد للعامة. فأجاب الرجل بأنّه يبحث عن جهاز هاتف، وبدأ يتوجّه إلى الداخل. فقبض حارس الأمن عليه من ذراعه وكرر قوله بأنّه لا يستطيع أنْ يدخل، فانتزع الشاب ذراعه من قبضة يد الحارس بغضب، ومن ثم استدار على عقبيه وغادر.

إنَّ حوادث التعدّي على المكتبة تلك لم تكن عاديّة لكنّها ليست خطيرة. فالشاب رضَخَ أخيراً لكل أمر صدر إليه بالمغادرة، ولذلك لم يعُد أحد إلى ذِكر ذلك الرجل، أو الحصول على اسمه، أو استدعاء المزيد من رجال الأمن. وكل حادثة لم تستمر أكثر من لحظة ولم تترك أي أثر يُذكَر. وكل ما تذكّره طاقم العمل هو أنَّ الشاب كان ذا طول قامة ووزن معتدلين وذا شعرٍ أشقر سُرِّحَ نحو الخلف بعيداً عن جبينه بتموجات ناعمة. وهذه المواصفات انطبقَتْ تماماً مع تلك التي أعطتها المرأة العجوز التي اصطدمت بشابٍ مندفع يُغادر المكتبة إبّان انطلاق صفّارة إنذار الحريق ووقعت على الأرض. واستناداً إلى هذه المواصفات، بدأ رسّام يضع الخطوط الأوّلية لشكله. والنتيجة كانت صورة رجلٍ في عشرينيات عمره بعينين جاحظتين وواسعتين، وأنفٍ ضخم، وشارب يشبه شارب حيوان الفظّ، وشعر أشبه بنسخة أقصر من شعر المُمثّلة فرح فاوست في مسلسل «*ملائكة تشارلي*».

***

أين كان هاري بيك بعد 29 نيسان، عام 1986؟ حسب علمي، بقيَ على أساليبه المتمهّلة المعتادة، يقبل أعمالاً غريبة هنا وهناك، ويتسكّع مع الأصدقاء، ويحضر جلسات استماع للقيام بأدوار تمثيليّة، ويحلم. كان يؤدي مهامّ لمُحامٍ اسمه ليونارد مارتينت يُقيم في سان فرانسيسكو. وفي ذلك الوقت لم يعد هاري وديميتري هيوتيليس متلازمين، لكنّهما ظلّا صديقين. وافتتح هيوتيليس وكالة لخدمة سيارات الليموزين وكان أحياناً يستخدم هاري كسائق. وكما هو الحال مع أي شيء يتضمَّن هاري، كان لهذا التعاون ثمن. في إحدى المرّات اقترح هاري أنْ يقوم بتغيير الزيت لإحدى سيارات الليموزين. فأفرغ المُحرِّك، ومن ثم، وقبل أنْ يضع الزيت الجديد، أخذ يتجول قليلاً ليدخّن سيجارة. ربما دخَّنَ بعد ذلك سيجارة أخرى، أو ربما تمشّى: على أيّة حال، غاب عدّة ساعات. وفي تلك الأثناء، ركب أحد

السائقين سيارة الليموزين وهو لا يعلم أنّها خالية من الزيت. وبعد أنْ سار بضعة أميال، انفجر المُحرِّك. أخبرني هيوليتيس هذه القصّة وتنهّدَ بعمق. قال «هكذا هو هاري، يقوم بأمور حمقاء كهذه»

في يوم الحريق، كان هيوتيليس يجلس على طاولة الخادم في فندق شيراتون، يتحدث مع صديق. ورنَّ جرس الهاتف. كان المتكلِّم هو هاري، وبدا التوتّر على صوته. أصرَّ على أنَّ هيوتيليس يعرف أين أمضى فترة الصباح. وانتظره هيوتيليس لكي يبدأ بسرد إحدى قصصه التي تدور حول ذهابه للشرب مع شخصٍ على غرار الممثل جاك نيكلسون أو الممثل نيك نولت. لكنّه بدل ذلك، أعلنَ أنّه كان موجوداً في أثناء نشوب حريق المكتبة. وتحدث عن فداحته، وكيف أنّه تأثّر بالحرارة إلى درجة أنَّ رجلَ إطفاءٍ وسيماً حمله وأخرجه من المبنى. وبدت القصّة معقولة، ولكن لا معنى لها. لم يستطع هيوتيليس أنْ يتخيَّل وجود هاري في المكتبة؛ لم يتذكَّر أنّه شاهد هاري يقرأ كتاباً. كان هاري يحبّ أنْ يُقحِم نفسه في أي حدث عام، لذلك تركه هيوتيليس ينسج القصّة بعض الوقت ومن ثم طرحها من تفكيره، كما فعل بالعديد من حكايات هاري.

لابد أنَّ سماع القصة بصوتٍ مرتفع أضاء شيئاً في هاري. لعلّه استمدَّ بعض المتعة من إصغاء أحدهم إليه، وبعض الإثارة من كونه شخصية تؤدّي دوراً في دراما كئيبة. وفي تلك الليلة، عاد إلى سانتا فِه سبرينغز وتعاطى المُخدِّر وثمِلَ مع أصدقاء من أيام المدرسة الثانويّة. أخبرهم عن الحريق؛ هذه المرّة كانت قصّته أكثر فخامة بقليل. قال إنّه كان وسط النار، وثمة رجل إطفاء وسيم حمله إلى الخارج، ثم أضاف، ارتجالاً، أنّه هو الذي أضرمَ النار. كان حديث شخصٍ مخمور، يمكن طرحه بسهولة، وشكَّ أصدقاؤه فيه، لكنَّ هاري أصرَّ على أنَّ حكايته صحيحة. وعندما عاد هاري إلى لوس أنجلوس، أخبر زملاءه في الغرفة نسخة أخرى من القصّة. قال إنّه كان في المكتبة يقوم ببحث لشركة مارتينت القانونيّة، وبعد بدء الحريق، ساعد امرأة عجوزاً على الهرب من النافذة. ثم حمله رجل إطفاء وسيم إلى خارج المبنى.

ظلَّ يُكرّر القصّة، وفي كل مرَّة يُعدِّل فيها قليلاً، كأنّه خيّاط يعمل على إدخال تعديلات على سترة، يقصّ قليلاً من القماش هنا، ويفكّ درزة هناك،

ثم يخطو قليلاً إلى الخلف لكي يرى ما هو الأفضل. وأخبر دنيس فاينز بأنّه كان موجوداً في المكتبة في صباح ذلك اليوم لأنّه كان يقوم ببحث حول كيفيّة التقدُّم لطلب وظيفة في دائرة رسميّة. لم يكن فاينز قد سمع هاري أبداً يتكلَّم عن المكتبة. وتخيّلَ أنَّ ذلك مجرد جزء من تباهي هاري، بما أنّه كان يحبّ أنْ يُقحِم نفسه في أي شيء زاخر بالأحداث. وكان لفاينز عادة تقصّي حقيقة هاري، فطلبَ منه بعض التفاصيل عن المكتبة - أشياء بسيطة، على غرار موقع المدخل. ولم تكن لدى هاري أيّة فكرة عن ذلك. وهذا أقنع فاينز بأنَّ هاري يكذب. وقرَّر أنّه لابد أنَّ هاري شاهد سيارات الإطفاء في المدينة وقرَّر أنّه سيكون شيئاً مُسلياً إذا قال إنّه كان حاضراً هناك.

***

قبل وقتٍ قريب أخبرني تيري ديباك، وهو أحد المُحقّقين في حريق المكتبة، أنَّ القضية أثارتْ سخطاً غير عاديّ. فالأدلّة كلها كانت فاشلة، إذ لم يكن لدى المُحقّقين أي دليل أو شاهد عيان. ولا كان لديهم أيّ حافز، على الرغم من أنَّ ديباك مالَ إلى افتراض أنّه كائناً مَنْ كان مُفتعل الحريق فإنه كان «في الجانب الحارّ». وكان وصف أمناء الأقسام للمتعدّي صانع القهوة هو الشيء الوحيد الذي شوهد ويُثير الشك المُحتمَل، لكنّه لم يكن مفيداً حقاً. وأجمعَ الأمناء كلهم على أنْ يقولوا بيقين إنَّ شخصاً ما شوهدَ في مكانٍ ما لا يحقّ له أنْ يوجَد فيه في صباح يوم بدء نشوب الحريق.

بعد إخماد الحريق بشهر، اتّصلت امرأة اسمها ميليسّا كيم بخط إعطاء المعلومات وقالتْ إنَّ رفيق أخيها في الغرفة يُشبه تماماً الرجل صاحب الرسم التخطيطيّ المُركَّب. وقالت أيضاً إنَّ رفيقه في الغرفة، هاري بيك، أخبر أخاها بأنّه كان موجوداً في المكتبة في وقت نشوب الحريق. قالت إنَّ هاري تقدَّم مؤخراً بطلب عمل في مركز إطفاء سانتا مونيكا لكنّه لم يستطع أنْ يجتاز الامتحان. ورأى ديبك أنَّ المعلومة بدت مُثيرة للاهتمام، ونقلها إلى جو نابوليتانو، وهو مُحقّق متقاعد كان يُقدّم يد المساعدة في القضيّة. للوهلة الأولى، لم يبد هاري بيك واعداً كمُشتبَه به. إذ لم يكن هناك ما يربطه بالمكتبة. بدا أنّه يُشبه أي شاب آخر من آلاف الشبان الذين ينشطون في أرجاء لوس أنجلوس، يتنقّلون بين الأعمال، ومن شقّة إلى أخرى، عاجزين

قليلاً وحالمين، يُنعشهم مخزونٌ مُستمرّ من الأمل والشمس. لكنَّ نابوليتانو خُدِعَ بكون هاري أخبر أحدهم بأنّه كان موجوداً في المكتبة في ذلك اليوم، بالإضافة إلى كونه تقدَّم بطلب عمل كرجل إطفاء. وعلى غرار سيئ السمعة من غليندیل جون ليونارد أور، فإنَّ رجال الإطفاء مُفتعلي الحرائق موجودون، وهي مشكلة صعبة ومُحيِّرة في أوساط رجال الإطفاء. في كل عام يُلقى القبض على مائة منهم، وِفقاً لِما ورد في كتاب «*رجال الإطفاء الذين يفتعلون الحرائق - مُفتعل الحرائق في مركز الإطفاء*»، الذي نشره مجلس الإطفاء الطوعي الوطنيّ في تسعينيات القرن الماضي. وعلى الرغم من أنَّ هاري لم يكن رجل إطفاء، فإنَّ المعلومة أوحَتْ بأنّه أبدى اهتماماً، وربما هناك ما دفعه إلى القيام بعملٍ انتقاميّ لأنه لم يتمكّن من اجتياز الامتحان. وهو أيضاً تطابقَ مع مواصفات رجل الإطفاء مُفتعل الحرائق النموذجيّ، الذكَر الأبيض المعتاد الذي يتراوح عمره بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين.

قررتْ فرقة مكافحة الحرائق المُفتعلة أنْ تضع هاري تحت المراقبة. ولاحظَ هاري أنّه مُعرَّض للمراقبة. وبدل أنْ يضطرب عندما لمح المراقبين جالسين في سيارة خارج منزله، تحدث معهم ودعاهم إلى شرب القهوة وأكل الفطائر. ولابد أنَّ الوضع بدا له غير حقيقيّ، أشبه بمشهد في فيلمٍ سينمائيّ غريب الأطوار يقوم فيه بدور البطولة. أو أشبه بشيءٍ يمكنه التخلّص منه، وهذا ما يُحسِن فعله.

بعد مرور عشرة أيام على اتّصال ميليسّا كيم بخط الإدلاء بالمعلومات، اتّصلتْ أمّها بنابوليتانو. أولاً، سألتْ إنْ كانت جائزة الثلاثين ألف دولار لا تزال معروضة. وعندما قيل لها إنها كذلك، قالت إنها قامت بزيارة ابنها مؤخراً وشاهدتْ هاري بيك، ولاحظتْ أنّه قصَّ شعره وحلقَ شاربه، كأنّه يحاول أنْ يُغيِّر مظهره. وأضافتْ أنَّ هاري اتّصل بها في اليوم التالي لزيارتها وهو يصرخ «إنه ليس بقّة نار» وأنَّ «مجرّد أنه كان في المكتبة في يوم الحريق وبدا أشبه بالرسم المُركَّب لا يعني أنّه أضرم النار»

قرَّر نابوليتانو أنَّ الوقت قد حان لاستجواب بيك. وذهبَ هو وتيري ديباك إلى منزل بيك في هوليوود لإجراء حديث. فأخبرهما هاري بأنّه متوتر، وأنّه قلق لأنه يُعتبَر مُشتبَهاً به. سأله ديباك أين كان في يوم اندلاع

الحريق، فقال هاري إنّه كان في المكتبة. قال إنّه نزل إلى المدينة ليؤدي مهمّة لمارتينت ويبحث عن مكان يتناول فيه وجبة الإفطار. ورأى المكتبة فقرَّر أنْ يدخل إليها لأنها كانت بناءً جميلاً. وأمضى ما يُقارب نصف الساعة يتجول في المكان ويستمتع به. وبين الساعة العاشرة والحادية عشرة صباحاً شمَّ رائحة دخان وسمعَ شخصاً يصرخ «حريق». ووسط اندفاعه لكي يخرج من المكان، ارتطم بامرأة عجوز لكنّه توقف لكي يُساعدها على النهوض ومن ثم سار بها خارجاً إلى الرصيف. وقال إنّه عندما أصبحَ في الخارج، رأى قاضي المحكمة العليا الذي يعرفه، وتوقفا معاً وراقبا المبنى يحترق.

بعد أن انتهى، أخبر هاري دياك ونابوليتانو أنّه يُراهن على أنَّ الذي أضرمَ النار لم يكن في نيّته أنْ يكون الحريق ضخماً جداً. ودوَّنَ المُحققون تصريحه ولاحظوا التناقضات. فلا أحد شمَّ رائحة دخان مع بداية الحريق لأنه لم ينبعث أيّ دخان على مدى ما لا يقلّ عن نصف ساعة بعد انطلاق صافرة الإنذار، ولا أحد صرخ قائلاً «حريق» لأنّه لم تُشاهَد أية نيران إلّا بعد أنْ أُخليَ المبنى. ثم سأل دياك هاري إنْ كان مؤخّراً قد قصَّ شَعره وشاربه. فتردَّدَ هاري. كان شخصاً يتأنّق في ملبسه ويُثير الجلبة حول مظهره، ويُبدي افتخاراً خاصّا بشَعره الأشقر، لكنّه أخبر المُحقّقين بأنّه ببساطة لا يتذكَّر.

-16-

«هوليود بابل» (1975)
تأليف أنغر، كينيث
812.09 A587

«كيف ترسم أبنية» (2006)
تأليف بيسانت، بام
X 741 B368

«في ذكرى أعظم انتصار هندسي في كل العصور والإنجاز الأشدّ روعة في التجربة الإنسانيّة على مدى التاريخ: إنشاء قناة بنما، معرض سان دييغو بنما-كاليفورنيا يفتح أبوابه واسعاً ويدعو العالم» (1915)
Folio 917.941 S218-4

«طبل الإله وقصص أخرى من الحكمة الهنديّة: قصائد بقلم هارتلي ألكسندر» (1927)
تأليف ألكسندر، هارتلي بر
811 A376

بعد طرد تشارلز لميس من منصبه في المكتبة، قام الموسوعة البشريّة بمحاولة فاشلة لاستعادة ذلك المنصب. وبدل ذلك اختارت الهيئة الإداريّة أميناً هادئاً، رقيق الوجه، من ميسوري اسمه بيرد رايت، قام بتنظيم الفوضى

التي خلّفها لميس ومن ثم استقال بعد مرور فقط ثمانية أشهر لكي يتولّى عملاً آخر في مكتبة في كنساس سيتي. كان خليفته، الذي مكثَ في المنصب أكثر من عشرين عاماً، اسمه إيفريت روبتز بيري، رئيس مكتبة أستور في مدينة نيويورك. وكان بيري ضئيل الجسم بجبين مهيب وتحديق ثاقب، فكرته عن الملابس المريحة هي بذلة بثلاثة أزرار وربطة عنق طويلة. كان هادئاً بقدر ما كان لميس صاخباً. وبعد إجراء الحديث مع بيري لاحظت الإدارة «أنّه منهمك في العمل. يُصغي جيداً: ولا يتكلّم كثيراً... أساساته صلبة كحجارة غرانيت نيو إنغلند القديمة؛ ليست المُخيّلة والروح الخلّاقة من طبيعته». وشكّت الإدارة في أنّ يكون «عبقريّاً» في عقد الصداقات ويكاد يخلو من أيّة حياة انفعاليّة داخليّة لكنّها شعرتْ بأنّه يصلح أنْ يكون أمين مكتبة ممتازاً في المدينة. في الحقيقة، كان بيري متحمّساً، لكنَّ حماسته كانت تتركّز حصراً على حبّه للمكتبات، وكان يحكم على الناس بقدر مُشاركتهم له في الحماس. كان طاقم العمل في مكتبة لوس أنجلوس مولعاً به. وكانوا يُسمّونه الأب بيري.

حينئذٍ، كانت المدينة مكاناً نابضاً، مزدهراً، تنمو بسرعة كبيرة بحيث إنّها تمحو نفسها وتُعيد بناءها في كل دقيقة. وقد تفجّرت، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، صناعة البترول في جنوب غرب كاليفورنيا في عام 1903 وسرعان ما قادت البلاد. وبدأتْ صناعة السينما في عام 1910 مع إنتاج فيلم د. و. غريفيث «*في كاليفورنيا القديمة*» ثم توسّعت. كانت المدينة خليطاً، مزيجاً من الرجال الغلاظ، والنجوم الصغيرة، والمُهاجرين، والضاربين على الآلة الكاتبة، ورعاة البقر، وكتّاب سيناريوهات الأفلام، وعمال تحميل وتفريغ السفن، وعائلات المزارعين، يتدفّقون من كل مكان، ويتخذون لهم زاوية، يحشدون حيويتهم أو لا يفعلون، وينضمّون إلى النزاع. وكان تمدُّد المدينة سريعاً إلى درجة تُثير الأعصاب. كما ينبثق الورم. وكان الإشراق والحيويّة يزدادان بقوة إلى درجة أنهما كانا ينطويان على غرابة، على شيء يخرج عن نطاق السيطرة. حتى هوليوود اللامعة، الصقيلة كانت تنطوي على إدمان المُخدرات، والكحول، وفضائح جنسيّة، وجرائم قتل. كان حسٌّ باليأس والعزلة يكمنُ فيها. وفي عام 1920، توفيَت إحدى فتيات زيغفيلد، أوليف

توماس، التي كانت متزوجة من شقيق الممثلة ميري بيكفورد، جاك، بعد أنْ تناولت جرعة زائدة من دواء زوجها المُصاب بالسفلس. وفي عام 1921، أُلقيَ القبض على الممثل فاتي أربكل بتهمة اغتصاب واغتيال ممثلة طموح اسمها فيرجينيا راب، كانت ثملة وتتعاطى حقن المورفين في وقت اغتيالها. وفي العام التالي، عُثِرَ على المُخرِج وليم دزموند وقد اخترقَ ظهره طلقٌ ناريّ.

عديدٌ من الناس جاؤوا إلى لوس أنجلوس خالي الوِفاض، ويتوقّعون كل شيء. كانوا يبحثون عن كل ما هو مجّانيّ. وقد استوعبت المكتبة هؤلاء الوافدين الجُدُد. وتضاعفَ توزيع الكتب في منظومة لوس أنجلوس ثلاث مرّات. وفي عام 1921، تمّت استعارة أكثر من ثلاثة ملايين كتاب خارجيّاً – أي بمعدَّل حوالي ألف كتاب في الساعة. وفي اليوم العادي، كان يجتاز أبواب المكتبة عشرة آلاف شخص. كان أمناء الأقسام يُلبّون متيّ ألف طلب. وفي الغالب اقتصرتْ مناطق القراءة على غرفة خاصّة بالوقوف. وكان مزيج روّاد المكتبة مُنسّقاً كالمدينة نفسها. وفي ساعة قصة الأطفال، التي كانت تُعرَف بساعة المتعة بالنسبة إلى الصِغار، وحسب ما ورد في صحيفة *تايمز*، «يدخل المدلّلون المحبوبون من الطبقة الثريّة جنباً إلى جنب مع الأطفال الفقراء بملابسهم الرثّة... والطفلة المُدللة الثريّة التي ترافقها مربّيتها لكي تقرأ لها القصص نفسها كما تفعل المربّية الروسيّة أو الإيطاليّة التي تجلب معها طفلة قذرة كمرافقة». وخلال ساعة تناول الغداء، يقفُ رجال الأعمال صفّاً واحداً على طول الجدران، جنباً إلى جنب، ببنطلونات مُخطّطة وربطات عنق، يُقلِّبون صفحات المجلات والكتب.

كان هوس تطوير الذات وإعادة خلقها يضجّ في ذلك المكان الجديد والنضر القابع وسط الصحراء القاحلة. وكانت المكتبة تشكّل جزءاً من ذلك الهوس، بما أنّها تزوّد بأدوات صياغة حياة جديدة. وفي عام 1925، قام رجلٌ، اسمه هاري بيدجون، برحلة بحريّة وحده حول العالم، ليُصبح فقط الشخص الثاني الذي يُنجِز ذلك. وقد حصل على خطط بناء قاربه ومعظم معرفته البحريّة من الكتب التي استعارها من مكتبة لوس أنجلوس العامة. كان قاربه المُسمّى «*ساكن الجزيرة*»، يُلقَّب بـ «*ملّاح المكتبة*».

***

حينئذٍ، كانت المكتبة تعمل في لوس أنجلوس منذ أربعين عاماً، وقد عكسَتْ واجتاحت المدينة والعالم المُحيط بها. وفي العام الذي أدّى إلى فرض قانون تحريم الخمر، عندما أصبح تحريم شرب الخمر أمراً محتوماً، تمّت استعارة كل كتاب يضم طرق صناعة الكحول في المنزل خارجياً، ومعظمها لم يُسترجَع قط. (ربما ما حثّ الإقبال الهائل على تلك الكتب هو مقالة صحيفة لوس أنجلوس، كتب المكتبة التي تتحدث عن الخمر قد تضيع، التي قالت إنّه إذا طُبِّق قانون التحريم، فسوف يتمّ تدمير كل كتاب يتحدث عن صناعة الخمر منزليّاً). ونشبتِ الحرب، ووجدتْ طريقها إلى المكتبة، أيضاً. وفي عام 1917، أنشأتْ رابطة المكتبة الأميركيّة قنصليّة حرب المكتبة، وعُيِّنَ إفريت بيري رئيس القسم الجنوبي الغربيّ. وأخيراً جمعت القنصليّة ستمائة ألف كتاب لكي ترسلها إلى القوات الأميركيّة فيما وراء البحار وقدَّمتْ رابطة المكتبة الأميركيّة برنامجاً آخر لزمن الحرب حول البلاد. أقسمت على «أنْ تقاتِلَ الأوهام الحمراء» وأنشأتْ ورشاً حول أخطار البلشفيّة لكي تُحذِّر روّاد المكتبة من تبنّي الأفكار اللاوطنيّة. وكجزء من ذلك الجهد المبذول، أصدر بيري تعليماته لأمناء الأقسام بالتخلُّص من أي كتاب «يمتدح الثقافة الألمانيّة» المبثوثة داخل بعض كتب التاريخ الألمانيّ. وامتدحت رابطةُ المكتبة الأميركيّة مكتبةَ لوس أنجلوس على برامجها الخاصة بالحرب، خاصة على المساعدة في «أمركة» العديد من المهاجرين في المدينة، بتشجيعهم على القراءة بالإنكليزيّة والاشتراك في مجموعات المكتبة. وفي مقالة نُشِرَتْ في النشرة العامة، هنّأت المنظّمة المكتبة لاستضافتها حدثاً تحدّثتْ فيه «امرأةٌ يهوديّة ذات ثقافة عالية [حول] الأدب الإنكليزيّ أمام جمع واسع من قومها... وأولئك اليهود أصبحوا الآن منهمكين في قراءة زبدة الأدبَين الأميركيّ والإنكليزيّ!» ولسبب ما، انتهت القصّة بلائحة من التفاصيل الغريبة، شبه السرياليّة حول عادات القراءة في المدينة، كحقيقة أنَّ الصينيّين في لوس أنجلوس منحازون إلى الأدب اليوناني، وأنَّ رجال المطافئ يحبّون الكتب التي تتحدث عن الأرانب.

في ذلك الوقت، كانت المكتبة –والمكتبات في أرجاء البلد– قد أضحتْ جزءاً لا يتجزّأ من المشهد العامّ الأميركيّ، ونقطة اتصال حضاريّة، ومحطّة

في الحياة العاديّة. الجميع يتجوّلون في أنحاء المكتبة. في ذلك المكان، تقاطع الطرق ذاك، يمكنكَ أيضاً أنْ تعثر على شخص كنتَ قد أضعتَه. وأحياناً كان أناسٌ يفتّشون عن أحبّائهم المفقودين يكتبون رسائل ويضعونها في كتب المكتبة آملين بذلك أنْ يعثر الشخص المفقود على الرسالة – وكأنَّ المكتبة أصبحتْ محطة بثّ عام، سيلاً من المكالمات الهاتفيّة والإجابات المرتقبة. وكانت حواشي الكتب تمتلئ بمناشدات بالقلم الرصاص رُميَتْ إلى اليمّ المفتوح للمكتبة. قالتْ إحدى الرسائل على صفحة في أحد الكتب في مكتبة لوس أنجلوس في عام 1914، «عزيزتي جيني: أين تختبئين؟ لقد فتّشتُ في ثلاث مدن عنك ووضعت إعلانات بلا طائل. ولمّا كنتُ أعلم أنكِ تحبّين الكتب، فإنني أكتب هذا النداء في كل كتاب في مكتبة يقع بين يديّ آملاً بذلك أنْ يمرّ تحت ناظريك. اكتبي لي على العنوان القديم، أرجوك»

***

لا أحد كان متيقّناً تماماً ما إذا كان هذا المكان المزدحم، المتَّسِع والممتد هو في الحقيقة مدينة. لم تكن لوس أنجلوس تشبه في أي شيء مدنَ الغرب الأوسط والشرق القديمة، وكان شكلها كأنما صاغته قوة نابذة ولم ينشأ من جوهر متين. والمدينة الجديدة كانت مندمجة مع مزارع المواشي القديمة. كانت لا تزال توجد بساتين برتقال داخل المدينة. لقد كانت المدينة الكبرى الوحيدة في البلد، وأكبر مدينة على الشاطئ الغربيّ، وخالية من مبنى مكتبة رئيسيّ بارز. وفي عام 1914، قام إيفريت بيري بالاستعدادات اللازمة لنقل المكتبة من مبنى الهامبرغر الذي كلَّفَ غالياً إلى مبنى مجاور أقلّ تكلفة، حيث تتقاسم المكتبة المكان مع صيدلية ومتجر للبقاليّة. ولم يكن ذلك مناسِباً. وفي عام 1921، عُرِضَتْ قضيّة الكفالة على بناء منشأة المكتبة على اقتراع المدينة. والحملة التي دعمت القضيّة شدّدتْ على مذلّة كونها مدينة بلا مقومات مدينة نموذجيّة، وعلى أنّها مجرّد بقعة متقرّحة في مدينةٍ كانت تحاول أنْ تؤمن بأنّها مدينة حقاً. وإحدى النشرات قالت «اكبري، يا لوس أنجلوس!»، وحثّت نشرة أخرى، «احصلي على مكتبتك العامة الخاصّة بك واحتلّي مكانك بين المدن المتقدّمة! وأنتَ يا مَنْ تدفع الضريبة العاديّة، ادفع خمسين سنتاً في العام وأزِل هذه الوصمة عن اسم لوس أنجلوس!».

وعُرِضَ شريطٌ سينمائيّ قصير يبيّن غرف القراءة الممتلئة حتى آخرها في دور السينما في أرجاء المدينة. وأعلنَ أحد المنشورات الداعمة قضيّة الكفالة بكل خشونة:

هناك أسبابٌ كثيرة تبرِّر حاجتنا

إلى مقرّ محترم للمكتبة

لأنَّ كل مدينة تحترم نفسها لها مقرّها الخاص لمكتبة عامّة. إنَّ مدينتَي سان فرانسيسكو وسياتل تجعلاننا نبدو كأننا قرية بمقرَّي مكتبتيهما، وهما أفضل برهان على تطوّرهما الثقافيّ. في وسعهما أنْ تقولا «إنَّ لوس أنجلوس لم تتقدَّم بالقدر الكافي بحيث تهتمّ بإنشاء مكتبة عامة من الطراز الأول»، ونحن نطأطئ رؤوسنا من الإحساس بالعار والخزي.

نشر مؤرِّخ محلّيّ اسمه لوثر إنغرسول رسالة حماسيّة يدعم فيها إنشاء مبنى للمكتبة. في الرسالة الخطيّة التي كانت تحت عنوان «خِزينا العام»، ناشد إنغرسول الجمهور بمحو «المهانات التي لا تُحتَمَل» التي انهالت على المواطنين كلّهم بسبب مكتبة لوس أنجلوس غير الكفوءة. وأشفقَ على أمناء الأقسام لأنهم محشورون داخل أحياء «يكتنفها سمك القدّ، والبصل، وشرائح لحم الهامبرغر وجبن اللمبرغر»

ونجحتْ قضية الكفالة، ومرّتْ بنسبة موافقة بلغتْ واحداً وسبعين بالمئة. لكنها لم تجمع إلّا مبلغ 2.5 مليون دولار من أجل إنشاء مبنى للمكتبة، وكان مبلغاً تافهاً: على سبيل المثال، كان نصيب مبنى مكتبة نيويورك العامة تسعة ملايين دولار من أصل ميزانيّة الإنشاء. والكفالة لم تكن حتى كافية من أجل شراء كامل الأرض التي عُرِضَتْ لتكون موقعاً للمكتبة. وفي عام 1923، عُرِضَ الاستفتاء العام الثاني على المُقترعين، من أجل تسديد ثمن ما تبقّى من قطعة الأرض. وأقامت المدينة مسابقة من أجل اختيار شِعار يدعم الاستفتاء. من بين الشِعارات، مثلاً، «هيه ديدل ديدل / القطّة والكمان / البقرة قفزتْ من فوق القمر / لكنَّ المكتبة لا تستطيع أنْ تقفز / لذلك علينا نحن المُقترعين أنْ ننحني / لكي نحرص على أنْ تكون هناك مساحة كافية»:

لكنَّ الشِعار الفائز كان إعلاناً بسيطاً، «سوف تكون المكتبة لك / اجعلها أمراً ممكناً / صوِّتْ بـ«نعم» على اثنين». وانتهى الاستفتاء، وأخيراً، حصلتْ لوس أنجلوس على المال من أجل البدء ببناء مكتبتها الخاصّة.

***

كأشياء كثيرة في لوس أنجلوس، بدأت المكتبة بإجراء تجديد. كان معظم طوبوغرافيا المدينة قد انهار واكتنفته سلاسل من التلال. وذات يوم كانت التلال بارزة كالمعالِم. ولكن عندما بدأت المدينة تتطور، بدأ النظر إلى التلال على أنها أشياء مزعجة ينبغي الزحف فوقها والبناء حولها، وأنّها تُعيق نمو المدينة لأنها شديدة الانحدار ولا تدعم المنشآت الكبيرة. كانت المناطق المُسطّحة على غرار هوليوود وواتس تنمو بسرعة أكبر بكثير من قلب المدينة، بسبب هذه الطبوغرافيا الوعرة. لقد أعاقت التلال المُطوِّرين. وفي عام 1912، عرضَتْ إحدى مجموعات العمل مدّ خط أنابيب من المحيط الهادئ إلى مركز المدينة، واستخدام مياه البحر المتدفّقة خلال الأنابيب من أجل إزالة التلال. واقترحت مجموعة أخرى رفع التلال باستخدام رافعات هيدروليكيّة ومن ثم إبعادها، أو استخدام أسطول من الحفّارات الميكانيكيّة لتجرفها بعيداً.

المبنى الذي اختير لإقامة المكتبة فيه كان يقع بين شارع فلور وجادّة غراند، ويحدّه الشارعان الخامس والسادس. كان يقوم على الجناح الجنوبيّ من بنكر هيل ريدج وكان شديد الانحدار إلى درجة أنّه شكَّلَ مَعْلَماً طوبوغرافياً بارزاً يُعرَف باسم التل العاديّ. كان شديد الانحدار بحيث لا يصلح من أجل شيءٍ بحجم المكتبة المُقترَحَة، لذلك غُرِزَتْ فيه مجارف تعمل بالبخار، وأخذت تجرف حتى لم يتبقَّ غير أرض مستوية مع زاوية ليّنة على جانب جادّة غراند. (أخيراً، تمَّ حتّ العديد من تلال المدينة الأخرى أو تسويته بالأرض. وتل بنكر هيل نفسه أُخفِضَ بمقدار ستين قدَماً)

والمُرشَّح الذي انتُقِيَ لكي يُصمِّم مبنى المكتبة كان مُهندساً معماريّاً من نيويورك اسمه بيرترام غوذهيو، وكان قد لفتَ الانتباه لتصميمه معرض بنما-كاليفورنيا 1915 في سان دييغو، وهو عبارة عن منظومة مُشمِسة من الأبنية

بجدران جصّيّة مُسوّاة، وسقف من الطين، وزخرفة غنيّة. وأصبح التصميم معروفاً إلى درجة أنّه ألهمَ انبعاث حركة الهندسة المعماريّة الإسبانيّة في جنوب كاليفورنيا وما بعدها.

كان غوذهيو نحيلاً ولطيفاً، ذا بشرة جديرة بفتاة، وشعر متموّج مائل إلى اللون الأصفر، وتكتنفه سِمة مأساة توشك أنْ تحدث. وُلِدَ في كونكتيكت، وفي سن الخامسة عشرة، بدأ يتدرَّب في شركة إنشاءات هندسية في نيويورك. وإلى جانب الهندسة المعمارية، برع في تصميم الكتب وفي الطبوغرافيا. ابتكر نمط تشيلتنهام، وهو أحد أشهر أنماط كتابة الأحرف في العالم؛ وقد استخدمته صحيفة *نيويورك تايمز* طوال عقود كأسلوبٍ في كتابة أحرف عناوينها الرئيسيّة. كان مُدمناً على العمل وغالباً ما كان يقضي ساعات طوالاً على طاولة التخطيط. وكان أيضاً كئيباً وعُصابيّاً، ويُعاني من أوجاع مبهمة، من آلام لا تفسير لسببها، ومن قلقٍ مُنحرِف. كان يتذبذبُ بين نوبات من النشوة، تظهر عندما يقف أمام فنّ عظيم، ويتعرَّض لموجاتٍ من الكآبة. وكان أصدقاؤه يعتبرونه متقلّب المزاج وشاعرياً. وفي أوقات فراغه، كان يستمتع برسم رسومات أوّليّة مُعقّدة لمدنٍ وهميّة.

من أوائل الأبنية التي صمّمها غوذهيو كانت كنائس على النمط القوطيّ الجديد وأبنية سكنيّة بخطوط أسطح مُدبّبة وزخرفة شعريّة دقيقة من الحجر. وفي عام 1892 بدأ حسّه الجماليّ يتغيَّر، وذلك بعد أنْ قام بزيارة للمكسيك ولإسبانيا ووقع في حب الألوان البرّاقة وغِنى الهندسة المعماريّة. وفي عام 1902، سافر إلى مصر وإلى شبه الجزيرة العربية وافتُتِنَ بالقِباب وبإدخال حجر القرميد إلى الأبنيّة الإسلاميّة. وقام بزيارة كاليفورنيا للمرّة الأولى في بداية القرن العشرين. ولدى عودته إلى نيويورك، أخبر أصدقاءه بأنّ كاليفورنيا سحرته وبأنّه توّاق للعودة إليها. لكنّه فوجئ بأنّ لوس أنجلوس مكان غريب. ووصفها في إحدى رسائله بأنّها «مدينة كبيرة بصورة مؤلمة لا يسكنها بالمعنى الحرفيّ أيٌّ من أبناء الغرب الذهبيّ الأصليين، بل رعاع متنافرون من نجوم ونجمات سينما ومُهاجرون من كنساس، ونبراسكا، وأيوا...»

حالما انتهى من العمل على معرض بنما – كاليفورنيا، استقلَّ غوذهيو الطائرة للمرّة الأولى، والمشهد الذي أطلَّ عليه من السماء قلبَ كيانه.

دُهِشَ من قوة الأشكال البسيطة، الجريئة، البارزة من المشهد العام القصيّ، ومن مدى عمقها حتى من علوّ ميل. لقد غيّر ركوب الطائرة فكرته عن الأبنية. وكانت المهمّة التالية التي تولّاها هي مبنى كابيتول ولاية نبراسكا. وكان تصميمه أكثر انسيابيّة وهندسيّة بكثير في خطوطه من الأبنية السابقة التي صمّمها، وكانت ذات قاعدة حجريّة عريضة ومنخفضة وبرج ناطح للسحاب. وعلى براري نبراسكا، كان ينهض كصرحٍ من عصر الآلة، كمنارة من حجر الآجرّ. ومن السماء، كان ذا حضور جبّار.

وبدأ غوذهيو يُقلِّب التفكير في أنَّ على المبنى أنْ يكون أشبه بكتاب – أشبه بكيانٍ يمكن «قراءته». لقد أراد أنْ يكون شكل البناء، وفنّه، ومُسطَّحاته المزخرفة، ونقوشه، وحتى المشهد العام المُحيط به متصلاً بعضه ببعض في وحدة واحدة تعكس الهدف من البناء. مُدرِكاً أنَّ المبنى سوف يكون طاغياً. كل ما حوله سوف يعمل معاً لكي يحكي قصة الهدف من إنشائه.

هذا النوع من التصميم والزخرفة الفريدين نموذجيّ في الأبنية الدينيّة، لكنّه نادر في البناء المدنيّ. وكان غوذهيو يعلم أنها مهمّة مُعقَّدة؛ وبدل أنْ يُصمِّم ببساطة شكل البناء، اضطرَّ إلى أنْ يضع في حسبانه مساحته الداخليّة، والأرض المُحيطة به، والفن الذي في داخله. أدركَ أنَّ مثل ذلك المبنى يحتاج إلى فريقٍ يعمل معاً. إلى مهندسٍ يضع مُخطَّط المبنى؛ وكاتبٍ يُطوّر موضوع الرواية؛ وإلى نحّاتٍ يُبدع زخرفةً ثلاثيّة الأبعاد وإلى فنّانٍ يكون مسؤولاً عن الألوان والمُسطحات. وكلهم يعملون لخدمة المفهوم نفسه. وكان غودهيو قد بدأ أولاً باستكشاف هذه الفكرة عندما طوَّرَ كابيتول نبراسكا، وكان فريقه هناك هو النحّات الشهير لي لوري؛ وفنّان يُدعى هيلدريث ماير؛ وبروفيسور في الفلسفة اسمه هارتلي بر ألكسندر. وبالإضافة إلى كونه أكاديميّاً، كان ألكسندر شاعراً ومتخصّصاً في ثقافة سكان أميركا الأصليين وفي الفكر السياسيّ. وهو الذي ابتكر تعبير «الأيقنة»[1] من أجل وصف دوره في المشروع.

استغرق اكتمال بناء كابيتول ولاية نبراسكا عشر سنين. وفكرة غوذهيو

1- الأيقنة: صنع الأيقونات. - المترجم

في دمج الرمزية البصريّة والمُجرّدة في الداخل والخارج أساسيّة بالنسبة إلى الشخصيّة المميّزة للمبنى. وأعلِنَ أنّه كان نجاحاً عظيماً وانتهى الأمر بأنّه ترك أثره على المباني العامة في أرجاء العالم كلّه.

***

بحلول عام 1922، عندما كُلِّفَ بتصميم مبنى مكتبة لوس أنجلوس، كان غودهيو قد صمَّمَ عدداً من الأبنية البارزة. كان قد فاز بكثير من الجوائز وأوكلتْ إليه أعمال هامّة. وكانت حياته الزوجيّة سعيدة. كان كلِفاً بطفليه. وكان هو وزوجته يحظيان بشعبيّة واسعة؛ كان الناس يدعونهما طوال الوقت إلى حفلات ووجبات عشاء. ومع ذلك، غالباً ما كان غودهيو كئيباً وممسوساً بفكرة الموت والتقدُّم في السن، مما أزعجَ زوجته. كان العمل يُلهيه ويُبعده عن إطار الفِكر المَرَضيّ. ولم تكن المكتبة العامة هي مشروعه الأكبر، لكنّه كان مبتهجاً به. وأقبل عليه بإحساس بالحريّة لم يكن قد عرِفه من قبل. كان يعتقد أنَّ تصميم البناء يجتمع فيه كل ما تعلّمه وأحبّه في العالم المرئيّ على شكل صرح من الأشياء التي يُقدِّرها أكثر من أي شيء: التاريخ، والكتب، والفلسفة، والتصميم، والطموح، والإبداع.

بدأ بوضع الرسم الأوّليّ، مع نيّة المزج بين فكرة النهضة الإسبانيّة الخياليّة وخلفيّة أكثر حداثة. ومن ناحية الفكرة الرئيسيّة، تخيّل المبنى بوصفه تقديراً لأمجاد المعرفة – في الحقيقة، كانت بمنزلة صرح إنسانيّ يحتفي بأعمال الحضارة الفكريّة العظيمة. وكانت كل أسكفة[1] تحكي حكاية. وكانت الجدران كلها تحملُ رسائل. وطلبَ من لوري وألكسندر أنْ ينضمّا إليه من جديد ليكونا جزءاً من فريق وضع التصميم. وشعر غودهيو بأنّه يُبدع شيئاً أعمق حتى من مبنى كابيتول نبراسكا. شعر بأنّه يتخلّص من تقاليد تدرّبه كلها ومن كل أسلوب تقليديّ. بل إنّه لم يكن يعرف بالضبط كيف يصِف ما يقوم به. وفي رسالةٍ وجّهها إلى أحد أصدقائه المُهندسين كتبَ يقول «إنَّ أسلوبي القوطيّ لم يعُد يُشبه أيَّ شيءٍ صحيح تاريخيّاً. وأسلوبي الكلاسيكيّ لا يشبه في شيء المفهومَ الكلاسيكيّ الرسميّ...

1- أسكفة: النافذة الصغيرة الموجودة في أعلى الباب.

في لوس أنجلوس أنشأتُ مكتبة عامّة بالأسلوب الغريب نفسه، أو انعدام الأسلوب». وأصبح المبنى بالنسبة إليه يتّصِف بأهميّةٍ فريدة. وأخبر إيفريت بيري «لقد أتيتُ لكي أبدي اهتماماً شخصيّاً عميقاً بنجاح هذا المبنى. وقد وعدْتُ بأنْ أُنجزَ شيئاً تفخر به المدينة». ربما تخيَّل نفسه يقضي بعض الوقت في المكتبة ذات يوم. لقد أحبَّ كاليفورنيا، وفي عام 1920، بنى منزلاً لنفسه بالقرب من سانتا باربرا.

***

رسوماته الأوّليّة بيّنَتْ مبنى مُربّع الشكل ومنخفضاً على قاعدة وعرة ضخمة، مضغوطاً تحت وطأة قبّة منخفضة. رفضَتْه لجنة الفن المحليّة، التي كان ينبغي أنْ توافق على المُخططات، لأنه غير وافٍ و«لا يُثير الإعجاب». وسخرتْ إحدى الصحف في مقالة قائلة سوف تحصل المدينة على مكتبة تافهة وِفقاً لِما ظهر في المُخططات المُعلَنة. غضبَ غودهيو لكنّه وافق على إعادة العمل على الرسومات. وعندما سلَّم نسخته الختاميّة للمكتبة، كانت قد تغيَّرتْ وأضحتْ شيئاً مختلفاً تماماً. فالنوافذ المُقنطرة والمُزخرفة التي ظهرت في الرسمّ الأوليّ الأول أصبحتْ الآن رفوفاً من ألواح الزجاج المُستطيلة. والقاعدة الوعرة انكمشَتْ، وانخفضَتْ، وكُسِرَتْ بمساطب صاعدة، لتشكّل تركيبة مُكعّبة من الأشكال المتموجّة ذات زوايا بمداخل على الجهات الأربع. واختفت القبّة المضغوطة. وأضحتْ قمّة المبنى الآن برجاً ضخماً ولكنه رقيق بصورة ما وهرَميّ الشكل. وكان البرج مكسوّاً بآلاف حجارة القرميد المُلوّنة البرّاقة وقمّته مُتوّجة بيدٍ إنسانيّة تحمل لهباً مفتوحاً، ينبعثُ من مشعل ذهبيّ. والواجهة الجصّيّة ذات اللون الأصفر البرتقاليّ كانت مُزيّنة بتماثيل لي لوري الهندسيّة التي تمثّل مفكّرين، وآلهة، وأبطالاً، وكُتّاباً. وفي أرجاء المبنى ثمة عبارات منقوشة تُناسب موضوع هارتلي بر ألكسندر الأساسيّ «نور التعلُّم». وتتضمّن قول أفلاطون «إنَّ حبَّ الجمال يُضيء العالم»؛ وقول المُفكّر الفرنسيّ بليز باسكال، «إنَّ الفِكر هو عَظَمَة الإنسان»؛ ومُقتَطَف وضعَه ألكسندر نفسه، الذي بدا أنّه يُجسِّد روح المكتبة العامة: «إنَّ الكتب تدعو الجميع؛ ولا تصدّ أحداً». كان للمبنى سِمة تُشبه المذاق الذي يعلق على طرف لسانك وليس لديك أي تفسير له.

كان كلاسيكياً ومتناغماًولكنّه يتّصِف بلمسة أجنبيّة - ربما فارسيّة أو ربما مصريّة. كان خياليّاً لكنّه مرتّبٌ كصندوق العِدّة.

عام 1924 كان ممتلئاً بالتغييرات وبالبشائر. فتح قبر توت والأداء الأول لفن وتصميم مقطوعة *Rhapsody in blue* المشحون. لقد دمجَ بناء غودهيو إحساساً مصرياً مع غنائيّة موسيقى الجاز لمقطوعة غيرشوين. وأحبّت لجنة الفن المحليّة رسوماته الجديدة، فعاد إلى نيويورك وباشر العمل المُكثّف على المخطّطات النهائيّة. كان يأمل في أنْ تكون المكتبة أكثر من شيءٍ يبقى في الذاكرة. أراد أنْ تكون مُثيرة بل ومُتحدية؛ وأمِلَ في أنْ تجعل إنسان لوس أنجلوس «يعتدل في جلسته ويُفكّر». ومع حلول منتصف شهر نيسان كان قد انتهى تقريباً من العمل. وكان يقترب من سن الخامسة والخمسين، وقد خطّطَ لقضاء يوم عيد مولده في واشنطن دي سي، عند تكريس أحدث أبنيته اكتمالاً، مركز إدارة أكاديميّة العلوم الوطنيّة الجديد. وعلى الرغم من ميله إلى الاكتئاب، فرِحَ غودهيو بتقدّمه في العمل على مكتبة لوس أنجلوس. لعلّه كان سعيداً أكثر من أي وقت مضى.

في الثالث والعشرين من شهر نيسان، سقط برترام غروسفينور غودهيو ميتاً إثر إصابته بنوبة قلبيّة قويّة، من دون سابق إنذار، وأمام ذهول كل المُحيطين به. وعلى الرغم من أهميّة المكتبة بالنسبة إلى المدينة والاهتمام الذي حظيَ به المشروع، فقد كان من الغريب أنّه لم يُذكَر أي خبر عن وفاته في صحف لوس أنجلوس، ما عدا مقالاً من عمود واحد نُشِرَ في صحيفة لوس أنجلوس تايمز مع عنوان رئيسيّ يقول التعبير عن الأسى لوفاة مُصمّم مبنى المكتبة.

-17-

«نحو عالم متعلِّم» (1938)
تأليف لوباك، فرانك تشارلز
379.2 L366

«تعليم العالم القراءة: دليل حملات التعلُّم» (1947)
تأليف لوباك، فرانك تشارلز
379.2 L366-2

«نحو تعلُّم عالمي: كل شخص يُعلِّم بأسلوب» (1960)
تأليف لوباك، فرانك تشارلز
379.2 L366-4

«رسول لأمّيين: فصول في حياة فرانك ت. لوباك» (1966)
تأليف ميسن، ديفيد إ.
379.2 L366Ma

«شاركتُ في درس مُحادثة في مركز التعلُّم. المُدرِّس له اسم يبدو نرويجيّاً. كان الطلاب يتجولون في الغرفة ويتعرَّف كل منهم إلى الآخر ككوريين، وصينيين، ومكسيكيين، وإكوادوريين، وتايوانيين، وسالفادوريين، وتايلنديين. بدأ الدرس بمناظرة حيويّة حول أطول كلمة في اللغة الإنكليزيّة. قال المُعلِّم، يورغن أولسون، إنَّ الكلمة هي «antidisestablishmententa

rianism»، لكنني لم أكنْ متيقّنة من صحّتها، بما أنني أضعتُ تلك المُناظرة في الماضي. ولكن، كما هو حال الكلمات الطويلة، قد تكون كذلك. وعندما نطق أولسون الكلمة، وكتبها بصورة لذيذة، بدأ الجميع ما عدا المرأة التايلنديّة يضحكون، وعلى مدى الدقائق القليلة التالية، جرّبَ الطلاب كلّهم نطق الكلمة. ثم انتقل أولسون إلى الدرس التالي. أشار إلى اللوح الأبيض خلفه، الذي كتبَ عليه عبارة «كلمات مُربِكة» بأحرفٍ عملاقة. المثال الأول الذي أورده كان الثلاثي الرهيب latter وlater، وladder. كان من السهل التعامُل مع كلمة ladder، أما latter وlater فكانتا تُسبّبان الدوار، وحتى بعد مرور بضع دقائق في شرح الفروق بينها وإعطاء أمثلة على ذلك، بقيتْ كلمتا latter وlater تُعيقان الناس. قال أولسون إنّه سوف يستعرضهما من جديد لاحقاً، وانتقلنا إلى شيء لا يقل إرباكاً، الكلمات confident وconfidante وconfessor.

بين استعراض الكلمات المُربِكة، أخبرني الطلاب عن مهنهم. من بينها ربّة منزل، غسّالة أطباق، مُصلح حواسيب، مُهندس معماري، طالب، مُدرِّمة أظافر. أحدهم كان شاباً وعدد كبير منهم كانوا من كبار السن، لكنّ معظمهم كانوا في منتصف العمر. والدرس جرى في أثناء الدوام المدرسي، لذلك لم يكن هناك مَنْ هو أصغر من سن الثامنة عشرة. كان الطلاب ودودين ومرتاحين في تواصلهم مع بعضهم. وبعض أشدّ الأزواج الودودين في الغرفة لم يتبادلوا إلّا كلمات قليلة بلغة شائعة. ومع ذلك، نجحوا في خلق جو حميم جدير بالجيران وبزملاء العمل. أما خارج الغرفة، فلم يكونوا يلتقون قط. وعندما كان أولسن يدفعهم إلى التدرُّب بأصواتٍ مرتفعة، كانت تصدر عنهم أصوات بلهاء تُثير الحنق وأخطاء في اللفظ من دون أنْ يعوا ذلك، وحتى أشد الجهود المرتبكة كان يُرحَّب بها باقي الطلاب، وقد وجدتُ ذلك شيئاً مؤثّراً. وكان لدروس المُحادثة خُطط معيَّنة، لكنّها كانت أيضاً فرصة للتمرين على الكلام ضمن مجموعة حيث لا يهمّ إنْ كنتَ لا تُتقِن اللغة أو لديك لكنة ثقيلة. سألَ المهندس المعماريّ التايواني مُدرِمة الأظافر، «كيف كانت عطلتك الأسبوعيّة، يا تينا؟». تكلّم بلغة رسميّة، ناطقاً عبارة «عطلة أسبوعيّة» ببطء غريب. فأشرقتْ مُدرِمة الأظافر في وجهه، وكانت من السالفادور، وقالت،

«لا بأس». ثم باشرت بالضحك ضحكاً مكبوتاً وقالت «إنني لا أقول إلّا كلمة «لا بأس» لأنني لا أستطيع أنْ أضيف أيّة كلمة أخرى»

ربتَ أولسون بقطعة الطباشير وقال «يا جماعة، إليكم بضع كلمات أخرى جديدة أريد منكم أنْ تجرّبوها. اسمعوا. «Shard»، «Implicit»، «Convulsive». من جديد «shard implicit, convulsive». وسرى في الغرفة جوٌّ من اليأس.

على غرار حضور درس المُحادثة، فإنّ حوالي سبعين بالمئة من طلاب محو الأميّة في جهاز المكتبة ليسوا من متكلمي الإنكليزيّة الأصليين. أما الباقون فهم من متكلّمي الإنكليزيّة الأصليين الذين يقرؤون فقط حتى مستوى الصف الثالث أو أنهم لم يتعلّموا القراءة قط. وكانت المكتبة المركزيّة تضمّ أكبر مركز لمحو الأميّة في ذلك الجهاز، لكنَّ عشرين فرعاً آخر في أرجاء المدينة كانت تضم مراكز، أيضاً. تُديرها المكتبة ومزوّدة بأطقم عمل من حوالي مئة متطوِّع.

كان درس المُحادثة في المكتبة المركزيّة يجري في غرفة الاجتماعات في مركز محو الأميّة بجوّها اللطيف ولونها البيج، وخلوّها من التميُّز كعيادة طبيب تقويم أسنان مُطهَّرة. خرجتُ من غرفة الاجتماعات بينما درس المُحادثة يتصارع مع كلمة «convulsive» واجتزتُ المكان إلى المنطقة الرئيسة، التي تحتوي بضع أرائك وبضع طاولات مكتب وعدد من المُعلّمين الخصوصيين يقومون بعملهم. جلستُ بجوار كارلوس نونييز، وهو مُدرِّس خاص يقوم بتدريس بضعة صفوف مُحادثة ويقضي ما تبقّى من وقته في الاجتماع شخصياً بأي شخص يأتي ويحتاج إلى مساعدة. وكان لديه بضعة طلاب مواظبين يعمل على تدريسهم أسبوعيّاً. وكان نونييز يعمل في مركز اتّصال هاتفيّ، لكنّه أُصيبَ بأذى في ظهره وأصبحَ عاجزاً. وحاول أنْ يقضي وقته متكاسلاً في المنزل، لكنّه أُصيبَ بالضجر حتى الجنون وبدأ يتسوّق مُكرهاً عبر قناة التسوُّق. وكان يُفرِط في الأكل. حينئذٍ قرّر أنْ يخرج من المنزل. أعجبته فكرة العمل الطوعيّ، وهكذا بدافع من نزوة، اتصل بالمكتبة وعرضَ مُساعدته. والآن أصبح لديه تلاميذ من فرنسا، وروسيا، وفينزويلا، والبرازيل، والصين، وحتى من جزر الغالاباغوس. (قال، رافعاً

حاجبيه بتحيّة إعجاب بغالاباغوس، «أتصدّقين هذا؟»). لقد ساعد الناس على فهم فواتير هواتفهم ورسائل المدرسة واستمارة الضريبة. قرأ رسائل خاصّة موجَّهة إلى أناس لا يحسنون القراءة. وأحياناً كان يُساعدهم في كتابة الردود عليها. كان يعمل مقدار ساعتين في الأسبوع مع شابٍ اسمه فيكتور وُلِدَ في المكسيك لكنّه نشأ في لوس أنجلوس ويريد أنْ يُقدِّم طلباً ليحصل على المواطَنَة الأميركيّة. فعل نونييز هذا كلّه في أثناء جلوسه على طاولة كتابة صغيرة مع كتاب «*التربية المدنيّة والمواطَنَة وصندوق العِدَّة*»، وبضع كتيبات لمحو الأميّة، ونسخة حديثة من مجلّة «*برايدز*».

كان فيكتور يُخطط للمجيء في ذلك اليوم، لذلك قام نونييز بتكديس بعض مواد المواطَنَة لكي يكون مُستعداً له. وبينما كان يُعدّ الأغراض، دخلت امرأة شابّة ذات شعر طويل وغزير، سجّلت حضورها، ومن ثم اقتربت من نونييز. أخبرته أنها تكتب رسالة بحث عن إرنست هيمنغواي ولم تفهم جُملة عثرتْ عليها. كانت لكنتها مثاليّة وموسيقيّة، لعلّها كاريبيّة. وأخرجت نسخة مُصوَّرة من ملاحظتها التي دوّنتها. وبعد أنْ غادرتْ، ظهر رجل آسيويّ عجوز أمام طاولة مكتب نونييز وسأله عن شطيرة السجق. ارتبكَ نونييز. وبعد بضع دقائق جلس شاب نحيل، ذو جسم عضليّ يرتدي سترة تحمل شِعار بيب بويز لخدمة السيارات، على طاولة نونييز. قدَّمه نونييز لي على أنّه فيكتور. حيّاني ومن ثم أخبر نونييز بأنّه كان يتدرَّب منذ آخر جلسة ويعتقد أنّه أصبح بارعاً في المادة.

أخذ نونييز يختبره: «ماذا فعلتْ سوزان ب. أنتوني؟ سمّ حرباً نشبتْ في بداية القرن العشرين. ما هو قانون الأرض الأسمى؟». كانت الأسئلة تنطوي على تحدٍ. وكان نونييز قد أخبرني قبل ذلك بأنّ فيكتور يُعاني من فقدان الذاكرة بسبب حادث وقع له في العمل، لذلك أحياناً يُكافح ليتذكَّر الأجوبة. ولكن في هذا اليوم، أعطى الأجوبة الصحيحة كلها. وعندما لا يكون مُستعداً فوراً لإعطاء جواب، كان يحثّ نفسه بضرب قبضة يده على اليد الأخرى، كأنّه يُمسِّد قفّاز متلقّي الكرة. وعندما انتهيا، مدحه نونييز، ومن ثم قال فيكتور إنّه يريد أنْ يقوم بذلك مرّة أخرى. وبدأ نونييز من جديد. «ماذا فعلتْ سوزان ب. أنتوني؟ سمّ حرباً نشبت في أوائل القرن العشرين. وما هو قانون الأرض الأسمى؟»

-18-

«فيشبورن: قصر رومانيّ وحديقته» (1971)
تأليف كنلِف، باري و.
سلسلة: جوانب جديدة من العصور القديمة
942.25 C972

«ثيوقراطيّة العبادة» (1935)
تأليف كوينبورو، إديث ستار ميلر باغيت
366 Q3

«لوسي غيهارت» (1935)
تأليف كاثر، ويلا

«لايكا كلبة الفضاء: أول بطلة في الفضاء الخارجي» (2015)
تأليف ويثروك، جيني
X 636 W832

بعد أنْ نفضَ عنه صدمة وفاة غودهيو، طمأنَ زميله كارلتون وينسلو المدينة بأنّ في استطاعته أنْ يُكمِل الرسومات وأنْ يُبقي المشروع ضمن جدوله. كان فريق غودهيو، سرّاً، مُشتّتاً. كان لاوري وغودهيو صديقين على مدى ثلاثين عاماً. وقبل أنْ يعود لاوري إلى عمله في المكتبة، قام بتصميم قبر لغودهيو مزيّن بنقوش تمثّل أهمّ ما أنجز من أبنية، تحت كتابة باللاتينيّة

تقول «لم يلمس أي شيء لم يتمكّن من زخرفته» (القبر موجود في كنيسة الشفاعة في مدينة نيويورك، وهي أول كنيسة صمّمها غودهيو) وقرَّر لاوري أيضاً أنْ يُضيف تمثال غودهيو إلى واجهة مكتبة لوس أنجلوس: تجده فوق المدخل الجنوبي الشرقي للمبنى، في إفريز جنباً إلى جنب مع مشاهير في عالم الطوبوغرافيا والطباعة بمَن فيهم يوهانس غوتنبرغ ووليم كوكستون، الرجل الذي جلب أول مطبعة إلى إنكلترا. ويُصوِّر التمثال غودهيو جالساً على طاولة الرسم، مائلاً إلى الأمام، وعيناه تنظران إلى أسفل، كأنّه يوشك أنْ يُباشِر الرسم.

في الثالث من شهر أيار، عام 1925، وُضِعَ حجر أساس المكتبة. واستغرقَ بناء حجرة دائريّة واسعة أربعاً وعشرين ساعة. وفي ذلك الوقت، استُخدِمَتْ أكبر كميّة إسمنت في تاريخ المدينة. كانت ثُريّا الحجرة الدائريّة، وهي كتلة ضخمة من البرونز والزجاج تمثّل الكرة الأرضيّة والنظام الشمسي، تزن طنّاً وتبيَّنَ أنها أثقل من أنْ تُرفَع فوُضِعَتْ رافعات في البرج لكي يتمكّنوا من رفع الثريّا وخفضها من أجل تنظيفها. وكانت بعض أجزاء داخل المبنى من الجصّ العادي. أما الأجزاء الأخرى فكانت مُثقلة بالزخارف والأعمال الفنيّة استغرقَ إكمالها بضعَ سنين أُخَر، كانت هناك تماثيل على الدرابزين، تماثيل لأبي الهول من الرخام على جانبيّ الدَرَج. ووُضِعَ رمز المكتبة داخل محراب – تمثالٌ لمشعل يُعرَف باسم نور التعلُّم، تكرَّر وجوده بحجم أكبر بكثير على قمة برج هرميّ الشكل. وفي محراب آخر كان هناك شكل بالحجم الطبيعيّ لإلهة بعينين بلا لون وتعبير وجه مهيب، يُعرَف باسم تمثال الحضارة. كان المبنى يضمّ خمس عشرة غرفة للقراءة مُرتَّبة على طول مُحيطه، مع أميال من الرفوف المفتوحة، لكنَّ معظم الكتب كانت مُخزَّنة داخل أربعة مخازن أسطوانيّة الشكل من الإسمنت، بعلو سبعة طوابق، داخل المبنى. وكانت الرفوف في المناصِب الإسمنتيّة مصنوعة من مربعات من الفولاذ أُعلِنَ أنّها مُضادة للنار وللزلازل.

أراد غودهيو من الزوّار أنْ يشعروا بأكثر من كونهم موجودين في مبنى جميل. أراد منهم أنْ يشعروا بأنهم جزء من التأمّل الثلاثيّ الأبعاد في قوة العقل الإنسانيّ وفي فعاليّة رواية القصص. حتى الحديقة كانت جزءاً

من خطّته. ودعا إلى زرعها بأشجار الزيتون، والسرو، والويبورونوم[1]، والمانيوليا، وكل النباتات التي كان يمكن أنْ توجَد في حديقة رومانيّة كلاسيكيّة، شعر بأنها سوف تعمل على استمرارِ تجربةِ الغوص العقليّ. وبين الأشجار كانت هناك تشكيلة من التماثيل، بالإضافة إلى نافورة مُزيَّنة بصور أعظم كُتّاب العالم، تُسمّى بئر الكتّاب.

***

في شهر حزيران من عام 1926، اكتمل البناء، وفي الخامس عشر من حزيران، عام 1926، افتُتِحَ رسمياً المقرّ الجديد لمكتبة لوس أنجلوس. كان ردّ الفعل الأوّليّ للمبنى مُستحسِناً لكنّه مُعقَّد. كتب الناقد ميربل غيج في صحيفة *آرتلاند نيوز*، «هذا المبنى يأتي كصدمة. وعلى غرار كل فن مُبدِع، هو مزعج: يترك انطباعاً مُرضياً لكنّه مُلهِم. إنّه لا يتبع أي نظام مقبول في الهندسة المعماريّة ولكنْ من خلال عناصِر إسبانيّة، وشرقيّة، وأوروبيّة حديثة، يأتي ويذهب كالأغاني الشعبيّة بانسجام عظيم يرتفع إلى ذُرى جديدة لم يحلم بها أحد ضمن منظومةٍ أميركيّة حقيقيّة في روحها». ووصفَ كاتبٌ آخر المبنى بأنّه «صريح ومنفتح وصادق كعين طفل صغير. إنه ينظر إلى وجهك مباشرة ولا يعرف الخوف أو الخزي. وليس لديه ما يشرحه وليس في حاجة إلى تقديم أي اعتذار»

كان يوم إقامة مراسم الإهداء مُذهلاً. قام أكثر من ألف طفل يرتدون أزياء خاصّة بالسير في عرض حول المبنى، يقودهم رجل يرتدي زي نافخ المزمار. وملأ الزوار المكان. وساد جو من البهجة، وكأنَّ المكتبة ليست مجرد ملكيّة محليّة جديدة لكنها أيضاً إنجاز حضاريّ، أمنيّة جماعيّة تحقّقتْ. وفي يوم الافتتاح، وُزِّعَ كرّاس عنوانه «وكأنكَ تلج كتاب حكايات»، كُتِبَ بنبرة الابتهاج «قلعة سِحريّة في أرض خياليّة! وألوان غنيّة، وجميلة، وتناغم ممتاز في الخطوط العامة. موقع رعويّ. مُشاهدته تمدّ باستمتاع دائم... كان انتباه الزائر مشدوداً إلى رسالة الشاعر، والنبيّ، والفيلسوف، والفنان، والعالِم... مبنى ككتاب حكايات تحقّقتْ... لأن هنا مقرّ أصدقانا الأقدم والأشدّ

1- الويبورونوم: شجرة يُستخدَم لحاؤها لأغراضٍ طبيّة. - المترجم

إخلاصاً - الكتب». الاعتراض الوحيد على المبنى الجديد صدر عن مجموعة صغيرة من الناس الذين ادّعوا أنَّ تماثيل المثلّثات والمِشعل في تصميم المكتبة توحي بشيء خبيث. وأصرّوا على أنَّ غودهيو لابد كان من عَبَدَة الشيطان أو ماسونيّاً لأنّه استخدم رموز الشيطان، وكانت المكتبة بمنزلة مقام لممارسة طقوسه. ورُفِضَتْ أسباب قلقهم، ولكن حتى هذا اليوم، هناك موقع إلكترونيّ يُدعى المواطن اليقِظ يلحّ على إبداء هذا الادّعاء.

كان رئيس مجلس إدارة المكتبة مُحامياً محلّياً اسمه أورام ونيت، أصبحت عائلته واسعة الثراء في عام 1906، وذلك عندما عثر والده على عِرق من الذهب يُساوي ما يُعادل 131 مليون دولار. وفي المعتاد، كان مونيت شخصاً يتكلّم بهدوء ومُحافِظاً، وسلوكه يجعله جديراً بالانتساب إلى النادي الريفيّ، لكنَّ المكتبة الجديدة تركت فيه أثراً عميقاً بحيث إنَّ خِطاب الإهداء الذي ألقاه بدا كأنّه كان يتكلّم بلغة أجنبيّة. ولاحقاً نُشِرَ نصّ خطابه وكُتِبَ على شكل نصّ شِعريّ:

لاعبو الحياة وممثلوها يقدّمون المواضيع التالية:
الحقائق الأعمق التي هي ألغاز الحياة المُستترة:
تجربة الإنسان المأساويّة؛
إلحاح الرغبة الحادّة؛
الآمال والتوافه؛
والقدر الواضح؛
العصور التي هي الماضي؛
الخطوط العامة للتاريخ؛
مسافرو الحياة الذين لا يكلّون؛
الكادحون في البّر والبحر؛
لن تمرّ بعد الآن من هذا الدرب؛

هذه تُقرأ أيضاً كأنها لائحة محتويات لكتاب عظيم وذلك الكتاب هو «كتاب الحياة» - كَتَبَه كاتب مسرحيّ كبير، هو الله! وبالنسبة إلى المُستخدِم،

وإلى القارئ، وإلى الطالب، وإلى العالِم، في دراستكم لهذه المسرحيّة الجليلة، كتاب الحياة المُلهَم هذا، إنَّ مكتبة لوس أنجلوس العامة هذه هي فرصتكم السامية.

إبّان يوم الافتتاح بدأ الناس يتوافدون أفواجاً. بعضهم كان يأتي مع اضطراب في عقله. وجاب سارقو الكتب المكان، ليختطفوا قدر ما يستطيعون. وبعض الفنانين المُغامرين المُخادعين استخدموا المكتبة من أجل وضع خطط دقيقة. في إحدى عمليات الخداع، ظهروا كوكلاء سفر، مُستعينين بكرّاسات ابتكروها بقصّ صور لأماكن غريبة من كتب المكتبة من أجل الإعلان عن رحلات سفر لن تقوم أبداً. وكان تفشّي الجريمة في المكتبة مُخيفاً إلى درجة أنَّ مقالة افتتاحيّة ظهرت في عام 1926 شرحت قائلة «ليس لصوص الكتب فقط بل جرائم أخرى انتشرت في المكتبة أيضاً. وهم ليسوا من القرّاء، وليسوا من مُستعيري الكتب، بل جاؤوا لكي يتحدثوا حول بعض الأشياء ويضعوا خططاً لجرائم يرتكبونها، أو للمتاجرة بالمورفين، بمواعيد مُحدَّدة». وفي نهاية العام، قدَّم رجال أمن المكتبة تقارير حول إلقائهم القبض على 27 «سارق كتب ؛ وعلى 105 أشخاص يدوّنون أشياء على الكتب؛ وعلى 73 شخصاً متورطين في سلوكيات سيئة عامة؛ وعلى 23 مُزيِّفاً؛ وعلى ثمانية أشخاص متلبّسين بإخفاء كتب؛ وعلى عشرة عملوا على تغيير مواعيد إعادة الكتب. وقد نجح ثلاثة وستون من المُعتدين في ارتكاب جرائمهم، واعتُبِرَ ستة منهم «مُصابين بعلّة في عقولهم» وأُرسِلوا لتلقّي المعالجة النفسيّة.

***

لم يكن المبنى الجديد قد اكتمل بناؤه بعد. كانت القاعة الدائريّة عارية، واستغرقَ من الرسّام دين كورنْويل ستة أعوام لإكمال رسم الجداريّات. كان كونْويل استعراضياً تدرَّبَ في مُحترف الرسّام جون سينغر سارجنت في لندن، واستأجر متبارين في مسابقات الجمال والأبّهة ليقفوا أمامه موديلات، وكان يتدلّى من سقالات ضخمة في أثناء الرسم، وكان يجذب إليه حشوداً

مذهولة. وفي ذلك الوقت كانت لوحته التي بلغت مساحتها تسعة آلاف قدم مُربَّع هي أضخم جداريّة نُفِّذَتْ حتى ذلك الحين.

لم تكن مدرسة المكتبة قد أعدَّتْ إيفريت بيري لأداء دوره الجديد كمُشرِف على قطعة هامة من الهندسة المعماريّة مزوّدة بعددٍ لا يُحصى من التماثيل والمنحوتات والشخصيات والنوافير. أحياناً كان يقلق حولها. وفي عام 1930، كتبَ إلى المثّال لي لاوري طالباً النصيحة. بدأ رسالته بقوله «عزيزي السيد لاوري، هل لك أنْ تمدّنا بنصائح حول العناية وتنظيف تمثاليّ أبي الهول وتمثال الحضارة؟ ليست لديّ أدنى فكرة عمّا ينبغي فعله، إنْ كان في الإمكان فعل أي شيء، ولكنْ أعتقد أنّه لا ينبغي استخدام أي ماء». (أجاب لاوري بأنَّ تمثال الحضارة يحتاج إلى نفض الغبار عنه بين حينٍ وآخر بقطعة من القماش الجاف).

في تلك الأثناء، كان لا يزال على بيري أنْ يُدير عمله المعتاد في المكتبة. وكان تشارلز لميس قد حثَّ موظفيه من أمناء المكتبة على الانقضاض على مرتادي المكتبة. وأصدر بيري تعليماته لطاقمه في العمل لكي يكونوا رقيقين في سلوكهم، كقوله «احترموا كل الطلبات. لا تنسوا الابتسام. وتجنّبوا التعالي». وابتكر ملاحظات جديدة توجَّه للّذين ينسون أنْ يُسددوا الغرامات المتأخّرة. وكانت الملاحظات تحمل نبرة صوته الرقيقة: «عزيزي [فراغ]. ثمة غرامة مقدارها [فراغ] على بطاقتك، لعلك نسيتها. هلّا تفضّلتَ واتّصلتَ... خلال الأيام القليلة القادمة لكي ننظِّف سجلك؟ المخلصة دائماً لك، مكتبة لوس أنجلوس العامّة». كانت الغرامات ضئيلة، تتراوح بين سنت واحد مقابل الصفحة القذرة ونكلة مقابل الكتب التي فات موعد إعادتها. ولكن إذا رسمتَ بالحبر على كتاب أو، ما هو أسوأ، عضضته –كان «عضّ الكتاب» بنداً قائماً بذاته في الواقع على قائمة بيري للتجاوزات– فعليك أنْ تدفع ثمن نسخة بديلة. وإذا أُصِبتَ بالخنّاق، أو بالحمّى البقعاء[1]، أو بالطاعون وفي حوزتك أحد كتب المكتبة، فأنتَ مُطالَب بإخبار المكتبة بذلك، ويُصبح من المتوجّب تطهير

1- الحمّى البقعاء: الحمّى التي تترك بقعاً على الجلد، كحمّى التيفوس. – المترجم

الكتاب بالدخان قبل طرحه من جديد في التداول، لكنَّ المكتبة هي التي تتكفّل بتسديد التكاليف.

بعد مرور ثلاث سنوات على اللحظة المجيدة لافتتاح أبواب المكتبة، أغلقَ سوق البورصة أبوابه، وبدأت فترة الكساد الاقتصاديّ. وحدث الانهيار في فترة من الشعور بالفخر والنشاط في لوس أنجلوس: كانت المدينة تقفز، وتنمو، وتشق الطرقات، وتبني المنازل، وناطحات السحاب. كانت دعاماتها الأساسيّة -الأفلام السينمائيّة والبترول والطائرات- هي الصناعات الشابّة والضخمة التي منحت المدينة بريق الجِدَّة والشباب وبدتْ منيعة ضد المرض في مجال الاقتصاد. لكنَّ المرض استشرى، ووصل حتى لوس أنجلوس، وأصاب مجال الأعمال والمصارف والمصانع. ووصل عشرات الآلاف من المُهاجرين إلى المدينة من الغرب الأوسط، حيث تحوّلتْ مزارعهم إلى غبار بعد سنين من القحط والفلاحة العميقة. وقبل أنْ يتوجّهوا إلى كاليفورنيا، شاهدوا حقولهم المزروعة في أوكلاهوما وكينساس تذروها الغيوم الرماديّة القاحلة التي أظلمتْ سماؤها وامتدتْ حتى مدينة نيويورك.

كان أمناء المكتبة مصدر عزاء وسط الكساد الاقتصادي. كانوا ودودين وموضوعيين ومُفيدين وأحراراً؛ وفّروا أماكن للناس لكي يجتمعوا معاً في زمن اليأس. ففي المكتبة يشعر المرء بالازدهار. كان هناك ثراء، ووفرة، في حين أنَّ الآخرين كانوا يشعرون بالسقم والانهيار، وكان يمكن أنْ تأخذ جزءاً من المكتبة معك إلى المنزل بلا مُقابل. أو يمكنك أنْ تكتفي بالجلوس على طاولة القراءة واستيعابها كلها. أو يمكنكَ أنْ تأتي إلى المكتبة ويحدث أمر رائع، كما حدث، مثلاً، في ذلك اليوم من عام 1938 عندما عرَّجَ الشاعر كارل ساندبيرغ في أثناء ساعة حكاية الأطفال وعزفَ على القيثارة وتحدث عن بول بنيان. ولكن في العموم، كان ذلك زمن الحزن واليأس، مهما قدَّمَت المكتبة من تسلية. وعشيّة العام الجديد في عام 1932، قفز رجلٌ اسمه تشارلز منغر إلى بركة حديقة المكتبة وحاول أنْ ينتحر.

بعد انهيار سوق البورصة، ارتفعت نسبة تداول الكتاب إلى ستين بالمئة وتضاعفَ تقريباً عدد المُتردّدين على المكتبة. ووِفقاً لصحيفة *لوس أنجلوس تايمز*، كان العديد من أولئك المتردّدين «قد لفظتهم فنادقُ رخيصة». وفي تلك

الأثناء، ومع تضاؤل قيمة إيصالات الضرائب، اختزلتْ ميزانيّة المكتبة إلى حوالي الرُبع. وقرَّر بيري أنْ يجعل المكتبة فعّالة كما سبقَ أنْ كانت عندما كان هناك المزيد من المال وزبائن أقلّ. وأصدر أمره إلى طاقم عمله بانتقاء الكتب التي تبدو سطحيّة، بما فيها «الكتب التي تتحدث عن الروحانيّات. وكتب عن لعبة البريدج. وكتب الفكاهة الرخيصة. والشِعر المتكلّف. [وكتب في] التنجيم، ودلالات الأعداد في التنجيم وفي السِحر، وقراءة الكفّ، والعِرافة». ونشرَ قوائمَ بما يوصى بقراءته، تعكس مخاوف وهواجس تلك الفترة الزمنيّة. وفي عام 1928، تضمّنتْ إحدى القوائم عنوانها «اليهود في الأدب خلال العقد الأخير» كتباً على غرار «*يا مَنْ لستُم يهوداً؛ أنا امرأةٌ ويهوديّة*»، «*عشرون عاماً على مسرح برودواي*». وفي عام 1931، وتحت عنوان «معضلة العطالة»، تضمَّنت الكتب التي أوصى بيري بقراءتها «*الإيقاف عن العمل ومنعه؛ ما عيب تأمين البطالة؟*»؛ و«*معاقرة الخمر المسؤول*». وفي عام 1932 تضمّنت القائمة «*هل انتهى عصر الرأسمالية؟*» وقائمة شاملة للكتب التي تتحدث عن الحرب. كان الناس يطلبون الكثير جداً من المكتبة. أرادوا منها أنْ تحلَّ مشاكلهم. وأرادوا منها أنْ تنظِّم حياتهم، وأنْ تعلِّمهم كيف يفعلون ذلك بأنفسهم.

***

في حالة غريبة من البرمجة المُضادة، عندما كان العديد من الأميركيين عاطلين عن العمل، أطلقَتْ محطة إذاعة CBS برنامجاً اسمه «*الأميركيون يعملون*»، وهو سلسلة من المسرحيات الإذاعيّة تدور حول مِهنٍ مختلفة. كانت بعض الحلقات تحكي عن صانعي دُمى، وصانعي ديناميت، ومُربّي دجاج حبش، ومزارعي أناناس. وإحدى الحلقات كانت عن أمناء مكتبات. تبدأ المسرحيّة بفتاة شابة اسمها هيلين تُعلِن لوالديها ولعمّها أنها تسعى إلى أنْ تُصبح أمينة مكتبة:

تقول الأم لهيلين: من السُخف أنْ تفكّري في أنْ تُصبحي أمينة مكتبة. إنَّ هذا النوع من الأعمال مُخصَّص لسيدات من كبار السن في حاجة إلى تقديم بعض المُساعدة.

هيلين: هذه هي المشكلة كلها. هذا هو رأيكِ *أنتِ*، وأنت لا تعرفين أيَّ شيء عن الأمر. أنا أحبّ الكتب وأحبّ أنْ أساعد الآخرين الذين يُحبّونها.

الوالد، *للأم:* هذا ما تنالين عندما تسمحين للطفلة بالانكباب على قراءة الكتب طوال الوقت. لا ينبغي على الفتيات أنْ يهتممن بالتعلُّم من الكتب.

هيلين: أوه، أبي – كيف تقول مثل هذه الأشياء الرجعيّة! أنا أريد أنْ أُصبح أمينة مكتبة، حقاً. ما رأيكَ *أنت*، يا عمي تِدْ؟

تِدْ، *برفق، وبلطف:* أنا أقول إنْ رغبت الفتاة في أنْ تُصبح أمينة مكتبة، فليكن. كما تعلمان، لقد تغيَّر الزمن. وحسب ما أرى، في هذه الأيام، لكي تُصبح فتاةٌ أمينةَ مكتبةٍ ينبغي أنْ تكون فتاة عصريّة وذكيّة.

كان الرجال هم الذين يديرون مكتبة لوس أنجلوس العامة منذ عام 1905، عندما أطاح تشارلز لميس بميري جونز من منصبها في حرب المكتبة الكبرى. وفي ذلك الوقت، كان ثمانون بالمئة من أمناء المكتبات الأميركيين من الذكور. وفي غضون بضع سنوات، بفضل الجهود التي بذلها أندرو كارنيغي جزئياً، حدث توازن متأرجح في جنس مهنة أمين المكتبة، وانخفضَت نسبة عدد أمناء المكتبات الذكور إلى عشرين في المئة. ومعظم النساء استُخدِمن ضمن طاقم أمناء المكتبات والكتبة، ولم يتقدَّمن ليدخلنَ مجال الإدارة. لكنَّ المدير المفوّض لدى إيفريت بيري كان امرأة اسمها ألثيا وارن. كانت استثناءً بين أمينات المكتبة، بما أنّها كانت في السابق قد شغلتْ منصباً إدارياً كرئيسة منظومة مكتبة سان دييغو. كانت وارن تنحدر من عائلة ثريّة، مُثقّفة من شيكاغو. كان جدُّها قاضياً فيدرالياً. وباشرت منصبها في المكتبة في مسقط رأسها، واختارت العمل في أحد الفروع في أشدّ أحياء المدينة فقراً. وفي أثناء إدارتها لمنظومة المكتبة في سان دييغو، كانت أيضاً ترعى أمّها، التي كانت تعاني من اكتئابٍ حادّ. وفي عام 1925، عندما بلغ مرض أمّها أقصاه، قررتْ أنْ تترك العمل في مكتبة سان دييغو، واشترتْ منزلاً مزدوجاً يقع بالقرب من باسادينا ونزلت في أحد جانبيه ووضعتْ أمّها في مقرّ ممرّضة أمّها في الجانب الآخر. لكنَّ شهرتها كانت واسعة إلى درجة

أنّه عندما سمعَ إيفريت بيري أنها موجودة ضمن منطقة لوس أنجلوس، ألحَّ عليها إلى أنْ أقنعها بأنْ تُصبح نائبته.

كانت وارن ضخمة الجثّة، ذات ذقن تنمّ عن شخصيّة قويّة، وشعر مُشوّش، متموّج ترفعه عشوائيّاً على شكل عقدة على قمّة رأسها. كانت صاحبة حسّ فكه؛ وكان الناس يحبون مُجالستها. وغالباً ما وصفَتْ نفسها بأنها عانس عجوز، ولكن في الواقع، حالما باشرت عملها في مكتبة لوس أنجلوس العامة، وقعتْ في حب أمينة قسم الأطفال، اسمها غلاديس إنغليش. وفي عام 1931، انتقلت وارن مع إنغليش لكي تقيما معاً وبقيتا متلازمتين حتى وفاة إنغليش في عام 1956.

***

استلمَ إيفريت منصبه في الوقت الذي كانت فيه المكتبة العامة في لوس أنجلوس في أواخر أيّامها كمكان عمل صغير محشور في مساحة مُستأجَرَة – عندما كانت ما تزال من بقايا نسخة سابقة للوس أنجلوس، كموقع متقدِّم وسط غبار الجنوب الغربيّ. لم تكن لوس أنجلوس مكاناً يُقرَن بالكتب: كانت مكاناً لتجمُّع صاخب يُحاول أنْ يتبيَّن كيف يزدهر وسط موقعه بين الوديان والتلال. خلال تلك السنين تغيَّرت المدينة والمكتبة تغييراً كلّيّاً. وكان بيري بمنزلة صِلة وصل بين ماضي المكتبة ومُستقبلها. ودافع عن بيرترام غوذهيو، ولذلك هو مسؤول عمّا آلت المكتبة إليه في هذه الأيام. وبعد انتهاء الإثارة الكبرى لقيادة المكتبة إلى المقرّ الدائم الأول، أُجبِرَ بيري على اجتياز أوّل هزّات فترة الكساد. كان ثابتاً وصلباً، حتى خلال الاضطراب الرهيب الذي اتَّصَفَت به تلك السنين، لكنّه لم يكن قائداً ذا جاذبيّة خاصّة. وبعض أسلافه تفوّقوا عليه في الشهرة؛ على سبيل المثال، كان حضور تشارلز غوذهيو طاغياً يشعّ ويتناثر بمقدارٍ متساوٍ. أما إيفريت بيري فكان فقط ما لاحظته هيئة إدارة المكتبة عندما أجرى أوّل حوار. كان «لا يهتمّ إلّا بالعمل»، و«قليل الكلام»، كان رجلاً قُدّ من حجر الصوّان. لكنّه أحبَّ المكتبة، وطاقم عمل المكتبة والمترددون عليها أحبّوه. وفي شهر آب من عام 1933، أُصيبَ بيري بنوبة قلبيّة. في أول الأمر بدا كأنّه يبرأ، ولكن بعد مرور ثلاثة أشهر، توفي. وصُعِقَ طاقم العمل. كان بيري سيُسرّ لو علِمَ أنَّ ألثيا وارن قد عُيِّنَتْ مكانه.

ربما كانت وارن أشدّ مَن أدار المكتبة نَهماً إلى القراءة. كانت تؤمن بأنَّ مسؤوليّة أمناء المكتبات الكبرى والوحيدة هي القراءة بنهم شديد. وربما كانت تدعم هذه الفكرة لكي تتيقَّن من معرفة أمناء المكتبات ما تحتويه كتبهم، ولكن بالنسبة إلى وارن، كان هذا التوجّه قائماً على أساس الشعور والفلسفة: أرادتْ من أمناء المكتبة أنْ يعبدوا بكل بساطة القراءة لذاتها، وربما استطاعوا، من باب الفائدة الإضافيّة، أنْ يُلهِموا زبائنهم بالقراءة بالشهيّة النهمة نفسها. وكما قالتْ في خطابٍ ألقته على رابطة المكتبة في عام 1935، على أمناء المكتبات أنْ «يقرؤوا كما يشرب السكّير أو كما يُغرِّد العصفور أو تنام القطّة أو يستجيب الكلب للدعوة إلى التنزّه سيراً على الأقدام، ليس بوازع من الوعي أو التدريب، بل لأنهم يُفضّلون أنْ يفعلوا ذلك أكثر من أي شيء آخر في العالم». وعلى امتداد حياتها، نشرتْ وارن أوراقاً صغيرة -تحت عنوان «أساليب ألثيا في قراءة الأرشيف»- تشجيعاً للناس لتخصيص وقت من أجل قراءة الكتب. واستحسنت الكذب إذا كان سيمنح فرصةً إضافيّة للقراءة. وفي إحدى تلك الأوراق كتبتْ تقول «في الليلة التي قطعتِ وعداً بأنْ تلبّي دعوة على العشاء مع أقرب أصدقاء عمّتك بالرضاعة، اتصلي هاتفيّاً لتقولي إنكِ مُصابة بالبرد وتخشين أنْ تُصاب بالعدوى منك. الزمي المنزل بدل ذلك والتهِمي كتاب *«لوسي غايهارت»* دفعة واحدة كالحيّة العاصِرة». كانت مُبشِّرة بالإنجيل قارئة، ودائماً تبحث عن أساليب جديدة لتضع الكتب بين أيدي العامّة. على سبيل المِثال، كانت تعتقد أنَّ ما يُقيِّد الأطفال في المقام الأول هو أنَّ عليهم أنْ يكونوا في الصف الثالث أو ما فوق لكي يحصلوا على بطاقات انتساب للمكتبة، لذلك فتحت الباب واسعاً أمام انتساب أي طفل يحسِن التوقيع باسمه.

ورِثَتْ وارن ميزانيّة ضئيلة وجمهوراً يطلب المزيد من المكتبة طوال الوقت. وفي عام 1933 كانت مدينة لوس أنجلوس فقط خامس أكبر مدن الولايات المتحدة، لكنَّ المكتبة كانت توزِّع من الكتب أكثر من أيّة مكتبة في البلاد. وبُغية الاقتصاد، اتخذت وارن إجراءات آلمتها. عندما افتتحت المكتبة أبوابها اقتطعتْ ساعات؛ لم تستبدل طاقم الموظفين الذين استقالوا؛ وأغلقتْ بعضاً من أكشاك الكتب الصغيرة التي أُقيمتْ في المستشفيات

ومناطق التسوّق، وضيَّقَت من كميّة شراء الكتب الجديدة. واضطرَّتْ أيضاً إلى إغلاق أبواب مدرسة المكتبة التي كانت تيسّا كيلسو قد أسّستها.

لكنّها وسّعت الخدمات قدر استطاعتها عندما كان في وسعها تحمّل تكاليفها. وخصّصت خطاً هاتفياً لإعطاء النصيحة يمكن للآباء أنْ يتّصلوا ويسألوا إنْ كان فيلماً سينمائيّاً معيَّناً يناسب الأطفال. (ابتكر طاقمُ العمل نظامَ تقديرهم الخاصّ، تضمَّنَ فئات على غرار «هذا الفيلم ليس مُناسِباً للأطفال العصبيين»). ووسّعَتْ مكتب المعلومات الرئيسيّ، وأضافت الخدمة المرجعيّة الداخليّة. كانت الخدمة المرجعيّة شائعة جداً، وكانت تُستخدَم بطُرُق لم يتوقّعها أيٌّ من العاملين في المكتبة. كان كثير من الناس يتّصلون ويطلبون حلّ الكلمات المتقاطعة لكنَّ وارن حرَّمتْ أخيراً على أمناء الأقسام الإجابة على تلك الأسئلة، لأنّه ليس لديهم وقت للإجابة على أسئلة الكلمات المتقاطعة. وفي عام 1937، أعدَّت المكتبة، كجزء من دراسة عن قسم المراجع، لائحة بما يطلبه المُتّصلون، وتضمَّنتْ:

شكل روميو.

كميّة الحليب التي أنتجتها الولايات المتّحدة في عام 1929.

الكتابات الأدبيّة القيِّمة التي كتبها السود من العبيد.

إحصاءات حول تعقيم الكائنات البشريّة.

عدد أجهزة الراديو في لوس أنجلوس.

نوعية الأعمال المنجَزة في مؤسسات خاصة بذوي العقول الضعيفة.

عدد العائلات اليهوديّة في غلينديل.

عادات الدفن في هاواي.

الطول المتوسط للحياة الإنسانيّة.

إنْ كان في الإمكان تبيُّن الخلود في حدقة العين.

في يوم سبت شديد الحرارة في شهر نيسان عام 1940، بينما كانت ألثيا وارن تجلس وحدها في غرفة مكتبها تطبع رسالة موجّهة إلى عنوان «قيِّم

مكتبة مدينة لوس أنجلوس في السابع من شهر كانون الأول، عام 1972» وتريد أنْ يفتحها قيّم مكتبة المدينة التالي في ما سيكون مئويّة المكتبة العامّة. فقد رأتْ أنّه سيكون شيئاً مُثيراً أنْ تترك رسالة، شبيهة بآلة الزمن، لخليفتها. بدأتها بالقول «قد تتسلّين بمعرفة مشاكلي وآمالي وأنت في غرفة مكتبك قبل اثنين وعشرين عاماً. إنَّ المشاكل التي يبلغ عمرها اثنين وثلاثين عاماً سوف تُصبح مُسلّية حتماً». وذكرتْ وارن أنّه إذا تصادفَ أنها كانت لا تزال على قيد الحياة عندما ستُفتَح الرسالة، فسوف تكون قد بلغَتْ سن الخامسة والثمانين، التي لابد أنّها في ذلك الوقت سوف تبدو سناً أقرب إلى الخلود. كتبتْ عن مدى صعوبة أنْ ترِث المكتبة من إيفريت بيري المهيب، وعن شعورها كأنّها «شجرة صفصاف رقيقة تهتز» مُقارنةً ببيري «شجرة السنديان الصلبة، البدائيّة». كتبتْ عن الفرق بين عشرينيات القرن الماضي، عندما كانت ميزانيّة المكتبة وافرة، وعندما وقع الزلزال البارد لانهيار سوق البورصة، عندما اضطرَّتْ إلى اختزال رواتب العاملين في المكتبة ثلاث مرّات وبالكاد كانت قادرة على طلب كتب جديدة. كانت الرسالة على التوالي مرحة وموجِعة، مُترعة بالإدراك الرصين أنها، بسبب ميزانيتها المحدودة، محكومة بأنْ تُخيِّب آمال طاقم عملها والجمهور الواسع. كان الجمهور يحصل من المكتبة على أقلّ مما أراد، وشعر طاقمها بحزنٍ فاق ما تمنّتْ. وأسِفَتْ لأنها أمضَت الكثير من وقتها على مسائل تافهة –في تقرير إنْ كان يجب شراء جهاز تنظيم الحرارة للفرن في فرع سان بيدرو، والعثور في الميزانيّة على مبلغ المال اللازم لشراء مناشِف ورقيّة من أجل غرفة الاغتسال– عندما كانت تأمل في خلق مدينة فاضلة من المكتبات تنتشر في أرجاء المدينة، يعمل بها طاقم من أمناء الأقسام راضين وفخورين.

كانت الرسالة أيضاً متفائلة. كان جليّاً أنَّ وارن تؤمن بأنَّ المكتبة سوف تدوم. وأنهتها بعبارة «إنَّ قلبي مع عملك ومعك!». قبعَت الرسالة في غرفة مكتب أمين مكتبة المدينة حتى تاريخ تعيينه، وحينئذٍ فتحها وايمان جونز وقرأها.

***

في عام 1941، دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية،

وتكيّفت المكتبة مع ذلك. أُنزِلَت الثريّا الموجودة في القاعة المستديرة التي تزن طناً إلى الأرض تحسّباً لوقوع انفجار قد يهزّ المبنى، وبقيَتْ على الأرض حتى عام 1944. وإذعاناً لجهود تعتيم أبنية المدينة في أثناء الليل، أعلنتْ وارن أنَّ المكتبة سوف تُغلِقُ أبوابها عند الغروب. لكنَّ العديد من العاملين في الحرب طلبوا أنْ يستخدموا المكتبة ليلاً بحيث إنّها عادتْ عن قرارها إلى ساعات الدوام الأصليّة بل أضافتْ وقتاً متأخّراً في الليالي. ولكي تنفّذ سياسة البلديّة في التعتيم، زوّدتْ نوافذ المكتبة بستائر تعتيم. وأعطت المكتبات العامة في أرجاء المدينة دروساً في الإسعافات الأوّليّة وباعت سندات حرب. ووزّعتْ نشرات معلومات حكوميّة من مكاتب معلومات الدفاع الجديدة. وكانت مجموعة المكتبة المركزيّة من مواد العلوم العالمية، بما فيها المعلومات المُوثوقة من ألمانيا وإيطاليا، ضخمة جداً وتُعتبَر واحدة من تلك المجموعات القليلة على الشاطئ الغربي. كان الجيش وسلاح البحريّة يستشيرانها بانتظام في محاولة لفهم ماذا في حوزة قوات المحور من ترسانة أسلحة.

حالما أُرسِلَت القوات الأميركيّة إلى ما وراء البحار، بدأت المكتبات المرجعيّة تتلقّى نوعاً جديداً من الاتّصالات. لم يكن يُسمَحُ للجنود بالبوح بموقع انتشارهم بدقّة، لذلك كانوا غالباً ما يُضمّنون رسائلهم إلى الوطن إشارات، آملين في أنْ يكشفوا عبرها عن أماكن تواجدهم. والعائلات بدورها كانت تتصل بالمكتبة طلباً لتفسير تلك الألغاز. وكما قالت إحدى مكتبات المعلومات «كانوا يطلبون منا أشياء على غرار «في أي موقع من العالم يُسرِّح الرجال شعرهم بشكل قائم إلى أعلى؟» أو «أين يضع الناس الخواتم في أنوفهم؟» أو «في أي بلد ترتدي النساء تنانير منفوخة ومآزر بيضاء؟»»

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك العام، أخذتْ وارن إجازة من المكتبة لكي تقوم بحملة الانتصار لجمع الكتاب، جالتْ خلالها البلاد بالسيارة لكي تجمع كتباً تزوِّد بها غرف قراءة الجيش، والمستشفيات العسكريّة، ومعسكرات التدريب. وعيَّنتْ مديراً للجولة في كل ولاية ونسّقتْ إصدارات صحفيّة واستطلاعات إذاعيّة لتشجيع الناس على جلب الكتب إلى نقاط التجميع. وجنّدتْ فتيان وفتيات الكشّافة لكي يدوروا على المنازل ويجمعوا الكتب.

وبحلول شهر آذار من عام 1942، كانت حملة الانتصار لجمع الكتب قد جمعت أكثر من ستة ملايين كتاب وبدأتْ بتوزيعها على القوات في جميع أرجاء البلاد وعبر البحار - في اللحظة نفسها كانت مكتبات أوروبا تحترق. في ذلك العام، ألقى الرئيس روزفلت خطاباً في مؤتمر رابطة المكتبة الأميركيّة. وأعلن «لا يمكن قتل الكتب بالنار. الناس يموتون، أما الكتب فلا تموت أبداً»

***

بعد انتهاء الحرب، بدأتْ لوس أنجلوس الحديثة. أُزيلتْ حقول البقول وانتُزِعَتْ أشجار بساتين البرتقال من جذورها واستُبدِلَتْ بمنازل القصب التي يضمّ كل منها ثلاث غرف نوم. وعادت أفواج الجنود، تتبعها أفواج من العائلات التي جاءتْ لكي تكون قريبة من أماكن انتشار مصانع الطائرات والإلكترونيات وحفّارات البحث عن البترول. حينئذٍ شدَّتْ عائلة هاري بيك رحالها واتّجهتْ غرباً، تاركة مزرعتها من أجل انتهاز فرصة جديدة بدا أنَّ كاليفورنيا تقدِّمها. كانت لوس أنجلوس تبرز وتزدهر، وتمتد وتتوسَّع. إذا غبتَ عنها بضعة أيام، فقد لا تتعرَّف على حيّك لدى عودتك؛ إلى هذه الدرجة كانت سرعة النموّ. ولم تكد المكتبة تواكب ذلك النموّ. كانت هناك مجتمعات تطلب إقامة فروع للمكتبة في مناطق لم يكن فيها قبل فترة وجيزة غير مزارع البندورة، ولكن لم تتوفّر النقود اللازمة لإقامتها.

قادت وارن المكتبة واجتازت بها فترة الكساد الاقتصادي، والحرب، والسنوات الأولى لاضطرابات ما قبل نشوب الحرب، وفي عام 1947، قرَّرتْ أنها تريد أخيراً أنْ تأخذ فترة استراحة كانت قد خطّطتْ لها قبل أنْ يُغريها إيفريت بيري بقبول المنصب. وقبل مغادرتها تمَّ الاحتفاء والاحتفال بها. تلقَّتْ مئات الرسائل من مترددين مُعجبين على المكتبة، من بينهم ألدوس هكسلي، زائر مواظب على المكتبة، الذي كتب، «يجب أنْ أنتهز الفرصة الحاليّة لأخبرك كم وجدتُ الخدمة في المكتبة جيدة وأعبِّر عن إعجابي بتشكيلة الكتب الجيدة التي جمعتها»

خَلَفَ وارن هارولد هاميل، وهو شاب ذو أذنين كبيرتين وكتلة من

الشعر الأشقر ويشبه من بعيد بطل فيلم «*Gunsmoke*» جيمس آرنس. كان هاميل، الذي ترأسَ قبل ذلك منظومة مكتبة كنساس سيتي، حداثياً. كانت تلك اللحظة المثاليّة لشخص تقدّمي الفكر ليقوم بإدارة المكتبة، بما أنَّ التكنولوجيا بدأتْ تبرز، وطوال الوقت كانت تُبتكر فوائد منها للمكتبات. كان هاميل يتقبّل التجديدات. فأدخلَ نظام استعارة الكتب يُدعى «إعارة الصورة» الذي يستخدم آلات تصوير مُصغَّرة من أجل التقاط صورة للكتاب المُعار؛ وأسّسَ أيضاً القسم السمعي – البصريّ، وكان شيئاً جديداً بالنسبة إلى لوس أنجلوس، وبدأ بإضافة الأفلام المُصغَّرة والشرائح المُصغّرة إلى مجموعة المكتبة.

***

في شهر تشرين الأول من عام 1957، أُطلقتْ *سبوتنيك* أول مركبة روسيّة تدور حول الأرض. وفي شهر تشرين الثاني، أُطلِقَتْ إلى الفضاء *سبوتنيك* الثانية، حاملة على متنها الكلبة لايكا. وفي العام نفسه، نشر عالِم فلك ألماني بياناً مُصوَّراً دقيقاً للكواكب والنجوم. وفي ذلك العام كان أربعة من بين خمسة فازوا بجوائز نوبل في الفيزياء والكيمياء من بلدان أخرى غير الولايات المتحدة الأميركيّة. وشعر الأميركيون بالرعب لتخلُّف بلدهم في مجال الرياضيات والعلوم، ولذلك عمَّ البلد كلّه تكريس متجدِّد للتعليم، خاصة في هذين الحقلَين. وربما ليس من قبيل المُصادفة أنّه في العام التالي، أعارتْ مكتبة لوس أنجلوس من الكتب أكثر مما كانت قد فعلتْ منذ عقود، ودعم الناخبون في المدينة طرح ستة ملايين سند من أجل بناء ثمانية وعشرين فرعاً جديداً للمكتبات.

مَن الذي كان يدعم المكتبة في عام 1957؟ لقد لاحظَ تقريرٌ في ذلك الوقت أنَّ «ثمة زيادة في استخدام المكتبة من قِبَل الفنانين والمُصمّمين المحترفين... القسم الأجنبي: لقد جلب برنامج الأشخاص المُرحّلين عدداً كبيراً من لاتفيا، وليثوانيا، واليهود، والألمان، والروس». وقد تجلّى تطور المدينة بوجه خاصّ في تركيبة زائري قسم العلوم. لم يعُد أحد يطلب كتباً عن زراعة الحمضيات أو الأفوكادو. وعلى الرغم من أنَّ كتب توقّع العثور على الذهب كانت مطلوبة إلى أقصى مدى في الثلاثينيات، فإنها حينئذٍ

أصبحت منبوذة على الرفوف. وبدل ذلك، أصبح المترددون يطلبون كتباً تدلهم على أماكن وجود اليورانيوم، وتعلّم تركيب أجهزة كومبيوتر، واختراع منتجات جديدة مُرخّصة. وفي ذلك العام كانت الكتب التي يوصى بقراءتها هي لائحة بعناوين تبحث في الطاقة النوويّة. ووِفقاً لتقرير القسم، «في هذه الأيام أصبح «رجل الشارع» بالإضافة إلى الرجل المتخصِّص يهتمّان بالعلوم». ولكن بحلول عام 1960، وجدتْ شعبيّةُ كتبِ العلومِ منافِساً لها في كتبٍ تقدِّم ما وصفه أمناء المكتبات بأنّه «عبادة الطمأنينة» - كتب عن عِلم النفس المتفائل، والإيمان بالقِوى الخفيّة، والسِحر، والـ Dianetics[1]، والعرّاف نوستراداموس.

كان قسم الأطفال المُستقلّ يشكِّل جزءاً من المكتبة المركزيّة منذ أنْ أُقيم مبنى غوذهيو. ولكن حتى حلول عام 1968، لم يكن هناك قسم مُخصَّص للمراهقين. لم يكن هناك تصوّر لأنَّ السنين بين عمر الثانية عشرة والتاسعة عشرة تشكل فترة واضحة من الحياة حتى حلول حقبة الستينيات. وفي عام 1968، كانت المكتبة قد اعترفَتْ بوجود المراهقين. وكان قسم المُراهقين الجديد يُزوِّد بالكتب وأيضاً يستضيف أحداثاً -حفلات غناء شعبي، دروس في الجودو، وحفلات غناء الروك- على أمل أنْ يجتذب اليافعين إلى المكتبة ويجعلها تبدو كمركز اجتماعي أكثر منها مجرد مستودع للكتب. وبعد مرور فترة من الوقت، أفسحت الأغاني المجال إلى الأوجه الأقلّ براءة من حياة المُراهقين، وبدأ القسم يُقدِّم برامج عن الجنس، والانتحار، ومساوئ المخدرات، والعصابات، والهاربين من منازلهم.

1- نظام في المعالجة الروحيّة من الاضطرابات النفسيّة بتخليص الذهن من الصور المؤذية. - المترجم

-19-

«دليل الغبي الأمثل إلى تربية المراهق» (1996)
تأليف كيلي، كيت
370.16 K29

«مُراهقة سو هايجة: كما ترويها بنفسها» (1989)
تأليف دافيتس، لويس جان
S 372.1 D265

«I Giovani D'oggi spgati Agli Adultie Il pianeta Degli Ado-:
lescenti» (1998)
تأليف بورباتي، غويدول.
VID 301.57 D946



«عزيزي أبي البعيد [تسجيل فيديو]» (1992)
VID 301.57 D2855

تدور قصّة فيلم «*Pleasantville*» حول اثنين من الإخوة يُحتجزان داخل برنامج تلفزيونيّ يحكي عن بلدةٍ صغيرة تبدو مثاليّة ولكنْ في الحقيقة يسودها التميز الجنسيّ والعِرقيّ والسِمة التقليديّة المُستبدّة. والفيلم، الذي طُرِحَ للعرض في عام 1998، ألّفَ قصّته، وأخرجه، وساهم في إنتاجه غاري روسّ، الذي كان رئيس إدارة مفوّضيّ المكتبة في لوس أنجلوس من عام

1993 وحتى عام 1996. وعندما بدأ عرض الفيلم، استفاد روس من الحفل الافتتاحي بالمساعدة في جمع إعانة لافتتاح قسم جديد وكبير للمراهقين. كان هناك ركن في الطابق الثاني، كان في السابق يُستخدَم كقسمٍ للموسيقى، يحتوي طاولة اجتماعات مستديرة كبيرة ورسوماً بيانيّة مُثيرة، وكراسي كبيرة ومريحة والكثير من الزوايا المنعزلة والمُظلِمة. ولن تخلط بينها وبين أي جزء آخر من المكتبة. ودُشِّنَ قسم «ملاذ المراهق» في شهر آذار عام 2000 بحفلةٍ ميَّزها ظهور الممثّل أنتوني ستيوارت هيد، الذي قام بدور أمين مكتبة في فيلم «*بفي قاتل مصّاص الدماء*»

عندما قمتُ بزيارة «ملاذ المراهق» مؤخّراً، كانت أمينة المكتبة العاملة امرأة شابة نحيلة، متّزنة، اسمها ميري ماكويّ، تضع نظارات تعكس الضوء وكان شَعرها مُشوّشاً قليلاً. وقبل أنْ تُصبح أمينة مكتبة، كانت ماكوي تعزف مع فرق موسيقى البانك. وفقدانها موسيقى البانك روك أكسبها المكتبة. وانجذبتْ ماكوي إلى قسم المراهقين لأنها كانت تتواصل روحيّاً مع الشبان الصغار، وهم انجذبوا إليها. وهي هادئة بقدرٍ كافٍ لتكون واثقة من نفسها، لكنَّ التعامُل معها ليس سهلاً. قالتْ «إنني لا أدعهم يفلتون من أي عقاب. على سبيل المثال، في صباح هذا اليوم رأيت أطفالاً هنا، وكنتُ أعلم أنَّ هناك دواماً في المدرسة، فسألتهم برفق عن سبب تغيّبهم عن المدرسة». واتَّضحَ أنَّ المدرسة تُجري تدريباً على الإغلاق، لذلك كانوا يقضون الوقت في المكتبة. ولو أنهم كانوا يتغيّبون عن دروسهم، لأجبرتهم ماكوي على العودة إلى المدرسة.

أنْ يكون أمين المكتبة مُراهِقاً أمرٌ خاطئ قليلاً. إنَّ أمناء القسم يعتبرون أنفسهم هجيناً من أشخاص يُعطون النصائح بصورة غير رسميّة، ومؤدِّبين بدوامٍ جزئيّ، ومُشرفين على حلّ الوظائف المدرسيّة. إنهم يتصرفون كبديلٍ للآباء بالنسبة إلى العديد من الأطفال الذين لا يحظون بالكثير من الرعاية الأبويّة في المنزل. وقالتْ لي إحدى أمينات قسم «ملاذ المراهق»، «كأنهم أطفالي». إنَّ مشقّة رعايتهم خارج جدران المكتبة جبّارة. وقالت ماكوي «إنّه مسار جيد، وغالباً ما تُضطرين إلى تجنّبه. ولكن أحياناً تتصرّفين وِفقاً لِما يُمليه عليك ضميرك. إنَّ لدينا هنا فتاة مجهولة الهويّة وتحتاج إلى مُساعدة

عاجلة. وأمينات القسم كلّهن يمنحنها بطاقات ركوب الحافلة مجّاناً وأشياء صغيرة لمساعدتها»

عندئذٍ بالضبط، تقدَّمت فتاة تضع ظلاً للعينين أسود اللون يتّجه نحو الأعلى من الطاولة حاملة كيساً من البطاطا المقليّة. سألتْ، يبدو عليها القلق «هل يُسمَح بالأكل هنا إذا كنتُ لا أُمسك بكتاب؟». قالت ماكوي إنَّ الأكل ممنوع. فتنهّدت الفتاة ومن ثم مشتْ نحو رفوف كتب القصص المصوّرة، وهي تهزّ كيس البطاطا المقليّة. كان الأطفال يستعيرون خارجيّاً عشرين أو ثلاثين مجلة مُصوّرة في المرة الواحدة. وكانت رفوف المجلات المُصوّرة تحتل معظم مساحة أحد الجدران وتنتهي عند لوحة الأخبار المكسوّة بمُلصَق مُصوَّر مكتوب عليه: «أتبحث عن عملك الأول؟ ماذا ترتدي: ملابس خفيفة، وملابس غرفة الاجتماع. كيف تربط ربطة عنق تقليديّة»

كان القسم يمتلئ بالمراهقين الذين أتوا لكي يستخدموا حواسيب ذلك القسم. والآن عديدٌ منهم أصبح لديهم حواسيبهم الخاصّة في منازلهم أو أصبح في استطاعتهم أنْ يستخدموا هواتفهم الذكيّة للاتصال بخطّ الإنترنت. وما زالوا يترددون على قسم «ملاذ المراهق»، ولكنْ في هذه الأيّام يأتون لكي يستفيدوا من الطابعات المجّانيّة، أو فقط لكي يخرجوا إلى أي مكان بعيداً عن آبائهم. كان القسم يضمّ ثلاثين ألف كتاب، وعشرات رقع الألعاب، والنسخة الأحدث من لعبة «Guitar Hero»، ومُراهقين آخرين. ونتيجة لذلك العَرض الأخير، كان هناك الكثير من العبث المؤذي، والعبارتان اللتان وجدتْ ماكوي نفسها تقولهما باستمرار هما «هيه، انتبه إلى ألفاظك» و«هيه، لا تقترب كثيراً من أكياس اللعب». ولاحقاً، أصبح الاقتراب من أكياس اللعب يتكرّر أكثر مما ترغب ماكوي، وشعرتْ بأنَّ الناس لا يُحبّون أنْ يلمسهم أحد، لذلك عملتْ على إعداد ورشة للأطفال حول معرفة طبيعة العلاقات الصحيّة. وكان ذلك مُقرَّراً في يوم زيارتي وسوف تُدير الورشة وكالة خدمات اجتماعيّة اسمها السِلْم فوق العنف.

كانت أمينة أخرى لقسم «ملاذ المراهق» اسمها تيريسا ويبستر قد وصلتْ لتقوم بنوبتها. سجّلت اسمها عند ماكوي، التي ذكّرتها بأمر الورشة. أومأتْ ويبستر برأسها إيجاباً ومن ثم قالتْ «كما تعلمين، يجب أنْ نُحضِر أحداً لكي

يُلقي كلمة في السياسة أمام هؤلاء الأطفال. وكان أحد الأطفال قد سألني عن معنى كلمة جمهوريّ». هزَّتْ ويبستر وماكوي رأسيهما مذهولتين ومن ثم انفجرتا بالضحك.

وصلت المتطوعات الثلاث في حركة السِلْم فوق العنف إلى المكان مع حامل لوحات وإعلانات تُعلَّق على الجدران وحفنة عشوائيّة من المنشورات. وأخذتْ ماكوي تتجول وتُذكِّر الأطفال بأنَّ الورشة سوف تبدأ حالاً. كانت ستُعقَد في جزء من الغرفة الذي يضمّ جهاز التلفزيون. وكان ولدٌ نحيلٌ يضع في أُذنيه قرطاً صغيراً مُستديراً قد أخرجَ موجّه شريط الفيديو من صندوق ويبدا مُحبَطاً عندما أخبرته ماكوي بأنّه لن يستطيع أنْ يُشغِّل التلفزيون حتى تنتهي الورشة. وقفَ متجمّداً، كأنّه لم يستطع أنْ يستوعب الخبر. قال بعد برهة، «تقصدين... أنني لا أستطيع...». أومأتْ ماكوي برأسها إيجاباً بتعاطفٍ عظيم، وأخيراً أعاد الموجِّه إلى مكانه وأخذ يتجوّل في المكان. واستقرَّتْ بضع فتيات على أكياس لعب قريبة. إحداهن كان يحضنها صديقها وظلَّتْ تُصدر صريراً وتُقبّله على ذراعه عابثة. وفي الركن القصيّ، يكاد يكون خارج الغرفة، جلس شخصٌ وحيد باسترخاء كئيب، وقلنسوته مدفوعة إلى أعلى بشدّة حتى إنّها أخفتْ وجهه أو وجهها حتى بات مستحيلاً معرفة إنْ كان فتاةً أم فتى. تجوّلت المتطوعات وأخذن يُحيين الأطفال، بمَنْ فيهم صاحب القلنسوة على الطاولة القصيّة، وأخذنَ يوزّعن كتاب عمل عنوانه «قوة المراهقين ومقود التحكّم»، وتجولت ماكوي في الجوار.

وقفتْ إحدى المتطوعات أمام المجموعة الأماميّة، وعرَّفَتْ عن نفسها، وبدأتْ تسأل إنْ كان هناك في الغرفة مَنْ يمكنه أنْ يُعطي مثالاً عن علاقة غير صحّيّة. توقفت الفتاة التي يحضنها صديقها عما تفعل وهتفَتْ، «ريانا وكريس براون!»

قالت الفتاة الجالسة على كيس اللعب المجاور لها، بنبرة اشمئزاز، «لا ينبغي أنْ يكونا من *النجوم*»

قال شخص آخر «أنا أحب ريانا!»

قالت المتطوّعة «حسن، حسن، هذا مِثال جيّد. هل من مثال آخر؟»

قالت فتاة صغيرة تجلس في الجزء الخلفيّ من الغرفة، «إنّها... تقصدين عندما يُجنّ شخص ويضربك؟» ثم «أه – هاه» تردَّد صداها في أرجاء الغرفة. وبعد حديث دام بضع دقائق واستعراض المنشورات، قرأت المجموعة قصيدة كئيبة عنوانها «ديفيد يجلب لي أزهاراً» ممّا برَّر الأعذار للفتيات للانجذاب إلى الفتية المؤذين. وأصبح جو الغرفة أثيرياً: وجلس الأطفال باستقامة وسكت همسهم وعناقهم وتعليقاتهم البارعة.

خرجتُ على أطراف أصابع قدميّ في أثناء استمرار الورشة وتوقفتُ مرَّة أخرى عند الطاولة قبل أنْ أغادر. أخبرني أمين القسم الجالس هناك أنَّ اسمه هو رسل كاريفان وأنّه عمل في قسم «ملاذ المراهق» طوال السنوات السبع عشرة الأخيرة. وسألته إنْ كان يستمتع بعمله، فقال، «في الواقع أنَّ قدوتي هو ألبرت شفارتزر، الذي قال «إنَّ كل عيشٍ حقيقيّ يحدث وجهاً لوجه». وأنا أفكِّر في هذا الكلام كثيراً عندما أكون هنا»

***

بينما كنتُ أتهيّأ لمغادرة المكتبة في نهاية النهار، قرَّرتُ أنْ أتوقف في محطة أخيرة، في قسم الأطفال، وهو غرفة حالمة من الخشب القاتم، وجداريات خرساء، ورفوف بعلوّ سياج خاص. دخلتُ خلف مُعلِّمة كانتْ تقود صف خامس وتُردِّد، بنبرة الصلاة الهندوسيّة الرتيبة، «من فضلكم استخدموا أصواتكم التي تستمدونها من المكتبة». وكانت ساعة الحكاية تجري إلى يسار طاولة مكتب الاستعلامات الخشبيّة الكبيرة؛ كانت أمينة مكتبة تقود مجموعة من الأطفال ومن البالغين في إنشاد «أغنية الأبجديّة». كانت هناك دوّامة من حركة دائريّة لا تتوقف. وثمة فتاة ترتدي زيّاً فضفاضاً مكتوباً على صدره عبارة «اهدأ واستمر في رقص الروك» وتعانقُ صبيّاً صغيراً يرتدي قميص الرجل الوطواط. وهناك طفلة ترتدي تنورة راقصة الباليه تحاول أنْ تقف على رأسها. وصبيّ بقصّة شعر أحد الهنود الحُمر يمشي بخُطى قصيرة ويُحدِّق إليها. وعندما وصلت «أغنية الأبجديّة» إلى حرف Z، انتقلت قيِّمة المكتبة من دون توقف إلى «الرأس، الكتفان، الرُكبتان، وأصابع القدمَين». وأدخل الأطفال تأويلهم الخاصّ إلى الأغنية – على سبيل المثال، «أطراف أصابع القدمين، الأرض، الأذنان، الأنف» أو «يدان، يدان، يدان، يدان».

كانت رئيسة قسم الأطفال، مادلين براينت، قد أخبرتني أنَّ ساعة القصّة قبل دوام المدرسة كانت تجذب ثلاثة أطفال أو أربعة كحدّ أقصى، ولكن على امتداد السنوات القليلة الأخيرة، كانت العائلات الشابّة تنتقل عائدة إلى مدينة لوس أنجلوس، والآن أصبح العدد النموذجي لجمهور ساعة الحكاية ثلاثين. ومن باب التجربة، عرضَتْ مؤخراً وقتاً لقصة للأطفال، وأصبحت رائجة إلى درجة أنهم بدأوا يُعانون من ازدحام جدّي في عدد الحضور.

عندما دخلتُ كانت ديان أوليفو-بوسنر، التي تشغل منصب مدير مُساعد لقسم الاكتشاف والإبداع، تجلس خلف طاولة مكتب الاستعلامات. كانت عيناها رطبتين، وتُهوّي نفسها بما بدا أنّها رسالة.

قالت بصوت مختنق، «لقد تلقّى القسم رسالة من مو ولیامز! *مو ولیامز!* أتصدّقين هذا؟ إنَّ أحد كتبه المُفضّلة لديّ هو ***لا تدع الحمامة تقود الحافلة!*** أوه، أعتقد أنني سأبكي»

اقتربَتْ فتاة صغيرة بدتْ في سن الرابعة من الطاولة وسلَّمتْ أوليفو-بوسنر صفيحة من الورق مُغطاة بخطوط عشوائيّة. قالتْ، وهي تهزّ الورقة، «هذه من أجل الآنسة ليندا». أخذتها أوليفو-بوسنر وقالت لها إنَّ الرسم جميلٌ جداً. جرّت الفتاة قدمها عبر السجّادة برهة ثم قالتْ، «هلا أعطيتها للآنسة ليندا؟ هل تعرفين الآنسة ليندا؟ أين الآنسة ليندا؟ هل أستطيع أنْ أستعير بعض أقلام التلوين الآن؟ هل تعرفين الديناصورات؟ قولي لي الأحرف الأبجديّة؟ هل هناك قصص مُرعبة هنا في المكتبة؟ لا تحتوي أشباحاً بل مُخيفة فقط؟»

-20-

«فوضى عارمة: القصة الحقيقيّة لجرائم قتل مانسون» (1974)
تأليف بغليوزي، فنسنت
364.9794 M289Bu

«محكّ المعيار الموصى به، التعرُّض المهنيّ للبيئات الحارّة: المِحكّ المُنقَّح» (1986)
613.6 C9345

«أعمال شغب، الولايات المتحدة الأميركيّة، 1765-1965» (1966)
تأليف هيبس، وليم أ.
320.158 H434

«الكلمة والصورة: تاريخ السينما الهنغاريّة» (1968)
تأليف نيميسكوري، إستفان
791.939 N433

في عام 1966، كانت أوعية صنع القهوة التي يستخدمها أمناء الأقسام في غرف عملهم ممنوعة في المكتبة المركزيّة. ببساطة، كانت الطاقة الكهربائيّة التي تستهلكها أوعية صنع القهوة -أكثر مما يستهلكه الخلّاط، وأقلّ مما تستهلكه محمصة الخبز- فوق طاقة تمديدات المكتبة الكهربائيّة الضعيفة. كان ذلك أحد الإجراءات العديدة التي اتّخذتْ في حقبة الستينيات

حمايةً لنظام التمديدات الكهربائيّة الهشّة في المبنى. استُبدلَتْ اللمبات ذات الخمسة والسبعين واط على الرفوف المُكدّسة بالكتب بلمبات ذات الأربعين واط، وهذا النوع يُستخدَم في المعتاد في الأفران وفي الثلاجات. اللّمبات الأصغر حجماً تشع نصف ضوء شَفَقيّ، بحيث يُصبح مستحيلاً على الكَتَبَة أنْ يعثروا على الكتب على الرفوف. وأصبحت مشاعل البطارية وقبعات عمّال المناجم مطلوبة جداً.

بحلول منتصف حقبة الستينيات، كانت المكتبة المركزيّة قد أضحتْ فقط في منتصف عمرها، لكنّها كانت تعاني أوجاع وآلام بناءٍ عتيق. وكان عضو بلديّة المدينة غيلبرت ليندسي، الذي تتضمَّن منطقته المكتبة المركزيّة، يفضِّل أنْ يشير إليها على أنّها «قطعة خردة». ووصفتها مجلة *كاليفورنيا* بأنها «قطعة هندسيّة غريبة الأطوار» وأنها «إخفاق عمليّ». لقد أضحى مبنى حقبة العشرينيات الخياليّ رثّاً وزائفاً. كانت بعض الألواح الفخمة المصنوعة من خشب الماهوغاني قد غُطيَتْ بالدهان؛ واستُبدِلَتْ مصابيح القراءة البرونزية الممتازة بضوئها الحالِم بمصابيح بسيطة أنبوبيّة مُثبَّتة على الجدار تشعّ ضوءاً فلوريّاً. ووِفقاً لِما وردَ في كتاب «*نوع العِلم: تاريخ مُصوَّر لمكتبة لوس أنجلوس العامة*»، الذي نشرته دار *لايبراري فاونديشن* في عام 1993، كانت خزانات الملفّات وطاولات المكاتب منتشرة في كل مكان، وغالباً ما دُفِعَتْ حتى استندتْ إلى أفضل تماثيل لي لاوري ومنحوتاته. بدا كأنّما ليس للمبنى مدير. كانت القرارات بشأنه تُتَّخّذ عشوائيّاً. وقد أمرَ أحد مديري الأعمال بطمس لوحات جداريّة مأخوذة من رواية «*إيفانو*»[1] ونفَّذها جوليان إلسوورث غارنسي بماء الكلس لأنه وجدها كئيبة. (نجح أحدهم في التدخّل لإنقاذها في الوقت المناسِب) لقد كان هناكَ من الكتب أكثر مما يمكن للرفوف أنْ تستوعب، والزائد منها سقط على الدَرَج وفي الزوايا. وثمّة لوحة جصيّة جميلة عنوانها «*صيد الثور الأميركيّ*» من حقبة الثلاثينيات، من تنفيذ مشروع إدارة تقدّم الأعمال، أفسدها المطر. وبعض اللوحات الجداريّة كانت قذرة إلى درجة أنّها بدتْ أشبه بلوحات تجريديّة

1- إيفانو: رواية تاريخيّة لسير والتر سكوت. – المترجم

قاتمة؛ والأشكال الإنسانيّة فيها بدتْ أشبه بصخور. (كانت طبقة السخام سميكة بحيث إنه كان يمكن أنْ تحميها حتماً في أثناء الحريق، كطبقة من التفلون[1] الواقية). واثنان فقط من المداخل الستة كانا يعملان. والأبواب البرونز المزخرفة على مدخل شارع هوب استُبدِلَتْ بأبواب مزوَّدة بأدوات الهرب في حالة الطوارئ. والجصّ الأصلي البرتقاليّ اللون داخل المبنى كان قد غُطيَ في بعض الأماكن من أجل إخفاء بقع الماء والرسوم العشوائيّة.

بجوار الكساء التجميليّ، كانت أدوات البنية التحتيّة للمبنى غريبة الشكل وتفسد. لم تكن الرفوف المُكدَّسة قاتمة فقط، بل كانت ترشح أيضًا، وكان عددٌ كبير من الكتب يُنقَع بالماء عندما تُمطِر. وفي الجو البارد، كانت المراجل تُستنفد بالعمل حتى إنَّ مهندس المبنى كان يُضطرّ إلى صبّ بعض الماء عليها ثلاث مرّات في اليوم لكي يمنعها من الانفجار. وفي الجو الحارّ، كانت الأمور تزداد سوءاً. فجدران المكتبة سميكة كسماكة خزانة في مصرف وليس هناك إلّا القليل من النوافذ، وبعضها كان موصداً بإحكام لردع لصوص الكتب. ولم تكن مزوَّدة بمكيّف للهواء. وكانت منافذ التهوية وتجديد الهواء كأنها غير موجودة. وعندما ترتفع درجة الحرارة، كانت تُجلَب مجموعة من المراوح الأرضيّة القديمة والصاخبة لكي تُحرِّك الهواء الساخن في المكان؛ وكانت تستهلك تقريباً كل منافذ الكهرباء المُتاحة. وكانت المكتبة تعمل على تحويل ما فيها من مجلات وصحف إلى مايكروفيلم. وعندما تُستخدَم المراوح لا يتبقّى أي مأخذ لأجهزة المسح، ولذلك يُضطرون إلى إيقاف العمليّة كلها.

مهما دارت المراوح بقوة، كانت حرارة المبنى تهزمها. وعندما تتجاوز درجة الحرارة خمساً وثلاثين درجة مئويّة كانت الإدارة تتبنّى سياسة إغلاق المكتبة – أي، عندما تبلغ درجة حرارة داخل المبنى خمساً وثلاثين. وعند درجة خمسٍ وثلاثين أو أقلّ، يعود العمل إلى سابق عهده. وغالباً ما كانت أنابيب التدفئة المركزيّة تهدر حتى في ذروة موجة الحرّ. وكأنَّ لها عقلاً خاصاً

1- التفلون: طبقة عازلة تُستخدم في أوعية الطبخ من أجل منع الطعام من الالتصاق. – المترجم

بها لا يتّصل بأيّ منظِّم للحرارة. وكان المترددون على المكتبة يتصببون عرقاً. وتُصبح حالة القيِّمات على الأقسام مُزرية جداً. كنَّ يحتفظن بسجلات درجات الحرارة في أقسامهن من أجل توثيق البؤس ويُقدّمن شكوى رسميّة. على سبيل المثال، المعلومات التالية ظهرتْ في سجل قسم التاريخ لأحد أيام شهر حزيران الرهيبة:

6/3. درجة الحرارة 25 مئويّة في قسم التاريخ. والمبنى حارّ بصورة لا تُطاق.

6/5. درجة الحرارة 27 مئويّة. والمبنى ما زال مرتفع الحرارة. والزبائن يشتكون.

6/6. درجة الحرارة 29 مئويّة. الجو شديد الرطوبة ومُزعج لكنَّ الحرارة تستمر في الارتفاع!!!!

6/10. درجة الحرارة 28 مئويّة. الحرارة متواصِلة ومرهقة.

6/11. درجة الحرارة 32 مئويّة. سديم يُشبه حِساء البازلاء. الحرارة متفجّرة!

6/18. درجة الحرارة 33 مئويّة. أحوال لا تُصدَّق.

6/19. درجة الحرارة 31 مئويّة. الجو رهيب.

6/20. درجة الحرارة 30 مئويّة. الجو لا يُطاق.

6/21. درجة الحرارة 41 مئويّة. الوضع لا يُصدَّق على الإطلاق حتى إنَّ الناس مُجبرون على العمل في ظل هذه الظروف... الحرارة مُريعة تجعل هذا جحيماً!... هذا شيء شنيع.

6/22. سُرِقَ مُنظِّم الحرارة.

لسوء الحظ، بالضبط عندما بدأ مزاج المدينة يميل إلى كل ما هو جديد، جديد، جديد، كانت المكتبة تشيخ. كانت أحياءٌ جديدة، مبانٍ جديدة، وطرقٌ جديدة، تظهر، بينما كان القديم منها يغوص تحت غطاء كثيف من الإهمال والنبذ. وخلال السنوات التي تلت انتهاء الحرب أضحت المدينة في حالٍ

يُرثى لها وغادرها سكّانها. لم يعُد قلب المدينة حديثاً. أقفلت متاجر بيع التجزئة الفاخرة أبوابها وانتقلتْ إلى مراكز التسوّق الجديدة في بيفرلي هيلز ومقاطعة أورانج وبرينتوود، تاركة المدينة خليطاً متنافراً من الدكاكين الصغيرة، الغريبة، وواجهات المتاجر التي يسودها الهدوء المُخيف بعد الساعة الخامسة مساءً. وعلى امتداد عقود لم يكن يُسمَح لمباني لوس أنجلوس بأنْ تعلو أكثر من ثلاثة عشر طابقاً بسبب مخاوف من وقوع زلازل. وبينما كان ارتفاع أبراج مدنٍ أميركيّة أخرى يتخطّى مستوى الأفق والأبراج الشاهقة، بقيتْ لوس أنجلوس منخفضة وعلى ما هي عليه. وأخيراً رُفِعَ الحظر عن الأبنية المرتفعة في عام 1957. في أول الأمر لم يحدث شيء؛ بقيَت المدينة منخفضة مقارنة بغالبيّة مدن أخرى بحجمها. وحسب تعبير المُطوِّر روبرت ماغواير، بدا أنّه مُقدَّر للوس أنجلوس ألّا تتألف «إلّا من أبنية لا تعلو أكثر من عشرة طوابق، في كل جزءٍ منها»

كانت الستينيات حقبة قلقة في جنوب كاليفورنيا. كان السكان البيض يشدّون رحالهم وينتقلون إلى سان فرانسيسكو والوديان الشرقيّة، تاركين الأميركيين السود في الأحياء المتهدّمة بالقرب من قلب المدينة. فإذا كنتَ أسود البشرة، فليس أمامك خيار إلّا أنْ تمكث في أحياء الأقلّيات التي بقيت على حالها. وكانت العقارات في لوس أنجلوس مُقسّمة حسب لون البشرة، في محاولةٍ وقحة لإبقاء الأحياء البيضاء نقيّة. وفي عام 1963، أُقرَّ قانون رمفورد للإسكان المُنصِف[1]. واعتُبِرَ أحد أهمّ الخطوات المتقدّمة لمصلحة المُساواة العِرقيّة. لكنَّ مجموعة من الحلفاء المتنافرين -جمعيّة جون بيرش وصحيفة *لوس أنجلوس تايمز* من بينهم- دعموا إجراءات الاقتراع في عام 1964 من أجل معارضة قانون رمفورد، رافعين الحماية ضد التمييز العرقيّ في شراء منزل. ومرَّ الإجراء بفارق ضئيل من اثنين إلى واحد -برفضٍ لحركة الحقوق المدنيّة ولصورة كاليفورنيا الذاتيّة كمدينة تقدّميّة. وشقّت المدينة إلى أجزاء غير متساوية- إلى راحة لوس أنجلوس البيضاء وتشاؤم وحرمان لوس أنجلوس السوداء. حتى المكتبة أصبحتْ حلبة تُمارَس عليها

1- هذا القانون أنهى التمييز العرقي في أمور الإسكان وامتلاك العقارات في كاليفورنيا. - المترجم

العداوات العِرقيّة. وبدأت أمينات الأقسام يعثرن على مزقٍ من الأوراق مدسوسة داخل كتب عشوائيّة في أرجاء المكتبة. كانت الأوراق مُصمَّمة لكي تبدو أشبه ببطاقة سفر بحريّة بعرضٍ قدَّمته شركة تُدعى «خطوط كون - آرد»، بالنُطق السوقيّ، تسافر إلى إفريقيا على متن «قارب على شكل سيارة كاديلاك لها زعانف» عليها رسم بطيخة، وهيروين، و«صورة مؤطَّرة لإلينور روزفلت». وثمة شِعار في الأسفل يقول «كو كلوكس كلان، صندوق البريد 2345، أوفرلاند، ميسوري»

كان أفراد قِوى الشرطة في لوس أنجلوس في معظمهم من البيض، وفي أحياء الأميركيين السود الفقيرة، كان الضباط عدوانيين وأحياناً همجيين. وذات مساء في عام 1965، كان ضابط شرطة أبيض يقوم بدوريّة في واتس، وهو حيّ يسوده العنف في الجزء الجنوبي الشرقيّ من المدينة. استوقفَ سائق سيارة أجرة أسود لاشتباهه في أنّه يقود السيارة وهو ثمل. وتحول التوقيف إلى مواجهة بينهما ومن ثم إلى نوبة من العنف والغضب. واستمرت الاضطرابات ستة أيام ولم تنته إلّا بعد استدعاء الحرس الوطنيّ. ومات أربعة وثلاثون شخصاً؛ وجُرِحَ أكثر من ألف؛ وساد الدمار مساحة ستة وأربعين ميلاً مُربّعاً من المدينة. وبعد حيّ واتس، وقعت أحداث عنف متفرّقة. وبدت جرائم القتل التي ارتكبتها عائلة مانسون، وإطلاق النار ومقتل الموسيقيّ سام كوك، واغتيال روبرت كينيدي، بدت كلّها إشارة إلى أنَّ شيئاً قد فسُدَ وقُضيَ عليه في صميم المدينة.

انهارت المكتبة بهدوء وسط سكون المدينة الحزين. وخلال الفترة الجريحة بعد أحداث واتس، قلَّ عدد السكان في قلب المدينة وازداد على الأطراف. وإحدى القناعات المتفائلة العديدة التي تخلّلتها أعمال شغب كانت الإيمان بأنَّ الكتب مُفيدة وحقيقيّة - بأنَّ على رفوف المكتبة يمكنكَ أنْ تجد كل الأجوبة. والآن أصبحت الحياة مهتزّة وغامضة، وبعيدة عن معرفتنا وفهمنا. والدهان الرمادي الذي كان يُغطي جدران المكتبة لم يعُد الرديف الوجودي لجرائم آل مانسون أو لبؤس أحياء مثل حي واتس، بل بدا أنّها تستوطن المساحة النتنة للأشياء التي تتهاوى.

***

في عام 1966، أوصتْ دراسة للمدينة عُرِفَتْ باسم التقرير الأخضر بهدم مبنى غوذهيو. ونصح التقرير باستبداله ببناء يبلغ ضعف حجم المبنى الحالي، وجعل الجزء الداخلي منه مفتوحاً مع مساحة شاسعة لتوقف السيارات. وألمحَ هذا إلى أنَّ المكتبة سوف تُصبح أقرب إلى مستودع للكتب منها إلى مكتبة تقليديّة، ولن تبقى في مركز اهتمام قلب المدينة بل في موقع جانبيّ. وكان لهذا الاقتراح مُعجبوه. ودعمه قيِّم المدينة هارولد هاميل، وكذلك فعل عضو مجلس المدينة غيلبرت ليندسي، الذي قال إنَّ على المدينة «أن تعثر على منطقة حي أقليّات في وضعٍ متدهور ومنحطّ وإقامة مكتبة جميلة فيه»

بدا كأنَّ لوس أنجلوس تتحرّك دائماً نحو المستقبل الأبديّ؛ كانت مدينة تتخلَّص من الذكريات قبل أنْ يُتاح لتلك الذكريات الفرصة لتستقرّ. وفي عام 1966، لم يكن في لوس أنجلوس أيّة مجموعة مُنظَّمة للمُحافظة على الهندسة المعماريّة. وبالنسبة إلى العديدين، بدت فكرة وجود أبنية تاريخيّة في لوس أنجلوس الجديدة المُبهِرة، أشبه بنكتة صارخة. ولكن كان هناك عديد من الأبنية في المدينة تزخر بالمعاني. بعضها كان له تاريخ أسلاف رائع، على غرار المكتبة. والعديد منها كان مِثالاً على الهندسة المعماريّة المحليّة التي أسرت اهتمام زمنها بالكامل وكانت أساسيّة لمظهر وشعور المدينة. في العموم، لم تكن الأبنية القديمة تُقيَّم تاريخيّاً أو هندسيّاً أو مدنياً. كان التطوُّر المتوقَّع للأرض التي تحتها يجذب اهتماماً أكثر. وكان معظم الأبنية القديمة ينهار بسهولة؛ والإسراع نحو التحديث أطاح بالعديد منها. ولائحة لوس أنجلوس للتحف التي اختفَتْ تضمَّنت فندق هوليوود الذي يعود تاريخه إلى بداية القرن الماضي؛ وفندق جنّة الله، الذي بُنِيَ في عام 1927؛ وقصر ميري بيكفورد الكلاسيكي المبني على الطراز التيودوريّ، المُسمّى بيكْفير؛ ومنزل ماريون ديفيز الشاطئيّ، الذي بناه لأجلها عام 1926 عشيقها وليم رودولف هيرست. وعلى الجانب المقابل للمكتبة من الشارع، كان يقع مركز إدارة شركة ريتشْفيلد للبترول في مبنى مُزخرف زخرفة فنيّة رائعة بطبقة من اللون الأسود والذهبيّ وذروة سطح برج حفر التنقيب عن البترول مُضاءة بالنيون. وعندما ظهر ريتشفيلد مع شركة أتلانتيك ريفاينينغ وأصبح اسمها آركو، قرّر مديروها التنفيذيون أنَّ المبنى المُزخرَف فنياً لا

يُبرِز الصورة العالميّة الأنيقة التي يريدونها. كان المبنى القديم الفخم قد هُدِمَ واستُبدِلَ بناطحة سحاب لا يُميِّزُها إلّا كونها رقم 32 بين الأبنية الأكثر ارتفاعاً في المدينة. وقال الكاتب راي برادبيري «إنَّ برج ريتشفيلد يحتفي بجنازة المستقبل. ولا يسع المرء إلّا أنْ يتمنّى أنْ يقع زلزال ويمحوه من الوجود»

بدا مبنى غوذهيو -الضئيل، والموغِل في القِدَم، والمُثقل بالزخارف، والشديد الغرابة- آيلاً إلى السقوط إلى أنْ حشدت مجموعة من المهندسين المعماريين، تتضمّن بارتون فيلبس، وجون ويلبورن، ومارغريت باك، أناساً مُصمِّمين على إنقاذه. كانوا يعلمون أنَّ الوضعَ مُلحّ، ونجحوا في جذب مجموعة ملتزمة. عُرِفَتْ رسمياً باسم جماعة جنوب كاليفورنيا/ المؤسسة الأميركيّة لفريق المهندسين المعماريين لدراسة المكتبات واجتمعوا في غرفة مكتب منحها لهم المهندس المعماري فرانك غيهري. وناقش الفريق حالة المبنى أمام الهيئة الإداريّة لإرث المدينة الثقافيّ. وبعد تدبُّر، وافقتْ هيئة الإرث الثقافي على اقتراحهم، وقامت بتصميم الصرح الثقافيّ التاريخيّ رقم 46 للمكتبة.

***

استخدم الناس المكتبة حتى وهي في حالتها المُزرية. كانت قاعات القراءة غالباً ما تمتلئ بالزبائن، وكان الطابور أمام طاولة الاستعارة يمتد حول البهو. وخلال فترة الستينيات، كانت مدينة شيكاغو هي صاحبة السكان الأشدّ كثافة من لوس أنجلوس. لكنَّ مكتبة لوس أنجلوس كانت أكثر نشاطاً: كانت تُعير خارجيّاً 4.2 كتب لكل شخص، مقابل 2.7 كتاب في مكتبة شيكاغو. وربما لأنّها كانت مكتبة حديثة العهد في مدينة حديثة العهد، فإنَّ لوس أنجلوس كانت دائماً تصبو إلى تجريب أشياء جديدة. وكانت لجنة الابتكارات تخرج بأساليب لجعل استخدام المكتبة أسهل وشيئاً أساسيّاً أكثر للعامّة، كإضافة عمليّة إعادة الكتب عبر الدخول بالسيارة وإضافة مركز لرعاية الأطفال. وثمة عرض آخر اقترحَ تخصيص موقعَين مختلفين للاجتماع داخل المكتبة. يُسمّى أحدهما «مركز هذا اليوم»، يُعنى بشؤون الأحداث الراهنة مع أخبار تطور أحوال البورصة. والآخر ينطوي على تشديد بديل ومواد مقالات قدّمها «ناشطون سياسيون، وحركة تحرير المثليين، وشعراء جُدُد، ومجموعات

خاصّة بالعالم الثالث، وعلماء راديكاليون». وسوف يكون هناك لوحة لتسجيل التعليقات ولقاءات شِعريّة عفويّة، وأرائك وكراسٍ مريحة من أجل الاسترخاء، وسوف تبقى أبوابه مفتوحة على مدار اليوم.

على الرغم من أنَّ الإنترنت ووسائل التواصل الإلكترونيّة لم تظهر إلّا بعد ذلك بعقود، تستطيع أنْ تشعر، حتى في عقد الستينيات، أنَّ أمناء المكتبات كانوا يعلمون أنَّ الطريقة التقليديّة في إعارة الكتب لن تكون دائماً هدف المؤسّسة الرئيسيّ. وأحد تقارير الابتكارات قدَّمَ نصيحة ثاقبة هي ثني الجمهور عن حمل مفهوم ضيّق عن تعريف المكتبة، لأنَّ المكتبات كانت «تتحرك على الدوام باتجاه أنْ تُصبح مراكز معلومات بالإضافة إلى كونها مستودعات لمجموعات الكتب»

إحدى السِمات التي اعتُبِرَتْ حاسِمة لولاء المُتردِّد على المكتبة كانت مكتب مراجِع جيد. كان قسم المراجِع في المكتبة المركزيّة يُسمّى شبكة جنوب كاليفورنيا لإعطاء الأجوبة –أوSCAN اختصاراً– وكان شائعاً محليّاً ووطنيّاً أيضاً، بما أنّه في استطاعة سكّان الساحل الشرقي الذين يحتاجون إلى جواب بعد الساعة الخامسة مساءً، حسب توقيت الشرق المعياريّ، بعد أنْ تُغلِق مكتباتهم العامة أبوابها، أنْ يتّصلوا بـ SCAN على مدى ثلاث ساعات إضافيّة. وكان أمناء شبكة SCAN يحتفظون بسجلات للطلبات التي يتلقّونها، وكانت أشبه بموجز لمسرحيّة؛ وكل منها كان أشبه بصورة من الحياة تُختَتَم بأحدهم يقول «فلنتّصل بالمكتبة!»

يتصّل أحد المترددين. يريد أنْ يعرف كيف يقول «ربطة العنق في حوض الاستحمام» بالسويديّة. كان يكتب سيناريو فيلم.

تتّصل مُتردِّدة طالبة كتاباً عن اضطرابات الكبد من أجل زوجها الذي يُفرِط في شرب الخمر.

أحد المترددين يريد أنْ يعرف أصل تعبير «دب يسعل في القطب الشماليّ» (لم يحصل على جواب)

يتّصل متردّد ليسأل إنْ كان ضروريّاً أنْ ينهض واقفاً لدى سماع النشيد الوطني إذا صدر عن جهاز راديو أو تلفزيون. وشرح قائلاً إنَّ المرء لا يحتاج إلّا إلى أنْ يفعل ما هو طبيعي وغير إجباري؛ على سبيل المِثال، لا يمكن للمرء أنْ ينهض واقفاً وهو يستحمّ، أو يأكل، أو يلعب الورق.

إحدى المترددات كانت كاتبة تكتب بالعبريّة؛ أرادتْ أنْ تبتكر توريةً بين كلمتيّ «صهيون» و«قضيب». لم تعثر على عبارة تحتوي كلمة قضيب، لكنَّ كلمة «نكاح» هي «mtsayen» وقد ساعدتْها على تركيب توريتها مع كلمة «صهيون».

أحد المترددين كان ممثّلاً عليه أنْ يُجسّد شخصيّة رجل شرطة سرّية هنغاري. وأراد أنْ يعرف طريقة نطق بعض الكلمات. وعثر على أمين مكتبة يتكلّم الهنغاريّة تحدّث معه.

ومتردّد يسأل إنْ كان اسم سكرتيرة بيري ميسون، ديلّا ستريت، مُستمدّ من اسم أحد الشوارع، وأيضاً/ أو إنْ كان هناك شارع حقيقيّ يحمل اسم ديلّا ستريت.

أحد المترددين طلبَ المُساعدة في كتابة نقش على شاهد قبر والده.

في عام 1973، أضافت المكتبة خدمة اسمها «مرجع نعيب البوم عبر الهاتف»، التي تعمل من الساعة التاسعة مساءً وحتى الساعة الواحدة صباحاً، بعد أنْ تُغلِق المكتبة أبوابها بوقتٍ طويل. عندما تتصل بأحرف كلمة ن-ع-ي-ب يردّ عليك أحد العاملين في المكتبة لديه جواب على كل سؤال تقريباً. وشِعار «نعيب البوم» هو «اكسب رهانك من دون تعب». من الجليّ أنّه في وقتٍ متأخّر من الأمسية يُراهن أهالي لوس أنجلوس كلهم على أشياء تافهة كثيرة على غِرار الأسماء الصحيحة للأقزام السبعة. وكانت الخدمة تتلقى مكالمة كل ثلاث دقائق، ويبلغ عدد المكالمات في كل عام حوالي خمسة

وثلاثين ألفاً. وكانت خدمة «نعيب البوم» هدفاً مُفضّلاً لانتقاد الجماعات المُحافِظة، الذين اعتقدوا أنّها تسلية «الهيبّيين وأناس آخرين يسهرون الليل». لكنَّ المكتبة ثابرت، وظلّتْ خدمة «نعيب البوم» تعمل في كل ليلة من ليالي الأسبوع وحتى نهاية عام 1976.

-21-

«حجّة غياب» (1916)
تأليف إنغلند، جورج ألان
م.

«إعادة اكتشاف السلوك الأخلاقيّ، مع إشارة إلى النزاع العرقيّ والطبقي» (1947)
تأليف اينك، هنري س.
323.3 L756

«الشيطان يفوز: تاريخ الكذب بدءاً بجنّة عدن وحتى عصر التنوير» (2015)
تأليف دينيري، دالاس ج.
177.3 D392

«غارفيلد يزداد وزنه» (1981)
تأليف ديفيز، جيم
740.914 D262-1

عندما أشارت أصابع الاتهام بعد انتهاء التحقيق في حريق المكتبة إليه، باشر هاري بإعادة كتابة مقالته مراراً وتكراراً، وكل إعادة كانت تنحرف قليلاً عن سابقتها. كان الأمر أشبه بقراءة كتاب «اختر مغامرتك الخاصّة»، وأشبه

باتّخاذ منعطف مختلف عند كل تقاطع طرق. وعندما أجرى وكيل الـ ATF توماس ماكار حديثاً معه. قال هاري إنّه كان في قلب المدينة في يوم نشوب الحريق وأراد أنْ يدخل المكتبة، لكنَّ حراس الأمن منعوه عند المدخل وأخبروه بأنها مُغلقة. فقال إنّه لم يكن يعلم أنَّ المبنى تعرَّضَ للحريق إلّا بعد أنْ سمع عنه في نشرة أخبار ذلك اليوم. وبعد إجراء الحديث ببضع ساعات، اتصل هاري بماكار وقال إنّه أخطأ في تصريحه وإنّه في الحقيقة لم يذهب قط إلى المكتبة المركزيّة. وبعد أربعة أيام، أجرى ماكار ووكيل آخر للـ ATF اسمه مايك ماتاسّا حواراً آخر مع هاري. هذه المرّة أخذا عليه عهداً، آملين بذلك أنْ يوقفا اضطراب أحداث مقالته. لكنَّ المقالة تلوّثْ. قال لهما هاري إنّه ذهب إلى المدينة في صباح ذلك اليوم لكي يستمتع بمشاهدة بعض المناظِر. وعند نقطة ما، أدركَ أنه يجب أنْ يتّصل بليونارد مارتينت وأراد أنْ يجد جهاز هاتف. وبينما كان يتجول بالسيارة، لاحظ وجود مبنى قديم جميل واعتقد أنّه قد يجد فيه جهاز هاتف، فركن السيارة في موقع قريب. وعندما بدأ يدخل، أخبره أحد حرّاس الأمن أسود البشرة –وقد قصد أنْ يبرز عِرقه– أنَّ المبنى أغلقَ أبوابه؛ كان هاري قد دخل بضعة أقدام داخل المبنى قبل أنْ يوقِفه الحارس. وعندما استدار ليخرج، اصطدم بامرأة عجوز. فساعدها على النهوض والوقوف والتوازن على قدميها، ومن ثم واكبها حتى خرجت من الباب. وحسب ما تذكَّر، فإنَّ المرأة شكرته.

بعد أن انتهى من حكاية ما فعله في صباح ذلك اليوم، عبَّر هاري عن أسفه لماكار لنشوب الحريق وعن أمله في أنْ يقبض ماكار على مُفتعِل الحريق. قال إنّه يُحبّذ أهميّة عمل ماكار، وكونه كان قد تقدَّم حديثاً بطلب وظيفة في مركز إطفاء سانتا مونيكا، لكنّه رسب في الامتحان الكتابيّ. والتقط ماكار صورة له لكي يُريها للشهود. كان هاري ساحراً، ودوداً ومتعاوناً. وبعد أنْ التقطَ ماكار صورة له، قال هاري إنّه أسعده أنْ يخضع لاختبار جهاز الكذب. كان توّاقاً إلى التصديق على قصّته.

بعد مرور بضعة أيام، اتصل هاري بماكار وقال إنّه يريد أنْ يُرجئ خضوعه لجهاز الكذب. وتحدَّثا قليلاً، ومن ثم أسرَّ هاري لماكار بأنّه لفَّقَ كل ما كان قد أخبره به حتى ذلك الحين. لم يشرح سبب كذبه. والحقيقة –على الأقل ما

كان يقوله في تلك اللحظة كان صحيحاً- هي أنّه لم يقترب قط من المكتبة في ذلك اليوم، ولم يلج المكتبة في حياته. وفي صباح يوم الحريق، كان على بُعد أميال منها، متوجّهاً إلى سانتا فِه سبرينغز على الطريق 101. وفي أثناء قيادتي السيارة كنتُ أستمع إلى نشرة الأخبار فسمعتُ أنَّ المكتبة تحترق. واستطاع أنْ يرى الدخان يتصاعد وهو يجتاز المدينة. أصغى ماكار إليه متعاطِفاً ومن ثم دوَّن في دفتر ملاحظاته أنّ هاري، حسب تقديره، «ممثّل طموح... واختلقَ قصّة تواجده في المكتبة في أثناء اندلاع الحريق لكي يجعل حياته تبدو أكثر جاذبيّة وإثارة»

أخيراً وافقَ هاري على الخضوع لاختبار جهاز كشف الكذب في السابع والعشرين من شهر تشرين الأول، عام 1986. طرح المُستجوب عليه الأسئلة المعتادة - إنْ كان حاضراً في المكتبة في يوم الحريق؛ إنْ كان قد شارك في اندلاع الحريق بأيّة وسيلة؛ إنْ كان يعرف مَن الذي أضرمَ الحريق. لم يُجِب هاري عن الأسئلة كلّها. وبعد انتهاء الاختبار نقل مايك ماتاسّا هاري بالسيارة، وتسامرا طوال الطريق. شكا هاري لماتاسّا من أنّ وزنه قد ازداد مؤخراً وأنَّ شكله لا يُعجبه. قال إنَّ المشكلة تكمن في أنّه مؤخراً توقف عن تعاطي الكوكايين ولذلك أصبح يشعر بالجوع طوال الوقت ويأكل بشهيّة حصان. وسجّل ماتاسّا هذه الملاحظة في ذهنه، مُتذكّراً أنّه عندما عُرِضَتْ صورة هاري على حارس الأمن، قال إنّها تبدو نسخة رديئة من الرجل الذي طلبَ استخدام الهاتف. وأمناء أقسام المكتبة الذين شاهدوا الصورة أعطوا الملاحظة نفسها: صورة الرجل تبدو مألوفة، لكنهم تذكّروا أنَّ المتعدّي على المكتبة كان له شعرٌ أطول وأشد نحافة من الرجل الذي في الصورة.

بعد ذلك بوقتٍ قصير، ظهرتْ نتائج فحص كذب هاري لفريق تقصّي مُفتعِل الحريق. استنتج المُستجوب، بالاستعانة بالمعيار الفيزيولوجي للاختبار، أنَّ بيك «كان يُجرِّب الخِداع وهو يُجيب عن الأسئلة المتعلقة بالأمر». إبّان هذا، انتشر المُحققون من جديد، وبدأوا يُحاورون أصدقاء هاري ورفاقه في السكن، ومُستخدميه، ووالديه، بحثاً عن شيء حاسِم -عن خيط واحد للأحداث أو عن دافع يتقدَّم بالقضية من حالة الفتور إلى الحرارة. ولكن لا شيء مما سمعوا عن أماكن تواجد هاري بدا متناسِقاً. في بعض

التفاصيل، كانت الأقوال تتراكب- حاجته إلى جهاز هاتف، ورجل الإطفاء الوسيم - ولكن في العديد منها، تنافرت تلك الأقوال. كان هناك؛ ولم يكن هناك. كان يعرف المكتبة؛ لكنه لم يزرها. وفي ذلك اليوم شمَّ ما يُشبه رائحة دخان؛ ولم تكن تنبعث منه رائحة كريهة. شعر كأنّه كان ينظر إلى شيء من خلال مِشكال ويرى قِطَعه تتكسّر ومن ثم تلتئم من جديد. الشيء الوحيد الثابت في تلك الحوارات كان الرأي القائل إنَّ هاري كذّاب. أحد الأصدقاء قال للمُحققين «كان صعباً عليه أنْ يُعطي جواباً مُباشراً. إنّه لا يعرف الفرق بين التلفيق والحقيقة». وقال رفيق سكن سابق إنّه طرد هاري من المنزل بسبب اضطراره إلى الكذب. قال «لقد أزعجني حقاً. لم يكن حقاً يستطيع أنْ يكبح كذبه. لم يكن يستطيع أنْ يمتنع عنه طويلاً. لكنّه إنسان طيّب»

المشكلة مع هاري كانت أنّه لم يكن يكتفي بانتقاء كذبة والالتزام بها؛ كان يُقدِّم نُسخاً عديدة من القصّة بحيث إنّ تصديق إحداها يعني عدم تصديق أخرى؛ كان يُقدِّم سلسلة لا تنتهي من الأكاذيب، وكلٌّ منها يُناقض سابقتها، خِلاف إنكارٍ نموذجيّ وحيد الاتّجاه كان على الأقلّ ثابتاً داخلياً، سواء أكان صحيحاً أم لا. كان شيئاً مُربِكاً ويكاد يكون مُستحيلاً تصديقه. وفي أحسن الأحوال، كان يمكن تصديق ما يقول عند نقطةٍ واحدة في الزمن، ولكن حالما تتعوّد على ذلك الأداء لحقيقته، يُقدِّم لك سرداً آخر يقضي على ذاك الذي قبلتَ أنْ تثق به. ولسببٍ ما، شعرتُ بنوع من الحب نحو هاري بيك، نحو تخبّطه الحادّ ونهمه الصِرف إلى الشُهرة، لكنني لم أجد أيّة لحظة تقفُ عندها قصصه بثبات وشعرتُ بأنني أعرف حقاً مَنْ يكون وبما يؤمن.

ذهب المُحققون لمقابلة والد هاري في مقرّ عمله في لوكهيد، فأخبرهم بأنّه كان يظنّ أنَّ هاري قادرٌ على إضرام حريق في مبنى غير مسكون، لكنّه لا يمكن أنْ يحرق مكتبة لأنّه يحبّ الفن والأشياء القديمة. كان هاري ولداً مُطيعاً ويعرف ماذا يُريد أنْ يفعل في حياته، كما قال. في الحقيقة، كان هاري قد أخبره تواً بأنّه اجتاز امتحان الانتساب إلى مركز إطفاء سانتا مونيكا وأنّه أصبح على قائمة انتظار تسلُّم وظيفة.

***

بدأ الحريق يبدو حادثة قديمة، لم تجد حلاًّ لها. واتّخذَتْ مقالات صحف لوس أنجلوس نبرة مُملّة، وعبارات كئيبة، مبتذلة، على غرار «استمرار التحقيق» و«متابعة الاستعلام». والمُشتبَه به الوحيد الذي بقيَ مع المُحقّقين كان هاري، لكنَّ الدليل ضدّه كان أشبه بالزئبق، زلقاً، متغيِّر الشكل، وغير ثابت. وفي شهر آذار، قرَّر المُحقّقون أنْ يُجرّبوا مدخلاً جديداً. لقد ثبتَت ردّة فعلهم تجاه الصور الفوتوغرافيّة في أذهانهم، كما ثبتَتْ تعليقات هاري حول زيادة وزنه. ووضعوا أيديهم على صورة رخصة قيادة السيارة الخاصّة بهاري، كانت قد التُقِطَتْ قبل عامَين عندما كان أكثر نحافة وله شعر طويل وشارب. كان هذا أقرب إلى شكله في يوم الحريق، قبل أنْ يقصّ شَعره ويحلق شاربه ويزداد وزنه إبّان تخلّيه عن تعاطي الكوكايين.

عُرِضَتْ مجموعة الصور الفوتوغرافيّة الجديدة على ثمانية من طاقم العمل في المكتبة الذين قيل إنهم شاهدوا المُشتبه به في يوم الحريق. انتقى ستة منهم صورة رخصة القيادة. والاثنان الآخران لم يتمكّنا من التعرُّف على أيّ من الصور التي عُرِضَتْ عليهما. كان يكفي ستة من أصل ثمانية تعرّفوا على الصورة من أجل الحصول على تصريح بإجراء تحقيق آخر مع هاري.

هنا اتّخذتْ قصّته منعطفاً آخر. أخبر المُحقّقون بأنّه لم يرَ قط داخل المكتبة المركزيّة. قال إنّه في صباح يوم نشوب الحريق، كان يتمشّى مع اثنين من أصدقائه، ذكر اسميهما وقال إنهما سوف يشهدان لمصلحته. وعند الساعة العاشرة صباحاً، غادر لوس أنجلوس وقاد السيارة، وحده، إلى سانتا فِه سبرينغز. ذهبَ إلى منزل والديه. لم يجد أحداً هناك، لكنّه دخل. وعند لحظة معيَّنة، اتّصلَ بليونارد مارتينت من هاتف والديه. كان شديد الثقة بنفسه بتلك الحقيقة حتى إنّه قال إنَّ في استطاعة ماتاسّا أنْ يتفقّد شركة الهاتف ليحصل على البرهان على إجراء تلك المكالمات مع مارتينت.

بعد ذلك ببضعة أيام، زوّدتْهم شركة جنرال تيليفون بتسجيل للمكالمات التي أُجريَتْ من منزل آل بيك ووردتْ إليه في سانتا فِه سبرينغز في صباح يوم التاسع والعشرين من شهر نيسان، عام 1986. لم ترِد أيّة مكالمة هاتفيّة إلى شركة مارتينت القانونيّة من هاتف آل بيك، ولم ترد أيّة مكالمة من مارتينت إلى ذلك الهاتف.

بعد ذلك ببضعة أيام، استجوب المُحقّقون هاري من جديد، وفي هذه المرّة دار الحديث بأكمله حول قصّته. وشرح قائلاً إنّه في صباح يوم الحريق، أمضى الوقت مع اثنين من الأصدقاء - مختلفين عن الاثنين اللذين أتى على ذِكرهما من قبل. وبعد أنْ تمشّوا قليلاً، ترك صديقيه وانطلق إلى سوق فرينش، وهو سلسلة من المحال التجاريّة الحقيرة والتجارة الصغيرة في شرق هوليوود. كانت قد ظهرت ثآليل على أخمص قدَم هاري، وكان لديه موعد مع اختصاصي العناية بالقدمين، ستيفن ويلكي، الذي كانت عيادته تقع هناك.

بعد أنْ عالج ويلكي ثآليل هاري، أغلق عيادته، وذهب مع هاري لتناول وجبة خفيفة قبل الغداء في الحيّ الفرنسيّ، في مقهى في مركز السوق الفرنسيّة. انضمّ إليهما المُحترم جداً باسيل كلارك سميث، واستمتع الثلاثة بوجبة تناولوها برويّة. وفي أثناء إزالة بقايا الوجبة، تصادف أنْ ذكر النادل أنّه سمعَ أنَّ المكتبة تحترق. والمكتبة الوحيدة التي كان هاري يعرفها كانت مكتبة لوس أنجلوس القانونيّة، لأنّه تردَّد عليها مرّات عديدة للقيام بمهام لمصلحة مارتينت. وافترَض أنَّ النادل كان يقصد أنَّ المكتبة القانونيّة هي التي تحترق، فقرَّر أنْ يتّصل بمارتينت ليُعلِمه بالأمر. كانت تلك هي النسخة الأخيرة عن مكان تواجده في صباح يوم التاسع والعشرين من نيسان التي قدَّمها. وأخبر المُحقّقين أنَّ كل ما كان قد أخبرهم به من قبل هو مُزاح.

***

ليس سهلاً الاحتفاظ بسردٍ دقيق لحجّة غياب هاري بيك. بعضها كان جديداً بالكامل وتامّاً بذاته، في حين كانت أخرى نُسخاً مُضطربة ومُحوَّرة من نسخٍ أخرى. قال المُحقّقون، بعد إجراء حساباتهم، إنَّ هاري أدلى بسبع روايات مختلفة لقصّة مكان تواجده في صباح ذلك اليوم. تضمّنتْ وجوده داخل المبنى، حيث هرب بطريقة دراميّة من النار، أو وجوده خارج المبنى يُراقب الحريق، أو وهو يقود سيارته في أثناء مروره من هناك، أو وجوده في سانتا فِه سبرينغز، أو، أخيراً، وجوده في المتاجر الفرنسيّة مع المحترم جداً نيكولاس ستيفن ويلكي والمحترم جداً باسيل كلارك، من كبار شخصيات الكنيسة الكاثوليكيّة الأميركيّة، حيث كان هاري يمكث أحياناً. كان كاذباً على

قدم المُساواة، يُخبر نسخاً متناقضة من قصّته للمُحققين وأيضاً لأصدقائه. كان يؤدي تلفيقاته ليس فقط ليتجنّب العواقب القانونيّة: كان يكذب على كل شخص؛ كانت عادة. ولم يتوقف قط عن تغيير قصّته. وبعد مرور أشهر عديدة من إلقاء القبض عليه، أخبر صديقه السابق ديمتريس هيوتيليس أنّه كان موجوداً في مرحاض المكتبة في ذلك اليوم، يمارس الجنس مع شخصٍ غريب، فأوقع سيجارته من دون قصد في سلّة مهملات واندلع الحريق. وهذه القصّة ورّطته مباشرة، بل كانت تتمتع بفضيلة كونها منطقيّة: لقد نشبَ الحريق مُصادفة، وقد كذب لكي يُغطّي على كونه خائناً. لكنَّ القصّة كانت غير صحيحة بكل وضوح. فالنار لم تصل إلى مرحاض المكتبة. وظل سبب رغبة هاري في قول إنّه ارتكب جريمة لغزاً في حين أنّ الأمر ببساطة ما كان يمكن أنْ يحدث كما وصفه. أحياناً أتساءل إنْ كان هاري يستطيع أنْ يتذكَّر الحقيقة أو إنْ كان سيميِّزها إذا سمعها

بعد أنْ حصل فريق تقصّي الحريق المُتعمَّد على إجابات إيجابيّة على صورة رخصة قيادة سائق هاري، تيقَّن الفريق من أنّه هو الذي أضرم النار. وفي مُذكَّرة تتألَّف من خمسة عشر بنداً، فصَّل أعضاء الفريق أفكارهم. أوردوا مواطن التناقُض في حجج غيابه المتنوعة؛ وتبدّل شكله؛ واختيار طاقم موظفي المكتبة صورته الفوتوغرافيّة؛ وحقيقة أنّه رسب في اختبار الكذب. أيضاً، كانت لديه معرفة كاملة ببعض مجريات اليوم التي ما كان يمكن أنْ يُلِمَّ بها لو لم يكن موجوداً هنالك. على سبيل المِثال، أتى مرّات عِدَّة على ذِكر ارتطامه بامرأة. ولم يذكر أي تقرير إخباريّ هذه الحادثة، ولكنها وقعَتْ – لقد صدَّقَت المرأة والحارس الذي يقوم بنوبة عمله كلاهما على الحادثة. كان مستحيلاً على هاري أنْ يعلم بأمر الحادثة لو لم يكن حاضراً عند وقوعها.

وضعَ المُحقّقون نظريتهم الشاملة الختاميّة، بالإضافة إلى تحديد الدافع. لقد رأوا أنَّ هاري ذهب إلى المكتبة مرّتين في ذلك اليوم. أولاً وصلَ عند حوالي الساعة السابعة صباحاً، فمنعه الحارس من الدخول لأنَّ المبنى لم يكن يفتح أبوابه أمام الجمهور. ثم عاد عند حوالي الساعة العاشرة صباحاً، بعد أنْ كانت المكتبة قد فتحتْ أبوابها، ومكثَ هناك حوالي الساعة، في

الوقت الذي لاحظ طاقم عمل المكتبة وجود رجل أشقر مُريب في موقع غير مُناسِب في الطابق الثاني. واعتقد المُحققون أنّه أضرمَ النار لأنه كان غاضباً من الحارس لأنّه قبَض عليه من ذراعه ومنعه من دخول المبنى في وقت سابق. وقد عاد لكي يحرق المبنى بأكمله انتقاماً.

***

أُلقيَ القبض على هاري بيك في منزله بمُذكّرة توقيف للاشتباه في وقتٍ متأخّرٍ من يوم الجمعة، 12 شباط، عام 1987، وزُجَّ به في السجن في هوليوود لاستجوابه. كان مُضطرباً، مهزوزاً، ويبكي. وعلى الرغم من المراقبة الدقيقة التي تعرَّض لها على مدى الأشهر القليلة السابقة، بدا عاجزاً عن تخيّل نفسه مشبوهاً حقاً وقد يكون عِرضة لإلقاء القبض عليه.

كانت عمليّة إلقاء القبض عليه في يوم الجمعة حَدَثاً عالمياً: في المعتاد كانت تلك منطقة ميّتة بالنسبة إلى نشرة الأخبار، وأراد أفراد الادّعاء العام أنْ يجذبوا أقلّ قدرٍ من الانتباه آملين بذلك أنْ يعترف قبل أنْ يحصل على محامٍ. كان في الإمكان احتجازه على مدى أربعٍ وعشرين ساعة. وبعد ذلك إمّا أنْ يُتّهم رسمياً أو يُطلَق سراحه. كان المُحققون يأملون في أنْ يعترف لأنَّ قضيتهم، في الحقيقة، كانت فقط ظرفيّة. لم يكن هناك أي دليل ماديّ أو برهان حاسِم على أنَّ هاري كان موجوداً في المكتبة في المُطلَق، ناهيك عن أنْ يكون قد أضرمَ النار. وحُدِّدتْ قيمة الكفالة بـ 250 ألف دولار، كان المُحقّقون يعلمون أنه سوف يواجه صعوبة في جمعها.

لم يدُم الصمت الذي اكتنفَ عمليّة إلقاء القبض عليه طويلاً. أولاً، أصدر المُحافِظ توم برادلي تصريحاً يتضمَّن تهانيه لمركز الإطفاء - وهو شيء يبدو قبل أوانه بصورة متهوّرة، بما أنَّ هاري لم يكن قد اتُّهِمَ رسمياً بعد، وربما كان برادلي يعلم أنَّ القضيّة المرفوعة ضد هاري ضعيفة الأساس في أحسن الأحوال. وفوق ذلك كلّه، ناقش اثنان في مركز الإطفاء عمليّة إلقاء القبض على أثير محطة إذاعة غير آمنة رصدته الصحف المحليّة للحصول على معلومات. وفي الحال انتشر الخبر كالنار في الهشيم. فقد صدرتْ صحيفة *لوس أنجلوس تايمز*، واصفة هاري بأنّه ممثّل في دوامٍ جزئيّ وأنّه

«صبيّ يؤدي مهام»، تحت عنوان يقول الأصدقاء إنَّ قصصاً مُبالغاً فيها توقِعُ في مُشتبه بالإحراق المُتعمَّد. قدَّمَ المحترَم كلارك سميث، آخر حِجج غياب هاري الذي كان يتشبَّث به بقوة، دِفاعاً ضعيفاً عن صديقه: صرَّحَ لصحيفة تايمز بأنَّ هاري لا يشبه كثيراً الرسم الأوّليّ الذي وضعه رسّام الشرطة للمُشتبه به، خاصة أنّه لم يكن ممكناً أنْ يُنمّي شارباً إنْ كانت حياته اعتمدتْ عليه. وكون هاري يشبه الرسم أو لا يُشبهه هي مسألة وِجهة نظر، لكنَّ مقدرة هاري على تنمية شارب هي حقيقة. ومؤخراً استعرتُ عدداً من الصور لهاري من ديمتري هيوليس، وظهر هاري في معظمها بشاربٍ كثّ.

ما لم يأتِ المحترم سميث على ذِكره هو أنّه لا يمكن أنْ يكون هاري قد أضرم النار لأنه كان جالساً معه في الحيّ الفرنسيّ. لقد أعطى سميث فقط نسخة عن المنطق المُعقَّد الذي جعل دوّامة الاعترافات والإنكار التي لا تنتهي تُثير الجنون: قال إنَّ كل مَنْ عرِفَ هاري ضحك عندما قال المُحقّقون إنّه أدلى بقصص متضاربة حول مكان تواجده. وقال المحترم سميث للمُراسِل مُضيفاً، «لطالما كان هاري يحكي قصصاً متضاربة»

-22-

«استرداد معلومات إنسانيّة» (2010)
تأليف وارنر، جوليان
010.78 W282

«مواقف وممارسات صانعي أمان الغذاء المنزلي» [مايكروفورم] (1977)
تأليف جونز، جوديث ليا
NH 614.3 J77

«سجين تريبكستان: عقد في الخطر!» (2006)
تأليف هاريس، بوب
809.2954 J54Ha

«دليل المالك الجديد إلى الكلاب المالطيّة» (1997)
تأليف أبوت، فيكي
636.765 M261Ab

قد يكون نقيض خزّان الحرمان الحسّي هو قضاء صباح يوم الإثنين في قسم المعلومات الفوريّة في المكتبة. يرنّ جرس الهاتف بذلك الرنين الإلكترونيّ المتميّز الغريب طوال النهار، ويُجيب طاقم أمناء أقسام المراجع الخمسة، متنقلين من موضوع إلى موضوع بعنف بحيث إنّ مجرد الجلوس بينهم والإصغاء يجعل دماغك يشعر بأنّه كالمطّاط.

قال رونالدو باسكوينيللي المُشرِف على القسم، «صباح يوم الإثنين يضجّ بالعمل. عفواً، انتظري». وضغط على زر في جهاز هاتفه وقال «ألو، المعلومات الفوريّة، بم أساعدك؟»

قالت واحدة من أفراد طاقم الأمناء، تينا برينستال، «لقد رغبتُ في أنْ أصبح أمينة مكتبة منذ أنْ كنتُ في سن الخامسة،» «انتظري. قسم المعلومات الفوريّة،، بِمَ أساعدك؟ حسن، حسن... هل قلت «ما معنى صبي الكوخ؟»»

قال ديفيد برينر، الجالس على طاولة المكتب المُجاورة لطاولة برينستال، «لدينا الكثير من الأشخاص الذين يتصلون باستمرار. لدينا عجوز يتّصل باستمرار ليطرح أسئلة في الميثولوجيا، وأدب الخيال العلميّ، وعن الحرب العالميّة الأولى، وما شابه من أسئلة. ويسأل أيضاً دائماً عن بعض الممثلات والمشاهير، ويسأل إنْ كنتُ أعلم ماذا يجري لهم. في الحقيقة، هو يسأل عن جولييت لويس والنساء في فرقة بوسي رايوت الغنائيّة»

قال أمين المكتبة الجالس إلى جوار برينر، هاري نولز، «أوه، وهناك ذلك الرجل الذي يتّصل مرة كل بضعة أشهر لكي يسأل عن آخر أخبار دانا ديليني، الممثّلة التي تمثّل في مسرحيّة *شاطئ الصين*».

وضعتْ برينستال سماعة هاتفها ودوّنت شيئاً. قالت، وهي تربتْ على طاولة مكتبها بقلم الرصاص، «أحياناً يُذهلني ما يسأل عنه بعض المتّصلين. ذات مرَّة اتّصلت إحدى الزبائن لتسأل إنْ كان لا بأس إذا أكلتْ علبة بازيلاء محفوظة ليس مكتوباً عليها تاريخ انتهاء صلاحيتها. أعني، هناك موقع إلكتروني يُدعى «ما زال طعمها لذيذاً» ألجأ إليه لكي أعرف تواريخ صلاحيّة الأشياء، لكنني لن أتحمّل مسؤوليّة سيدة تأكل مقدار علبة من البازيلاء المحفوظة!»

قلتُ يبدو أنّهم جميعاً يعرفون الكثير.

قالت برينر «لقد جرّبت الاشتراك في برنامج *جيوباردي!*»

قال نولز «أنا جرَّبت واجتزتُ الاختبار»

تابعت برينستال، ومازالتْ تفكّر في البازيلاء، «حدث ذلك في أول أسبوع لي في العمل! أخبرتها عن متوسط عمر صلاحيّة البازيلاء، لكنني آمل ألّا تكون قد أكلتها»

قال برينر عبر هاتفه «نعم، فروع المكتبة كلّها تفتح أبوابها اليوم»

قال نولز في هاتفه، وهو يعبث بسلك الهاتف ثم يتركه ليعود إلى وضعه السابق، «ألو، نعم، إنَّ صلاحيّة بطاقات الانتساب إلى المكتبة تنتهي كل ثلاث سنوات»

قالت برينستال، «في الأسبوع الفائت اتّصلتْ سيدة وسألتني كيف تردّ على بطاقة دعوة إلى حفلة للأطفال. أعني، هذا ليس بالضبط شيئاً يتطلّب البحث عنه. واكتفيتُ بالقول، «ما رأيك بـ... «أفضل تمنياتي»؟ أو... «تهانيَّ»؟»، كما خطر على بالي. لم أستشِر أي مصدر. بدتْ سعيدة بذلك الجواب». ثم أضافتْ «هناك الكثير من الوحيدين في العالم»

قال باسكوينيللي «نحن نعالج الأمور في القسم إذا أمكنَ ذلك». كان يعمل أميناً في المكتبة المركزيّة منذ خمسة وثلاثين عاماً. كانت طاولة مكتبه متوسطة الحجم على شكل سلسلة جبال من الأوراق والكتب والملفّات والكرّاسات. «إذا اضطررنا نُحيلها إلى مصدر آخر. إذا اتّصل أحدٌ وقال «أريد أنْ أعرف متى ماتت مارلين مونرو»، نستطيع أنْ نُجيبه هنا في القسم، *وفوراً!* ولكنْ إذا سألَ إنْ كانت قد انتحرتْ، فإننا نُحيله إلى قسم الأدب»

أعادتْ برينستال سمّاعة الهاتف إلى مكانها وهزّتْ رأسها نفياً. «لِمَ يتّصل شخصٌ بنا ويسأل، «أيّهما أكثر شرّاً، الجنادب أم الجداجد؟»». لم توجّه كلامها إلى شخصٍ بعينه. وأخذتْ نَفَسَاً عميقاً ثم زَفَرَته ببطء.

سكتَ رنين الهاتف برهة. وتوتّرَ الجو. ومن جديد رنّتْ أجراس الهواتف.

قالت برينستال، «المعلومات الفوريّة.... طبعاً... حسن، إذن أعتقد أنّه كتاب بريطانيّ؟ أوه، ملوك *فريق الهوكي*. إنهم ليسوا ملوك بريطانيا» ودوّنتْ على جهاز الكومبيوتر شيئاً. «نعم، لدينا عِدّة كتب في الألعاب الرياضيّة. هذا في مجال الفن والإبداع»

قال برينر، وهو يُنهي مكالمته «أقسمُ على أنَّ بعض الأشخاص يتّصلون بنا بأرقام محفوظة. هذه المرأة -نُسمّيها «فرو»- تتصّل بنا طوال الوقت لكي تسأل عن هجاء كلمات ولكي نُساعدها في قواعد اللغة. تقول إنها شاعِرة. وأحياناً تتصل خمساً وعشرين مرّة خلال ساعة لتطرح أسئلة في تحرير النصوص»

قال نولز «ليس كل شخص لديه خط إنترنت أو يعرف كيف يستخدمه. ألو. المعلومات الفوريّة؟»، وفترة صمت. «ما هو العنوان من جديد؟ *سحر التنظيف الذي يُغيّر الحياة*؟ أوه، *الترتيب*. سوف أتقصّى. انتظر لحظة»

سأل باسكوينيللي عبر هاتفه، «تحصل على رسالة خطأ عند تنزيل وسائل الإعلام الإلكترونيّة؟ انتظر لحظة»

قال لي نولز «إننا نتلقّى العديد من الأسئلة عن النعي، وعن قواعد السلوك. وفي الحقيقة، يصلنا العديد من الأسئلة حول قواعد السلوك في النعي. ألو، المعلومات الفوريّة، كيف أساعدك... أهاه. طبعاً. هل تستطيع أنْ تتهجّى هذا؟ س-ي-ل-ي-س-ت، الاسم الأخير الحرف نون، والحرف جيم؟ فقط نون-جيم؟ حسن، انتظر لحظة»

قال برينر، وهو ينظر على شاشة الكومبيوتر الخاصّ به «هل تقول إنَّ ديلان هو الاسم الأول أم الكنية؟ حسن، عظيم. لحظة من فضلك، سوف أُعطيك الجواب»

قالتْ لي برينستال، «يعتقد أصدقائي أنّني أعرف كل شيء لأنني أمينة مكتبة. في أثناء مشاهدتنا الألعاب الأولمبيّة، يقولون فجأة، «تينا، كيف يُسجلون علامات لعبة التزلّج على الجليد؟» أو يسألون من دون مُقدمات، «تينا، كم سنة يعيش الببغاء؟»»

سأل نولز، وهو يميل فوق شاشة كومبيوتره، «هل عنوان الكتاب «*دليل المالك الجديد إلى الكلاب المالطيّة*»؟». يُصغي إلى المُتّصِل دقيقة. «إذن تقول إنّه *أنتَ*المالك الجديد الذي يبحث عن دليل الكلاب المالطيّة؟». فترة صمت. يطبع بضع كلمات، وسمّاعة الهاتف مُقحَمة تحت ذقنه. ويقرأ ما يظهر فجأة على شاشته ويبتسم. يقول للمُتّصل، «حسن، أنت محظوظ. حصلنا على كليهما»

-23-

«الالتحاق بالنقابة: وجهتا نظر من أمناء المكتبات» (1975)
تأليف غايتون، ثيودور لويس.
331.881102 G992

«موقف السيارات عام 1956: ابتكار إيقاف السيارة بعيداً عن الشارع، في قلب مدينة لوس أنجلوس» (1956)
388.3794 P2475-9

«ريتشارد نيوترا: مع مقالة بقلم ديون نيوترا، ذكرياتي مع ريتشارد نيوترا» (1992)
تأليف ساك، مانفريد
G 720.934 N497Sa

«أشدّ زلازل كاليفورنيا تدميراً: تأريخ» (2017)
تأليف هوفمان، أبراهام
551.2209794 H699

استمرَّ التجاذب حول تجديد أو استبدال مبنى غوذهيو طوال ما يُقارب خمسة عشر عاماً. وتضمّن قضايا سندات خاسرة وتقارير المُلاءمة وقِوى دفع المهمّة؛ ومقترحات متعدّدة، كذاك الذي يقترح التخلّص من المكتبة الرئيسيّة والاكتفاء بالفروع؛ ومجموعات لإجراء دراسات؛ وعرائض؛

وجلسات استماع عامة؛ ومن ثم المزيد من جلسات الاستماع العامة. ومرت سنون في السير بقيادة تشارلز لكُمان، المهندس المعماري المُثير للجدل الذي عيَّنته المدينة لكي يضع مُخططاً؛ وأوصى بإنشاء مبنى جديد، من ثم اقترحَ أنْ يكون هو المُهندس. تضمّنتْ إحدى أشدّ المعارك شراسة التي دارتْ بموازاة مناظرة إعادة التجديد استحداثَ موقف للسيارات في المكتبة المركزيّة. لم تكن هناك إلّا بعض الأماكن المتفرّقة لإيقاف السيارات بجوار المكتبة. كان مُعظم أفراد طاقم العمل يركنون سياراتهم على مسافة بعيدة ويجتازون أحياء في المدينة تبدو خطِرة. وبدأ أمناء المكتبة يُبدون غضبهم طلباً لبعض التجهيزات. واقترحوا رصف المرج الغربي للمكتبة والحديقة وتحويلهما إلى موقف لسياراتهم.

إنَّ العاملين في مكتبات لوس أنجلوس -ومعظم موظفي المكتبات في أرجاء البلاد- مُنظّمون تنظيماً عالياً، ومُفوّهون، وعنيدون. اجتمعوا معاً وكوّنوا نقابة لأمناء المكتبات في عام 1967 وانضموا إلى الفيدراليّة الأميركيّة للمُستخدمين في الدولة، والمُقاطعة والبلديّة في عام 1968. ومُعظم أمناء المكتبات الذين قابلتهم سبقَ أنْ خدموا في مجال الخدمة السياسيّة والاجتماعيّة وكانوا ناشطين. قابلتُ العديد من الأمناء الذين خطّطوا للانضمام إلى قوات حِفظ السلام ولكن انتهى بهم الأمر في مدرسة المكتبات. أحدهم توقّعَ أنْ يُصبح حارس غابة لكنّه انجذبَ إلى الكتب. وأمينة مكتبة أخرى، تكتب نشرة أخبار النقابة، كانت تُشير إلى نفسها على أنّها «أمينة مكتبة-كاهنة» وإلى عقد استخدامها على أنّه «عهد أخذته على نفسها»

كان أمناء المكتبة المركزيّة يعتبرون أنفسهم أكثر من مجرد زملاء. وبقدر ما تبدو فكرة العائلة العاملة مُبتذلة قليلاً، فإنَّ المكتبة تبدو كذلك حقاً، بكل ما تنطوي عليه مفاهيم الألفة والولع والثرثرة والتنازع والأقدميّة. وطاقم العمل في العموم يتّحدون حول الرأي القائل إنَّ الإدارة (في المعتاد) وهيئة مُفوّضي المكتبة تفشل (دائماً تقريباً) في فهم معنى أنْ يعمل المرء بين أكداس الكتب، ويتعامل مع المُترددين عليها، يوماً بعد يوم. وهناك ازدراء خاصّ لأي أمين مكتبة في المدينة لم يعمل قط على الأرض، يُرتّب الكتب على الرفوف ويتعامل مع المترددين على المكتبة. وعندما عُيِّنَ جون زايو،

أبدى عددٌ من أمناء المكتبة السرور لاكتشافهم أنَّ زابو كان قد عمل في كل قسم من أقسام المكتبة، بدءاً بمكتب الاستعارة، وقالوا أشياء على غرار «إنّه مُتخصِّص حقيقي في شؤون المكتبة»، تمييزاً له عن شخص هو مدير فقط، مُجرَّد من أي حبّ للمكان.

كان طاقم أمناء المكتبة يُمرِّر آراءه عبر نقابة أمناء المكتبات الموهوب في عرض تلك الآراء بحيويّة. وقد نظَّمَت النقابة حركات إضراب عمّاليّة وشعبيّة واحتجاج بسبب صرف من الخدمة بدعوى «التمرّد». وذات مرّة، أطلقت النقابة ديكاً روميّاً حيّاً إلى اجتماع هيئة مندوبي المكتبة تعبيراً عن رأيها في اقتراح اختزال الميزانيّة. وفي شهر شباط من عام 1969، كانت مشكلة موقف السيارة تتفاعل. ونظَّمَ أمناء المكتبات إضراباً عاماً دعماً لخطّة رصف الحديقة. وكانت الحديقة مُكمّلة لتصميم غوذهيو، والتزمت جماعة بارتون فيلبس من مؤرّخي الهندسة المعماريّة بالحِفاظ عليه. لكنّ سخط طاقم العمل كان شديداً، وبينما القضيّة الأكبر حول ما ينبغي فعله بالمكتبة متوقفة، بدأ يبدو أنَّ طاقم العمل سوف يحصل على بقعة مُخصَّصة لموقف السيارات.

قرَّر المهندس المعماريّ روبرت ألكسندر، الذي كان شريك عمل لمهندس كاليفورنيا الشهير ريتشارد نيوترا، أنْ يُبدي احتجاجه على التدمير المُقترَح للحديقة. فربط نفسه بسلاسل بصخرة قريبة من نصب بئر الكتّاب وقال إنّه سوف يبقى هناك إلى أنْ تُعلَّق خطّة الرصف. وقامت جماعة بارتون فيلبس ومارغريت باخ برفع دعوى للحِفاظ على الحديقة، لكنّها رُفِضَتْ. وكمجهودٍ ختاميّ، اقترح الفريقُ بديلاً بإقامة موقف للسيارات أوسع على قطعة أرض بور مُجاورة. وحسب ما ورد على لسان بارتون فيلبس، لم تُعط هيئة مفوّضي المكتبة أي ردّ على الاقتراح. وانتصر إصرار أمناء المكتبة، وتمَّ قبول اقتراح إقامة موقف السيارات الجديد. وحرّر روبرت ألكسندر نفسه من سلاسله المُثبّتة على الصخرة، وفي غضون بضعة أسابيع، أُزيلَ ما يوجد على المرج الغربيّ والحديقة من تماثيل ونوافير ومزروعات ورُصِفا بطبقة سوداء. لم يبدُ أنَّ أحداً علِمَ بما حدث للعديد من تماثيل الحديقة بعد إزالتها. وأهمّها، نصب بئر الكتّاب –نصب غوذ هيو احتفاءً بأعظم الكتّاب على مرّ

التاريخ- ما زال مفقوداً. وعلى مرِّ السنين، شوهِدَ العديدُ من التماثيل الهامّة التي أُزيلَتْ من الحديقة في بعض المنازل الخاصّة. وأُخفيَتْ قِطعٌ أخرى في زوايا رطبة من الطابق تحت الأرضيّ من المكتبة. والعديد منها لم يُعثَر عليه بكل بساطة.

بعد رصف الحديقة بوقت قصير، أعلن أمين مكتبة المدينة هاميل أنّه يستقيل من منصِبه وسوف يعود إلى المجال الأكاديمي. وأُطلِقَتْ حملة بحث وطنيّة، وعُيِّنَ وايمن جونز. ورثَ مبنى يُعاني من مشاكل لا حصر لها ولا يوجد إجماع على كيفيّة حلّها. وبوصفِهِ أمين مكتبة، كان جونز معروفاً بأنّه بنّاء وليس مُبرمِجاً. بل كان أشدّ توقاً من هاميل إلى هدم مبنى غوذهيو. لكنَّ الخطّة اصطدمتْ بقوة بعائق عندما أعلنَ مُفوض الفنون المحليّة أنَّ المكتبة والأرض المُحيطة بها تُعتَبَران عملاً فنيّاً. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، وُضِعَت المكتبة على لائحة السجل الوطني للمواقع التاريخيّة.

في فصل الشتاء التالي، عام 1971، اهتزَّ حوض مدينة لوس أنجلوس وانشقّ بفعل زلزال سيلمار، الذي سجّل هزّة مقدارها 6.7 درجات على مقياس ريختر. وقتل الزلزال أربعة وستين شخصاً وتداعى كل ما يُحيط بمركزه، بدءاً بالطريق العامة التي تمر من فوق سد فان نورمن السفليّ وحتى مستشفى إدارة المُحاربين القُدامى في سيلمار. وأصابت الهزّة الارتجاعيّة أسفل المكتبة، وكانت قويّة. وقفز أكثر من مئة ألف كتاب عن رفوفها. وكانت إعادة الكتب إلى الرفوف عملاً شاقاً بحيث إنَّ المدينة أطلقَتْ نداءً طلباً لمتطوعين من أجل مدّ يد المساعدة إلى طاقم العمل. وطلبَ المُحافِظ مُخصصات ماليّة للطوارئ من الحاكم رونالد ريغان ومن الرئيس ريتشارد نيكسون من أجل المساعدة في استعادة المكتبة المركزيّة وتجديد فرعَين للمكتبة كانا قد أُصيبا بضرر جسيم وأُغلقت أبوابهما. وفي ذلك العام نفسه، كان قد بلغ عمر منظومة مكتبة لوس أنجلوس العامة مئة عام.

-24-

«بابوشكا في مقابل سيتي» [الجدَّة على خط الإنترنت] (2012)
تأليف شوليبفا، ناتاليا
Ru 510.78 S562

«الحياة الصادقة: كيف تعيش حياةً طبيعيّة وتكون صادقاً مع نفسك» (2013)
تأليف ألبا، جيسيكا
613 A325

«أنماط النشاط اليوميّ للمُشردين: مُراجعة» (1988)
تأليف رايش، شين
362.509794 R347

«مدام تشيانغ كيه-شيك: سيدة الصين الأولى الخالدة» (2006)
تأليف لي، لورا تايسون
92 C5325Li

في عام 1871، نشر زائرٌ لمكتبة لوس أنجلوس العامة مقالة يتخيَّل فيها مُستقبلاً تُضغَط فيه المكتبة بإعجاز إلى حجم حقيبة يد. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنَّ المكتبات شيء ماديّ وملموس بإلحاح -أعداد هائلة من الصفحات والتجليد، وكتلة الكتب الضخمة- فإنَّ هذه الفكرة بدتْ مُنافية

للعقل كالهبوط على سطح المريخ. طبعاً، مع اختراع الكومبيوتر والإنترنت، فإنَّ هذا بالضبط ما حدث. إنَّ المكتبة تضمّ كميّة هائلة من المادة لا توجد على خط الإنترنت، لكنَّ فكرة أنَّ مُعظمها بحجم الجيب ويحتويها صندوق صغير من البلاستيك كانت صحيحة لبعض الوقت. وشهِدت المكتبات مجيء الإنترنت فمدَّتْ يدها له. أولاً أتاحت محطات للإنترنت للاستخدام العامة؛ ثم قدّمتْ مجاناً جهاز التقاط. والآن في المكتبة المركزيّة وفي العديد من المكتبات الأخرى في كل أنحاء البلاد، توجد عربات بيع يمكن لأي شخص أنْ يستعير منها كومبيوتراً محمولاً أو كومبيوتراً لوحيّاً من أجل الاستخدام اليوميّ، تماماً كما يستعير كتاباً.

إنَّ مركز الكومبيوتر في المكتبة المركزيّة هو غرفة كبيرة، وطويلة، تضمّ رتلاً من محطات العمل المفيدة وخمسة وخمسين كومبيوتر طاولة. يبدو كأي يوم عمل عادي، وكل أجهزة الكومبيوتر في المكتبة تُستَخدَم طوال الوقت، وإذا كنتَ لا تعرف بالضبط أين أنت، فقد تعتقد أنك في أحد مراكز الاتصال بالتسوّق عبر التلفزيون. وهناك العديد من المنتظرين لكي يدخلوا المكتبة عند الساعة العاشرة صباحاً في كل يوم ويتوجّهون مباشرة إلى مركز الكومبيوتر، يتدافعون في أثناء مرورهم خلال البهو وفي المصاعد. وحالما تمتلئ مواقع الكومبيوتر الخمسة والخمسون، يتشكّل هناك طابور من المنتظرين مع الكثير من التذمُّر. وإلى جانب التذمُّر، يُغمغم الزبائن على الأقلّ لأمينة المكتبة العاملة، في أثناء مرورهم، «صباح الخير» – حتى الزبائن الذين لا يتكلمون أو المنزعجون إلى درجة ألّا يأبهوا بالاهتمام بالآداب الاجتماعيّة كتحيّة الصباح. قالت فيولا كاسترو، إحدى أمينات المكتبة التي كانت تؤدي نوبتها من العمل عندما كنتُ هناك مؤخّراً، عن الزبائن، «إنهم يُحاولون أنْ يكونوا مُهذّبين جداً». كانت كاسترو، امرأة أميركيّة إفريقيّة هادئة، مربوعة، ترتدي ملابس أنيقة كأنّها تعمل في مصرف. وأمينة المكتبة الأخرى، بيل جيليت، كانتْ ذات وجه منبسط، مرح، ومثقوب هنا وهناك بحلقات تهتز قليلاً عندما تتكلَّم.

قالتْ كاسترو إنها عملتْ في المكتبة طوال سبعة عشر عاماً. وقالت، بصوتٍ يتراوح بين الضحك والتنهّد، «لقد كنتُ مُهيّأة لأكون مُساعدة محام قبل هذا العمل، ولكن، انتهى بي الأمر هنا»

قالت جيليت، «العمل هنا جيد. لقد أدرتُ مأوى للمُشرَّدين في غليندِيل طوال ثماني سنوات قبل أنْ آتي إلى هنا». وضحكت، ثم أضافت، «إنَّ المكتبة هي حتماً أكثر هدوءاً من ذلك. إنَّ لديّ زوجاً وثلاثة أطفال، لذلك لديّ ما يكفي من المشاكل في المنزل»

في مركز الكومبيوتر في صباح ذلك اليوم كان هناك عدد من الأشخاص بدوا أشبه بطلاب مع رجل في منتصف العمر يرتدي بذلة جديدة. ولكن مُعظم الزبائن بدوا كالمُشردين أو على الأقلّ يعيشون حياة صعبة. قالت جيليت «إنهم أناسٌ طيّبون، لكنّنا نمرّ بأوقات من التميُّز. ويُصبح الوضع أصعب قليلاً قبل بضعة أيام من مجيء تفتيش الأمن الاجتماعيّ، والآن، عندما يُصبح الزبائن مرحين...» وأشارتْ إلى أحد حرّاس الأمن كان في وضعيّة رجل الشرطة بساقيه الممدودتين بالقرب من المدخل. رفع حزامه بحركة سريعة وابتسم لجيليت عندما رآها تُشير بإصبعها. وتابعت «أصبح لدينا حراسنا الخاصّون الآن. إننا نحاول فقط أنْ نلتزم بالقواعد. لا وجود للتطرّف. لكنَّهم لا يُحبّون حقاً بعض القواعد»

سألتُ عن القواعد غير المرغوبة، وقالتْ، «على غرار، مثلاً، أنك لا تستطيعين أنْ ترقصي أو تغني هنا. ولسوء الحظ، الكثير منهم يُحبون أنْ يغنّوا»

يسود مركز الكومبيوتر السكوت والعتمة، وهو دافئ بنفحات من الرائحة الكريهة، وبرائحة الجسم البغيضة، وبالروائح النباتيّة للقذارة المدسوسة في الملابس التي تتقدَّم في طريق التحلُّل. ولكنّه أيضاً يتّسِم بشعور الانهماك الممتع، المتحرِّر بصورة من الجسم، بينما كلٌّ من الخمس والخمسين شخصاً ينفصل عن المكتبة وينغمس في العالم الذي يُبحِر فيه. تجوّلتُ في الغرفة وألقيتُ نظرة سريعة على ما يظهر على شاشة كل كومبيوتر. لعبة ورق. موقع إلكتروني للثرثرة مع خبر مُدوٍ عن المغنية سيلين ديون. فيلم الكرتون «*فلينستونز*». ومباراة بكرة السلّة. وموقع لتصيّد الوظائف، وفيسبوك، ومباراة بالشطرنج على خط الإنترنت. حيّاني أحد الرجال وأخبرني بأنّه يُدوّن سيرته الذاتيّة. وأخبرتني فيولا كاسترو بأنَّ بعض الزبائن يتفرّجون على المواقع الإباحيّة، وأمناء المكتبات يسمحون لهم بذلك إلّا إذا كانت إباحيّة تستعين بالأطفال، فهذا ممنوع. بعد أنْ قالتْ هذا، تذكّرتُ أطروحة في عام

1980 من أجل أمينات المكتبات عثرتُ عليها مؤخّراً. عنوانها «الجنس في المكتبة المركزيّة»، وتستعرض سياسات المكتبة بشأن المواد المتعلّقة بالجنس. بما فيها الكتب والمجلات التي تتناول مواضيع كالرقص العاري، والتعرّي، ومسابقات الجمال (المُدرّجة تحت عنوان «رياضة»)، ومباريات تبادُل القُبَل. ولم تتمكّن الأطروحة من توقُّع أنكَ ذات يوم سوف تتمكّن من الجلوس في المكتبة وتتّصل بأيّة ممارسة جنسيّة يمكن تخيّلها وعديد منها لم تتخيّله.

بينما كنتُ أتمشّى في أرجاء مركز الكومبيوتر، زعقَ رجلٌ كان جالساً على طاولة مكتب في الركن، «أوه يا إلهي!»، دفع أحد الرؤوس القلقة إلى الالتفات من بين باقي الناس الجالسين أمام أجهزة الكومبيوتر، فعدتُ أدراجي إلى الطاولة. فلوّحت كاسترو بيدها وقالتْ، «لا شيء يستحق الذكر، لا شيء، لا شيء. إنّه يفعل هذا في كل يوم». وتبادلنا الحديث بعد أنْ هدأ الجميع. أخبرتني بأنها حصلت على بطاقة انتساب إلى المكتبة لكل طفل من أطفالها حالما بلغوا الثالثة من العمر. في تلك اللحظة اقترب شاب متوتر الأعصاب يرتدي قميصاً رياضيّاً ماركة أديداس من طاولة المكتب وأخبر كاسترو بأنّه كان يواجه صعوبة في طباعة شيء ما. نهضَتْ كاسترو واقفة وذهبتْ معه إلى الطابعة، وضربتها بقوة مرّتين، وهزّتْ بعض الأشياء، فعادتْ إلى العمل من جديد. ورجعتْ إلى الطاولة وهمستْ لي، «إنّه يشعر بقليل من الحرج. كان يطبع صورة الممثلة جيسيكا ألبا وهي عارية، فعلقَت الورقة»

في تلك الأثناء، تقدّم حارس الأمن بخُطى متمهّلة من الطاولة. قال «تقولين هذا لا شيء. أتريدين مشهداً مُثيراً؟ تعالي إلى فرع هوليوود. في يومٍ قريب، جاءتنا سيدة يُرافقها ذئب حراسة»

قلنا أنا وجيليت في وقتٍ واحد، «ذئب؟» هزّ حارس الأمن كتفيه استخفافاً وقال «في الواقع، ربما كان كلباً. لكنّه كان ضخماً بحجم ذئب، أُقسِمُ»

***

استقللتُ المصعد لأنزل، شاعرة بالسعادة. أحببتُ المصعد؛ كان مكسوّاً بورق جدران عليه رسوم أوراق لعب مأخوذة من بيان مُصوَّر قديم – تلك

الأوراق المستطيلة، المُبقّعة، المطويّة عند زاويتها وأبعادها بوصتان بخمس بوصات، التي دائماً يطبعها شخص لا يضغط بقوة على المفاتيح، فتظهر الأحرف باهتة من اللون الأسود إلى الرماديّ ثم تعود سوداء. لابد أنَّ المُصمِّم الذي صمَّمَ المصعد، واسمه ديفيد بَنْ، تسلّى وهو ينتقي البطاقات لكي يستخدمها. كنتُ أتكئ على كتب «*كل شيء عن الكلاب*»؛ و«*كل شيء عن القطط*»؛ و«*كل شيء عن الحياكة المتقدّمة*»؛ و«*كل شيء عن إعداد جواد السباق*»؛ و«*كل شيء عن الفن الجنسيّ*».

كنتُ في طريقي لمقابلة ديفيد أغوير، رئيس إدارة الأمن في المكتبة. كان للرئيس صدر مشدود ومُصافحة قويّة وتتشكّل شبكة من التجاعيد حول عينيه عندما يبتسم. وكان من قبل رئيس إدارة الأمن في حديقة حيوان لوس أنجلوس. وجاء إلى المكتبة في عام 2006 وتحت إمْرَته ستة وأربعون ضابطاً يُقدّمون له التقارير. ستة وثلاثون منهم عُيِّنوا في المكتبة المركزيّة، أما الباقون فهم في الفروع. قال الرئيس أغوير لي ونحن نتجول في أرجاء المبنى، «هذا هو وضع الأمن في المكتبة. إنَّ نسبة الذكور الذين يستخدمون المكتبة هي ثمانون في المئة، ونسبة الإناث بين أمناء الأقسام هي ثمانون في المئة، وهذه المعلومة يجب وضعها في عين الاعتبار»

وِفقا إلى أقوال الرئيس أغوير يصدر حوالي مائة تقرير أسبوعيّاً عن حدوث مشاكل في المكتبة المركزيّة. مُعظمها من النوع الذي يوصَف بأنّه «نزاع حول الملكيّة» - أي، حصول شخص على شيء مسروق. ونقطة النزاع حول الملكيّة هي قسم عِلم الأنساب، لأنَّ الناس منهمكون في اقتفاء نسب العمّة الكبرى سالي حتى لم يعودوا ينتبهون إلى أغراضهم. وبؤرة المشاكل التالية هي مركز الكومبيوتر. قال أغوير إنها تُثير الكثير من «النزاعات حول المدّة الزمنيّة»، أي أنَّ أحدهم يمكث مدة تتجاوز حدود الساعتين أمام كومبيوتر فيُثير ذلك غضب شخص آخر. وفي مجال الدِين، يصله الكثير من الشكاوى حول أناسٍ يتكلّمون مع الله بأصوات مرتفعة مُبالغ فيها. وأغوير يتمشّى في المبني مرّة كل ساعة، مولياً انتباهاً خاصّاً للمراحيض وموقف الدراجات والحديقة. في المعتاد، يواجه قضايا تافهة. وأحياناً يواجه الضبّاط مفاجآت كبيرة. فقد عثر حارس في فرع جيفرسون قبل بضع سنوات على شخص

يعيش على السطح. وعلى سطح فرع ويستوود، اكتشف حارس مزاراً دقيق الصُنع لمارلين مونرو. وثلاث مرّات خلال السنوات الست الأخيرة، عثر أغوير على شخص ميّتْ في أثناء قيامه بجولات في المكتبة المركزيّة. وغالباً ما يكون سبب الموت هو نوبة قلبيّة أو سكتة دماغيّة. قال أغوير «قبل خمسة أعوام، جاءنا سيد مُحترَم، بشكلٍ عابر، مولع بالدِين وبالفلسفة. بدا أنّه لا يملك قرشاً واحداً في هذا العالم، ولكن عندما قمنا بتفتيشه، عثرنا في جيبه على عشرين ألف دولار نقداً ملفوفة بقطعة من الورق».

وأخبرني أحد الحرّاس أنَّ موقعه في المكتبة يُشبه عمل الطبيب النفسيّ أو الكاهن أكثر من كونه حارس الأمن. ومُستخدمو أمن المكتبة هم ضبّاط قسم الشرطة. والمكتبة تدفع لقسم الشرطة أكثر من خمسة ملايين في العام مقابل خدماتهم. وقد تلقّت خدماتهم انتقاداً حادّاً من بعض الأحياء. وبعد أنْ دخلوا المكتبة مُتخفّين طوال ثلاثة أشهر، أجرى أحد العاملين في محطة NBC سلسلة تحقيقات من عدَّة أجزاء مُدَّعياً أنَّ «ضباط الشرطة [كانوا] يقضون معظم وقتهم في إرسال تعليقات على هواتفهم النقّالة أو في التحدّث، بدل القيام بجولاتهم»، ونتيجة لذلك، «تفشّى الجنس وتعاطي المُخدرات» في المكتبة المركزية وفي مكتبتين أُخريين على الأقل. كان تأثير سلسلة التحقيقات مُبهِراً وقويّاً. والعديد من الحوادث المذكورة وقعت على الرصيف خارج المكتبة، وهي من مسؤوليّة شرطة المدينة. وثمة حكاية واحدة بثّها التلفزيون كانت صحيحة وهي أنَّ المكتبة اضطرّتْ إلى معالجة قضايا مُعقَّدة أثارت المُشرّدين والمرضى عقليّاً. وبعض أمناء الأقسام الذين تحدثتُ معهم في المكتبة المركزيّة شعروا بأنَّ المراسلين حاولوا أنْ يحموا جون زابو. وهو لم يدع القصّة تُقلقه. وعندما سألته عن سلسلة التحقيقات أرسل إليّ رسالة إلكترونيّة، «إنَّ أجمل شيء في المكتبة العامة أنها تفتح أبوابها للجميع وأنّها مجّانيّة. يُرافق هذه المزايا تحديات صعبة جداً تواجهها مكتبتنا والمكتبات العامة في أرجاء البلاد في كل يوم. طبعاً، هذه التحديات ليست غريبة على المكتبات – إنها قضايا كبيرة، ومُعقّدة وتخصّ المجتمع ككل. ونحن نُحدِثُ فرقاً ببرامج تخدم المُشردين وتُعنى بتفاوت الأحوال الصحيّة»

***

في كل يوم، يأتي العديد من المشردين إلى المكتبة، وعديدون يتسكّعون في الحديقة وحول المبنى. بعضهم لا يفعلون أي شيء هامّ، لكنهم يبدون مهملين وشاردين؛ قد يبدو أنَّ الجو المُحيط بهم مشحون ومُثير للأعصاب. شاهدتُ أناساً يشربون الخمر ويتعاطون المُخدرات في الحديقة -وليس داخل المبنى- ولو كان لديّ طفل، لاستبدَّ بي القلق إذا اقترب منهم. وشاهدتُ أناساً يشربون الخمر ويتعاطون المخدرات علناً في كل أرجاء المدينة، وفي المتنزّهات، وعلى الأرصفة، وعند مواقف الحافلات. إنَّ كل مشكلة تعاني المدينة منها، تعاني المكتبة أيضاً منها، لأنَّ الحدّ الفاصل بين المجتمع والمكتبة نفذ؛ لا شيء جيداً يمكن منعه عن المكتبة، ولا أي شيء سيء. غالباً، في المكتبة، تتضخَّم المشاكل. والتشرّد وتعاطي المُخدّرات والمرض العقليّ هي مشاكل تراها في كل مكان عامّ في لوس أنجلوس. الفرق الوحيد هو أنكَ إذا شاهدتَ مريضاً عقلياً في الشارع، تستطيع أنْ تنتقل إلى الرصيف المقابل. أما في المكتبة، فإنكَ تتقاسم مساحة أصغر وأكثر حميميّة. والطبيعة المُشاعة للمكتبة هي جوهر المكتبة، وتتمثّل في تقاسُم المقاعد وتقاسُم الكتب وتقاسُم المراحيض.

إنَّ التزام المكتبة بكونها مكاناً مفتوحاً أمام الجميع هو تحدّ هائل. وبالنسبة إلى العديد من الناس، قد تكون المكتبة هي المكان الوحيد الذي يُقترب فيه من المُضطربين عقلياً والقذرين إلى أقصى مدى، ويمكن لهذا أنْ يكون شيئاً مزعجاً جداً. ولكنْ لا يمكن للمكتبة أنْ تكون المؤسّسة التي نأمل في وجودها إلّا إذا كانت مفتوحة أمام الجميع. قبل بضع سنوات حضرتُ مؤتمراً عالمياً حول مستقبل المكتبات، ووجد الجميع -أمناء مكتبات من ألمانيا وزيمبابوي وتايلند وكولومبيا ومن كل أنحاء العالم- أنَّ تحدّي التشرّد والمكتبة يُثير السخط، وعسير، ولا يمكن الفوز فيه. إنَّ الجمهور يأتي ويرحل، لكنَّ أمناء المكتبة يبقون في المكتبة طوال النهار، وعملهم يتضمَّن التعامُل مع أناس عنيدين وأحياناً عنيفين طوال النهار. والموضوع أكبر من المكتبات؛ إنّه موضوع ينبغي على المجتمع أنْ يحلّه. وكل ما في استطاعة المكتبات أنْ تفعل هو أنْ تبذل قُصارى جهدها في التعامل معه. وعلى موقع ريديتْ دارَ نقاشٌ حول تحقيق شبكة NBC، لم يضع أحدٌ اللوم على المكتبة

لأنها تجذب إليها أشد سكان المدينة اضطراباً نفسيّاً. وغالبيّة التعليقات وضعت اللوم على رجال الشرطة لأنهم لم يكونوا أكثر عنفاً وانتباهاً. وكتب أحدهم، في إشارةٍ إلى تقرير محطة NBC، «إنَّ تقرير» التحقيقات «هذا يُبين فقط أنَّ التشرّد مشكلة. وليس واضحاً صِلة المكتبة بها». وتعليق آخر قال «لديّ خبر يهمّ كل شخص: إنَّ هذا الوضع لا يُلاحَظ فقط في المكتبة. أهلاً بكم في لوس أنجلوس»

***

في أثناء تجوّلنا في المبنى، كان الرئيس أغوير يُرسل تحيّة رشيقة إلى كل فرد يمرّ به، بمَنْ فيهم رجال بوجوه حزينة يمشون بمشقّة وهم يجرّون عربات متداعية ممتلئة بأشياء قاتمة لا شكل لها. قال أغوير لدى مرورنا برجل نائم على مقعد، «أحبّ أنْ أعمل مع الناس». ربتَ أغوير عليه بخفّة، فنهضَ الرجل واقفاً باعتدال، فقال أغوير «هيه، يا صاح، النوم ممنوع». ثم التفتَ نحوي «لا يهمّني مَنْ يكون. حتى إنْ كان المُحافِظ أو مجرد عابر سبيل. أي شخص يمكن أنْ يتعاطف مع شخص آخر مدة دقيقتين أليس كذلك؟» إنَّ أداء المهام في المكتبة هو في العموم هادئ، على الرغم من أنّه قبل بضع سنين، طعن رجل غاضب ضابطاً بإبرة حقنة. كان الرجل مُصاباً بـ / HIV AIDS، فاتّهم بمحاولة القتل. لم يُصَب الضابط بالمرض ولكن كان ينبغي أنْ يبقى تحت الملاحظة طوال سنين.

الشيء الوحيد الذي كان الرئيس أغوير يكرهه في عمله هو اضطراره إلى إخبار الناس بأنَّ رائحتهم كريهة. وفي المكتبة قواعد تُحدّد على أساسها متى يُصبح هذا ضروريّاً. وأغوير يعلم أنَّ هذا إهانة، مهما كانت ظروفك صعبة. قال، مُكشّراً، «شيء مُحزِن، ولكن يجب أنْ نلجأ إليه أحياناً. من أجل راحة الأشخاص الآخرين، في الغالب». واستقللنا المصعد لكي نهبط إلى قسم التاريخ ودخلناه. كان غلين كريسون جالساً على طاولة مكتبه وأومأ برأسه لنا. وكانت هناك امرأة في منطقة أصل الأنساب تأكل الكعك المقرمش، فاقتربَ أغوير منها ورماها بنظرة. قال «ممنوع الأكل هنا، يا سيدتي»

قالت المرأة «أوه، أنا لا آكل. إنّه مجرد إفطار خفيف»

«وممنوع الإفطار الخفيف»

بدا الذهول على المرأة وقالت، «حسبتُ أنّه يُسمح بتناول وجبة خفيفة!»

تمشّينا في أرجاء القسم، نُلقي نظرة على صفوف رفوف الكتب لنتيقّن من أنَّ لا أحد مُختبئ ويقوم بعمل غير قانونيّ، ونُذكّر بعض الأشخاص بأنَّ عليهم أنْ يتنبهوا إلى ممتلكاتهم. لم يكن هناك ما يلفت الانتباه. كنا متوجهَين نحو الباب عندما قام رجلٌ ضئيل الحجم، عصبيّ المزاج، أسمر البشرة، بإمساك أغوير من ياقة عروته وأخبره بأنّه شاهدَ أحدهم نائماً في مرحاض الرجال.

قال له إغوير «حسن، شكراً لك، سوف نعالج هذا الأمر»

بدأ الرجل يرتعش. قال، وبدأت نبرة صوته تعلو، «في الحقيقة هما رجلان، وكانا يُمارسان الفعل الفاضح! وأريد أنْ أكون شاهداً! إنهما يمثلان الثقافة البيضاء والثقافة الإسبانيّة! كانا رجلاً أبيض وآخر مكسيكيّاً!». نظر أغوير حوله في الغرفة. كان الآخرون يُحدّقون لدى سماعهم الجلبة. قال أغوير، همساً، «دعنا ننتقل إلى البهو لكي نتحدث أكثر في الموضوع». تبعه الرجل إلى الخارج لكنّه بدأ يصيح حالما توقفا عن السير. أخرج أغوير جهازاً لاسلكياً من حزامه واستدعى كبير رجال الأمن المناوب، ستان مولدن. قال في الجهاز اللاسلكي، «ستان، سوف نواكب شخصاً إلى الخارج. تعال إلى قسم التاريخ». والتفت إلى الخلف نحو الرجل وحاولَ أنْ يغيِّر الموضوع نحو مواضيع أخرى بعيداً عن الحروب العرقيّة والمثليّة الجنسيّة إلى أنْ ظهر مولدن من أعلى المصعد. ونجح أغوير، مُستعيناً بعينيه، في توجيه الرجل نحو المصعد من دون أنْ يُدرك الرجل نفسه ذلك. كان شيئاً أشبه بحركة رقص الباليه. وصل مولدن إلى أسفل الدرج وأكمل حركة الرقص الدورانيّة، وانضمّ الرجل إليه في المصعد.

قال أغوير لي «مسألة تافهة. إنّه من المترددين بانتظام على المكتبة. سوف يخسر امتيازاته في المكتبة في هذا اليوم، وغداً سوف يعود مع سلوكه الحَسَن، خاصّة إذا كانت الدنيا تُمطِر»

انتهينا من القيام بجولاتنا في الطابق السفلي وعُدنا إلى الطابق الرئيسيّ.

سلَّمَ الحارس الواقف عند الطاولة لأغوير تقرير ذلك اليوم، الذي يحتوي لائحة بست من قضايا الأمن، بما فيها إخراج الرجل من قسم التاريخ؛ وجدال محلّي نشأ بين الواقفين في رتل استعارة الكتب؛ ومغسلة مسدودة في مطبخ غرفة مكتب الأمن. وأخبر حارسٌ آخر يقف عند الطاولة أغوير، «وأخرجنا أيضاً رجلاً من المستوى الرابع. كان يتحرَّك ببطء شديد - أعتقد أنه يُعاني قليلاً من العِتْه»

غادر أغوير للانضمام إلى أحد الاجتماعات، وبدأتُ من جديد القيام بالجولات مع ستان مولدن. ومولدن رجل طويل القامة ونحيل ويتَّصِف بحسّ فكه خبيث، ومُوارب. وفي وقت مبكّر من ذلك اليوم، رأيتُ رجلاً يقترب منه عند طاولة الأمن ويتكلّم بهستيريا من الرعب على مدى ما يُقارب خمس دقائق، ويصِفُ مِحفظة أضاعها. حدّقَ مولدن إلى الرجل بجمود في أثناء كلامه، ثم مدَّ يده تحت الطاولة وأخرج مِحفظةً ضخمة بُنيّة اللون. قال «أهذه هي؟» وانقضَّ الرجل على المِحفظة. قال مولدن «أخي، لا أعلم كيف فقدتَ هذه. إنها تضمّ كل شيء ما عدا مغسلة المطبخ»

وُلِدَ مولدن في تكساس، ثم سمعَ أغنية يُغنيها فريق البيتش بويز وقرَّر أنّه مُقدَّر له أنْ يُقيم في جنوب كاليفورنيا. وحالما سنحتْ له الفرصة للتوجّه إلى كاليفورنيا، ذهب إليها. وهو معروف جيداً بين طاقم عمل المكتبة ببراعته في العزف على آلة الساكسوفون بطبقتيّ الألتو والسوبرانو، التي كان يعزف عليها بين حين وآخر في حفلات يُقيمها الطاقم. لكنَّ شغفه الحقيقيّ هو الهرولة، التي تعلّمها عبر مشاهدة أشرطة فيديو على اليوتيوب. لقد عمل في المدينة على مدى ثلاثين عاماً - في أول عشرين عاماً منها، خدم في أمن مبنى البلديّة، وخلال السنوات العشر الأخيرة، عمل في المكتبة. قال «هناك مُشرّدون شاهدتهم طوال تلك السنوات الثلاثين. شيء مُحزِن. إنني أعرفهم حقّ المعرفة». وأخبرني بأنه قبل سنوات قليلة، تناهى إلى سمعه كلام تقوله امرأة مُشرّدة لأخرى إنها تنام في الشارع، وقرّر أنْ يعطيها نقوداً لكي تتمكن من قضاء بضع ليالٍ في فندق. قال «أنا عازب. وكان معي نقود أنفقها. صدّقي أو لا تصدّقي، رأيتها بعد ذلك بسبعة عشر عاماً، وأخبرتني بأنَّ أحوالها تحسّنتْ، وأرادتْ أنْ تردّ لي دينها عليّ». وهزَّ رأسه متعجّباً. وقمنا

بجولة في أرجاء قسم الفن والموسيقى. كانت هناك امرأة عجوز تقول لأمينة القسم «الذيّ في المطبخ تسع قطط صغيرة. هل تحبّين القطط؟» رفعتْ أمينة القسم رأسها وأومأتْ لمولدن، ثم التفتت من جديد نحو المرأة وقالتْ إنَّه لا يُسمح بإدخال الحيوانات الأليفة إلى المكتبة. أتت المرأة بحركة تنمّ عن الاشمئزاز. «ولِمَ؟ إنَّ القطط أشدّ نظافة وأناقة من البشر!»

قال مولدن لي «لقد ترعرعت في المكتبات. إنني أحبّ القراءة. وتصميمي في العام الجديد هو أنْ أقرأ مائة كتاب في هذا العام. وقد باشرتُ توّاً بالكتاب الأول، وهو سيرة حياة زوجة تشيانغ كيه-شيك[1]»

أومأ رجل يقترب منّا لمولدن ومن ثم قال «أتعرف كيف يمكنني أنْ أمنع شخصاً ما من دخول صفحة ابنتي على الفيسبوك؟». هزَّ مولدن رأسه نفياً، وأعطاه بضعة اقتراحات جيدة، ومن ثم غادرنا قسم الفن والموسيقى وتوجّهنا إلى قسم الأعمال. قال «لدينا هنا العديد من الحمقى، والعديد من الأذكياء، أيضاً. وهناك العديد من الناس الذين يعتقدون أننا نعرف كلّ شيء»

إنَّ مولدن سوف يكون مُستعداً للاستقالة من عمله في غضون عامَين. وليستْ لديه عائلة ولا التزامات، ولكن لديه خطّة. وقبل وقت ليس بالبعيد، عقد صداقة مع رجلٍ من سريلانكا، وتعلّم الكثير عن ذلك البلد منه. وانتهى الأمر بالرجل وزوجته إلى العودة إلى سريلانكا، لكنّه بقيَ على اتّصال بمولدن وأرسل العديد من الصور لمنزله وحيّه في سري جاياواردنيبورا كوته. وقام مولدن ببعض البحث عن البلد وأعجبه ما عرفه عنه. كان يُخطّط، عندما يتقاعد، أنْ ينتقل إلى هناك. قال «يمكن العيش هناك حياة رغدة حقاً. إنها بلاد رخيصة جداً. وجميلة». قلتُ إنّه يبدو أنَّ اجتياز العالم إلى بلدٍ آخر هو قفزة هائلة. فهزّ كتفيه وقال، «لكنني شاهدتُ الصور، وقرأتُ الكتب»

1- تشيانغ كيه-شيك: قائد صينيّ، ورئيس الصين وجمهوريّة الصين (تايوان). تحالف مع الشيوعيين ضد اليابانيين، وهزِمَ مع الشيوعيين. وخلال الحرب الأهليّة التي تلت اضطرَّ إلى الانسحاب إلى تايوان. – المترجم

-25-

«استراتيجيات ترامب من أجل العقارات: دروس ملياردير من أجل المُستثمر الصغير» [مصدر إلكترونيّ] (2011)
تأليف روس، جورج هـ.
نسخة إلكترونيّة صوتيّة.

«دراسات قضايا سابقة في حقوق الجو وحقوق استخدام طريق الأنفاق تحت الأرضيّة» (0000)
المؤسسة الأميركيّة لتقييم العقارات.
333.01 A512-7

«أحبّك يا فيليب موريس: قصّة حقيقيّة عن الحياة، والحب، والهروب من السجن» (2003)
تأليف ماكفيكر، ستيف
364.92 R967Mc

في عام 1973، وقّعَ أكثر من ألف وخمسمائة من أعضاء طاقم العمل في المكتبة على عريضة يشتكون فيها من أنَّ المكتبة المركزيّة هي بيئة عمل تنطوي على خطر. وبعد تقديم العريضة إلى الإدارة بوقتٍ قصير بلّغَ مركز الإطفاء عن وقوع ست وعشرين عملية اختراق لشِفرة الحريق في المبنى. وأخبرني بارتون فيلبس بأنه كان يعلم أنَّ المبنى تعرَّضَ للتخريب، لكنّه ارتاب في بعض حالات الاعتداء. قال «كان هناك دائماً مَنْ يترك بطاقات

وعلباً عند منافذ الهرب من الحريق، ومن ثم بصورة ما كان مركز الإطفاء يتلقى مكالمة. لقد شعرتُ بأنّهم يفعلون ذلك عن عمد، استعداداً لنسف المبنى». كان أنصار تفكيك المبنى وأنصار الحِفاظ عليه قد اتّفقوا بشأن كيفيّة الاستمرار في ترميم المكتبة، ولكن لا أحد رغب في تمويله، وكل شِقاق أثار ريبة النوايا الأخرى.

وفي صباح أحد الأيام، جاء مُطوِّر عقارات اسمه روبرت ماغواير لحضور اجتماع في مكاتب شركة آركو. وقفَ بجوار إحدى النوافذ ونظر نحو الأسفل إلى المكتبة وإلى الحالة المُزرية التي تنحدر إليها. في تلك اللحظة، اتّخذَ قراراً بأنْ يفعل كل ما في وسعه لإصلاحها. وقبل وقت قصير، وصفَ لي تفاصيل ذلك المشهد الذي أطلَّ عليه من شركة آركو. «كان جداراً هائلاً مُريعاً في الشارع الخامس... مطلع دَرَج ضيّق مُريع يُفضي بك إلى الشارع الأعلى - شيء فظيع حقاً. كان السكارى كلهم يتبوّلون على الدَرَج». وتساءلتُ عن رأيه في موقف السيارات. قال وهو يئنّ «أوه، يا الله، نعم. باختصار، لديكم مبنى مُثير حقاً للاهتمام لكنّه زريّ وموقف سيارات مُريع حقاً. ومع ذلك، رأيتُ أنَّ حمايته أمر حاسم»

إنَّ ماغواير هو أحد أشدّ مُطوّري العقارات نجاحاً في المدينة. والعديد من أضخم مشاريعه كان في داخل المدينة. وكالكثير من الناس، بمَنْ فيهم مُناصرو المنشآت المعماريّة الذين كانوا مؤثّرين في الحِفاظ على سلامة المكتبة حتى الآن، أمل ماغواير في أنْ يُصبح لمدينة لوس أنجلوس مركزُ مدينة يبدو حقاً اسماً على مُسمّى، لا أنْ تتمركز في وسطها مكتبة متهالكة. كان متعوداً على إنشاء مبانٍ جديدة، لكنّه أحبَّ مبنى غودهيو والتزم بفكرة إنقاذه وإعادة تأهيله. وكان أيضاً يعلم أنَّ شركة آركو، وكانت حينئذٍ شركة كبيرة وقوة تعمل لمصلحة الإنسانيّة، تفضّل إنقاذ المنشآت الأصيلة. ولم يرغب رئيس مجلس إدارة آركو، لودريك كوك، في أنْ تحل ناطحة سحاب محل المكتبة وتحجب المشهد عنه، وكان روبرت أندرسن، المدير التنفيذي لشركة آركو، مُناصِراً للهندسة المعماريّة الأصيلة.

كانت النقطة الدائمة هي المال. كان علم الاقتصاد يُفضّل خطّة التخلّص من المكتبة القديمة، وبيع الأرض، وإنشاء مبنى جديد في موقع آخر من

ريعها. وعندما بدأ قلب المدينة ينشط كمنطقة أعمال في الثمانينيات، كان سِعر الأرض التي تقوم عليها المكتبة يرتفع في كل دقيقة؛ ولو أنّها بيعَتْ، لغطّت بثمنها ربما كل تكاليف مكتبة جديدة في موقع آخر أرخص ثمناً. وترميم وتوسيع مساحة المبنى الحالي كان سيكلّف ما يُقارب الـ 150 مليون دولار. وربما غطّتْ السندات والتمويل الضخم بعضاً من تكاليفه، ولكنَّ ذلك لم يكن ليكفي حتماً.

في ذلك الوقت، على الساحل الشرقيّ، كان الناس قد بدأوا يفكرون في طريقة جديدة من أجل الحصول على إذن لإنشاء مبانٍ أعلى مما يسمح به توزيع المناطق. فكل مدينة لها قيود بخصوص العلوّ. فليس كل مبنى مرتفع حسب ما يسمح به القانون، لكنَّ المبنى يمتلك حقوق المجال الجويّ فوقه، وحتى العلوّ المسموح به. وفي أوائل حقبة الستينيات، كان أحد مُطوّري شيكاغو هو أول مَنْ قَدَّمَ فكرة حقوق المجال الجويّ. وحالما تم التصديق على تلك الفكرة، أضحتْ حقوق المجال الجويّ سلعة قابلة للبيع. على سبيل المثال، إذا كان لديك بناء لا يعلو أكثر من سبعة طوابق، وهي حالة بناء غوذهيو، وتقسيم المنطقة يسمح بأنْ يعلو ستين طابقاً، كان في استطاعتك أنْ تبيع «حقّ» ثلاثة وخمسين طابقاً آخر إلى مشروع بناءٍ مُجاور يرغب في بناء أعلى مما يُسمَح له. وكل حقوق المجال الجويّ واجهتْ تحديات القضاء وكانت تُصبح أداةً شائعة في تطوير الضواحي. ولكن لا أحد حاول أنْ يلجأ إلى ذلك في لوس أنجلوس.

استغرقَ تنظيم بيع حقوق مجال المكتبة الجويّة ثماني سنوات. وبحلول عام 1986، تمّتْ الموافقة على نقل الحقوق، وأصبح المشروع «يسير بخطى جنونيّة»، حسب تعبير ماغواير. واشترتْ شركته حقول مجال المكتبة الجويّ مقابل 28.2 مليون دولار، وخطّط لاستخدام المال في بناء ناطحتَي سحاب شاهقتين على الطرف المقابل من الشارع الذي توجد فيه المكتبة، وسوف تكون إحداهما أطول بناء على الساحل الغربيّ. واشترى أيضاً الأرض التي تقع تحت حديقة المكتبة السابقة لكي يُنشئ مرأباً ضخماً تحت الأرض، آملاً بذلك أنْ تُستعاد الحديقة القديمة. وتمَّ تعيين المهندس المعماري نورمن بفايفر لكي يعمل على تجديد المبنى الأصليّ، ويضع تصميماً لجناحٍ جديد

تكون مساحته ضعف مساحة المكتبة. في ذلك الوقت، كان مبنى غودهيو يضم من الكتب خمسة أضعاف ما كان مُقرَّراً له أنْ يتّسع. والجناح الجديد سوف يزوّد بما يكفي من الحيِّز لاحتواء تلك الكتب. كان المبنى الأصليّ سيُصقَل ويُلمَّع - ويعود، إذا أمكن ذلك، إلى ما كان غودهيو ينوي أنْ يجعل منه. وقبِلَ كل مَنْ دعم فكرة هدم المبنى القديم حقيقة أنَّ مبنى غودهيو سوف يدوم.

نتج عن بيع المساحة تحت الأرضيّة والمجال الجويّ جمعُ ما يُقارب ثُلثَي المبلغ اللازم لاستعادة المكتبة وتوسيعها. وعرضَتْ شركة التبغ فيليب موريس أنْ تدفع الثُلث المتبقّي - وأملتْ بذلك أنْ تحصل على تخفيض جيّد للضرائب مقابل استثمارها في قسم التاريخ. وكادت بلديّة المدينة أنْ تقبل ذلك العَرض ولكن بعد إعادة التفكير قرّرتْ أنّه لن يبدو شيئاً جيداً أنْ تُموِّل مكتبة لوس أنجلوس العامة من بيع السجائر. وتوجّبَ جمع ما تبقّى من التمويلات من مصدر آخر.

-26-

«قصص إجرام حقيقيّة من مكتب محامي المنطقة» (1924)
تأليف ترين، آرثر
364.973 T768-1

«حلم توم برادلي المُستحيل: الوثيقة التثقيفيّة» (2014)
DVD 92 B768-1

«في مديح المُقاضاة» (2017)
تأليف لاهاف، ألكسندر د.

«أمسك لسانك!: دليل الإنسان العادي إلى التشهير والافتراء. رحلة استكشافيّة فاتنة لعالم تشويه السُمعة، تتضمَّن تحليلاً للتشهير الأيديولوجيّ، والعرقيّ، والدينيّ» (1950)
تأليف إرنست، موريس ل.
347.5 E71a

روبرت شيهن هو محامي دفاع جنائي في لوس أنجلوس جمعَ حوله مجموعة من الزبائن المُثيرين للاهتمام، بمَنْ فيهم رئيس «ملائكة جهنم»[1]،

1- «ملائكة جهنم»: نادي ركوب الدراجات النارية في الولايات المتحدة وكندا، خاصة ماركة هارلي-ديفدسن. تأسست عام 1948. - المترجم

وريك جيمس، الذي اتُّهِمَ بتعذيب امرأة بأنبوب خلع؛ والمرأة التي اتُّهِمَتْ بأنها أعطت جون بيلوشي جرعة المخدِّر القاتلة. كان شيهن صاحب فكّ قويّ، وتحديق ثاقب، وأسلوب ممتع في السخرية من نفسه. ولم أتوصّل قط إلى فهم كيف حصل وقابل هاري بيك للمرة الأولى، لكنَّ تواصلهما يعود تاريخه إلى عام 1983، عندما أرسلَ شيهن أحد مُحقّقيه للبحث عن شخص يشهد لمصلحة الدفاع في محاكمةٍ جنائيّة، ونجح المُحقّق بصورة ما في العثور على هاري. وعلى الرغم من أنَّ هاري أفسدَ شهادته بالتوجّه بكلامه إلى هيئة المُحلَّفين قائلاً إنّه ممثّل، فإنَّ صراحته سحرتْ شيهن. وعلِمَ أنَّ هاري كان في حاجة إلى عمل، وهكذا كان يستعين به بين حينٍ وآخر للقيام بمهام صغيرة. ولكن مع مرور السنين انقطع الاتصال بينهما، ولذلك دُهِشَ عندما اتّصل هاري به طالباً أنْ يقبل قضيّة الحريق المتعمَّد. وذات يوم أخبرني شيهن ونحن على مائدة الغداء، «كنتُ أعلم أنّه ليس للمدينة أي شيء ضدّه، لذلك قرّرتُ أنْ أقبل القضيّة. وكانت من النوع الذي يُسمّيه المُحامون «فلام - بونو». وطفقَ يضحك وانتظر ليرى إنْ كنتُ فهمتُ النكتة؟ وعندما بدا أنني لم أفهمها، قال بصبر «هذا يعني قبول القضيّة من دون تلقّي أتعاب، لكنّها تجذب إليك الانتباه. Flamboyant, pro bono flam-bono. أفهمتِ؟»

قال شيهن إنّه ذُهِلَ عندما سمعَ اسم هاري مرتبطاً بحريق المكتبة. قال شيهن «صدقاً، كدتُ أنحرفُ عن الطريق العامّة عندما سمعتُ النبأ في نشرة الأخبار. وحتماً لم أُفاجأ عندما سمعت أنّه هو مُفتعل الحريق». منذ البداية، اعتقد شيهن أنَّ المدينة تُبالغ لأنَّ الحريق وقع قبل نحو عام والناس توّاقون إلى إلقاء القبض على شخص ما. لم ينزعج لأنَّ هاري لا يستطيع أنْ يُحدِّد مكان وجوده في صباح ذلك اليوم، أو أنّه ظلَّ يُغيِّر حجج غيابه وكأنها مجموعة من أوراق اللعب. قال شيهن، تاركاً شطيرته جانباً، «لقد كان هاري يتّصف بقدر من الجنون. كان يحب لفت الانتباه، وأراد أنْ يكون مشهوراً»

أمضى هاري ثلاثة أيام في السجن قبل أنْ يُطلَق سراحه. ونال الخزي عائلته. قالت لي أخته بريندا «لم أبكِ هكذا طوال حياتي. لقد شعرت كأنَّ الناس يُحدّقون إليه وكأنّه ليس أكثر من مثليّ قذر. نعم، إنّه يحب أنْ يُدلي بتعليقات غبيّة، لكنَّ هذا لا يعني أنّه اقترف تلك الجريمة». وكان منزل

بريندا نفسه قد احترق قُبيل حريق المكتبة؛ وفي وقت إلقاء القبض على هاري كانت تُقيم في فندق. ونُسِبَ حريق منزلها إلى عطل في التمديدات الكهربائيّة، لكنّها كانت قلقة من احتمال أنْ يوحي ذلك بوجود صِلة بين الحريقَين. وخشيتْ أنْ يُستغَل ذلك ضد هاري، لذلك ابتعدت عنه، تحسّباً.

بعد إتمام الإجراءات المكتبيّة لإطلاق سراحه، أبقى السجّانون هاري عندهم مدة ساعتين من دون سبب مُعيَّن، من باب الاستفزاز، ومن ثم أطلقوا سراحه. واعتقدَ شيهن أنهم كانوا فقط ينتقمون لأنهم أرادوا، كأي شخص في المدينة، أنْ يضعوا اللوم على شخص ما لاندلاع الحريق، وكان هاري هو ذلك الشخص. وكان حشدٌ من المُراسلين الصحفيين والمصوّرين ينتظر عند باب السجن. وبدل أنْ ينكّس رأسه تعبيراً عن الخزي والندم، خرج هاري راسماً ابتسامةً عريضة، واسعة. ربما كان يبتسم بعصبيّة. ربما كانت ردّة فعل بالنسبة إليه، أو دفقة من البهجة لأنه يجتذب الأنظار، بغضّ النظر عن السبب. ربما عندما شاهد آلة التصوير، لم يقوَ المُمثّل الطموح داخله على مقاومة الابتسام. وكائناً ما كان السبب، ظهرت الابتسامة مع كل مقالة تحدثتْ عن إلقاء القبض عليه، وجعلته يظهر وقحاً وصفيقاً، وكأنّه نجا من عقاب ارتكاب جريمةٍ ما.

كانت الصحف المحليّة نهمة لذكر القصّة، خاصة بعد أنْ قيل إنَّ هاري اعترفَ بارتكابه الجريمة للعديد من الأصدقاء. وردّ عليها شيهن بالقول إنَّ سلوكَ هاري كان أحمق لكنّه غير مؤذٍ، ويُعادل الذين يمزحون حول القنابل في المطارات ولا شيء أكثر. وأخبر شيهن صحيفة *لوس أنجلوس تايمز*، قال «إنّه يحب أنْ يمزح. وقد ألقى بعض النكات التي ما كان ينبغي أنْ يُلقيها. إنَّ حسّه الفكاهي مختلف». وأضاف أنَّ هاري كان يُمتِع الناس، وإذا كان يُرضي أصدقاءه أنْ يدفعوه إلى الاعتراف بأنّه الذي افتعل الحريق، فسوف يعترف. وامتدحَ المُحقّقين بالقول إنهم «أناس ممتازون يؤدون عملاً ممتازاً». وقال، لكنْ هذه المرّة، حصلوا على الرجل الخطأ.

وِفقاً لشيهن، بدأ يوم هاري في التاسع والعشرين من شهر نيسان، عام 1986، عند الساعة التاسعة صباحاً، عندما أحضر هاري الصحف إلى محكمة في وسط المدينة وسلّمها لليونارد مارتينت. وعند الساعة العاشرة

صباحاً ذهب إلى موعد مع طبيب اختصاصي في أمراض القدمين، في هوليوود، وتبع ذلك تناول وجبة خفيفة قبل الغداء مع المحترم سميث ومع اختصاصي القدمين، ستيفن ويلكي. وحالما انتهوا من تناول الوجبة، عاد هاري بالسيارة إلى منزل والديه في سانتا فِه سبرينغز ووصل إلى هناك عند الساعة الحادية عشرة صباحاً. وفي حين أنَّ ذلك بدا معقولا، فإنّه بدا لي جدولاً متيناً بصورة مُستحيلة. إنَّ أي شخص أمضى وقتاً في لوس أنجلوس يعلم أنّه نادراً، هذا إنْ حدث أصلاً، ما حدث أنَّ شخصاً يقوم بعملٍ روتينيّ في وسط المدينة ومن ثم يتوجّه إلى هوليوود ولم يستغرق منه ذلك أكثر من ساعة واحدة، ونادراً ما حدث، هذا إنْ حدث أصلاً، أنْ تناول شخص وجبة خفيفة في هوليوود ومن ثم انتقل إلى سانتا فِه سبرينغز، التي تبعد مسافة عشرين ميلاً مزدحمة بحركة المرور، في غضون ساعة واحدة.

في الختام، لم تكن مصداقيّة جدول هاري بالأمر الهامّ. وفي الثالث من شهر آذار، عام 1987 عقد ستيفن كاي، مُساعد محامي المنطقة المُعيَّن في القضيّة، مؤتمراً صحفيّاً لكي يُعلِن أنّه لن توجَّه إليه التهمة. قال كاي «على الرغم من وجود سبب مُحتَمَل قويّ للاعتقاد بأنَّ المُشتبه فيه مسؤول عن افتعال حريق المكتبة المركزيّة، فإنَّ الدليل المقبول غير كافٍ للسماح بالمُقاضاة الجنائيّة في مثل هذا الوقت»

شحب لون المُحققين في الحريق. وأصدر دين كاثي، رئيس كتيبة مركز الإطفاء الذي أمضى ساعات لا حصر لها في إدارة التحقيق، بياناً للمُراسلين بعد صدور إعلان كاي. قال كاثي «مازلنا نؤمن بأنَّ بيك هو الذي افتعل الحريق. وليس لدينا أدنى شكّ في ذلك. أعتقد أنَّ المُذنب حرّ طليق». وبينما المُراسلون ينهالون بالأسئلة عليه، تابع كاثي قائلاً «وهذا شيء مُحبِط. لقد أنفقنا خمسمائة ساعة داخليّاً في إجراء تحقيقنا حول هذا الرجل... وهذا أمرٌ مُرهِق للمُحقّقين، وسوف يتساءل أهالي لوس أنجلوس عن سبب عجزنا عن إدانة ذلك الفرد»

قال كاثي ضمناً إنّه إذا ما ظهرت المزيد من الأدلّة، ما زال ممكناً توجيه التهمة إلى هاري، قائلاً «إنَّ القضيّة لم تُقفَل بعد». لكنَّ التحقيق لم يتقدَّم بعد إطلاق سراح هاري. ولم يظهر أي شاهد جديد، ولم يُعثَر على أي دليل

ماديّ. لا شيء مُحدَّداً ربط هاري بالجريمة. ولم يظهر أيضاً أي برهان صلب على سبب اندلاع الحريق؛ كانت هناك فقط بقعة بين أكداس الكتب اعتقدَ المُحققون أنَّ اندلاع النار بدأ منها. وأقوى حالة لاتّهام هاري تألّفتْ من الاعترافات التي أدلى بها لعدد من الأصدقاء، لكن ما لم يعترف به يفوق ما اعترف به. وسلَّمَ كاثي أيضاً بأنَّ اعترافات هاري قد لا تكون مقبولة في المحكمة الجنائيّة. وكان صعباً على المُحققين، المُقتنعين بأنَّ هاري هو مُفتعل الحريق، أنْ يُهاجموا القضيّة بطاقة متجدِّدة، وأنْ يبحثوا عن مشبوهين جُدد، في حين أنّهم كانوا متيقّنين من أنَّ هاري هو رجلهم المطلوب. وما إنْ أعلنَ كاثي أنّه لا يتَّهم هاري، حتى خمد زخم التحقيق ثمّ توقّف.

شكَّ العديد من المُحقّقين في أنَّ كاي يُتابع القضيّة لأسبابٍ أخرى، استراتيجيّة. في تلك اللحظة، كان محامي منطقة المدينة يتناول قضيّة سوء معاملة جنسيّة ضد أصحاب وطاقم عمل روضة أطفال ماكمارتن، التي امتدت وأضحتْ واحدة من أطول المُحاكمات الجنائيّة وأكثرها تكلفةً في تاريخ الولايات المتّحدة. كانت قضيّة المدينة قد بدأتْ تُحلّ، وفي النهاية، عادتْ هيئة التحكيم من دون التوصّل إلى إدانات. وآخر شيء أراد مكتب محامي المنطقة كان أنْ يخسر قضيّة بارزة أخرى كحريق المكتبة. لقد كان تقلقُل الدليل ضد هاري يشكّل مُجازفةً كبيرة.

خرج هاري من السجن وعاد إلى ممارسة حياته. وفتش عن عمل ولم يُحالفه الحظ في ذلك. وقالت له أخته ديبرا إنّه لا أحد رغب في منحه عمل بسبب سمعته الشائنة. قالتْ، «كانوا يقولون له، «أوه، ألستَ أنت الرجل الذي أحرقَ المكتبة؟» وينتهي الأمر». وفجأةً، عادت القضيّة لتتصدَّر الأخبار. وفي مؤتمر صحفيّ عُقِدَ في شهر كانون الثاني، عام 1988، ظهر هاري مع مُستخدمه المؤقّت ليونارد مارتينت، الذي كان حينئذٍ يُمثّله. وقال مارتينت للمراسلين المجتمعين، «من الصعب تصديق أنَّ شخصاً بريئاً تماماً [كهاري] يمكن... أنْ يُضرَب ويُسجَن على أيدي عملاء الحكومة بغرض محاولة انتزاع اعترافٍ منه. لقد كان ذلك أسلوب رجال الغيستابو». قال مارتينت، ونتيجة لذلك، فإنَّ هاري بيك يُقاضي مدينة لوس أنجلوس في المحكمة المدنيّة. وقال مارتينت إنَّ هاري مُصاب بـ «تمزّق الأنسجة الرقيقة

في ظهره وعنقه، ويحتاج إلى مُعالجة طبيّة... وأُصيبَ بأذى في عقله وبصدمة وأذى في جهازه العصبيّ» خلال الأيام الثلاثة التي أمضاها في السجن، و«مُنِعَ من العمل، وتحمّل خسارة مكاسبه وأيضاً / أو قُدرته على كسب لقمة عيشه... وهو يعتقد أنّه سوف يُمنَع من العمل فترة من الزمن في المستقبل».
وقاضى هاري المدينة بتهمة إلقاء القبض عليه بتهمة زائفة، وبتشويه السمعة، وبالإهمال، وبالإصابة بالحزن، وبالتعدّي على خصوصيّته، وبالاعتداء عليه وضربه. وحدَّد التعويض بمبلغ 15 مليون دولار. وقاضى أيضاً المُحقِّق في الحريق المُتعمَّد دين كاثي وحده وطالبه بتعويض خمسة ملايين دولار، على أساس أنَّ كاثي شوّه سمعته عندما أخبر المُراسلين بأنَّ هاري مُذنب. وكان هاري دائماً في حاجة إلى المال، لذلك ربما فتنته قضيّة مدنيّة يمكن أنْ تجلب له 20 مليون دولار. ولكنني أراهن على أنَّ أحد الأشياء التي كانت تُدخل السرور إلى قلبه أكثر من غيره كان أنَّ الشكوى تتضمّن عبارة «في الوقت الذي تمّ القبض عليه، كان المُدَّعي يمارس عمله كمُمثّل بدوامٍ جزئي»

هذا التطوّر في القصّة أربكني. لقد اهتزَّ هاري بسبب إلقاء القبض عليه، وكان يمكن أنْ يمرّ بتجربةِ سوءِ المعاملة في السجن، لكنّه ببساطة لم يَبدُ أنّه من النوعِ الذي يعزم على مُقاضاة المدينة. والشيء الوحيد الذي كان من المُحتَمَل أنْ يصدر عن هاري هو أنْ تكون المُقاضاة بالنسبة إليه أسلوباً لإحياء إثارة الانتباه الذي جذبه إليه عندما كان مُشتبهاً فيه. ومع ذلك، شعرتُ كما لو أنَّ يداً خفيّة في القضيّة المدنيّة. وكان هاري يعرفُ عدداً من المُحامين بحُكم قيامه بالمهام المختلفة. فهل شجّعه أحدهم على تبنّي فكرة رفع دعوى مدنيّة؟ وحالما تمّ رفض الدعوى الجنائيّة، لم يعُد روبرت شيهن متورِّطاً في الأمر. ولكنني تساءلتُ حول ليونارد مارتينت، وحول ما إذا كان قد شجَّعَ هاري على الاستمرار في الدعوى. كان مارتينت داخل القصّة وخارجها، ودائماً يتدخّل جزئيّاً، لكنني لم أكن أعرف الكثير عنه وكنتُ أجد جزءاً منه أينما نظرت. وحاولتُ أنْ أقتفي أثره، ولكن كل ما عثرتُ عليه كان أرقام هاتف مفصولة، ورقماً واحداً عاملاً تحت اسم في بالم سبرينغز. واتّصلت به مراراً، ولكن لا أحد كان يردّ، وكانت الرسالة المُجيبة تقول إنَّ الرقم لا يقبل المكالمات الواردة.

***

ثار غضب فريق التحقيق في عمليّات الحرائق المُتعمَّدة الذي كان يتقصّى حول هاري بسبب الدعوى المدنيّة، خاصّة دين كاثي، الذي بذل جهداً مُضنياً إلى أنْ تيقَّنَ من أنَّ نقابته سوف تتعامل مع التهم الفرديّة الموجّهة إليه. ولم يكتفِ رجال المطافئ بالدفاع عن أنفسهم وعن المدينة ضد هاري. وتقدَّمت مجموعة منهم من محامية مدينة يحترمونها اسمها فيكتوريا تشاني. وهي الآن قاضٍ مُساعد في محكمة الاستئناف، ولكن في عام 1988، كانت القاضي تشاني في وحدة المسؤوليّة المدنيّة في مكتب محامي المدينة وغالباً ما كانت تعمل مع طاقم عمل مركز الإطفاء. وأخبرتني تشاني بأنها صُدِمَتْ بمدى ثقة المُحقّقين بكون هاري هو مُفتعل الحريق. وراجعت ما لديهم من مواد وقررت اتّباع استراتيجيّة جديدة. وبدل أنْ تنتظر لتعرف إنْ كان سيُعاد فتح القضيّة الجنائيّة، اقترحت رفع دعوى ضد هاري في المحكمة المدنيّة، كما أقام هو دعوى على المدينة. وفي المحكمة الجنائيّة، يجب أنْ يكون قرار المُحلَّفين بالإجماع، ويجب أنْ يبرهن الدليل على القضيّة من دون أدنى شك. وفي المحكمة المدنيّة، يكفي البرهان على القضيّة برجحان الدليل، أما قرارات المُحلَّفين فيقُرّرها التصويت بالإجماع. كان يمكن لهاري أنْ ينهار تحت وطأة تدقيق المحكمة الجنائيّة، لكنَّ تشاني رأتْ أنها سوف تصمد أمام حثّ المحكمة المدنيّة الأرقّ.

ورفع مركز الإطفاء الدعوى، وباشرت تشاني متابعة قضيتها. سوف تبحث المدينة في طلب هاري 15 مليون دولار، وسوف تختلف حول بضعة ملايين من الدولارات. وبعد أنْ رفع هاري دعواه بثلاثة أسابيع، قدَّمتْ مدينة لوس أنجلوس شكواها في المقابل إلى المحكمة العليا، تطلب فيها تعويضاً من هاري عن تكاليف استبدال كتب المكتبة المُدمَّرة؛ وتكاليف ترميم الكتب التي نالها تلف؛ وتكاليف المياه التي سُفِحَتْ لإطفاء الحريق؛ وتكاليف إصلاح الدمار الذي لحق بالمبنى؛ وتكاليف تعويض العامل من أجل رجال المطافئ الذين جُرِحوا في أثناء قيامهم بعملهم. كانت المدينة تطالب هاري بيك بمبلغ 23.6 مليون دولار.

-27-

«الحِفاظ على الكتب والوثائق» (1957)
تأليف لانغويل، و.هـ
025.7 L287

«قصّة ماكدونل دوغلاس» (1979)
تأليف إنغلس، دوغلاس ج.
338.79 M136IN

«إنقاذ ما أتلفه الماء من كتب، ووثائق، ومايكروفيلم ووسائل تواصُل مغناطيسيّة: تاريخ قضيّة، جامعة دالهاوسي. المكتبة القانونيّة، آب. 1985؛ تاريخ قضيّة، فيضان رانوك فيرجينيا، تشرين الثاني، 1985 (1986)»
تأليف لانذكويست، إريك ج.
025.8 L962

بعد تجميد الكتب مدة عامَين، أُذيبَ الثلج عنها، وجُفِّفَتْ، وبُخِّرَتْ، وصُنِّفَتْ، ونُظِّفَتْ، ورُمِّمَتْ، وأُعيدَ تغليفها. عَرَضَ مصنع ماكدونل دوغلاس لمعدّات الفضاء، الذي له فرع إلى الجنوب من لوس أنجلوس، مُحاولة تجفيف دفعة من عشرين ألف كتاب. وقام مُهندسو ماكدونل ببحثٍ حول طبيعة الورق المُشبَّع بالماء وقرّروا أنْ يستخدموا غرفتهم الشبيهة

بالفضاء الخارجي من أجل إذابة الجليد والتجفيف. وضعوا منتخبات من الكتب على صينيّة من الألمنيوم وأعقابها نحو الأسفل، ومن ثم بسطوها باستخدام صفيحة من الألمنيوم الصلب. تكدّست الكتب بعلوّ ست طبقات. وثُبِّتت الكميّة كلها بحبال من المطّاط ووُضِعَتْ داخل غرفة سِعتها أربعون قدماً مُفرَغة من الهواء مُخصّصة لاختبار الأقمار الصناعيّة في ظروفٍ جويّة وأحوال أرصاد مختلفة. ورُفِعَتْ درجة الحرارة داخل الغرفة إلى 100 مئويّة، وتُرِكَت الكتب داخلها خمسة أيام. ثم انخفضَ ضغط الهواء داخل الغرفة إلى أنْ تساوى مع الضغط عند مسافة 140,000 قدم فوق سطح الأرض. وازداد الضغط وانخفضَ على فترات متفاوتة، وارتفعتْ درجة الحرارة وانخفضَتْ بوتيرة جامحة. وبعد أنْ مرَّت الدفعة الأولى الصغيرة من الكتب بالعمليّة، نزَّ منها ستمائة غالون من الماء.

وتدافع أهل المدينة لجمع المال من أجل إنقاذ الكتب وقسِّمت العقود بين شركة إريك لاندكويستْ، ومعالجي الوثائق، وشركة اسمها أيردكس. هذه الشركات استخدمتْ أنظمة مختلفة متنوعة من أجل بلوغ النتائج نفسها. كان مُعالجو الوثائق يملكون خمسة غرف مُفرّغة من الهواء مُشابهة لتلك التي في شركة ماكدونل دوغلاس التي كانت تستخدم ضغط فراغ كثيفاً من أجل إزالة الماء عبر عمليّة التصعيد. وخمَّنَ لاندكويستْ أنَّ الغرف سوف تسحب ما يُقارب 250,000 رطل من الماء. ووضعت شركة أيرديكس، التي تتعاون مع NASA في المشروع، الكتب في غرفةٍ تُنقّي جوّها الداخليّ مرة كل خمس وعشرين ثانية، مُزيلة بخار الماء المنبعث من الكتب. وكلا النظامَين استغرقَ ما يُقارب الأسبوع لتجفيف كتاب واحد، وِفقاً لمقدار ما ناله من بلل. وقدَّرَ مُصلحو الكتب أنَّ محتوى الماء في كل كتاب يتراوح بين عشرة بالمئة ومائة في المئة – أي، أنَّ بعض الكتب تتكوّن من مقدارَين متساويين من الماء والورق. وكان مُصلحو الكتب يحبّون أنْ يتجادلوا حول التجفيف الجافّ ويعتبرون أنّه أفضل من انتزاع الرطوبة منها. وختم إريك لاندكويست الكتب التي جفّفها بحرفَي «م و» لأنه كان مُقتنعاً بأنَّ نظامه أفضل من نظام أيرْديكس، وأراد أنْ يُقارن بينهما بعد انتهاء المشروع. وتحدّاني بأن أقارن

بين أحد كتبه وأحد كتب أيرديكس. قال «إنَّ كتبنا ملساء. وكأنَّ الرطوبة لم تنلها قط»

حالما تُجفَّف مجموعة من الكتب كانت تشحَن عبر المدينة إلى المُصلِح الأساسي، سالي بيوكانان، التي تُدير طاقم عملها في عمليّة فحص كل كتاب، التي تتضمَّن أسئلة على غرار:

هل الصفحات متغضّنة بصورة سيئة؟

هل نص الكتاب منتفخ؟ هل هو مُشوَّه، و«منحرف»؟

هل محور الكتاب سليم؟

هل الصفحات الأخيرة متينة؟

هل النص يُفتَح ويُغلَق بسهولة؟

أخبرت بيوكانان طاقم المكتبة بأنَّ إعادة تأهيل الكتب وجعلها جاهزة للتصنيف والعودة إلى الرفوف سوف تستغرق ستة وثلاثين شهراً. وكتبتْ بيوكانان لوايمان جونز وإليزابيث تومان تقول «في العموم، سُرَّ طاقم العمل بما تمَّ إنقاذه. والعديد من الكتب يبدو جيّداً، ولكن هذه من الكميّة التي لم ينلها الكثير من الرطوبة، أي، وصلت خطوط المياه فقط إلى علوّ بوصة أو بوصتين من قعر الحافة... ولكن، هناك إشارات إلى وجود عفن فِطريّ نشِط جداً على أغلفة عدد من الكتب». وقالت بيوكانان إنَّ بعض الكتب في وضع ميئوس منه. وهذه تعرَّضتْ لحروق شديدة، أو أنَّ أوراقها التصقَت معاً، أو أنَّ أقساماً كاملة منها فُقِدَتْ: ولا أمل يُرجى منها.

كان مشروع استعادة مجموعة كتب المكتبة المركزيّة هو أكبر مشروع لتجفيف الكتب قاطبة. فحوالي 700,000 كتاب -أو 75,000 قدم مُكعّب من المواد- نالت منها الرطوبة أو الدخان، وفي حالات عديدة، كلاهما. وحتى مشروع المكتبة، تضمّنَ أكبر مشروع لتجفيف كتب فقط 100,000 كتاب. وطوال أشهر ظلّتْ غرف الضغط تعمل بلا توقّف. وأخيراً، كان عشرون بالمائة من الكتب التي نجت بعملية التجفيف بالضغط في حالة جيدة بحيث يمكن وضعها على الرفوف في الحال. وحوالي خمسة وثلاثين منها جفَّ

جيداً ولكنه في حاجة إلى تجديد تغليفه. وخمسة وسبعون منها احتاجت إلى تنظيف أو تبخير مُكلِفين. وفسدتْ تماماً كل الكتب ذات الورق الصقيل، وأصبحت لزجة ودبقة عندما أصبحت رطبة.

***

في الثالث من شهر حزيران، عام 1988 –وعلى مدى أكثر من عشرين عاماً بعد أنْ اقترحَ التقرير الأخضر هدم مبنى غودهيو– بدأتْ عمليّة استعادة البناء الأصليّ، ووضِعَ أساس الجناح الجديد للمكتبة. وإلى أنْ انتهى العمل، كانت المكتبة تعمل في مسكن مؤقّت في شارع سبرينغ. ولم يُعجِب الموقع أحداً، ولكن الآن كانت عمليّة الإنشاء على الأقلّ تجري، وبدا الموقع معقولاً مؤقّتاً.

الجناح الجديد الذي صمّمه بفايفر أكملَ مبنى غودهيو من دون أنْ يدّعي أنّه يتّصِف بنفس الأصالة. وكانت المدينة قد اشترت قطعة الأرض التي تقع إلى جنوب المبنى القائم من أجل إنشاء الجناح، الذي سيُضمّ إلى الجدار الجنوبي لمبنى غودهيو. وركّزَ تصميم بفايفر على قاعة من ثمانية طوابق. وعلى الرغم من أنَّ المبنى الإضافي كان ضخماً، فإنّه لا يبزّ علوّ المبنى الأصليّ، لأنَّ أربعة من الطوابق الثمانية كانت تقع تحت الأرض. كانت مواقع غالبيّة الأقسام المتخصّصة سوف تتغيَّر في الجناح الجديد. ولن تُخزَّن الكتب ضمن أكداس؛ بل ستوضع في مساحة مفتوحة ومرشوشة بالماء في الجناح الجديد. وزوار المكتبة سوف يتنقّلون بين الأعلى والأسفل بين الطوابق الثمانية من القاعة بوساطة سلسلة من المصاعد. وتجربة التجوّل في أرجاء المبنيين سيكون أشبه بالسير داخل دار مسرح غريب الشكل ومن ثم السقوط من فوق مسقط ماء.

-28-

«33 ثورة كل دقيقة: تاريخ أغاني الاحتجاج، بدءاً بالمغنيّة بيلي هوليداي وانتهاء بفرقة غرين داي الغنائيّة» (2011)
تأليف لينسكي، دوريان
784.491 I989

«رمي الثعالب في الهواء: وألعاب، وتسالٍ، ومباريات أخرى خطرة ومنسيّة» (2015)
تأليف بروك-هيتشينف، إدوارد
796.009 B872

«المعاناة: موسيقى غرفة راقصة، الجزء الثالث» (2016)
تأليف فولفغانغ، غيرنو
CD Classical Chamber

«الحياكة بلا تعب: التقنيات الأساسيّة والتوجيهات السهلة من أجل إنجاز ملابس تناسب الأحجام كلّها» (1971)
تأليف زيمرمان، إليزابيث
746.21 Z73

هناك الكثير من المفاجآت في المكتبة؛ الكثير من الأشياء التي لا تفكّر فيها عندما تحاول أنْ تتخيّل كل ما يمكن أنْ تضمّه مكتبة. على سبيل المثال،

تضمّ مكتبة لوس أنجلوس مجموعة ضخمة من لوائح طعام المطاعم. كان أمينا المكتبة دان سترال وبيلي كونور هما اللذين بدآ بتكوين تلك المجموعة، وكان طبيب عيون من بالوس فيرديس، يجمع لوائح طعام منذ عام 1940، قد وهبَ مُعظم مجموعته. كان يستخدم لوائح الطعام كمفكِّرة جارية لمواعيده في الحياة. كان يكتب ملاحظة على خلفيّة العديد منها، مُسجّلاً أسماء الصديقات اللواتي صحبنه إلى المطعم. وإلى جانب مجموعة لوائح الطعام، كانت هناك أشياء أخرى غير متوقّعة. فبين مجموعة من الصناديق في أكداس قسم الفن والموسيقى، سوف تعثر على أزياء، ومُعدّات الأداء المسرحيّ، ودُمى ضخمة مُخيفة تخصّ شركة مسرح تيرنْأباوت، ومسرح دمى للبالغين ازدهر في لوس أنجلوس بين عامَي 1941 و1956. وهناك تشكيلات من رُقع كتب تحمل معلومات عنها ورقع صناديق فاكهة وقطع من أغلفة موسيقى ومُلصقات لصور نجوم السينما وأكبر تجمُّع لمواد في مجال مُصارعة الثيران في الولايات المتّحدة، وأيضاً، دفاتر تواقيع تخص لميس. وحالما تنتهي أوكسشيتال أوليفا، كبيرة أمناء المكتبة المسؤولة عن نقل المعلومات إلى الكومبيوتر، من تصنيفها، سوف تنضم المُلصقات والكرّاسات المُناوئة للحرب من حركة مقاومة لوس أنجلوس إلى وضع المكتبة المؤقَّتِ. وهناك الكثير من الأشياء في المكتبة، العديد من الكتب والأشياء، إلى درجة أنني أحياناً أتساءل إنْ كان في وسع شخص واحد أنْ يعرفها كلّها. وأفضّل أنْ أعتقد أنَّ لا أحد يستطيع ذلك - تعجبني فكرة أنَّ المكتبة تتجاوز في اتّساعها وضخامتها أي عقلٍ إنسانيّ، وأنَّ الأمر يتطلّب اجتماعَ العديد من الأشخاص معاً لكي يُكملوا وضع فهرس لمحتوياتها السخيّة.

ثمة شيء واحد لم أتوقَّع أنْ أعثر عليه في المكتبة وهو الموسيقى. كنتُ أعلم أنَّ هناك كتباً في الموسيقى، بالإضافة إلى تسجيلات، لكنني لم أعلم أنَّ التشكيلة تضمّ نوتات موسيقيّة يمكن أنْ تُعزف. وذات يوم، كنتُ أتمشّى مع شيلا ناش، كبيرة أمناء المكتبة في قسم الفن والموسيقى. وكانت زيارتي حتى ذلك الحين لقسم الفن والموسيقى كما توقّعت - كان الصمت، أو شبه الخمول، يلفّ القسم، ويمتلئ بأناسٍ يُقلّبون برقّة صفحات كتب ضخمة في الفن، أو يقفون صفّاً واحداً أمام طاولة السؤال عن مكان كتب تبحث

في نظريّة آلة التشيللو أو عن أغاني الاحتجاج أو عن الأعداد الحديثة من مجلّة «*الخرز والأزرار*». إنَّ تعريف عبارة «الفن والموسيقى» غنيّ ويتضمَّن الحِرف، والألعاب الرياضيّة، والمسابقات، والبستنة، وجمع الطوابع والرقص. وأصبح مجالها الرحب مُربكاً حتى إنَّ الاسم تغيَّر حديثاً وأصبح الفن، والموسيقى، والإبداع.

كانت ناش وزوجها، روي ستون، قد عملا لمصلحة مكتبة لوس أنجلوس على امتداد ما بلغ مجموعه تسعة وسبعين عاماً. (وبعد أنْ أجريت حديثاً معهما بوقت قصير، تقاعدا كلاهما) وبعد اندلاع الحريق سعى غلين غليسون وستون للحصول على نقود ناش، بعد أنْ اكتشفا أنَّ غرفة براءات الاختراع قد ذابت. إنَّ اختصاص ناش وستون هو المكتبة. وإلى جانب كون ستون أحد كبار أمناء المكتبة، كان رئيس نقابة أمناء المكتبات على مدى سنوات عديدة. وذات مرّة أفضى إليّ بأنّه عندما عمل في أحد الفروع في المدينة، كان تجّار المخدرات يتردَّدون على المكتبة ويطلبون منه أنْ يُساعدهم في ملء استمارة عائداتهم وضرائبهم. ورأى أنّ ذلك مِثال مِثاليّ على الدور النادر الذي تلعبه المكتبة، أي أنْ تكون بمنزلة هويّة الحكومة، ومصدراً للمعرفة، أي لا تُصدر أحكاماً، وشاملة، ورقيقة بعمق.

كانت ناش تتكلَّم عبر الهاتف، تساعد شخصاً يريد أنْ يعرف في أي عام وُلِدَ ديزي دين[1]. قالت لي «كان في استطاعته أنْ يسأل غوغل» وأشارتْ إلى فوهة سمّاعة الهاتف، وهزّتْ كتفيها استخفافاً. كانت طاولة مكتبها خليطاً مجنوناً، عليها نسخ من «*مراسل هوليوود*»، وكتاب عن منازل رؤساء جمهورية الولايات المتحدة، وإرشادات لحياكة دُمى صغيرة اسمها ملابس صوفيّة غريبة الأطوار، ومجلة سباق الخيول، ومجلة لعب الشطرنج، وآخر أعداد مجلّة *فوغ* البريطانيّة.

بعد أنْ أمدَّت السائل عبر الهاتف بتاريخ مولد ديزي دين، قفلنا عائدتين خلال رفوف الكتب وتوقّفنا بجوار خزانة ملفّات ضخمة. فتحت ناش أحد أدراج الملفّات. وفي داخله كان هناك كميّة من المقطوعات الأوركستراليّة،

1- ديزي دين: لاعب بيسبول.

ونوتات سوداء تثب عبر المُدرَّج الموسيقيّ الثُمانيّ. وكان القسم يمتلك أكثر من ألفَي مقطوعة أوركستراليّة، وكل منها يتضمّن موسيقى لكل آلة مكتوبة في المقطوعة. والمقطوعات سميكة بحجم كتب. وبدأت المكتبة بجمع أولى تلك المقطوعات في عام 1934، عندما وهبَ مؤسِّس الفرقة الفيلهارمونيّة لمدينة لوس أنجلوس، وليم أندروز كلارك الأصغر في وصيته مجموعته المؤلّفة من 752 مقطوعة موسيقيّة لقسم الموسيقى. والدفعة التالية أُضيفَتْ في عام 1948، عندما اشترت المكتبة مكتبة لتأجير المقطوعات الموسيقيّة، وأخذت المجموعة تنمو بانتظام منذ ذلك الحين. وتمتلك المكتبة أيضاً أكداساً من أوراق النوتات الموسيقيّة. والواهب الأساسيّ للنوتات الموسيقيّة كان المؤلّف الموسيقيّ ميريديث ويلسون، الذي وهبَ مجموعته في منتصف حقبة الستينيات، بُعيد عرض مسرحيّته «*عازف الموسيقى*» على مسرح برودواي وانتقلتْ لتُصبح واحداً من أنجح الأفلام السينمائيّة في عام 1962.

إنَّ المقطوعات الموسيقيّة مُكلِفة، وتتراوح تكلفة كل منها ما بين ثلاثة آلاف وتسعة آلاف دولار، وكل عازف في الفرقة الموسيقيّة يحتاج إلى نسخته أو نسختها الخاصّة. وإعطاء نسخة من المقطوعة لكل عازف يمكن أنْ يكون مُكلِفاً بصورة لا تُحتَمَل، خاصّة بالنسبة إلى الفرق الموسيقيّة الصغيرة. إنَّ لوس أنجلوس هي موطن الكثير من الفرق الموسيقيّة والمجموعات الموسيقيّة، على غرار فرقة أطباء لوس أنجلوس الأوركستراليّة، وأوركسترا البالالايكا، وأوركسترا القيثارة الريفيّة لولاية أورانج، وأوركسترا شباب إنّر سيتي – واللائحة تطول وتطول. وتضم لوس أنجلوس عازفين عاملين أكثر من أيّة مدينة في الولايات المتّحدة. وتضمّ أيضاً واحدة من المكتبات القليلة في البلاد التي تُقرِض المقطوعات الموسيقيّة. وتعايُش هذه الحقائق لا يبدو أنّه مُصادفة.

إنَّ ناش تُراقب عمليات استعارة وإعادة القطع الموسيقيّة وهي أيضاً كاتمة الأسرار. وعالم الموسيقى الكلاسيكيّة صغير وتنافسيّ. وسيمفونيّة الصحراء لا تريد لأوركسترا اتحاد الخير العام الأميركيّ أنْ تعرف ما يُخططون لعزفه في موسم الشتاء والأوركسترا الأميركية الفيليبينيّة لا تريد لأوركسترا

نيو فالي السيمفونيّة أنْ تعرف خططها، ولكن في الوقت نفسه، لا تريد تلك الفرق أنْ ينتهي بها الأمر إلى بيع تذاكر البرنامج نفسه الذي يُقدِّم «*القدّاس الجنائزي الألمانيّ*» لبرامز. إنَّ ناش تمثّل روح الكتمان، وسوف تقود، برهافة شديدة، فرقة موسيقى الغرفة بعيداً عن مقطوعة إيغور سترافينسكي «*ثلاث مقطوعات لرباعي وتريّ*» إذا كانت تعرف أنَّ فرقة موسيقى حجرة أخرى قد استعارتْ نسخة من تلك المقطوعة. وهي تمثّل أيضاً روح التحمّل. ويبدو أنَّ الموسيقيين غير قادرين على تذكّر موعد إعادة القطع الموسيقيّة إلى المكتبة. وبعض زبائن المجموعة الموسيقيّة بلغت غراماتهم المتراكمة حتى اثني عشر ألف دولار. قالتْ ناش، وهي تنظر إلى مجموعة من مقطوعات ريمسكي-كورساكوف، «حسن، هناك أناس يتّسمون بحسّ فني عالٍ، ويبدو أنَّ لديهم أسلوباً خاصّاً في وضع الأشياء في غير أماكنها»

-29-

«الموجز في الإجراءات المدنيّة» (1979)
تأليف رابطة كتبة المحكمة المحليّة في كاليفورنيا»
347.9 A849

«النيتروغليسيرين ومتفجّرات النيتروغليسيرين» (1928)
تأليف ناعوم، فوكيون ب.
سلسلة: الترجمة الكيمائيّة في العالم أجمع، السلسلة الأولى
662.2 N194

«لغز الرسالة المُلتهبة» (1983)
تأليف فارلي، كارول
X

«آلهة غريبة الأطوار: ديانات جديدة وإشكاليّة العبادة» (2001)
تحرير لويس، جيمس ر.
291.0973 O225

في الثامن من شهر حزيران، عام 1988، جعلت مدينة لوس أنجلوس، ممثّلة بفيكتوريا تشاني، هاري بيك شاهداً تحت القسم في قضيّة المحكمة العليا رقم 672658، التي تجمع بين دعوى هاري ضد المدينة ودعوى المدينة ضده. تكلّمت القاضي تشاني معي مؤخّراً عن القضيّة. قالت إنّه،

على الرغم من ضراوة ادّعاء المدينة ضده، وجدتُ أنَّ هاري شخصيّة مُحبّبة جداً. وعندما قابلته، كان شاباً وسيماً. كان يتّسم بشيءٍ كأنّه البراءة؛ لم يكن خبيراً بالحياة أو يتّسم بأيّة خشونة. لكنّها وجدته أيضاً مأساوياً قليلاً. قالت لي ونحن جالستان في غرفة مكتبها في دار القضاء الفيدراليّة، «فوجئتُ بأنّه ضائع. عاشَ طفولة حزينة. وانتقل من عملٍ إلى عمل. كأنّه يبحث بيأس عن شيءٍ ما»، وقالت إنها لا تثقُ في المحترم سميث، الذي يُرافقه أينما ذهب، مرتدياً رداءه الكهنوتي الأسود، ويتحلّى بصليبٍ مُرصّع بالأحجار الكريمة. لم تكن تعرف الكثير عن سميث، ولا كيف يجتذب إلى ديانته الخاصّة الرجال البائسين. وافترضَتْ أنّه أصبح ما يُشبه الوالد بالنسبة إلى هاري.

في جولة جديدة من الشهادات، بدأتْ شهادة هاري متقيّدة بخط زمني واحد يختلف عن ذلك الذي اتّبعه عندما واجه التهم الجنائيّة. هذه المرّة أصرَّ هاري على أنَّ ما كان قد قاله في الماضي عن مشاهدة معالم المدينة وتوزيع الصحف غير صحيح. قال إنّه أمضى صباح يوم التاسع والعشرين من نيسان الباكر مع رفاقه في الغرفة. وعند الساعة العاشرة صباحاً ذهب بالسيارة إلى مكتب المحترم ويلكي لكي يُعالج ثؤلولاً عنده. واستمر العلاج ما يُقارب الساعة من الوقت، ومن ثم تناول وجبة الغداء مع المحترمَين ويلكي وسميث. وبينما كان النادل يُزيل آثار الوجبة عن الطاولة، ذكَرَ أنَّ المكتبة تحترق. تلك كانت المرة الأولى التي سمع بها هاري عن الحريق. قال إنَّ تصريحاته عن الحريق في وقتٍ لاحق من تلك الليلة كانت مُزاحاً قاله لكي يُسلّي أصدقاءه. وقال إنّه اختلقَ كل ما قال عن الحريق – أي عن أنّه قدَّمَ يد المُساعدة لسيدة عجوز، وعن كون رجل إطفاء وسيم حمله إلى الخارج. وتابع شهادته، شارحاً سبب ادّعائه بأنّه افتعل الحريق، «كنتُ مركز انتباه أصدقائي، الذين صدّقوني طوال الوقت». ثم قال إنَّ جريمته الوحيدة هي السذاجة، وقال «لم أتصوّر أنّهم سوف يُلقون القبض عليّ نتيجة هذه القصّة»

بعد ذلك طلبت تشاني من المحترم ويلكي الإدلاء بشهادته. وبعد أنْ أدلى بالقسم، أقرَّ المحترم بأنَّ مهنته هي العناية بالأقدام، وأنّه يُدير، مع الأب كلارك، الكنيسة الأرثوذكسيّة الأميركيّة، وهي أبرشيّة صغيرة مُستقلّة. وقد ساعد الأب كلارك ويلكي في إدارة عيادة أمراض القدمين وعمل أيضاً

كسائق خاص عنده، لأنَّ الأب ويلكي كان معتلّ الصحة ولا يُسمَح له بقيادة السيارة. وقال ويلكي إنّه قابل هاري بيك في عام 1984، عندما جاءه هاري لكي يُعالج الثؤلول، وهو الآن يعتبر هاري صديقاً.

طلبتْ تشاني من ويلكي المزيد من التفاصيل عن يوم اندلاع الحريق. فأعطى جواباً مُشابهاً لجواب هاري: لقد شاهد هاري عند حوالي الساعة العاشرة، وتناولا وجبة سريعة بعد أنْ عالج ثؤلول هاري. وفجأة، إذا بويلكي ينطوي على نفسه مائلاً إلى الأمام. أوقفتْ تشاني استجوابها. سألته «عُذراً، أيها الأب. أأنت تتألّم؟ لقد لاحظتُ أنكَ تقبض على صدرك»

تشبَّثَ ويلكي بصدره ومن ثم قال بصوتٍ متقطِّع، «نعم، قليلاً». وسكتَ برهة أخرى ومن ثم قال «لقد تناولتُ نيتروغليسيرين قبل قليل... قبل خمس دقائق... شيئاً. وقد ساعدني. أنا... أنا... أريد أنْ أتوقف. أرجوك». سألته تشاني إنْ كان في حاجة إلى فترة استراحة، فهزَّ رأسه نفياً وقال إنّه لا يريد فترة استراحة، لأنه يخشى أنْ يستغرق في النوم إذا استراح ويمتد نومه ساعات. قال «دعيني أحاول... أحاول أنْ أتحمّل، أرجوك»، ثم، تمالك نفسه، وأعطى المزيد من التفاصيل عن الوجبة التي تناولوها في الحيّ الفرنسيّ. قال إنَّ النادل أخبر الرجال بأنَّ المكتبة «أحرِقَتْ». وعندما قرأتُ الشهادة، برزت هذه الكلمة بالذات. فعند النقطة التي أخبرهم النادل عن الحريق، لم يكن أي مصدر من مصادر الأخبار قد وصف الحادث بأنّه «مُفتعَل». عندئذٍ، كانت النار تستعر، وتركّزت الأخبار حول ما إذا كان في الإمكان إنقاذ المكتبة.

انتشر الجدال في المدينة حول السبب في الاعتقاد بأنَّ هاري بيك هو المسؤول عن اندلاع الحريق: كانت حجج غيابه واهية. والعديد من الأشخاص تعرَّفوا عليه وميَّزوه من بين الصور الفوتوغرافيّة. كانت هناك «حقائق ماديّة ملموسة» أشارتْ إلى ارتكابه الذنب. ومن جديد عدَّدت تشاني التكاليف التي أثقل بها الحريق كاهل دافعي الضرائب في لوس أنجلوس: 625,000 دولار ثمن نشارة الخشب ورقع قماش الإنقاذ المُستخدمة لإخماد النار وحماية الكتب. وثلاثة ملايين غالون من الماء، «سوف يتمّ التحقّق من تكلفتها الدقيقة». وتكلفة استبدال أو ترميم أكثر من مليون كتاب. وتكاليف إصلاح الدمار الذي وقع في المبنى. والتكاليف الطبيّة لرجال الإطفاء

المُصابين. وكان جوهر قضيّة المدينة هو افتراض أنَّ في الحريق سبباً «غير طبيعيّ». ولم يُناقَش أحدٌ إنْ كان الحريق مُفتعلاً أم لا؛ وأعلن المُحقّقون أنّه مُفتعل، وقُبل تخمينهم على أنّه حقيقيّ. وحسب تعبير تشاني، قام المُحقّقون «بإلغاء كل مصدر عَرَضيّ، أو طبيعيّ، و/ أو ميكانيكيّ لاندلاعه... وبعبارة أخرى، اندلع الحريق بسبب شرارة خارجيّة، افتعلتها يدٌ إنسانيّة»

***

أربكتني قضية حريق المكتبة المركزيّة. وعلى الرغم من كل محاولاتي الحثيثة، لم أقتنع بالكامل بأنَّ هاري هو الذي افتعل الحريق. إنَّ مواصفاته تتطابق مع مواصفات مُفتعل الحريق التقليديّ، أي أنّه ذكر شاب عازب أبيض البشرة. لكنَّ مُعظم مُفتعلي الحرائق الذين يُعانون من دافع نفسيّ لإحراق الأشياء يبدؤون بإظهار دوافعهم القويّة منذ الطفولة. وحسب عِلمي، ووِفق ما تشير إليه السجلات كلها، فإنَّه لم يحدث قط أنْ افتعل هاري أيّ حريق. لقد تقدَّم للعمل في مركز الإطفاء -أو هكذا قال- وربما كان أكثر اهتماماً بالنار مما عرِفَ أي شخص. لكنَّ الكثير من الأشخاص يتقدّمون للعمل في مركز الإطفاء، والغالبيّة العظمى منهم ليسوا مهووسين بالإحراق. وعلى الرغم من أنَّ هاري لم يتحدّثَ إلّا عن كونه ممثّلاً، لكنَّ اهتمامه في أنْ يُصبح رجل إطفاء كان له حسّ مُميَّز. كانتْ له سِمة استعراضيّة؛ بطوليّة؛ وكان يتّصِف بالمكانة البارزة. وقول والده إنّه يستطيع أنْ يتصوَّر هاري يحرق مبنى خالياً بدا مجرد أسلوب فظّ لقول أنّه يعتبر هاري متهوّراً، وقادراً على القيام بعمل غير مسؤول لمبنى لا أهميّة له، ولكن ليس شخصاً يرغب في إنزال الأذى بمبنى جميل، هامّ، يضجّ بالحياة.

إنَّ المدينة الآن راضية بأنها كشفَت النقاب عن أحد الدوافع. لقد آمنَ المُحققون بأنَّ هاري ذهب إلى المكتبة وليس في نفسه أيّة نيّة سيئة، لكنّه غضبَ عندما منعه حارس الأمن من الدخول، وافتعلَ الحريق في نوبة من الاستياء. كانت النظريّة منطقيّة بقدرٍ ما. لكنَّ تصادُم هاري مع حارس الأمن بدا شيئاً تافهاً وليس مُستفزّاً، ولم يبدُ أنَّ هاري من النوع الذي يُبدي ردّة فعلٍ قويّة جرّاء تعرّضه لعنفٍ بسيط. لكنَّ هاري كان قد ذكر في استجواباته أنَّ الحارس الذي منعه عند الباب كان أميركيّاً إفريقيّاً. فهل كان ذلك مجرد

تعليق تافه، أم أنّه تضمَّن شيئاً آخر؟ وِفقاً لمسح أُجريَ في عام 2015، كان أقلّ من أربعة في المئة من سكان مسقط رأس هاري في سانتا فِه سبرينغز من السود، وبينما كان يكبر في السِنّ، ربما أصبحَ العدد أقلّ. ولم يوحِ أي شيء مما سمعت بأنَّ هاري كان عنصريّاً، لكنني لاحظتُ أنّه يأتي دائماً على ذِكر لون بشرة الحارس.

إنْ كان قد غضب، فإنَّ من السهل أنْ يكون قد تسلَّل إلى إحدى زوايا المكتبة أو كُواها وقدح عود ثقاب. ربما هاري فعل ذلك كإيماء تحدّ صغير، ولا أكثر. وربما لمسَ عود الثقاب كتاباً من دون أنْ يولي الكثير من الانتباه لِما سينتج عن ذلك. وفي المرحلة المُبكرة من التحقيق، أخبر هاري العميل توماس ماكار أنّه يعتقد أنَّ الذي افتعلَ الحريق لم يكن يقصد أنْ يكون ضخماً. ربما لم يكن هاري من النوع الذي يضرم النار في مبنى كالمكتبة -ولكن من النوع الذي يقدح عود ثقاب عندما يغضب؟ يمكنني أنْ أتصوّر ما يلي: ربما أصبح هاري شكساً بسبب الحارس، ومن ثم كلما منعه أمين مكتبة من الدخول، كان يشعر أكثر بالمهانة. لعلّه لمس علبة كبريت في جيبه من دون أنْ يخطر في باله أي خاطر. ولكن لعلّه وجد نفسه في بقعةٍ منعزلة، وحيداً وسط أكوام مُزعزعة من الكتب والأوراق؛ هو، هاري بيك، الممثّل، الذي يقفُ دائماً على شفا أنْ يلفت الانتباه لكنّه في الحقيقة يبقى خارج المشهد، وتزداد صورته الشخصيّة ابتذالاً باطراد، ويتداعى تفاؤله المبتهج، ولا يحدث أيّ شيء كما تصوّره وليس على الإطلاق بالنسخة التي كان يتباهى بها أمام المُحيطين به وحتى بينه وبين نفسه. ربما سمح لنفسه أنْ ينتزع عود ثقاب من دفتر عيدان الثقاب ومن ثم يقدح طرفه البرتقاليّ الخشن على المقداح، وفجأة، وجد نفسه يحمل طرفاً من اللهب وشعر بالانتشاء من جرأته، مُتذكّراً في تلك اللحظة نفسه وهو الطفل الصغير، الذي كان دائماً يتمادى في تصرفاته ويدفع المزيد من الناس إلى الإعجاب به، ومن دون أنْ يتصوّر ما يمكن أنْ يحدث في الدقيقة التالية أو الساعات السبع التالية، كان يتصرَّف في تلك اللحظة، وهو في حالة شبه أثريّة. وحالما شاهد اللهب يلتهم أحد الكتب أدركَ أنَّ الأمر أفلتَ من يده. أكاد أتخيّله يندفعُ مبتعداً، هارباً، كما تهرب عندما

تكسر المزهريّة المُفضّلة لدى والدتك- ليس لأنكَ تشعر بالذنب بل لأنكَ تعلم أنك سوف تدفع ثمن فعلتك غالياً.

فضَّلَت القاضي تشاني النظريّة القائلة إنَّ هاري أضرمَ النار عمداً لأنّه أراد أنْ يُلفت الانتباه إليه. وفي هذا الخصوص، كان لا يشبع. لكنَّ سياسته المعتادة لجذب الانتباه كانت التباهي بشيءٍ برّاق، كقوله إنّه ذهب ليشرب كأساً مع المغنيّة شير. لقد أراد أنْ يُقدِّم نسخة من حياته تعجّ بالمشاهير، والنجوم اللامعة. وإضرام نارٍ في مبنى مكتبة عملٌ لا يتّصِف بالبريق الذي يتمتّع به تفاخره في المعتاد. إنّ الحريق لم يكن مُبهرجاً، بل كان جريمة وقحة، بشعة، شجبها كل سكّان المدينة. ربما قوله إنّه أضرمَ النار وضعه في مركز الأخبار، ولكن كان يمكن أيضاً أنْ يجعله يظهر، في عيون العديد من الناس، مُثيراً للامتعاض. أكان حقاً يرغب في أنْ يجذب إليه مثل ذلك النوع من الانتباه؟ كما أخبرني ديمتري هيوتيليس، «كان هاري ينجح في بثّ السعادة في الناس». وهذا لا ينطبق على إشعال النار؛ لقد كان عملاً شديد الكآبة، وشديد الواقعيّة.

لكنَّ هاري أخبر الناس بأنّه هو الذي أضرم النار. وكرّر الاعتراف بهذا أمام المُحقّقين. وإذا كان مجردَ أكذوبةٍ، فلماذا كان يتعثّر بين أعذاره، ويُعطي حجج غياب متناقضة مراراً وتكراراً؟ لماذا فشل في اجتياز اختبار جهاز الكذب؟ أين كان، حقّاً، في صباح يوم التاسع والعشرين من نيسان، عام 1986؟ وإذا لم يكن موجوداً في المكتبة، كيف علِمَ بتفاصيل صباح ذلك اليوم؟ وإذا لم يكن هو الفاعل، فمَن الفاعل؟

***

قبل بضعة أعوام، قرأتُ قصّة في صحيفة *النيويوركر* علِقَتْ في ذهني. قصة «الاختبار بالنار» بقلم ديفيد غَرانْ، وتدور حول قضيّة في تكساس يُتَّهَم فيها رجلٌ اسمه تود ويلينغام بالتسبّب في حريقٍ في عام 1991 أدّى إلى مقتل ثلاثة أطفال. والدليل الأساسيّ ضد ويلينغام كان الآثار التي خلّفتها حركة النار -أيّ ما يُسمّيه المُحقّقون في الحرائق المتعمّدة بـ «علامات الاحتراق»- في منزل العائلة. والاعتقاد السائد بين المتخصّصين في الحرائق المتعمَّدة

هو أنَّ الحرائق تكون في ذروتها في نقاط مصدرها. والتفحّم الذي يظهر على أرضيات المنزل الخشبيّة يكون الأشدّ سواداً وعمقاً تحت أسرَّة الأطفال. ولم يكن هنالك أي شيء تحت أسرَّة الأطفال يمكن أنْ يكون السبب في اندلاع حريق عفواً، لذلك اعتقدَ المُحققون أنَ أحدهم تسبَّب في اندلاعه عمداً. والشخص الوحيد في المنزل في تلك الليلة إلى جانب الأطفال كان ويلينغام، الذي ادّعى أنّه كان نائماً في وقت اندلاع الحريق وأنّه بذل أقصى ما في وسعه من أجل إنقاذ الأطفال. وختاماً، وُجِّه إصبع الاتّهام إلى ويلينغام لأنَّ آثار الاحتراق اعتُبِرَتْ برهاناً على أنَّ النار اندلعتْ تحت أسرَّة الأطفال. وحُكِمَ عليه بالموت. وبعد أنْ خسِر كل استئناف، نُفِّذَ فيه حكم الإعدام في عام 2004.

فوجئت عائلة ويلينغام بالإصرار على براءته، فطلبت من عالِم بارز ومُحقِّق في قضايا الحرائق اسمه جيرالد هيرست أنْ يُراجع من جديد القضيّة قُبيل موعد تنفيذ الإعدام. وبدأ هيرست بمحاولة تحديد إنْ كان الحريق حقّاً مُتعمَّداً. ورأى هيرست أنَّ تحليل المكان الذي اندلع فيه الحريق كان خاطئاً. وعلى الرغم من العلامات التي تركها الاحتراق تحت أسرَّة الأطفال، لم يعتقد أنَّ النار بدأتْ هناك. وفتّش المنزل من جديد. وعندما طُبِّقَ العِلم القضائيّ على كل الأدلّة، تبيَّنَ أنَّ مادة مُسرِّعة للاحتراق على الشرفة الخارجيّة مصدرها ربما وعاء من سائل أخفّ استُخدِمَ لإشعال مشواة صغيرة على الفحم قلَبها رجال المطافئ في أثناء دخولهم المنزل. وربما هناك خطأ في مدفأة داخليّة أو في تمديدات كهربائيّة تسبَّب في إطلاق شرارة الحريق في المنزل، وامتدَّ اللهبُ بسرعة على طول الرواق ومنه إلى غرفة نوم الأطفال. وعلامات الاحتراق العميقة تحت أسرتهم تدل فقط على أنَّ النار استقرّتْ هناك بعض الوقت. وجاء تحليل هيرست متأخراً جداً ولم يستطع أنْ يُغيِّر النتيجة بالنسبة إلى ويلينغام، لكنّه نجح في إثارة اهتمام عظيم بمصداقيّة ما كنّا نفترضه عن الحريق.

منذ العام 1977، وعلماء في القضاء يُحذّرون من أنَّ مبادئ المُحققين في الحرائق المتعمَّدة في معظمها وهميّة. فإذا كانت النوافذ في مبنى يحترق لزجة، فإنَّ المُحققين يفترضون أنّه تمّت الاستعانة بمادّة مُسرِّعة للاحتراق

وبقيتْ آثارها على الزجاج. لكنَّ الأبنية الحديثة مملوءة بمنتجات أساسها البترول يمكن أنْ تترك ترسّبات على النوافذ إذا احترقَت. وقد افتُرِضَ أنَّ الحرائق الشديدة الحرارة قد زادت من ضراوتها موادّ مُسرِّعة، وتدلّ على الإحراق المُتعمَّد، لكنَّ العلماء الآن يعرفون أنَّ درجة حرارة نار مُعيَّنة لا صِلة لها بمُسبِّبها أو بِما إذا كانت مُفتعلة أو تصادفيّة. لكنَّ آثار الاحتراق، التي كانت أساسيّة في إدانة ويلينغام، مُضلِّلة أكثر مما يبدو ظاهريّاً. فعلامات الاحتراق لا تدلّ على الموقع الذي بدأ منه الحريق، بل تدلّ فقط على أنّ النار تلكّأتْ هناك عند نقطة معيَّنة. إنَّ مناطق الحرائق الأكثر اتّساعاً ليست بالضرورة هي المواقع التي بدأ عندها الاشتعال.

إنَّ أول تقرير قائم على أساسٍ علميّ حول كيفيّة تفحّص الحرائق نُشِرَ في عام 1992، بعد حريق المكتبة المركزيّة بست سنوات. والتقرير الذي أصدرته الرابطة الوطنيّة للحماية من الحريق، فضحَ زيف العديد من الافتراضات حول الحريق المُتعمَّد. واستثنى خاصة المبدأ القانوني المعروف بالـ «الجثّة السلبيّة» ويعني، حرفيّاً، فقدان الجثّة. وهو يفترض أنَّ حدثاً ما هو جريمة إذا لم يوجَد ما يُثبت أنّه ليس جريمة. وفي حالة الحريق، الجثّة السلبيّة تعني أنّه إذا استثنينا المصادر التصادفيّة، فإنَّ الحريق يُعتبَر مُتعمّداً، حتى في غياب برهان دامغ على أنّه مُتعمَّد. فإذا غاب الدليل على كيفية اندلاعه، يُفتَرَض أنَّ مصدر الاشتعال هو ولّاعة أو دفتر كبريت أُزيل من مسرح الحدث بعد ذلك. إنّه أشبه بالعثور على جثّة ميْتٌ، واستبعاد الأسباب الجليّة للوفاة كالنوبة القلبيّة أو السكتة الدماغيّة، ومن ثم الإعلان عن أنها جريمة قتل على الرغم من غياب أي برهان حاسم على أنها جريمة قتل. وهذا يتجاهل احتمال أن يكون سبب الموت شيئاً طبيعيّاً لم يُعرَف بعد.

لقد تحدّى فقهاء التشريع وعلماء القانون مبدأ الجثّة السلبيّة طوال سنين عديدة. وأعراض الطفل المرتجف[1] هو نظرية أخرى تعتمد على مبدأ الجثّة السلبيّة، مع نتائج كارثيّة. والمنطق الكامن خلف أعراض الطفل المرتجف

1- أعراض الطفل المرتجف: أعراض تظهر على الطفل جرّاء إصابته بارتجاج في المخّ بسبب تعرّضه للعنف الأسريّ. - المترجم

يعمل بمسارٍ لولبي مُعاكِس، كما يفعل في الحريق المُتعمَّد. فإذا توفي طفل ولم تظهر أيّة أسباب طبيعيّة واضحة، يفترض رجال الشرطة أنَّ أحداً قتل الطفل إبّان هزّه بعنف، وظهرت جرّاء ذلك بضع علامات واضحة. ويُنسَب سبب الموت الغامض إلى أسلوب غير واضح في القتل، وليس إلى احتمال أنَّ الطفل هشّ البنيّة ويمكن أنْ يموت لأسبابٍ بيولوجيّة لا نفهمها دائماً أو قد نحتاج إلى وقتٍ طويل لنكتشفها. وفي الماضي، أُدينَ عددٌ من الآباء والمُربّين بقتل أطفال اعتماداً على منطقٍ غير منطقيّ للجثّة السلبيّة. وقبل عشرة أعوام، بدأت صحف طبيّة ومُحللون قانونيون يناقشون الفِكر الكامن خلف أعراض الطفل المرتجف وشرعيّة الجثّة السلبيّة. والعديد من أطباء الأطفال والباحثين في مجال الطب الذين كانوا يشهدون لمصلحة الإدانة في القضايا أصبحوا الآن يشهدون لمصلحة الدفاع، والعديد من الإدانات في قضايا الطفل المرتجف أُسقِطَتْ.

شدَّد تقرير الرابطة الوطنيّة للحماية من الحريق على خطر إساءة تأويل مكان بدء الحريق، خاصة لأنَّ نقطة اندلاعه هي المفتاح لأي تحقيق حول الحريق. وكل مبنى يحتوي مواد يمكن أنْ تتسبّب في اندلاع حريق. وإذا أعلنَ مُحقّق أنَّ الحريق بدأ، على سبيل المثال، في وسط أرضيّة مستودع أو في وسط غرفة جلوس تكاد تخلو من الأثاث –بعيداً عن أي شيء قابل للاحتراق– فإنَّ ذلك يقود بصورة طبيعيّة إلى نتيجة مفادها أنَّ أحداً افتعل الحريق.

لكنَّ الوصول إلى هذه النتيجة يعتمد على المعرفة اليقينيّة لمكان بدء الحريق. وفي معظم حالات الإدانة بافتعال الحريق التي أُسقِطَتْ، تمَّ التعرُّف على نقطة بدء الحريق بشكلٍ خاطئ. وفي حالة تود ويلينغام، كان الفرق بين الاعتقاد بأنَّ الحريق بدأ تحت أسرَّة الأطفال والاعتقاد بأنه بدأ على الشرفة الخارجية بجوار مشواة الفحم هو كالفرق بين الحياة والموت. وفي قضيّة سُجِّلَتْ في عام 1995 في ولاية إلينويز، اتُّهِمَ رجلٌ اسمه وليم أمور بإشعال نار أدّتْ إلى مقتل حماته. كانت النار مُستعرة إلى درجة أنها احترقتْ في حالة من الومض الكامل لأكثر من عشر دقائق. وما زال المُحققون يعتقدون أنَّ في استطاعتهم أنْ يتعرَّفوا على نقطة بدء الاشتعال في الغرفة، على الرغم

من أنَّ ما تبقّى منه هو بضعة عيدان من الخشب وأرضيّة محترقة. واتُّهِمَ أمور بارتكاب جريمة قتل من الدرجة الأولى وبافتعال حريق بدافع الغضب وحُكِمَ عليه بالسجن خمسة وأربعين عاماً، اعتماداً على تصريح صدر عن فريق التحقيق في الحرائق المتعمّدة يقول إنَّ أمور تعمّدَ إلقاء سيجارة مُشتعلة على الأرض بنيّة إشعال النار. وفي الختام، تمّتْ مُراجعة قضيّته باللجوء إلى عِلم أكثر دقّة. وفي دراسات محدودة، كان تعيين منشأ النار في لهب مُستعر بقدر ما كان حريق أمور قد حظي بنسبة دقّة تتراوح بين ستة إلى عشرة بالمئة، مُشيرة إلى أنه كان سيكون مستحيلاً تقريباً التحديد بدقّة نقطة انطلاق الشرارة. وبيَّنتْ دراسةٌ أخرى أنَّ سيجارة مُشتعلة لا يمكن أنْ تقدح ناراً من النوع الذي يُدمّر الشقّة. وعندما تمَّ التدقيق بمزيدٍ من الصرامة في الدليل الذي استُخدِمَ لإدانة أمور انهار. وبعد مرور اثنين وعشرين عاماً على سجنه، أُطلِقَ سراحه في عام 2017.

كانت المكتبة مُزوّدة بوسائل تهوية رديئة وبمراوح أرضيّة متداعية وبمآخذ للأضواء الكهربائيّة تُصدر أزيزاً و«حمل نار» عالياً إلى أقصى مدى، وهو مقياس المحتوى القابل للاحتراق محسوباً بالقدم المُربَّع. كل هذه المُسببات للحريق استُبعِدَتْ لأنَّ المُحققين قرروا أنَّ نقطة بدء الاشتعال هي مقطع صغير من أحد رفوف أكداس الكتب. ولا شيء على رف الكتب يمكن أنْ يكون قد أشعل الحريق عفواً، وهكذا استنتج المُحققون أنَّ المُسبِّب الوحيد المعقول للحريق كان «لهباً خارجياً قدحته يدٌ إنسانيّة»

ولكن ماذا لو أنَّ حريق المكتبة المركزيّة لم يبدأ حيث اعتقد المُحققون؟ في عام 2011، أسّس رجل إطفاء سابق ومُحقق في الحرائق المُفتعلة اسمه بول باير مشروع بحث في الحرائق المُفتعلة، وهي مُنظّمة صُمّمت على نمط مشروع البراءة الذي يقوم بفحص ما يُعتقَد أنّه إدانات جنائيّة خاطئة. ومشروع البحث في الحرائق المتعمَّدة يقوم بعمل مُشابه لكنّه يُركّز جهوده على حالات الإحراق المتعمَّد، خاصة تلك التي ينتج عنها قتلى. وباير يحبّ أنْ يُسمّي نفسه «مهووس بالعلم الجدليّ». وميله إلى الشكّ في التحقيق في الحرائق المتعمَّدة بدأ بالظهور عندما كان يعمل على قضيّة عام 1997 التي اتُّهِمَ فيها رجلٌ اسمه جورج سوليبوتس بارتكاب ثلاث جرائم إشعال

حريق مُتعمَّد. واعتبر المُحققون أنَّ اللطخ الموجودة على الأرضيّة هي آثار إراقة مادة مُسرِّعة للاحتراق، على الرغم من أنَّ التحليل الكيميائيّ لم يعثر على أي دليل على وجود مادّة مُسرِّعة في المنزل. وأدينَ سوليتوس وحُكِمَ عليه بالسجن مدى الحياة. وبعد مُضيّ ستة عشر عاماً، وبعد إجراء فحص قائم على أساس توصيات جديدة صادرة عن الرابطة الوطنيّة للحماية من الحريق، استُبعِد اعتبار العلامات دليلاً على وجود مادّة مُسرِّعة للاحتراق؛ إذ لم يكن لها أي أساس عِلميّ يُبرِّر اعتبارها كذلك. ولم يُعرَف أي سبب لاندلاع الحريق، وأُطلِقَ سراح سوليتوس.

مؤخّراً أخبرني بايبر «كان سوليتوس هو القضيّة التي عرَّفتني على أخطاء الإدانة والشهادة في الحرائق. لقد قُدِّمت الشهادة لمصلحة أصل نقطة الحريق بيقينٍ لم يدعمه البحث العِلميّ». وبدأ يؤمن بأنَّ شهادة العديد من مُحققي الإحراق المتعمَّد ليستْ أكثر من تخمينات حِرفيّة حَسَنة النيّة. ولم يعتقد أنَّ المُحقّقين كانوا يسيئون في تقديم المعلومات عن عمد، ولا كانوا مُخطئين طوال الوقت. بل آمن بأنَّ المشكلة الحقيقيّة كانت أنهم اعتمدوا على أساس خاطئ لتأويلاتهم. ومن دون دعم العِلم لاكتشافاتهم، شعر بايبر أنَّ شهادة رجال الإطفاء يجب اعتبارها ملاحظة عاديّة وليس شهادة شخص خبير، المُفترَض أنْ تكون تحليلاً قائماً على أساس منهج عِلميّ قابل للتكرار وتنظر إليه هيئة المُحلَّفين على أنّه نوع خاص من الشهادة.

أبدى بايبر شكّه في أنَّ العديد من الإدانات في مجال الإحراق المُتعمَّد قائم على تحقيقات خاطئة. وحريق ويلينغام كان إحدى قضايا مشروع بحث الحرائق المُتعمَّدة الجديرة بالدراسة. ومنذ ذلك الحين قام بايبر وطاقم عمله بمراجعة عدد من حالات الإحراق المُتعمَّد الأخرى. وعندما استعانوا بالأساليب العِلميّة وليس بالمبادئ القديمة بشأن الإحراق المُتعمَّد، تبيَّنَ أنَّ ثُلثَي الحرائق التي درسوها ليست من فئة الحرائق المُتعمَّدة، وأنَّ العديد من الإدانات كانت خاطئة.

إنَّ الإحصاءات حول حالات سوء التعرُّف على الحرائق المُتعمّدة مُرعِب. وعلى المستوى الوطنيّ، تشبه النسبة ما اكتشفه مشروع البحث في الحرائق المتعمَّدة في حالاته: حوالي ثُلثي الحرائق التي تمَّ تفحّصها تبيَّنَ

أنها ليست مُتعمَّدة. وسجل التبرئة يجمع إحصاءات حول إسقاط الإدانات القانونيّة بدءاً بحالات تمَّ الحكم فيها في عام 1989. وحتى الآن، تمَّ إدراج ألف وخمسمائة حكم مُسقَط. ثلاثون من حالات التبرئة تلك كانت إدانات بالإحراق المُتعمَّد. وعشرة منها كانت حرائق مُتعمَّدة حُكِمَ بموجبها على الشخص الخطأ. وفي الحالات العشرين الأخرى، أثبتَ العلماء أنَّ سبب الحريق شيء عادي، كعطل في مدفأة داخليّة. وفي هذه الحالات، اتُّهِمَ أحدهم بجريمة لم تحدث قط.

أخبرني بايبر أنَّ الكثير من المُحققين في قضايا الحرائق المتعمَّدة يعتقدون أنّه عجَّلَ كثيراً في إسقاط الحريق المُتعمَّد من حسابه وأنّه تمادى في انتقاد تقنيات المُحقّقين. إنه يتفهَّم أنَّ من الصعب العثور على دليل واضح في قضايا الحرائق. وقال لي «إنَّه من الصعب بمكان الوصول إلى موقع الحريق. وحتى عندما يصل المُحققون إلى مصدر الحريق، فإنه يكون شديد الحرارة ولا يمكن الاقتراب منه. ثم إنَّه يكون منقوعاً بالماء. ثم تنهار الرفوف وقِطع الأثاث، وتمتلئ البقعة بالحطام. وتحاولين أنْ تعثري على دليل هناك! من الجنون أنْ تتوقعي هذا، وأؤكّد لك أنَّ الناس كانوا يُرسَلون إلى السجن منذ سنوات عديدة بسبب هذا النوع من المعلومات». إنَّ بايبر يقف على الحرف القصيّ من نظرية الحرائق المتعمَّدة، لكنَّ بُعده عن مجرى الأحداث يتقلَّص مع اقتناع المزيد من المُحقّقين بأنَّ الأسلوب القديم في دراسة الحرائق المتعمّدة هو، حسب تعبير بايبر، «هراء».

أعددتُ ملفّاً ضخماً حول الحريق الذي نشبَ في المكتبة المركزيّة، ويتضمَّن تقارير من مركز إطفاء مدينة لوس أنجلوس والرابطة الوطنيّة للحماية من الحريق. وتصِفُ التقارير المسار الذي سلكته النيران دقيقة بدقيقة تقريباً. ومُراجعة الملفّات لا يُقارَن بالتفحّص الدقيق للمكتبة، وقد حذّرني بايبر من أنّه من المستحيل الوصول إلى نتائج من دراسة واحدة، لكنني بقيتُ مُهتمّة بمعرفة رأيه. ومنذ أنْ تحدثت معه أول مرَّة، تساءلتُ عن التحقيق في حريق المكتبة المركزيّة. الحريق الأول وقعَ في عام 1986، قبل ست سنوات من نشر الموجز الوافي للرابطة الوطنيّة للحماية من الحريق. ومنذ ذلك الحين، تخلّى هذا الحقل عن العديد من افتراضاته الراسخة

وتوجّه نحو الأساليب المُتشدِّدة، ذات الأساس العِلميّ التي نصحَت بها الرابطة الوطنيّة للحماية من الحريق. كانت تقاليد تحليل الحريق المتعمَّد -حول كيفيّة النظر إلى آثار الاحتراق ودرجة حرارة النار وتشقُّق الإسمنت وما إذا كان قد تمَّ إثبات وجود سبب واضح على حدوث حريق مُتعمَّد واضح: وهي افتراضات انتقلت من جيلٍ من التحقيق في الحرائق المتعمَّدة إلى التالي- قد وصلتْ إلى نهايتها. وكما اتّضح، كانت أبواب السجون تُفتَح أمام الذين لم يحرقوا منازلهم الخاصّة. وكان التحقيق في الحرائق المتعمَّدة قد أصبح مجالاً متغيِّراً في وقت اندلاع حريق المكتبة.

أقنعتُ بايبر بقراءة الملفات حول المكتبة المركزيّة: كنتُ أعيش في عالم هذا الحريق وفي لغز هاري بيك على امتداد أكثر من أربعة أعوام، والآن، إذا صدَّقتُ تحليل بايبر، هناك احتمال أنَّ شيئاً ما قد يُساعد على إضفاء معنى عليه. وبعد ذلك ببضعة أيام كتبَ لي رسالة إلكترونيّة طويلة: «في ظل الظروف المذكورة في التقرير، فإنَّ منطقة بدء الحريق... المُحدَّدة أكثر من المنطقة العامة في الطابق الثاني من أكوام الكتب في الجهة الشماليّة الشرقيّة، ليست منطقيّة. والشكوك التي تقوم على أساس منطقة أكثر تحديداً لمنشأ الحريق كانت غير منطقيّة». قال إنّه حسب ظنّه، فإنَّ عزل المكان الدقيق الذي بدأ فيه الحريق أمر مستحيل، خاصّة أنّه ظلَّ مُستعراً على امتداد حوالي سبع ساعات، مُحوّلاً كل شيء يطاله إلى رماد. وقال بايبر إنّه رأى أنَّ من العقلانيّة القول إنَّ الحريق بدأ في مكانٍ ما في موقع الكتب الشمالي الشرقي، حيث لمح رجال الإطفاء أول خيوط الدخان، أمّا تحديد نقطة الاشتعال بدقّة أكبر فشيء غير واقعيّ. وضمن تلك المنطقة الواسعة كان هناك عدد من الأغراض يمكن أنْ تكون شرارة الاحتراق قد انطلقت منها بسهولة من تلقاء ذاتها من دون تدخّل أي يد إنسانيّة. وبالنتيجة، كما كتب بايبر، «بعد أنْ استمرَّ الاحتراق دقيقتين أو ثلاثاً في كامل الغرفة، حيث ضُخَّتْ آلاف الغالونات من الماء إلى الغرفة، أُحدِثَت ثغرات في الجدران الإسمنتيّة بالمطارق، وانهارت رفوف الكتب بعضها فوق بعض على شكل ركام مرتفع... كانت المعرفة الدقيقة لمكان بدء الحريق مهمّة حمقاء. وهذا لا يعني أنَّ الناس لم يدّعوا أنَّ في استطاعتهم أنْ يُحددوه، بل هم لا يستطيعون»

وأضاف باربر، حالما ارتاب المُحققون في أنّه حريق مُتعمَّد، بدأوا البحث عن دليل يدعم ذلك الارتياب وربما توقّفوا عن البحث لأسباب تصادفيّة مُحتَمَلة كالأسلاك الكهربائيّة وأوعيّة إعداد القهوة. لقد اعتقدوا أنَّ النار اندلعتْ بفعل «شرارة لهب، سبّبتها يدٌ إنسانيّة»، وبدا أنّه يؤكّد ذلك. وكتب بايبر «وفي نهاية اليوم، لم تكن لديّ أيّة فكرة عمّا أشعل شرارة الحريق في مكتبة لوس أنجلوس في عام 1986، ولكن حتى [المحققون] لم يعرفوا». وعندما أخبرتُ بعض المُحققين بما قاله بايبر، أنكروه. قال رون هاميل، رئيس قسم الإطفاء السابق الذي وصفَ حريق المكتبة الشاحب الغريب الأطوار، «وحده جامع كل الحقائق مؤهَّل لأنْ يُحدِّد سبب الحريق»، وأضافَ أنَّ أيّ شخص لا يحصل على تصريحات شاهد عيان ولم يتفحّص مشهد الحدث لن يتمكّن من إعطاء رأي حِرفيّ.

اتّصلتُ ببايبر فور انتهائي من قراءة رسالته الإلكترونيّة وطلبتُ منه أنْ يُطلعني من جديد على أفكاره. وتحدّثنا عن الحريق فترة طويلة، وشرحَ رأيه في القضيّة. وعزا اعترافات هاري وحججَ غيابه الخرقاء إلى تشوّه شخصيّته مدعوماً بكون الناس الذين يرزحون تحت ضغط غالباً ما يُدلون باعترافات زائفة وبتصريحات خاطئة. قال بايبر، لو أنَّ مركز الإطفاء أعطى أي دليل هامّ، لكان محامي المنطقة أدان حتماً هاري. إنَّ رفض المدينة يؤكّد أنَّ مركز الإطفاء ليست لديه إلّا تخمينات وافتراضات ومُشتبه فيه كان هدفاً مثالياً – شخص ثمل بجذب الانتباه. قال بايبر، لم يكن هناك خبث أو رغبة في إيذاء هاري، بل سلسلة من الافتراضات الخاطئة فقط وشخص من السهل وضع اللوم عليه. وقال بايبر، «وفي نهاية المطاف، هناك رجال شرطة يحبّون أنْ يُلقوا القبض على الناس. هكذا تسير الأمور»

كُدنا ننهي المكالمة، فأضاف بايبر شيئاً واحداً آخر: «في رأيي، يبدو أنهم ألقوا القبض على الشخص الخطأ». وأخذَ نَفَساً عميقاً وأضاف، «ويبدو لي أيضاً أنّه لا يوجد أحد يُلقون القبض عليه»



-30-

«مكتبة المستقبل: ندوة» (1939)
تأليف دانتون، إميلي ميلر
020.4 D194

«مستقبل خدمة المكتبة: الأوجه الإحصائيّة والمضامين» (1962)
تأليف شيك، فرانك ليوبولد
027.073 S331

«مكتبات للمستقبل: المُخطط الأكبر لمُنشآت لفرع مكتبة لوس أنجلوس العامّة» (1985)
تأليف مكتبة لوس أنجلوس العامة.
027.47949 L881Lo-4

«بيليوتك: لماذا المكتبات هامّة في عصر غوغل أكثر من أي وقتٍ مضى» (2015)
تأليف بالفري، جون ج.
025.018 P159

في أواخر فصل الشتاء، أمضيتُ يوماً مع إيفا ميتْنيك، رئيس المكتبة المركزيّة. وتصادفَ أنْ كان اليوم الذي انتقيته هو أحد آخر أيّامها في منصبها، لأنها كانت قد اختيرَتْ لتكون رئيس القسم الجديد الارتباط والتعلّم، الذي

اعتبرته ميتنيك عمل أحلامها. والقسم الجديد سوف يتناول الأساليب التي تتَّبعها المكتبة للتواصُل مع الجمهور، بمَا فيها برامج تطوّعيّة والقراءة الصيفيّة وكل الخدمات الموجَّهة إلى المُهاجرين الجُدُد. ومكتبة لوس أنجلوس هي أول مكتبة تُنشئ هذا النوع من الخدمات. ومنذ انطلاقه في عام 2016، قام العديد من المكتبات في البلد بإنشاء أقسام مماثلة.

إنَّ ميتنيك ضخمة الجثّة لكنّها نجحَتْ بصورة ما في أنْ تكون فاتنة، وذات وجه جميل القسمات وعينين رقيقتين. كانت تجري في عروقها دماء أمينة مكتبة. وأمّها، فيرجينيا والتر، عملتْ لمصلحة منظومة مكتبات لوس أنجلوس على مدى عقود. وعندما كانت فيرجينيا تُضطر إلى العمل في نوبة يوم السبت، كانت غالباً ما تُحضِر إيفا معها، وهكذا ترعرعت إيفا وهي تتجول بين أكداس الكتب وتمارس ألعاب الأطفال على طاولة مكتب الإعارة. وتنعت ميتنيك نفسها بأنها «طفلة مكتبة» وتقول إنَّ العديد من الأطفال الآخرين ممَّن عرفتهم وهي تنمو انتهى بهم المطاف إلى أنْ أصبحوا، أيضاً، أمناء مكتبات – وعديدٌ منهم انضموا إلى منظومة مكتبات لوس أنجلوس. لم تمرّ في حياتها لحظات عديدة لم تقضها ميتنيك في المكتبة. وبعد أيام السبت تلك التي أمضتها كأنها طفلة دمية في أحد ألعاب الأطفال، بدأت العمل هنا في عام 1987، عندما كانت لا تزال تدرس في مدرسة المكتبات.

اليوم الذي قرّرت أنْ أقضيه مع ميتنيك كان استثنائيّاً وِفق معايير لوس أنجلوس، كان كئيباً وماطراً وشديد الرطوبة. المطر لم يهطل رذاذاً – بل هطل بصوت مكتوم، وحبّاته التي بحجم النكلة كانت تسقط وتقفز على أرضِ الرصيف، كما يحدث عندما تعصر منشفة رطبة فينبجس الماء منها. وبينما كنتُ أقود السيارة متوجهة إلى المكتبة، أخذتُ أتلوّى في مسار متعرِّج بين حاويات القمامة التي قُلِبَتْ وكانت تندفع إلى أسفل الشوارع المنحدرة أو ترتطم بحافة الطريق أو بسيارة متوقفة، وكانت كتلها الضخمة تحبس المياه وتُشكّل سيلاً مُزبداً. كنتُ أعلم أنَّ المكتبة سوف تكون مزدحمة؛ وكلما كان الجو سيئاً، ينجذب سكّان الشوارع إلى سكينة قاعات القراءة.

عندما وصلت كانت ميتنيك في غرفة مكتبها، تقضم شطيرة تبدو جافّة وتُحدِّق إلى مُناظرة حيّة على شاشة الكومبيوتر تحت عنوان «مواجهة

التحدّي: إعادة ابتكار المكتبات العامة». كان أكثر من مائة أمين مكتبة آخرين من أرجاء البلاد يشتركون في تلك المناظرة، وربما يقضمون شطائرهم الجافة أيضاً. كانت ميتنيك قد أخفضتِ الصوت وتدوِّن ملاحظات بين القضمات. كانت إدارة المكتبة المركزيّة بمنزلة تغيير بالنسبة إليها. كانت قد أمضَتْ معظم السنوات الثماني والعشرين الأولى من عملها في المكتبة في أقسامٍ متنوعة للأطفال كأمينة مكتبة عاملة وليس كمديرة. ومؤخّراً عادتْ إلى جذورها في قسم الأطفال: بالإضافة إلى إدارة المكتبة المركزيّة، هي الآن تشغل منصب رئيس قسم المُراهقين والأطفال، لأنَّ تخفيض الميزانيّة وما تلاه من تقليص عدد طاقم العمل أجبرا ما تبقّى من أمناء المكتبة على تحمُّل مسؤوليّات مُضاعفة. ومع استمرار المُناظرة عبر شاشة الكومبيوتر، أخرجتْ ماتينيك أجندة وراجعت جدول أعمال اليوم، التي تضمَّنَت العديد من الأحداث التي تُدار عن بُعد وليس عبر الكتب. كانت تبدأ يومها عند الساعة التاسعة صباحاً، وتجتمع بأعضاء طاقم إدارة الصحة الذين ينصحون أمناء المكتبات من أرجاء المدينة كافة بشأن الحقائق الأشد قسوة حول قبول حوالي خمسة وأربعين مُشرَّداً في المدينة بين روّادها – حقائق على غرار كيفيّة تقصّي بقّ السرير والقمل، وتقصّي علامات الإصابة بالسُلّ. وخلال تلك الاجتماعات، كانت ميتنيك تخرج برهة لكي تستمع إلى أطروحة تناقَش في الغرفة المجاورة حيث يتلقّى أمناء المكتبة تدريباً على تعليم الأطفال مبادئ الكومبيوتر. ومن ثم تندفع على طول الرواق لكي تُدخِل مجموعة من مُتعهّدي الوجبات الذين يرتّبون الأطباق والكؤوس في الفناء المُجاور لقاعة مارك تير للاجتماعات. واليوم عند الظهيرة سوف يتخرج طلاب الصف الأول من مدرسة ثانويّة عبر الإنترنت، وقد دُعيَ الطلاب وعائلاتهم إلى غداء احتفاليّ بعد انتهاء المراسم.

بعد انتهاء المناظرة عبر الإنترنت والشطيرة معاً، هبطنا أنا وميتنيك إلى الطابق السفليّ إلى غرفةٍ تقع مباشرة بعد البهو الرئيسيّ للمكتبة. كان رتلٌ من الناس يمتد من باب الغرفة وحتى البهو ويكاد يصل طاولات الإعارة الخارجيّة. وشرحت ميتنيك ذلك المشهد قائلة إنّه إدارة تجريبيّة «للمصدر» – أي تجمّع وكالات الخدمة الاجتماعيّة في المكتبة من أرجاء المدينة وكان

جون زابو قد وصفه عندما أمضيتُ يوماً معه. لقد رأى كلٌ من ميتنيك وزابو أنَّ ميزة «المصدر» هي أنَّ في استطاعة الناس أنْ يشتركوا في الخدمات كلها التي يحتاجون إليها داخل حيِّز غرفة اجتماع واحدة كبيرة بدل التنقّل من خدمات المُحاربين القدماء في أحد الأبنية وقسائم الطعام في مبنى آخر ومساعدة الإسكان في آخر. وإذا سار كل شيء كما ينبغي، فإنَّ زابو وميتنيك يرغبان في استضافة «المصدر» في المكتبة على أساس مُنتَظَم. وكانت ميتنيك قد لاحظتْ مؤخّراً أنَّه يبدو أنَّ الناس يُحبّون حقاً التجمّع في المكتبة من أجل أشياء أخرى خلاف استعارة الكتب خارجيّاً. لقد شاهدت اجتماعات كُبرى للنقاش وعروض أفلام سينمائيّة، ومؤخّراً، اجتمع ما يُقارب ألفَي شخص في «معرض الصنّاع»، وهو تجمّع للمُتحمّسين للتقنيّات، والسمكريين، والحِرفيين.

لم تكن أبواب «المصدر» قد فُتِحَتْ بعد، لكنَّ الرتل الطويل بدا أشبه بمُصادقة صادرة عن القلب. قالتْ ميتنيك «نعم!» وهي تنفخ على قبضتَي يديها، «كنتُ أعلمُ هذا! الجميع موجودون هنا!». وعلى الرغم من كونها داعمة بكل جوارحها لدور المكتبة في الخدمات الاجتماعيّة، كانت لديها حدود. أخبرتني بأنَّ أعظم منجزاتها كرئيس للمكتبة المركزيّة كان إلغاء ما أسمته «حجيرات الإثم» - أي مقصورات العمل الفرديّة في كل قسم التي توفّر خصوصيّة لمُستخدميها. والمشكلة هي أنَّ بعض الناس يُفسّرون الخصوصيّة بأنها أفضل بيئة لممارسة الجنس أو لتعاطي المخدرات. قالت ميتنيك «كانت تحدث كل الأمور الشنيعة. وقد قرّرتُ أنّه لا يوجد سبب للاحتفاظ بتلك المقصورات. لا أحد يحتاج إلى مساحة منفردة للعمل في المكتبة. وهكذا أُزيلتْ»

وضع العاملون على القضايا من وكالات الخدمة الاجتماعيّة، ومقاعد الطعام، ومنظّمات الصحّة العقليّة طاولات من البلاستيك على شكل حرف U كبير، لكي يتمكّن الناس من التنقّل فيما بينهم، كما يتنقّلون على طول المائدة المفتوحة. وعثرنا أنا وميتنيك على مقعدين بجوار أحد العاملين الذين يثقبون أنفسهم ولهم شعور طويلة من هيئة خدمات المُشرّدين في لوس أنجلوس. وقدَّم نفسه باسم هيكتور. كان يضعُ صفاً من حوالي أربعين قلماً من الحبر الجاف بجوار دفتر ممتلئ بلوائح المعلومات.

قال هكتور لميتنيك، مُبتسماً ورابتاً على دفتره للمحافظة على إيقاع علامات الترقيم، «إننا *نفعل* هذا. إنّه حقاً» -*تاب تاب*- «عمل رائع!»

حالما أصبحت الغرفة جاهزة، أومأتْ ميتنيك إلى ستان مولدن، حارس الأمن، الذي كان يدفع الطابور إلى الخلف مع بدء «المصدر». أومأ مولدن برأسه وتنحّى جانباً. وتضخَّم الطابور أمام الباب ومن ثم بدأ يلتفّ حول الغرفة. ألقيتُ نظرة إلى ميتنيك التي كانت تبتسم وهي تراقب طابور الناس يتقدَّم. هتفت بحماس، «أترين؟ أترين؟»

***

كان هناك حشد هائل من الناس يتقدَّم، تواقاً إلى الحصول على المعلومات، حتى إنني اضطررت إلى الانخراط في الخدمة كموظفة استقبال مؤقّتة. وكان عملي هو تدوين أسماء الناس وطرح أسئلة أساسيّة عليهم عن أنفسهم وعن الفوائد التي يسعون إلى الحصول عليها. كنتُ متوترة الأعصاب. يُزعجني أنْ أعترف بهذا، ولكن لطالما كنتُ أخاف المُشرّدين أو، بالأحرى، أخاف الجو السائد والمُهدِّد لحدوث شيء لا يمكن التكهّن به. وذلك الشعور استفحل عندما لكمتني امرأة مشرّدة على صدري لدى مروري بها عند تقاطع طرق في نيويورك قبل ذلك ببضعة أعوام. لكنَّ الناس الذين ينتقلون من طاولة إلى أخرى كانوا هادئين ومُهذّبين وصبورين على الرغم من بطء تقدُّم الطابور. كان بعضهم أنيقاً، وبعضهم يرتدي ملابس رثّة وقذرة إلى درجة أنه كان لها لمعان الجلد. وكانت المتقدِّمة الأولى امرأةً ذات مظهر فخم، تحمل كيس تبضّع خفيفاً بحجم قفص برتقال. قالتْ بعد أنْ أخبرتني باسمها، «أنا مُشرَّدة. قد أحتاجُ إلى بطاقة ركوب الحافلة»، وأخذت تفتش داخل حقيبتها ثم رفعتْ بصرها. وتفحّصتني ومن ثم أشرقَ وجهها، قائلة «حسن، ما أجملك بعينيك وشَعرك!»، والتفتت نحو الرجل الواقف خلفها، وكان جالساً على كرسيّ متحرّك متداع، وفي صحبته كلب رماديّ اللون يرتدي بزّة تدل على أنّه مُخصص للخدمة. بدا الكلب ضجراً. قالتْ للرجل الجالس على الكرسيّ المتحرّك، وهي تومئ له لكي ينظر إليّ، «انظر إليها، يا ويليس»

انتهيتُ من تسجيلهما، شاعرة بالأسف لجعلهما يتقدّمان. وزبوني التالي كان رجلاً وسيماً ذا بشرة ناعمة سمراء داكنة، يرتدي سترة صوفيّة ذات ياقة مستديرة وبنطلوناً فضفاضاً؛ بدا نقيّاً كطبيب أسنان. أخبرني بأنَّ اسمه ديفيد، ومن ثم سألته أسئلة التسجيل التقليديّة. السؤال الأول كان عن عمله الحالي. وأحد الأجوبة العديدة كان «متقاعد»، ووجده مُضحِكاً. وحالما كفَّ عن الضحك، قال «لا أعتقد أنَّ «التقاعد» يمكن أنْ يصِف وضعي. أنا لا أعمل. بل أقوم بأشياء. أغنّي في فريق رباعي في دكان حلّاق، وهذا يُرضيني ولكن من دون دخل ماليّ»، وطرحتُ السؤال التالي، «ما هي حاجتك المُلحَّة؟»، فأجاب، «حاجتي المُلحّة هي الطعام»

بدأ يضحك من جديد وكان سماعه شيئاً رائعاً، لأنّه كان صاحب صوت صقيل، ناضج وعميق – صوت جدير بنجم سينمائيّ، صوت راوٍ. وسألته إنْ كان قد قام بالتمثيل بصوته، فقال إنَّ بعضَ الأشخاص اقترحوا عليه ذلك، لكنّه لم يسع قط إليه ولا يعرف كيف يفعل. وكان مظهره يتنافر مع وضعه حتى إنني استمررتُ في التحدث معه، يحدوني أمل في أنْ يُخبرني شيئاً عن نفسه. قال إنّه كان لديه عمل ومنزل بل يمتلك منزلاً للإيجار، لكنّه اتّخذَ ما سمّاه «قرارات ماليّة خاطئة جداً» وخسر كل ما يملك شيئاً فشيئاً. وعلى مدى الأشهر الخمسة الأخيرة، هو يعيش في سيارته. والجزء الوحيد من حياته السابقة الذي تمسّك به كان عضويته في صالة الألعاب الرياضيّة، بحيث يستطيع أنْ يلجأ إلى مكان يستحم فيه ويحلق ذقنه. قال «لا أريد أنْ أترك نفسي على سجيتها. أنا في حاجة إلى أنْ أبقى متماسكاً»

كان الطابور يتجمَّع خلف ديفيد، لذلك اضطررنا إلى التوقف عن الكلام. وقبل أنْ ينتقل إلى الطاولة التالية، سجّلت صوته وهو يُحيِّيني ومن ثم أُعطيه وصفاً مُلخّصاً لحالة الطقس. وبين فترات تدوين أسماء الآخرين، أرسلت بالبريد الإلكترونيّ التسجيل إلى صديقٍ أرسله بدوره إلى أناسٍ يستعينون بأصوات ممثلين. أعتقد أنَّ من الحماقة أنْ يحدوني كل ذلك الأمل، لكنَّ وجودي في تلك الغرفة جعلني أشعر كأنَّ كل شيء ممكن – أنَّ أي مشكلة عويصة يمكن حلّها، وأنَّ جماعة من الأشخاص لديهم هدف مُشترَك يمكن لمّ شملهم وجعل كل شيء يسير على ما يُرام. تخيّلتُ أنَّ ديفيد سوف يجد

بضربة حظ عملاً عظيماً كراوية نتيجة للتسجيل الهاتفي، وكل ما كان قد سار سيراً خاطئاً بالنسبة إليه سوف يستقيم. وكل الذين تلقّوا التسجيل سوف يتّفقون على أنَّ صوت ديفيد ساحر، ولكن الآن لا أحد يستعين به. قالوا إنهم سوف يتذكّرونه. وبعد أنْ أنهيتُ نوبتي في «المصدر»، لم أره قط.

***

تحدثتُ مع ميتنيك عن مستقبل المكتبات. إنها صاحبة فكر مثاليّ وتعتقد أنَّ المكتبات تتكيَّف مع العالم كما هي الآن، حيث تتدفّق المعرفة من حولنا كما ترد في الكتب الماديّة. وعلى غرار زابو والعديد من العاملين في المكتبة التوّاقين إلى التجديد، ترى ميتنيك المكتبات كمراكز للمعلومات والمعرفة وليست مجرّد مستودع للمواد. إنها واحدة من كمٍ هائل من العاملين في المكتبة الذين يعتقدون أنَّ المكتبات سوف تبقى أساسيّة لمجتمعاتهم. وحسب غالبيّة المعايير، يبدو هذا الحشد المتفائل من العاملين على صواب. ووِفقاً لدراسة صدرت في عام 2010، يستخدم ما يُقارب الثلاثمائة مليون مواطن أميركيّ إحدى المكتبات العامة البالغ عددها 17,078 في البلاد بالإضافة إلى المكتبات الإلكترونيّة على امتداد العام. وفي دراسة أخرى، قال تسعون في المئة ممن خضعوا للاستفتاء إنَّ إغلاق مكتبتهم المحليّة سوف يتسبَّب في الأذى لمجتمعاتهم. إنَّ المكتبات العامّة في الولايات المتّحدة تفوق في عددها عدد محلات شطائر ماكدونالد؛ وتتفوق في عدد محلات بيع الكتب بنسبة اثنين إلى واحد. وفي العديد من البلدات، المكتبة هي المكان الوحيد الذي تستطيع فيه أنْ تستعرض الكتب الماديّة.

لقد أضحت المكتبات عتيقة الطراز، لكنّها تُصبح شائعة أكثر فأكثر بين الأشخاص الذين لم يبلغوا سن الثلاثين بعد. هذا الجيل الشابّ يستعين بالمكتبات بأعداد تفوق أعداد الأجيال الأكبر سنّاً، وعلى الرغم من أنهم ينمون في عالم رقميّ، متسارع، فإنَّ ما يُقارب ثُلثيهم يعتقدون أنَّ المكتبات تضمّ مواد هامّة لا تتوفّر على خط الإنترنت. وخلاف الأجيال الأكبر سنّاً، فإنَّ الأشخاص الذين لم يبلغوا الثلاثين من العمر في الغالب لن يشغلوا مناصِب مكتبيّة. وبالتالي، فإنهم دائماً يفتشون عن أماكن ممتعة ليعملوا فيها خارج منازلهم. والعديد منهم ينتهي بهم الأمر إلى العمل في محال بيع

القهوة وبهو الفنادق أو إلى الانخراط في مجال الأعمال المزدهرة في أماكن العمل المشترك. وبعضهم يكتشفون أيضاً أنَّ المكتبات هي أماكن عمل مشترك أصليّة في المجتمع وتتصِف بالميّزة الجليّة بكونها حرّة.

إنَّ الجنس البشري يلحّ على رغبته في أنْ يؤسِّس أماكن عامة يتم تقاسُم الكتب والأفكار فيها. وفي عام 1949، نشرت منظمة اليونسكو بيان المكتبة العامة لكي ترسّخ أهميّة المكتبات على أجندة الأمم المتّحدة. ويقرّ البيان بأنَّ «المكتبة هي شرط استفادة المواطنين من حقّهم في الحصول على المعلومات ومن حريّة التعبير. ومجّانيّة الحصول على المعلومات أمرٌ ضروريّ في المجتمع الديمقراطيّ، من أجل إجراء نقاشٍ مفتوح وخلق رأي عام»

حتى عندما يستحيل إنشاء مكتبات في أماكن دائمة، فإنَّ الناس يطلبونها، ويقوم أمناء المكتبات بتجهيزها. وأول مِثال مُسجَّل لمكتبة متنقّلة كان في عام 1905، عندما قامت عربة يجرها حصان بالتنقّل في أرجاء مقاطعة واشنطن، في ميريلاند، لكي تُعير الكتب. وانتشرتْ فكرة جلب المكتبات إلى الزبائن، واستُحدثت العديد من المكتبات عربات الكتب على غرار عربة ميريلاند. والعربات الأولى ركَّزتْ على إرسال الكتب إلى الحطّابين، وعمّال المناجِم، وعمّال آخرين بعيدين عن مكتبة المدينة. وفي عام 1936، أنشأتْ إدارة تقدُّم الأعمال نقابة باك هاوس لأمينات المكتبات من أجل خدمة ساكني الجبال في كينتكي. وإلى أنْ فقدتْ تلك الإدارة تمويلها في عام 1943، كانت هذه المجموعة من أمينات المكتبات القويات المتينات يتنقلن من قرية إلى قرية على ظهور الخيل، لتسليم أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب وثمانية آلاف مجلّة في كل شهر.

في عام 1956، قامت هيئة تعزيز المكتبات الفيدراليّة بتمويل ما يُقارب الثلاثمائة مكتبة متنقّلة من أجل خدمة المجتمعات الريفيّة. وحاليّاً، هناك العديد من المكتبات العامة لديها مكتبات متنقّلة من أجل خدمة مناطق مُدُنها التي لا تضم مكتبات فرعيّة. إنَّ منظومة مكتبة لوس أنجلوس العامة ليست لديها الآن مكتبات متنقّلة، ولكن لديها ثلاث دراجات من أجل توزيع الكتب تنتشر في أحياء مختلفة في أرجاء المدينة، تحمل في سلّتها قسماً من

الكتب. وهناك أيضاً مكتبات متنقّلة خاصّة، على غرار حافلة بيس المتمركزة في فلوريدا، تعمل كبرامج محو أميّة متنقّلة. كان سنون ألف مكتبة صغيرة مجّانيّة، في ثمانين بلداً حول العالم، تعرض تبادل الكتب –أعطِ كتاباً، تأخذ كتاباً– تتمركز في حجرات خشبيّة تبلغ ضعف حجم عش طائر. وهي تشكّل جزءاً من منظمة مكتبات صغيرة مجّانيّة غير ربحيّة، لكنّها تُؤسَّس وتُدار من قِبَل أي فرد يرغب في إقامة إحدى الحجرات في فناء بيته الأماميّ ويملأها بالكتب الموهوبة لها.

على امتداد رقعة العالم، هناك 320,000 مكتبة عامة تقوم على خدمة مئات الملايين من البشر في كل بلد على الكوكب. وعدد كبير من تلك المكتبات موجود في أبنية تقليديّة. وهناك أخرى متنقّلة وتعمل، وِفقاً لمنطقة الموقع وحالة الطقس، مستعينة بدراجة هوائيّة، أو بحقيبة ظهر، أو بطائرة هليكوبتر، أو بزورق، أو بقطار، أو بدراجة ناريّة، أو على ظهر ثور، أو حمار، أو فيل، أو جمل، أو بسيارة شاحنة، أو بحافلة، أو بحصان. في زامبيا، تُسافر سيارة شاحنة زنتها أربعة أطنان على درب منتظمة خلال مناطق ريفيّة. وفي إقليم كاجاماركا، في البيرو، لا يوجد بناء يضم مكتبة، لذلك خصَّصَ سبعمائة مزارع مساحة في منازلهم، يحتوي كلٌّ منها قسماً من مكتبة البلدة. وفي بيكين، يُستعار ثُلث كتب المكتبة من آلات للبيع موزّعة في أرجاء المدينة. وفي بانكوك، يقوم قطارٌ مُحمّل بالكتب، يُسمّى قطار الكتب للشبّان، على خدمة الأطفال المُشرّدين، الذين غالباً ما يُقيمون في مُخيّمات موجودة بالقرب من محطات القطار. وفي النرويج، يمدّون القرى بين الجروف الخالية من المكتبات بقارب مُحمّل بالكتب يتوقّف على طول سواحل مقاطعات هوردالاند، ومور أوغ رومسدال، وسوغن أوغ فجوردين طوال فصل الشتاء، ويوزّع الكتب الأدبيّة. وفي السويد لديهم أيضاً قارب من الكتب، وكذلك الأمر في فنلندا، وكندا، وفينزويلا. وبعض المكتبات المتنقّلة تركّز على تجمّعات خاصّة وتجلب لها موادّ نادرة تضيفها إلى ثقافتها. النرويج لديها مكتبة متنقّلة تجلب مواد مكتوبة باللغة الساميّة Sami إلى البدو الساميين رُعاة غزلان الرنّة في مناطق أقصى الشمال.

إنَّ العديد من المكتبات المتنقّلة حول العالم تسير بطاقة الحيوانات.

والحمير والبغال هي المخلوقات الأكثر شيوعاً لحمل الكتب. وفي قسم ماغدالينا في كولومبيا، استبدَّ القلق بأستاذ مدرسة اسمه لويس سوريانو لأنَّ سكان القرى الصغيرة في إقليمه لا تصلهم المكتبات، لذلك خصّص حماراً من عنده لحمل الكتب. وفي أيام العطل الأسبوعيّة، كان يمتطي ظهر حمار، يُدعى ألفا، ويقود آخر، اسمه بيتو، يحمل كتباً في جرابه. وبعد أنْ يقطع أرض الإقليم على امتداد شهر، يقفل سوريانو عائداً من حيث أتى لكي ينقل المُرتجَع من الكتب. وفي منطقة نُكايي في شمال غرب زيمبابوي تنقل عربات تجرّها حمير مكتبة إلكترونيّة إلى قُرى نائية مؤلّفة من الكتب ومطبوعات بالإضافة إلى جهاز راديو، وهاتف، وجهاز فاكس، وخط إنترنت مُتاح للجميع. وكينيا لديها مكتبة على ظهر جمل يوصِل الكتب إلى قرى بدويّة في مناطق غاريسّا وواجيت. وأحياناً تنخّ الجِمال عندما يأتي سكّان القرى لأخذ مواد القراءة، وأجسامها الخشنة التي يكسوها الشَعر تشكّل نوعاً من الحيِّز الضيّق الحيّ الذي يفصل الحيِّز الخاصّ بالمكتبة عن الحقول المترامية.

***

في لوس أنجلوس، لم تكن أمينات المكتبات اللائي قابلتهن يمثّلن طاقم عمل صارم ومُحبَط في مهنةٍ بائدة، بل أفراداً مرحين وتوّاقين يرفع هممهم الإيمان بأنهم يؤدون عملاً هامّاً. وبدأت أحضر مؤتمرات المكتبة لأرى إنْ كان انطباعي عن تفاؤلهم يدعمه، بدءاً بعام 2013 بمؤتمر رابطة المكتبة الأميركيّة، أكبر مؤتمر للمكتبات في العالم. والمؤتمر في ذلك العام أُقيمَ في ماكورميك بليس في شيكاغو، وهو صرح من الضخامة حتى إنّه بدا يتّسِمُ بجو خاصّ وخصائص مميزة.

تجولت مع عشرات آلاف أمينات المكتبات وداعمي المكتبة في أرجاء قاعة العرض التي تضمّ سبعمائة مقصورة وحوالي سبعة آلاف عارِض. كان روّاد الحَدَث من الضخامة حتى إنك تشعر كأنّه دولة–أمّة جديدة. وكانت أمينات المكتبات قد جئن من فورت كولينز وبينسفيل وبلدات صغيرة في تينيسي إرفين وأوشكوش، من أنكوريج وأوستن. وكنتُ أعلم أنَّ هناك أمينات مكتبات من هنا، من لوس أنجلوس، أيضاً، لكنَّ الحشود كانت

من الكثرة بحيث إنني لم ألتقِ بأي منهنّ. كانت الأمينات يرتدين بلوزات عليها رسوم أزهار أو قمصاناً رياضيّة عليها عبارة «القراءة ترقص» تتلألأ، أو يضعن وشماً لرسوم كتب وأرقام ديوي العِشريّة. وإذا كنَّ حكيمات، فإنهنَّ ينتعلنَ أحذية مُريحة، أو يتوقفنَ عند أحد أكشاك بيع الأحذية الخفيفة، الموزّعة في المعتاد في جهات القاعة الأربع بصورة مناسبة، من أجل أخذ مقاس أحذيتهن. أخبرني بائع الأحذية الخفيفة في الجهة الشماليّة الغربيّة، «إنَّ أمينات المكتبات يُعانين من *الألم*. لا أحد يقف على قدميه طوال النهار أكثر منهنّ». واستمتعت بعرض الكتب، وافتُتِنتُ حقاً بالأشياء الميكانيكيّة، الأدوات والبِدع التي ما كان يمكن للشخص العادي أنْ يعرف أنَّ المكتبات تحتاج إليها. وعرضَت شركة تُدعى صناعات MJ تشكيلة مُذهلة من أنظمة الفرز. ووعدت شركة كولوزمارك لترتيب الرفوف بوضع «نهاية لفوضى تنظيم الكتب!». كانت هناك لافتات من شركات ASI لابتكار اللافتات، وعربات الاستعارة الخارجيّة الآليّة، وشيء اسمه بوبسي للمكتبات التي تسأل «ما هي استراتيجيتك لنقل الكتب؟»، وبين المُصنّعين والناشرين المعروفين والناشرين المُختصين، على سبيل المثال، بنشر سلسلة كتب القطّة المسيحيّة، هناك أكشاك تعرض كتباً منفردة عشوائيّة، على غرار «*رحلة مستر بوب الطويلة*» (مُصوّرة، ومتوفرة باللغتين الإنكليزيّة والإسبانيّة)، والعنوان الكبير لشركة النشر الثوريّ الشاب (وربما الوحيد)، «*مذكرات رئيس الجمهوريّة المثليّ: كما روتها السيدة الأولى*»

بعد مرور بضعة أشهر على رحلتي إلى شيكاغو، ذهبتُ إلى آرهوس، في الدانمارك، لحضور مؤتمر نصف سنويّ تحت عنوان المكتبة التالية، وهو تجمّع عالميّ من أجل «استشراف واستكشاف الطبيعة المتطورة باستمرار للمكتبة العامة في القرن الحادي والعشرين». وفي ذلك العام كان تحت عنوان «إعادة التفكير». وقد جذبَ عدّة مئات من أمناء المكتبات من ثمانية وثلاثين بلداً حضروا، جزئيّاً، من أجل الاحتفال بمكتبة آرهوس الجديدة العامة، وهي مبنى يبدو نضراً وآسراً إلى درجة أنني لم أرغب حقاً في مغادرته، ويبدو أنه لا أحد رغب في ذلك. والمبنى هو عبارة عن كتلة من الإسمنت محشور في مرفأ آرهوس، والمساحة الداخليّة شاسعة

ومفتوحة، وتطل قاعات القراءة على مشاهد للمياه. ورفوف الكتب هي صفوف عريضة، تدعم الشعور بأنَّ المكان يحتوي على أكثر من المقدار العادي من الهواء والضوء. إنها مكتبة شبيهة بمكان للاسترخاء؛ وهناك وسائد كبيرة في كل مكان، تحسّباً إذا ما أراد أحد أنْ يتمدَّد على بطنه وهو يقرأ، والدَرَج الرئيسيّ، العريض والمنحدر برفق، جُعِلَ كنوع من غابة داخليّة لممارسة الألعاب الرياضيّة لأطفال آرهوس. وعندما لا نكون نحن حضور مؤتمر المكتبة الجديدة نتغنّى بالمبنى الجديد أو نتلذَّذ بشرب القهوة الجيدة جداً التي تُباع في مقهى المكتبة، نذهب لحضور جلسات حول التجديد والارتباط والامتداد والتعلّم. كان البعض يتحدّث، والبعض الآخر يُشارك. وقد حضرت إحدى الجلسات التي تضمّنت إنشاءات مع شركة ليغو. ولم أفهم قط صِلة ذلك بمكتبات المستقبل، لكنَّ إدارات شركة ليغو في أرجاء العالم لم تكن تبعد أكثر من ستين ميلاً في بيلوند، الدانمارك، لذلك ربما أراد مُنظّمو الجلسة أنْ يستغلّوا المنتجات المحليّة.

في كل جلسة، كانت النتيجة التي نتوصّل إليها هي أنَّ في استطاعة المكتبات أنْ تنجز الكثير والكثير وتبقى أماكن لاحتواء الكتب. لقد بدا، بصدق، أنَّ السُبُل الممكنة التي يمكن للمكتبة أنْ تنمو بها هي أنْ تستمر إلى الأبد. أبدى حضور المؤتمر إعجابهم بإحدى الخدمات التي تقدّمها مكتبة آرهوس وهي احتواؤها مكتباً لإصدار عقود زواج. وقد أخبرتني أمينة مكتبة من نيجيريا بأنَّ مكتبتها تقدِّم دروساً عمليّة في الفن والمقاولة، ووصف أمين مكتبة من ناشفيل لي كيف أنَّ مكتبة المدينة هناك باشرتْ تواً تبادل بذور النباتات واستقبلتْ فرقة مسرحيّة جوّالة.

إنني غالباً ما أفكِّر في كيف كان يمكن لأمينة مكتبة المدينة، تيسّا كيلسو، أنْ تشعر بالألفة في مؤتمر آرهوس: كان يمكن لاقتراحها في ثمانينيات القرن التاسع عشر بوجوب أنْ تُعير مكتبة لوس أنجلوس العامة مضارب التنس وألعاب الطاولة أن تناسِب هذه الأيام. لقد دفعتني أشياء كثيرة في مؤتمر «المكتبة التالية» ومؤتمر رابطة المكتبة الأميركيّة إلى التفكير في أمينات المكتبة في لوس أنجلوس في الماضي اللواتي عرفتهن من خلال إجراء بحثي. وكان تشارلز لميس سيُعيد التفكير في رأيه في أمينات المكتبة

بأنهنّ مملّات لو أنّه انضمّ إليّ في حفل كوكتيل أمينات المكتبات اللواتي يضعن وشوماً في شيكاغو. وكان الدكتور س.ج. ك. جونز، الموسوعة الإنسانيّة، سيشعر بأنّه سينال البراءة من المكتبة البريطانيّة ومن «الموسوعيين الإلكترونيين المُقيمين» الجُدد للمكتبة الملكيّة في الدانمارك.

***

في آرهوس، كنتُ أرافق ديبورا جيكوبس، أمينة مكتبة مدينة سياتل السابقة، التي تُدير الآن مبادرة أمناء المكتبات العالمية التابعة لمؤسسة بيل وميليندا غيتس. وهذه المؤسّسة تساعد في تمويل المؤتمر، وكانت جيكوبس هي التي ألحّتْ عليّ في الحضور. وتصادفَ أنْ كانت هي أيضاً تحبّ آرهوس وقالتْ إنها تفكّر في استئجار شقّة هناك بعد أنْ تتقاعد. وجيكوبس امرأة ضئيلة الحجم وقويّة البنية، لها شَعر كستنائيّ مرن وابتسامة متلألئة وضحكة من القلب. وهي أيضاً صاحبة بُنية حديديّة. وخلال الأسابيع التي سَبَقَتْ موعدنا الذي ضربناه في آرهوس، سافرتْ إلى ناميبيا، وغانا، وهولندا، وجنوب إفريقيا، وسان فرانسيسكو، ولم يبدُ أنّها تفتقد الحيويّة. وكان بيل وميليندا غيتس قد أبديا اهتماماً بالمكتبات قبل زمن طويل: كان دعم المكتبات العامّة هو أحد أوائل مشاريعهما الخيريّة، قبل حتى أنْ يضعا حجر الأساس لمؤسستهما الإنسانيّة. وبدأ المسعى في عام 1997، بهدف مساعدة كل مكتبة أميركيّة موصولة بخط إنترنت. وفي عام 2002، بعد أنْ أنهيا نصيبهما في المساعدة بوصل مكتبات الولايات المتحدة معاً، قرّر الثنائي غيتس متابعة نشاطهما مع المكتبات ونشره عالميّاً. وتأسست مبادرة المكتبات العالميّة في عام 2004. (واندمج البرنامجان العالميّ والمحليّ في عام 2011). وكان أحد أوائل برامجها هو مُساعدة الناس في أرجاء العالم على التواصل بخط الإنترنت من مكتبتهم المحليّة. وفي ذلك الوقت، كان خمسة وستون في المئة من سكان العالم لا يتّصلون بخط الإنترنت، مما أبقاهم غير قادرين على الحصول على المعلومات عبر خط الإنترنت أو على تطوير معرفتهم بالعالم الرقميّ. وبمعنى ما، تعتبر مبادرة المكتبات العالميّة المكتبات بوابة عالميّة إلى المستقبل، بجعل تلك المكتبات الموقع الأساسيّ للحصول على خط إنترنت عام مجّانيّ.

خلال السنوات العشرين الأخيرة، اتّسع نطاق أهداف المبادرة حتى تجاوز ربط مكتبات العالم معاً. لقد منحتْ هِبات لمنظمات عالميّة لمحو الأميّة على غرار منظمة وورلدليدر في الأمم المتطورة، وكانت قد دعمتْ ثلاثة عشر ألف مكتبة حول العالم، في أماكن مثل بوتسوانا، وليتوانيا، وفييتنام، ومولدوفا، وجامايكا، وكولومبيا، وموّلتْ شراء أدوات وإخضاع طاقم العمل للتدريب. ومؤخّراً، وجّهتْ جيكوبس مساعي البرنامج نحو تثقيف المكتبات وربطها معاً، خاصّة في إفريقيا، حيث المكتبات منعزلة بعضها عن بعض بين الدول. وأرادتْ أيضاً أنْ تهذّب الجيل التالي لما سمّته «بطاريات شحن المكتبات»، الذين تخيلت أنهم يقودون المهنة في المستقبل. وهي تعتبر أمين مكتبة لوس أنجلوس جون زابو هو إحدى تلك البطاريات الشاحنة الحاليّة، لكنّها أيضاً تفكّر في الجيل الذي سيأتي بعده. ومؤخراً قالت لي «نحن في حاجة إلى أن نتيقّن من نوفّر أناس أقوياء يشغلون مكان الجيل الحالي بعد رحيله»، ثم أضافت «واو، أكاد أختنق عندما أقول «بعد رحيله»». وعندما جرى بيننا الاتصال، كانت جاكوبس في جنوب إفريقيا، جالسة في غرفة مكتبها مع غيرترود كاياغا مولينذوا، الرئيس السابق للمكتبة الوطنيّة في أوغندا، وهي تشغل الآن منصب مدير في المكتبة الإفريقيّة ورابطة ومؤسسة المعلومات. ولأنني ألّفتُ كتاباً عن لصوص زهرة السحلبيّة قبل بضع سنوات، اعتقدتْ جاكوبس أنني أودّ أن أعرف أنّ كاياغا مولينذوا شغوف بجمع زهرة السحلبيّة، وعندما تسافر من أجل حضور مؤتمرات المكتبة العالميّة، من المعروف عنها أنّها كانت تدسّ بعضاً من أزهار السحلبيّة في حقيبة سفرها وتُحضرها إلى أرض الوطن. وأكاد أسمع كاياغا مولينذوا تقول في الخلفيّة «ديبورا، لا أعتقد أنّ هذا تصرّف غير قانونيّ»

في عام 2014، كرّرتْ مؤسّسة بيل وميليندا غيتس التزامها بقضايا الصحة والعِلم وقرّرتْ أنْ تحذف كل البرامج التي لا تقع ضمن نطاق تلك القضايا. وبدل أنْ توقِف المؤسّسة على الفور مبادرة المكتبات العالميّة منحتها أربع سنوات ونصف السنة لتُنهي نشاطها لكي يُتاح الوقت للمكتبات وأمناء المكتبات الذين كانت تمدّهم بالمساعدة للتكيّف مع التغير. ومع حلول وقت انتهاء البرنامج في شهر كانون الأول من عام 2018، سوف تكون

مبادرة المكتبة العالميّة قد كرَّسَتْ عشرين عاماً وأنفقَتْ مليار دولار على المكتبات والعاملين فيها وعلى برامج محو الأميّة حول العالم. ومؤتمر المكتبة التالية الذي حضرته مع جاكوبس أُقيم في عام 2015، بُعيد إرسال جاكوبس رسالة إلكترونيّة تُعلن فيها النهاية الوشيكة للبرنامج. إنَّ المبادرة وجاكوبس هما قوّتان كبيرتان في عالم المكتبات. وبدا كأنَّ كل شخص في المؤتمر كان يعرف جاكوبس، وقد استفاد عديدون من المبادرة. وبدت جاكوبس مسرورة بتفاعُل غالبيّة الناس مع الإعلان ليس بإبداء الرعب أو اليأس بل بتصميم عازم على الاستمرار في نشاطهم، حتى بعيداً عن سخاء آل غيتس. قالت جاكوبس «نحن لم نُنشئ مكتبات مادّيّة على طريقة أندرو كارنيغي، بل شجّعنا ودرَّبنا وربطنا بين أمناء المكتبات، وساعدنا على تطوير المجتمعات. وهذا في رأيي عمل جيد»

ومع ذلك، تحدّثَ كل مَنْ حضر مؤتمر المكتبة التالية عن المال وكيف أنّه لا يتوفّر ما يكفي منه. وهذا الموضوع مطروح دائماً في عالم المكتبات بحيث بات معروفاً من دون تصريح أنّه يُطرَح كلّما اجتمع أكثر من أمين مكتبة في غرفة واحدة. ولكن كما يحدث مع المشتركين في مؤتمر رابطة المكتبة الأميركيّة، بدا أنَّ كل مَنْ قابلتُ في مؤتمر «المكتبة التالية» متحمّس بشأن المُستقبل – حتى الذين يُديرون مكتبات صغيرة في الطوابق تحت الأرضيّة في بلديات في قُرى بولونيّة أو كانوا بالكاد يتنفّسون داخل أماكن مُماثلة يعوزها التمويل بصورة مؤلمة في كينيا. وكأنَّ الجميع يتقاسمون الإدراك الكبير نفسه: أي أنَّ المكتبات تُثابر، وأنها نمتْ، وأنها حتماً سوف تدوم.

***

انتقلتُ إلى بوابّة أخرى تؤدي إلى المستقبل عندما قمتُ بزيارة كليفلاند مؤخراً وتجولتُ بين مراكز قيادة أوفردرايف، وهي قائمة بأكبر محتوى رقميّ من أجل المكتبات والمدارس في العالم. فإذا استعرتَ كتاباً إلكترونيّاً من إحدى المكتبات، فأنت في الغالب تستعيره من مخبأ المكتبة في مجموعة أوفردرايف الضخمة، التي تُعدُّ بالملايين. وعندما أسّس ستيف بوتاش في عام 1986 أوفردرايف، كانت تبيع أقراصاً مرنة وذاكرات أقراص مُدمجة لناشرين وباعة كتب. أخبرني بوتاش، «وبدأ هذا بالتلاشي، وعرفنا الاتّجاه

الذي تذهب إليه التكنولوجيا». وبعد بضعة أعوام، نفّذت الشركة ما يُحب رجال الأعمال أنْ يُسموه «المحور» وأعادتْ ابتكار نفسها كمجموعة عملاقة من وسائل الإعلام الإلكترونيّة. وفي الأساس، ابتكرت الشركة مفهوم إعارة الكتاب الإلكتروني. وفي ذلك الوقت، كانت المكتبات تتقصّى مجال إعارة الكتب غير الماديّة، لكنَّ ذلك كان يتطلَّب من الطاقة الإحصائيّة والإدارة أكثر مما هو متوفّر لديها. ومع أوفرْدرايف، كان في وسعها إنشاء عُضويّة وتقديم مواد للاستعارة من دون أنْ تُضطر إلى القيام بالعمل المُحبِط من خلف الكواليس. على سبيل المثال، كانت مجموعة مكتبة لوس أنجلوس الرقميّة تقوم على أساس حلم تُديره مؤسّسة أوفرْدرايف في كليفلاند.

كانت المكتبة العامة الأولى التي تتيح لأوفرْدرايف الفرصة للمحاولة هي مكتبة كليفلاند العامة، التي أنشأتْ خدمة إعارة الكتب الإلكترونيّة في عام 2003. وفي آخر إحصاء، استخدم أكثر من أربعين ألف مكتبة عامة ومدرسة (وبعض المدارس الأكاديميّة والمُشتركة) في سبعين بلداً أوفرْدرايف للتعامُل مع إعارات وسائل اتّصالها الإلكترونيّة، التي أضحت الآن تتضمَّن الكتب السمعيّة، والموسيقى، والفيديو، بالإضافة إلى الكتب الإلكترونيّة. والعدد يزداد بسرعة إلى درجة أنني عندما قمتُ بزيارة مراكز إدارة أوفرْدرايف كان عدد أعضائها من المكتبات قد بلغ سبعة وثلاثين ألفاً وحتى بعد ذلك بشهر واحد، عندما اتصلتُ لكي أؤكّد على الرقم، كان قد ارتفعَ بمقدار أكثر من ثمانية بالمئة. وربما بدت الفكرة لا تُصدَّق عندما بدأتْ، ولكن في غضون ثلاث سنوات من تأسيسها كانت مؤسسة أوفرْدرايف قد أعارتْ مليون كتاب، وفي عام 2012، وصل عدد الإعارات الخارجيّة إلى مائة مليون. ومع نهاية عام 2017، كان العدد قد وصل إلى إنجاز في الإعارة بلغ مليار كتاب. وفي اليوم العادي، يُعار سبعمائة ألف كتاب خارجيّاً عبر أوفرْدرايف. وحقّقت الشركة نجاحاً باهراً إلى درجة أنَّ مجموعة راكوتن اليابانيّة دفعَتْ، قبل بضعة أعوام، 410 ملايين دولار لتحصل عليها.

قابلتُ بوتاش في بهو مقر إدارة أوفرْدرايف الجديد، الصرح الضخم، الصارم، المُذهل المؤلّف من الزجاج والإسمنت المُسلَّح الجاثم على الحافة الغربيّة المعشوشبة من قلب مدينة كليفلاند، على الجانب القصيّ

من وادٍ سحيق حفرته قبل عصور سحيقة من القِدَم قطعة ضخمة هائلة من الجليد. وخلافاً لأناسٍ كثيرين أسّسوا شركات تكنولوجيا رائدة، فإنَّ بوتاش شخص بالغ، وأولاده الثلاثة البالغون –ابنتان وولد واحد– يعملون معه في أوفرْدرايف. وبوتاش رجل ودود، متغضّن، ويتوّج رأسه كتلة كثّة من الشَعر البنيّ وله أسلوب في الكلام عن الشركة يبدو أبويّاً وفخوراً. إنَّ شركة أوفردرايف في أساسها شركة تكنولوجيا، لكنَّ بوتاش له هيئة رجل مُهتمّ بالمكتبات وليس مهتماً بالتكنولوجيا. كان يعرف كل عامل في مكتبة لوس أنجلوس أتيتُ على ذِكره، بالإضافة إلى تفاصيل عن حياتهم وتاريخهم. وقبل أنْ يُرافقني في جولة في أرجاء المبنى، على سبيل المثال، أمضينا على الأقلّ خمس دقائق نتحدث عن بيغي مورفي، رئيس قسم القائمة في المكتبة المركزيّة، وكان بوتاش يعرف كل شيء عن الطريقة التي تسلّلتْ بها مورفي إلى قفص الكتب القذرة في أول منصب شغلته في المكتبة وقرأتها.

إنَّ بهو مركز إدارة أوفردرايف ضخم ومرتفع السقف. وثمة شاشة بعرض عشرة أقدام مربّعة تظهر عليها خريطة العالم تُهيمن على مركز البهو. وبعد كل بضع لحظات، ترتفع فقاعة من موقعٍ ما على الخريطة، تبيِّن اسم المكتبة وعنوان الكتاب الذي تمَّت استعارته تَوّاً. والشاشة مُذهلة. إذا وقفتَ هناك بضع دقائق، فسوف ترى أنَّ شخصاً ما في مكتبة صغيرة في آرل، فرنسا، قام في التو باستعارة كتاب خارجيّاً عنوانه *L'Instant present* من تأليف غيوم موسّو؛ وأنَّ شخصاً في بولدر، كولورادو، قد استعار كتاب «هاري بوتر والطفل الملعون» من تأليف ج.ك. رولينغ؛ وأنّه في نيو مكسيكو، طلب شخص نسخة من كتاب El *cuerpo en que nacei* من تأليف غواديلوبه نيتل. وتشعر كأنكَ تراقب خريطة فِكر العالم في الزمن الحقيقيّ.

قد تكون شركة أوفردرايف مستقبل العالم في مجال الإعارة، لكنَّ الأمر ليس هو نفسه فيما يتعلّق بمستقبل المكتبات. إنَّ المكتبات هي مساحات ماديّة تنتمي إلى مجتمع نتجمَّعُ فيه لكي نتقاسم المعلومات. وليس هناك أي مكان آخر ينطبق عليه هذا الوصف. وربما في المستقبل، سوف تكون شركة أوفردرايف في المكان الذي ستأتي منه كتبنا، وسوف تُصبح المكتبات أشبه بساحات بلداتنا، مكاناً أشبه بالمنزل حين لا تكون في المنزل.

-31-

«إجراء متحضّر داخل قشرة جوز» (2003)
تأليف كين، ميري كاي
سلسلة: سلسلة قشرة الجوز
347.9 K16 2003

«حياة مهنيّة مزدهرة بشهادة ثانويّة: العناية بالصحة، الطب، والعِلم [مصدر إلكترونيّ] (2008)
تأليف بورترفيلد، ديبورا
كتاب إلكتروني.

«الإيدز، اللغز والحلّ» (1984)
تأليف كانتويل، ألان
616.97 C234
«اسأل التراب» (1939)
تأليف فانت، جون
على الرف.

في عام 1991، بعد الحريق بخمسة أعوام، أصبح من الممكن أخيراً تخيّل وقت في المستقبل القريب تعود فيه المكتبة المركزيّة إلى مبنى غودهيو؛ كان الجناح الجديد سيُفتَتَح؛ وتعود الأمور إلى سياقها المعتاد. كان مبنى غوذهيو لا يزال مُقفلاً، لكنَّ فريق الإنشاء كان قد غسل الجدران بدفقٍ

قويّ من الماء، وأزال السخام، وأعاد الأشياء إلى أماكنها. وفي رقعة الأرض المجاورة، حُفِرَتْ حفرة واسعة من أجل إفساح مكان للجناح الجديد. وكان هدير أدوات الإنشاء والرنين الحادّ جرّاء ارتطام الفولاذ بالفولاذ يتردّد صداهما بين أبنية جادة غراند والشارع الخامس وهوب وفلور. وعلى مسافة بضعة أميال، كان مُرمِّمو الوثائق يُكيِّفون الكتب التالفة بالضغط ويُنظِّفونها بالمكنسة الكهربائيّة ويصقلونها ويعتنون بها، ثم أعلنوا أنها إمّا تمَّ إنقاذها أو أنّه لا أمل يُرجى منها. وكان عدد الكتب التي أصبحت جاهزة لتعود إلى الرفوف يزداد. وبدأتْ كتبٌ جديدة، سدَّدت ثمنها حملة إنقاذ الكتب -التي وصلت إلى هدفها بجمع عشرة ملايين دولار- تصل تِباعاً. وفي شهر آذار، ظهر الجناح الجديد. وبدأ العمل على الجزء الداخلي، وعلى الرغم من سياج الإنشاء والشبكة المتصالبة البرتقالية اللون الرخوة لسياج الحماية، كان المكان قد بدأ يكتسب شكل وأبعاد مكتبة. بدأ موظفو المكتبة عمليّة تصنيف المحتويات من الصِفر، مازجين المجموعات الثلاث - الكتب التي خرجتْ سليمة من الحريق، والكتب التي تمَّ إنقاذها، والكتب الجديدة التي تمَّ شراؤها لكي تحلّ محل الأربعمائة ألف التي دُمِّرتْ تماماً.

تقدّمت إجراءات دعوى المدينة ضد هاري بيك، ودعواه المقابلة ضد المدينة -إدلاء بشهادة هنا، واستدعاء إلى المحكمة هناك؛ تصريح من نادل الحيّ الفرنسيّ، ورفع مُحامي المدينة دعوى بشأن الأضرار- ولكن لا شيء كان حاسِماً. وبدل الإسراع في إيجاد حلّ، تلكّأت القضيّة. وأضحت مُربكة أكثر فأكثر. وفي شهادته الأخيرة كان هاري قد غيَّر قصّته مرّة أخرى. وهو الآن يُصرّ على أنّه تناول وجبة إفطار مع الأب ويلكي والأب كلارك قبل أنْ يذهب لعلاج الثؤلول وليس بعد ذلك؛ وقال إنهم كانوا في المطعم عند الساعة العاشرة صباحاً، وليس عند الظهيرة. والأب ويلكي أيضاً غيَّر شهادته قائلاً إنّه كان على موعد مع أحد المرضى عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، وأنَّ المريض تأخَّر في الحضور قليلاً، وأنّ هاري، والأب كلارك غادرا المطعم وذهبا إلى عيادته بُعيد الساعة الحادية عشرة ببضع دقائق.

كان من الصعب الجمع بين هذه المجموعة الجديدة من الوقائع والأوقات. إنَّ أول جرس إنذار انطلقَ في المكتبة انطلقَ عند الساعة العاشرة

واثنتين وخمسين دقيقة قبل الظهيرة، ولكنْ هذا لم يُشِر إلى وقوع حريق حقيقيّ وهو ليس إنذاراً زائفاً حتى الساعة الحادية عشرة وإحدى عشرة دقيقة قبل الظهيرة، عندما اكتشف رجال الإطفاء انبعاث دخان في قسم أدب الرواية. ولذلك، فإنَّ أقرب وقت شعر عنده أي شخص بحدوث حريق كان عند الساعة الحادية عشرة وإحدى عشرة دقيقة قبل الظهيرة. ووِفقاً لسلسلة الأوقات الجديدة التي حدّدها هاري، فإنَّ ذِكر النادل للحريق قد ظهر بعد لحظات من انطلاق جرس الإنذار. وهذا أمر مستحيل إلّا إذا كان النادل يُصغي إلى جهاز الشرطة اللاسلكي؛ وإلّا ما كان يمكن أنْ يسمع ذلك التقرير المُبكِّر عن وقوع حريق. وفيما يتعلَّق بذنب هاري أو براءته، فإنَّ تغيير التوقيت لا يهمّ. كانت حجّة الغياب هي نفسها -إنها ادّعاء هاري بأنّه كان بمرافقة ويلكي وكلارك عندما اندلع الحريق. والمهم هو أنّ التغييرات التي يُجريها هاري جعلت حقيقة ذلك اليوم تبدو غير ثابتة كقطرة من الزيت على سطح ماء. وكلما تشكّلتْ منظومة متناسقة، تتشوّه في الحال تقريباً وتضيع معالمها، وما تعتقد أنكَ رأيته- دائرة، أو سحابة، أو وجهاً - يتلاشى داخل دوامة ضبابيّة لا شكل لها. وأنا لستُ متأكّدة من سبب اعتقاد هاري أنَّ تغيير هذا التوقيت يُساعد في حِجّة غيابه. وبدل ذلك، دعمَ إحساسي بأنَّ كذبه كان حافزاً لا إراديّاً، وتلقائيّاً إلى درجة أنّه لم يكن يُقدِّر قيمة الكذب قبل أنْ يخرج من فمه.

لقد بدا، بصورة ما، أنَّ هاري ينفصل عن القضيّة. كانت استجاباته لطلبات مُحامي المدينة بطيئة وقام ببضع إيماءات خاصّة به، من بينها ادّعاؤه تكاليف طبيّة قال إنّه تكبّدها بعد أنْ جُرِحَ وهو في السجن، لكنّه لم يُجِب فيكتوريا تشاني عندما طلبَتْ منه إعطاء أسماء الأطباء الذين قاموا بمعالجته وإيصالات بالفواتير التي سدَّدها. وطلبتْ تشاني من مُحامي هاري أنْ يُتابع طلبها، فقال إنّه سوف يتحقّق من الأمر. ومرّتْ شهور، ولم تتلقَّ تشاني جواباً ولا طلباً لمنحه المزيد من الوقت لجمع المعلومات.

ربما كان تركيز هاري مُشتّتاً. كان لديه عشيق جديد - «رجل لطيف اسمه ألان» حسب تعبير ديبرا بيك. قالتْ إنها لا تتذكّر كنيته، لكنها تعلم أنّه كان ثريّاً وأنَّ هاري ما كان يمكن أنْ يؤذي أحداً من أجل المال. وأبقى هاري

الأمر سراً عن والديه. وانتقل هاري إلى منزل ألان بالقرب من بالم سبرينغز. لابد أنَّ هاري ارتاح كثيراً لعثوره على شخص أحبَّه، ولمغادرته شقّته البالية في غرب هوليوود والابتعاد عن جماعة رفاق الغرفة. ربما هذا هو سبب اهتمامه بالتخلّي عن الدعوى؛ ربما لم يعُد يرغب في التفكير في الحريق. لابد أنّه، وهو في منزله المُريح، مع عشيقه اللطيف، وسط الاسترخاء المُشمِس في بالم سبرينغز، فقد شهيته لحياة التصارع والتقاتل في هوليوود. لقد كان شخصاً مُتصدّعاً، يُدمِّر ذاته، ويتخبّط في الحياة، ولكن ربما كان قد بدأ يشعر بشيءٍ شبيه بالرضا.

أخبر أصدقاءه بأنّه يريد عملاً يمكن التعويل عليه أكثر من التمثيل. وبعد أنْ قلَّبَ التفكير في خياراته قرَّر أنْ يُصبح مُساعداً في مجال الطب. إنَّ خياره يبدو أشبه برحيل ذي مغزى، لكنّه قدَّمَ له الكثير مما كان يصبو إليه. كان في استطاعته أنْ يُسعد الناس بعمله ذاك؛ وكان يمكن أنْ يشعر بأنّه بطل. وباشر بالانخراط ببرنامج تدريب في مدرسة محليّة – لم تتذكّر ديبرا اسمها. قالتْ إنَّ هاري أحبَّ تلك المدرسة، ولكن اشتكى من شيء واحد. قال إنّه عندما كان الطلّاب يتعلّمون سحب عيّنة من الدم، كان كلُّ منهم يتدرّب في ذلك على رفيقه، مُستخدمين في ذلك الحقن نفسها مراراً وتكراراً.

***

في شهر تموز من عام 1991، اجتمعت الأطراف المتورطة في الدعوى المدنيّة في مؤتمر خاص. لم تكن فيكتوريا تشاني قد قابلت هاري منذ أشهر، وعندما وصل إلى مكتبها، ذُهِلَتْ. فبالمُقارنة مع آخر مُقابلة لها معه، بدا منكمشاً، ناضباً؛ كانت وسامته القويّة، المُشرِقة قد زالتْ. حتى شعر رأسه الغزير الجميل أصبحَ خفيفاً، وشحبَ لون بشرته وتحوّل إلى الصّفرة. وأعلنَ مُحاميه أنّه دعا إلى اجتماع لكي يطلب فيه التعجيل في المحاكمة. وقدَّم طبيب هاري شهادة خطيّة تفيد بأنَّ هاري يُعاني من التهاب حادّ وتضخّم في الكبد وفي الطحال، «وهناك شكٌّ طبّيّ شديد في أنّ يعيش أكثر من ستة أشهر»

قبل ذلك بعشرة أعوام، في عام 1981، أصدر طبيب مختص في المناعة

من جامعة كاليفورنيا، في لوس أنجلوس، اسمه مايكل غوتليب، تقريراً يصِف فيه ظاهرة سمّاها أعراض نقص المناعة المُكتَسَبة؛ واعتُبِرَتْ دراسة غوتليب من بين أوائل الوثائق عن مرض الإيدز. كان تصاعد المرض في لوس أنجلوس مُدمِّراً، وحشيّاً ومنتشراً. وظهوره في المدينة كان جليّاً جداً. وفي عام 1985، اعترفَ الممثّل روك هدسن بأنّه أُصيبَ بالمرض؛ وفي العام نفسه، خرجت هوليوود للمرة الأولى في مسيرة دعماً لمرضى الإيدز، جلبَتْ آلاف المُشتركين. وبعد أنْ طلبَ هاري الإسراع في المُحاكمة ببضعة أشهر فقط، أعلنَ ماجيك جونسون بأنه يحمل فيروس HIV وترك فريق لوس أنجلوس ليكرز.

لطالما انزعجتْ عائلة هاري من فكرة كونه مثليّاً، وكانت ستنزعج من احتمال إصابته بالمرض بسبب علاقاته الجنسيّة المثليّة. وكان درس التقنية الطبيّة يُعتَبَر فرصة مناسِبة لتبرير إصابته بالمرض. وأخبرتني ديبرا بأنَّ الأمر قد انتهى بطلاب صف هاري إلى إصابتهم بـ HIV /AIDS بسبب اشتراكهم في استعمال الحقن القذرة نفسها. أولاً، قالتْ لي إنَّ هاري كان الوحيد في الصف الذي مات؛ وفي مناسبة أخرى قالتْ إنَّ طلاب الصف كلهم ماتوا. ومن المُحتَمَل أنْ يُصاب عمّال العناية الطبيّة بعدوى HIV مُصادفة، لكنَّ ذلك أمر نادر الحدوث. ووِفقاً لِما وردَ في المقالة التي نُشِرَتْ في صحيفة طبيّة في عام 2007، فإنَّ العدد الإجمالي في العالم أجمع كان 98 حالة مؤكَّدة و194 حالة مُحتَمَلة من الإصابات بالمُصادفة بين عناصِر العاملين في العناية الصحيّة. فلو أنَّ خمسة طلاب أو عشرة أُصيبوا كلهم بعدوى الـ HIV / AIDS في برنامج المُساعدة الطبيّة في لوس أنجلوس -خاصّة إذا أُصيبوا بسبب الممارسات غير الصحيّة في البرنامج- لغطَّتْ وسائل الإعلام الخبر. لكنني لم أُصادف أي ذِكر في أي مكان لتلك الحادثة، وحتى هذا اليوم، لا أعثر على أي شيء يوحي بأنَّ القصّة كانت صحيحة. وعندما سألتُ ديمتري هيوتيليس عن ذلك، ضحك وقال «تقصدين قصة الحقنة تلك؟ لطالما كنتُ أعلم أنها مُلفّقة». والمُفارقة هي أنه عندما كان هيوتيليس وهاري لا يزالان يعيشان معاً، عاد هاري ذات يوم إلى المنزل وسأل هيوتيليس إنْ كان قد سمعَ عن انتشار مرض جديد – شيء أشبه بسرطان يظهر بين المثليين. لم يُصدِّقه

هيوتيليس، وقال لي هيوتيليس «لقد بدا شيئاً جنونيّاً، ثم إنَّ هاري كان كذّاباً كبيراً. وحسبتُ أنّها كانت مجرد واحدة من قصصه الحمقاء»

وتفاقم وضع هاري، أصبح أشدّ ضعفاً وضآلة في الحجم، واشتدّ عليه المرض. وبعد اجتماع فيكتوريا تشاني، قدَّمَ ليونارد مارتينت التماساً من المحكمة بتقريب موعد المُحاكمة. ووافق القاضي، وحدَّد موعد المحاكمة في الثاني عشر من شهر أيلول، عام 1991. وتمنّى مارتينت ألّا تجري أيّة مُحاكمة أصلاً وألّا تُسقِط المدينة دعواها وتلجأ إلى التسوية. وكان مُصيباً في تخمينه أنَّ مُحامي المدينة لم يُعجبهم ما سينتج عن مُقاضاة مدينة لوس أنجلوس لرجلٍ يحتضر متأثّراً بمرض الإيدز. لقد كانت دعوى المدينة رمزيّة في المقام الأولّ. وهاري كان مُفلِساً ولن يتمكّن من تسديد تكاليف أي جزء من الأضرار. وتابعتْ تشاني -مع رجال الإطفاء- القضيّة لكي تُقدِّم مِثالاً عن المسؤوليّة، خاصّة بعد الشعور بالإحباط بعد إلغاء المُحاكمة بخصوص التُهَم الإجراميّة. ولكنْ حتى في المحكمة المدنيّة، حيث معايير البرهان أكثر مرونة، لا شيء كان يضمن أنْ تربح المدينة الدعوى. فلم يكن هناك أي دليل دامغ على وجود هاري في المكتبة في ذلك اليوم، ولا شيء يربطه مباشرة بالحريق. وبالنظر إلى مدى تفاقم مَرَضِه، كان يمكن للمدينة أنْ تبدو حقوداً وقاسية.

وفي مؤتمرٍ عُقِدَ قبل بدء المُحاكمة ببضعة أيام، قدَّمت المدينة عَرضاً مُفاجِئاً، عرضَتْ على هاري مبلغ خمسة وثلاثين ألف دولار مقابل التوصّل إلى تسوية. كان المبلغ زهيداً إذا ما قورن بمبلغ الـ 15 مليون دولار الذي طلبه هاري، وزهيداً أيضاً مقارنة بأنواع التسويات التي تُجريها المدينة في المعتاد. ومع ذلك، قبِلَ هاري العرض. كانت تلك بالنسبة إلى المدينة صفقة كبيرة. كان يمكن لإجراء المحاكمة، بنتيجتها غير المضمونة، أنْ تكلِّف المدينة آلافاً أخرى. وسحبت هيئة ميزانيّة المدينة شيكاً بمبلغ خمسة وثلاثين ألفاً، من أجل تسوية قضيّة حريق مكتبة لوس أنجلوس -على الأقلّ فيما يتعلّق باستحقاق هاري اللوم- في الثاني من تشرين الأول، عام 1991.

أمضى هاري أيّامه الأخيرة في بالم سبرينغز. وبعد اجتماعه الأخير بفكتوريا تشاني، لا يمكن القول إنّه خرج حقاً من منزله مرة أخرى بعد

ذلك، مُعتمداً في أثناء ذلك على عناية ألان له وتسديد تكاليف راحته. في أول الأمر بدا مبلغ التسوية كضربة حظ غير متوقّعة، لكنَّ تكاليف المعالجة الطبيّة التهمته كلّه بأقصى سرعة؛ والعلاج الأساسي للـ HIV /AIDS كلَّف ما يُقارب خمسة آلاف دولار في الشهر. كان مُصاباً بالفشل الكلويّ، وبالتهاب الكبد، وبتضخم الطحال، وتبعَ ذلك نتائج المرض الأشد فظاعة. ومؤخّراً أخبرتني أخته ديبرا، «لقد كنا متقاربَين كثيراً، كنا أشبه بالتوأم. وفي اليوم الذي سبق وفاته، كنتُ مُشوّشة. كنتُ أعلم. أخبرتُ طفلي بأننا لن نرى الخال هاري بيك حيّاً بعد الآن. كان ذلك مجرد تكهّن». وفي الثالث عشر من شهر نيسان، عام 1993، توفي هاري بيك في بالم سبرينغز، كاليفورنيا، متأثراً باختلاطات ناتجة عن الـ HIV /AIDS. أُقيمت جنازة خاصّة في كنيسة مقاطعة هوب، وهي مبنى جميل ببرج صغير، تقع في شارعٍ هادئ في بولدوين بارك، على مسافة أربعة عشر ميلاً إلى الشمال من سانتا فِه سبرينغز، وهناك دُفِنَ هاري.

-32-

«نهاية القصّة: مسرحيّة من فصل واحد» (1954)
تأليف توماس، ريتشارد
822 T461

«نهاية القصّة» (2004)
تأليف ديفيز، ليديا
كتاب إلكتروني

«نهاية القصّة» (2012)
تأليف هيكر، ليليانا
سلسلة: سلسلة بيبليواسيس للترجمة العالميّة

«هذه هي نهاية القصّة» (2017)
تأليف فورتشن، يان
كتاب إلكتروني

الأول من شهر كانون الثاني هو يوم معرض الكأس الذهبيّة في باسادينا. ومكتبة لوس أنجلوس العامة لها دائماً منصّة للعرض في المعرض. وفي كل عام يطرح المعرض موضوعاً. وفي عام 1993، كان عنوان الموضوع «التسلية في المعرض»، وكان رمز منصّة المكتبة دودة كتب تقرأ صحيفة. وأحد الراكبين إلى جوار دودة الكتب كانت أمينة مكتبة المدينة إليزابيث

مارتينيث، التي عُيِّنَتْ في منصبها بعد تقاعُد وايْمان جونز في عام 1990. والصحيفة التي كانت دودة الكتب تقرأ فيها تبيِّن عنواناً رئيسياً يقول «المكتبة المركزيّة تفتح أبوابها في الثالث من شهر تشرين الأول، عام 1993. وقال روبرت ريغان، الذي كان مدير المعلومات العامّة للمكتبة بين عاميّ 1980 و1998، إنَّ الإعلان عن ذلك الموعد في معرض الكأس الذهبيّة قد يكون تاريخاً مغوياً، لكنّه اعتقد أنهم سوف ينجحون.

كان لا يزال هناك الكثير من العمل يجب إنجازه. ومع اقتراب الموعد المُحدَّد، أقامت المكتبة حفلات بمناسبة ترتيب الكتب على الرفوف، وقام مئات من المتطوعين بتقديم يد المُساعدة بفكّ حزم مليونَي كتاب ووضْعها على الرفوف. والحفلات كانت أقرب شَبَهاً باحتشاد المتطوعين بعد انتهاء الحريق، ولكن فيما يتعلّق بالمزاج، كان العكس تماماً، كان مناسبةً للتفاؤل والتجديد. وقالتْ إحدى المتطوعات لمُراسِلٍ سألها عن سبب تطوّعها، «أنا أحبّ التعامل مع الكتب». ثم أضافت على سبيل الشرح، «في هذا اليوم كان هناك الكثير من الأطفال الصِغار المنبوذين الذين لا يفعلون أيّ شيء. لقد أبطأوا عملية ترتيب الكتب على الرفوف»، وسكتت قليلاً ثم أضافتْ، «لكنَّ العمل من أجل المُساعدة على فتح أبواب المكتبة يُرضيني شخصيّاً». وخطَّطت الإدارة، بالتعاون مع شركة آركو، لإقامة حفل افتتاح مُبهر، وتقديم راقصين شعبيين من البرازيل، وقارعي طبول من اليابان، ورقصات فلامنكو، ومغنين من غرب إفريقيا، وموسيقيين من كوريا، وعروضاً تقدّمها فرقة «*المُصارعين الأميركيين*»، مع ظهور الرجل العنكبوت، والبطة دافي، والأرنب بغس باني.

لا أحد كان يعرف بالضبط عدد الناس الذين سيحضرون لمشاهدة إعادة افتتاح المكتبة بعد إغلاق استمرَّ ستة أعوام ونصف العام. ربما تعوّدت المدينة على وضع المكتبة المتهالك، المقحَمة في وضعها المُهمَل المؤقَّت؛ وربما أُعجوبة مبنى غوذهيو، «القلعة السِحريّة في أرضٍ خياليّة» التي جعلت الناس ينتشون عندما افتُتِحَتْ في عام 1926، تلاشتْ إلى الأبد. ولكن في يوم الاحتفال بالافتتاح، كان جليّاً أنَّ المدينة بأكملها أرادتْ أنْ ترى المكتبة. وقام خمسون ألفاً من الناس على الأقلّ بالرقص مع الديناصور بارني

وبالتجوّل في القاعة الخارجيّة المستديرة واستقلال السلالم المُتحركة إلى أسفل جناح توم برادلي الجديد، وتمَّ تسجيل أكثر من عشرة آلاف شخص من أجل الحصول على بطاقات اشتراك في المكتبة للمرّة الأولى. واستمتع الجميع بالعروض المُسلّية المُبهِرة. ولكن كما قال لي روبرت ريغان مؤخّراً، في ذلك اليوم من عام 1993، «كانت المكتبة هي بطلة العرض»

***

لم تكن نهاية قضيّة هاري بيك واضحة؛ في الحقيقة، كانت أقرب إلى الإلغاء منها إلى الخاتمة. فهي لم تحل مسألة الشخص الذي أضرم نار الحريق، أو ما إذا كان أي شخص قد قام بإشعال النار. ولا قدَّمتْ حتى نسخة ثابتة ختاميّة للطريقة التي أمضى بها هاري بيك يوم التاسع والعشرين من نيسان، عام 1986. ولم تُجب عن سؤال ما إذا كانت يدٌ إنسانيّة تسبّبت بقدح الشرارة أم لا. وراجعتُ ما اعتقدتُ أنّه حدث بالفعل مرّات لا حصر لها، وخاصّة ما إذا كان هاري متورّطاً. وفي كل مرّة كنتُ أعتقد أنني وضعتُ يدي على النسخة التي أثقُ بها من القصّة، كان يبرز ما يُحدِثُ ثغرة فيها، وأعود إلى حيث بدأت. وفي النهاية، لم تبقَ لديّ فكرة عمّا هو صحيح أو حتى ما قرّرتُ أنْ أصدّقه. وختاماً تقبّلت الغموض. كنتُ متيقّنة من أنّه في يوم من الأيام، عانت مكتبة لوس أنجلوس المركزيّة من حريق فظيع، وأنَّ شاباً متخبّطاً تورّطَ فيه. وما عدا ذلك كان كل شيء غامضاً، كحال الحياة دائماً. سوف تبقى قصّة بلا نهاية، كنغمة غير مكتملة في نهاية أغنية – ذلك الصوت الفريد، المتنافِر، المفتوح الذي يؤلِمكَ سماع المزيد منه.

***

وذات يوم ذهبتُ إلى المكتبة في وقتٍ متأخر، بُعيد موعد الإغلاق، عندما كان ضوء الغسق قد بدأ ينتشر وأصبح المكان ناعِساً ويرين عليه السكون. إنَّ المكتبة المركزيّة وجناح برادلي هما من الاتّساع بحيث إنّه عندما يتلاشى الحشد، تبدو المكتبة مكاناً خاصّاً، ويكاد يكون سريّاً، وتُغلّفك المساحة إلى درجة أنكَ لا تشعر بالعالم الخارجي. وهبطتُ إلى قسم التاريخ لأقابل غلين كريسون وأعرف منه سير عمليّة فهرسة تشكيلة فيذرز للخرائط. ثم

رحتُ أنتقل من قسم إلى آخر، فقط أتمشّى بينها، واجتزتُ القاعة المستديرة الخارجيّة الفارغة والجميلة، وكنتُ كلّما ولجتها تتولاني الدهشة الفخمة، ومن ثم ارتقيتُ الدَرَج الخلفيّ العريض، حيث حدَّقَ إليّ تمثال الحضارة وأنا أشقّ طريقي. كان الصمتُ مُهدهِداً أكثر منه رصيناً. والمكتبة هي مكان صالح لكي يُخفِّف من وطأة العزلة؛ هي مكان تشعر فيه بأنكَ جزء من حديثٍ جرى على مدى مئات ومئات من السنين حتى وأنتَ وحدك. المكتبة هي موقعٌ هامس. ولستَ في حاجة إلى أنْ تتناول كتاباً عن الرف لكي تعرف أنَّ هناك صوتاً في داخله ينتظر أنْ يتحدث معك، وخلفَ هذا يكمن شخص يؤمن بقوة بأنّه أو بأنها إذا تحدثتْ، فثمة شخص آخر سوف يُصغي. هذا التوكيد لطالما أذهلني. حتى أشد الكتب غرابة، وفرادة، كُتِبَ بذلك النوع من الشجاعة المجنونة - بإيمان الكاتب بأنَّ هناك شخصاً ما سوف يجد أو تجد أنَّ كتابه هام ويستحق القراءة. وصُدِمتُ بمدى ثراء وحُمق وشجاعة ذلك الإيمان، ومدى ضرورة جمع تلك الكتب والوثائق والمُحافظة عليها، ومدى ما ينطوي عليه ذلك من أمل. إنّه يُعلن أنَّ تلك القصص كلها لها أهميتها، وكذلك الأمر مع كل مجهود بُذِلَ من أجل إيجاد شيءٍ يربط فيما بيننا، ويربطنا بماضينا وبما سيأتي لاحقاً. لقد أدركتُ أنني طوال الوقت، وأنا أتعرَّف على أهميّة المكتبة، كنتُ أُقنِعُ نفسي بأنَّ أملي في أنْ أؤلِّف حكاية تدوم، لأبدع شيئاً يبقى، أنْ أكون حيّة بصورة ما مادام هناك شخص يقرأ كتبي، هو ما حثّني على الاستمرار، قصّة بعد قصّة؛ إنّه مسيرة حياتي، وشغفي، وسبيلي لأفهم نفسي. فكّرتُ في أمي، التي ماتت وأنا في منتصف طريقي لأنهي هذا الكتاب، وكنتُ متيقّنة من أنها كانت ستسعد كثيراً عندما تراني في المكتبة، وكنتُ قادرة على استخدام هذه الفكرة لأنتقل خلال جزءٍ من الثانية إلى زمنٍ كنتُ فيه صغيرة وكانت هي في حينه يقظة ورقيقة، ولا يزال أمامها سنين عديدة، وكانت تُشرقُ في وجهي وأنا أتقدَّم بخُطى قصيرة نحو طاولة مكتب الإعارة الخارجيّة حاملة ملء ذراعي من الكتب. كنتُ متيقّنة من أننا لو أتينا إلى هنا معاً، إلى هذا المكان الساحر بكل ما فيه من جداريات جصّيّة وتماثيل وكل قصص العالم في حوزتنا، لذكّرتني الآن بأنه لو كان بيدها أنْ تختار مهنة في العالم، لأصبحتْ أمينة مكتبة.

تلفّتُ حولي في المكان ونظرتُ إلى الأشخاص القليلين المنتشرين هنا وهناك. كان بعضهم يميل فوق الكتب، والبعض الآخر يكتفي بالجلوس، والاختلاء بنفسه في مكانٍ عام، وشعرتُ وأنا هناك بالبهجة. لهذا أردتُ أنْ أؤلّف هذا الكتاب، لكي أحكي حكاية المكان الذي أحببتُ ولا يخصّني لكنني أشعر بأنّه ملكي، أحكي عن روعة ذلك الشعور واستثنائيته. إنَّ كل أخطاء العالم تبدو أنها تُصحَّح بوعد المكتبة الأخرس والبسيط الذي يقول: ها أنذا، احكي لي قصّتك من فضلك؛ ها هي قصّتي، فاصغي أرجوكِ.

بدأ حرّاس الأمن يرتّبون الكراسي ويُقوّمون الطاولات وهم يُنادون، «بقيَ من الزمن أربع دقائق! أربع دقائق لنُغلِق الأبـواب!». أطبَقنا نحن القليلين ممَّن تبقّوا كتبنا وجمعنا أغراضنا معاً وتوجّهنا إلى الطابق العِلويّ. وفي طابور الاستعارة الخارجيّة، بدأ أثقل الرجال وزناً متأبّطاً ثلاثة كتب يؤدي رقصته المُهتزّة، ويتمايل بوِركيه، ويتجمَّع الناس من حوله شاقّين طريقهم بعناية نحو باب الخروج.

شكر وامتنان

لقد اعتمد هذا الكتاب على صبر وكرم حشد من الأشخاص الذين منحوني وقتهم وقصصهم. وشكري العظيم إلى طاقم العمل في المكتبة المركزيّة الذين كانوا غاية في الترحيب وفي تقديم المُساعدة طوال السنين العديدة التي أمضيتها في التجوّل في الأروقة؛ وأقدم احترامي الخاصّ لغلين كريسون، وجون زابو، وإيفا ميثْنيك، وبيتر بيرسيك، الذين لم يُبدوا أي اعتراض على الإجابة عن كل سؤال طرحته عليهم. شكراً لكِ، يا إيما روبرتس، لأنكِ أخرجتِ كل تلك الصناديق الممتلئة بالمواد. أنا غاية في الامتنان للعديد من أفراد طاقم العمل السابقين الذين تحدّثوا معي، ومن بينهم هيلين موتشذْلفر، وإليزابيث تومان، وسوزان كينت، وفونتين هولمز، وجوانا وروبرت ريغان والمرحوم وايمان جونز. لقد أيّدتْ مؤسسة المكتبة في لوس أنجلوس، وعلى وجه الخصوص كين بريتشر ولويز ستاينمان، أيّدوا المشروع منذ البداية، وأنا شديدة الامتنان لذلك. لقد تلقّيتُ مُساعدة من أعضاء سابقين وحاضرين في مركز إطفاء لوس أنجلوس، وعلى وجه الخصوص امرأة عانت طويلاً اسمها جيسيكا في قسم السجلات سايرت مناشداتي أعمق قليلاً وعثرت على مواد قيل لي إنها اختفتْ منذ أمدٍ بعيد.

وأُدين بشكر خاص إلى عائلة هاري بيك، وعلى وجه الخصوص لأختيه، ديبرا وبريندا. وشكري، أيضاً، إلى ديمتري هيوليتس، الذي قاسمني الكثير من ذكرياته مع هاري وأمدّني بصورة شخصيّة موجودة في هذا الكتاب.

إنَّ مؤسّسة سولومن ر. غوغنهايم، ومستعمرة ماكداويل، وشركة يادو،

ومركز بناف للفنون والإبداع ساعدت في إخراج هذا المشروع إلى الوجود. وأنا أشعر بأنني محظوظة جداً لأنني حظيتُ بدعمها.

وشكري الجمّ لآشلي فان بورين من أجل قراءاتها الذكيّة التي تدل على بصيرة نافذة؛ ومن أجل دعمها طوال الوقت؛ ومن أجل إحضار الصور الفوتوغرافيّة؛ ولأنها صديقة عزيزة. وجولي تيت لأدائها العظيم في التحقّق من الوقائع خلال حيّز ضيّق من الوقت؛ فشكراً لك، يا جولي!

كل أصدقائي أحجموا عن الإلحاح في سؤالي عن موعد الانتهاء من إنجاز الكتاب، ولهذا أكنّ لهم امتناناً لا يموت. وأدين بصورة خاصّة، من أجل تقديمهم الدعم والتسليّة المحسوبة، إلى إريكا ستاينبرغ، وكريستي كالاهان، وسالي سامبسون، وجانيت تاشجيان، وجطيف كونتي، وديبرا أورلين، ولوري ساندل، وكارين بروكز، وسارا تاير، وكل فريقي من الأصدقاء، بالإضافة إلى آخرين؛ أنا أحبكم.

شكراً لكِ، كيمبرلي بيرنز، لحِكمتكِ وحماستك.

وأنتَ ياريتشارد باين، وكيلي الدائم: أنت الأعظم.

وأنت يا تشيب ماغراث، يا أفضل رئيس، شكراً لك على القراءة عندما كان هذا فوضى شاملة وعلى إعطائي نصيحة مثاليّة وأكبر تشجيع.

شكراً لك، يا ديفيد ريمني كويا فيرجينيا كانون، لمنحي إجازة من صحيفة *ذا نيوريوركر* لكي أعمل في هذا المشروع. لا يمكن لأحد أنْ يطلب مأوى حِرفياً أفضل أو مُحرّرين أفضل؛ وعندما أدركُ أنني أعمل معك، لا أكفّ عن قرص نفسي لكي أتأكّد من أنني لا أحلم.

إنني أعمل مع أشد مجموعة من الناس روعة في دار نشر سايمون أند تشوستر. وشكر هائل لكِ يا كارولين رايدي، يا مَنْ جعلتِ هذا الأمر كلّه ممكناً؛ ولريتشارد رورير، الناشر المُساعد؛ ولدانا تروكر، المُسوِّقة البارعة؛ ولجوليانا هوبنر، التي تعرف كيف تنفِّذ كل شيء؛ ولكريستن ليماير ولليزا إروين ولبيث توماس ولباتريسيا كالاهان، اللواتي يعملن كما السِحر من خلف الكواليس؛ ولتمارا أريلانو، التي أنجزت كل الأشياء الهامّة؛ ولجاكي سيو وللورين بيتر-كولير ولكارلي لومان، اللتين جعلتا هذا الكتاب غاية في الجمال.

وشكراً لك، يا آنْ بيرس! أنا غاية في السعادة لأنني أُنجِزُ كتاباً آخر بالتعاون معك! ولجوفي فيراري-أدلر -المُحرِّرة الخارقة، وصوت الحِكمة، وصاحبة أشدّ الأقلام حِدَّة- لا أجد الكلام المناسِب ليصفكِ...! ويا جون كارب، ها نحن نعمل على الكتاب رقم خمسة! أنا محظوظة جداً لأنني أعمل معك. شكراً لكِ، شكراً لك على سنوات الصداقة تلك كلها، وعلى الدعم، والإلهام.

من المُبتذل القول «كان يمكن أنْ أُنجِز هذا الكتاب من دون...» ولكن في حالة زوجي، جون غيليسبي، يتصادفَ أنّ هذا القول صحيح. إنّه ببساطة مُدهش. إنّه يُساعدني في الخوضِ في كمٍّ هائل من مواد البحث – وعلى الرغم من أنني أكاد لا أستطيع أنْ أقرأ خطّ يده، فمازلتُ أبحثُ في تلك السجلات إذا لم يكن قد قام هو بذلك. إنّه يقرأ كل كلمة أكتب -مرّات عديدة- ويُقدِّم اقتراحات تحريريّة بارعة ونصيحة ويدفعني كلما بدا أنَّ مهمّة تأليف هذا الكتاب تُصيبني بالإحباط الشديد. ومنحني، أكثر من ذلك كلّه، الدعم والحب طوال الوقت، وأنا ممتنّة بكل حبّ وبعمق لهذا كلّه.

لابني، أوستن، الذي قادني خلال تأليفي هذه القصّة وتحمّلني وأنا أعمل على مدى ليالٍ طويلة وعُطلٍ أسبوعيّة حين كان في وسعنا أنْ نلعب معاً لعبة الفيديو فورتنايت، أقول أحبّك.

وأنتِ يا أمي، لقد ألَّفتُ هذا الكتاب من أجلك.

لوس أنجلوس، كاليفورنيا

أيار عام 2018

ملاحظات ومصادر

إنَّ قصّة مكتبة لوس أنجلوس العامّة وحريق عام 1986 تطلّبا سنين من البحث وعدداً كبيراً من المقابلات التي أُجريَتْ مع أفراد من المكتبة من الماضي والحاضر، وغوصاً عميقاً في أرشيف مركز الإطفاء وفي سجلات محكمة مدينة لوس أنجلوس، والكثير من البحث في صناديق عفنة تضمّ بعض المواد أُخفيَت في غرفة الكتب السريّة في المكتبة. هناك عثرتُ على مجموعة نفيسة من المعلومات، بما فيها قُصاصات من صُحف، عن المكتبة يعود عهدها إلى حقبة العشرينيات؛ ولائحة من كتب من حقبة الثلاثينيات؛ وأدوات متنوعة من كل حقبة؛ وأشياء مختلفة لا حصر لها، ومُذهلة خلّفها مئات أمناء المكتبات الذين مرّوا على المكتبة المركزيّة في وقتٍ من الأوقات من مسيرتهم المهنيّة. وهذه المواد كانت أساسيّة لتأليف هذا الكتاب. وعثرتُ أيضاً على كمٍ هائل من المواد القيّمة في الكتب العديدة والأوراق المطبوعة عن كاليفورنيا وعن تاريخ المكتبة[1].



1- هنا تورِد الكاتبة لائحة بمصادر وكتب وأطروحات رأينا أنها لا تهم القارئ العربي في شيء فتم حذفها.

في روايتها «كتاب من المكتبة العامة» تتبع سوزان أورلين قصة الحريق الغامض الذي أحرق 400000 كتاب بينما يتتبع أيضاً حب أورليان للمكتبات، من الرحلات مع والدتها إلى اصطحاب ابنها. على طول الطريق، تتحدث عن التاريخ الملوّن بشكل غير متوقع ومستقبل مكتبة لوس أنجلوس العامة «كان اهتمامي الأول هو كتابة كتاب عن الحياة اليومية لمكتبة مدينة كبيرة». قالت أثناء الغداء بعد أن قمنا بزيارة المكتبة معاً: «لقد أحببت فكرة القيام بذلك في لوس أنجلوس، بسبب هذه الفكرة المتناقضة المتمثلة في أن الناس لا يربطون المكتبات بلوس أنجلوس، مما جعلها ممتعة نوعاً ما». تصف أورلين الحريق بمذاق روائي، وتنقل للقرّاء رعب النار وكيف كانت تتوهج بغضب، وتغذي نفسها كتاباً تلو الآخر. «كانت ألسنة اللهب نفسها غير عادية ولا تُنسى» تنتقل أورليان بسلاسة بين التعامل مع الحريق وعواقبه، وحياة المكتبة المقامة اليوم، وتأسيسها والتاريخ اللاحق. تصف صحيفة الغارديان رواية أورلين بأنها رسالة حب بلا خجل لنظام المكتبات العامة.



سوزان أورلين روائية وصحفية أمريكية، ولدت عام 1955 في ولاية أوهايو، فازت بجائزة أفضل كاتبة لأدب الرحلات عام 2007، حاصلة على الدكتوراه من جامعة هارفرد في العلوم الإنسانية... تحولت العديد من رواياتها إلى أفلام سينمائية... ترشّح الفيلم المعدّ عن روايتها «لص الأوركيد» لجائزة الأوسكار، وقد أدّت الممثلة ميريل ستريب دور سوزان أورلين في الفيلم... قالت إنها «طالما حلمت بأن تكون كاتبة»... توصف بأنها كنز وطني لأمريكا ... تحتل رواياتها قائمة الكتب الأكثر مبيعاً.